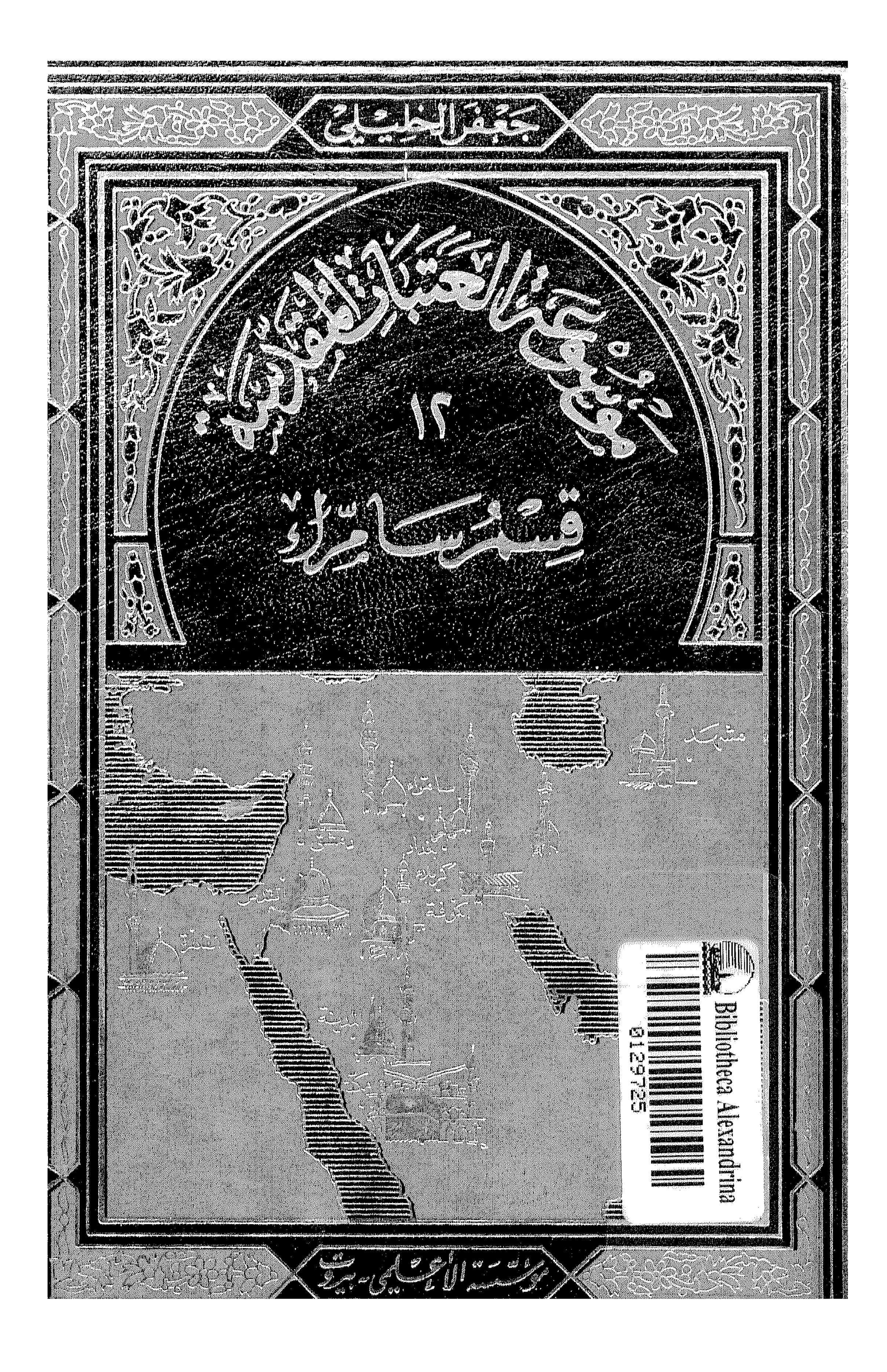

جعفر الخليلي
موسوعة العتبات المقدسة
١٢
قسم سامراء
مشهد
مؤسسة الأعلمي - بيروت







موسوعة العتبات المقدسة

قسم سامراء ـ ١٢



موسوعة العتبات المقدسة

١٢

الجزء الأول - من

قسم سامراء

تأليف

جعفر الخليلي

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب: ٧١٢٠

سامرا قديماً

بحث يتناول منطقة مدينة سامرا وما يحاذيها
ويجاورها من المواقع التاريخية الى حين تمصيرها

كتبـــه

الدكتور مصطفى جواد

خريج جامعة السوربون بباريس المتخصص في التاريخ العربي
والأستاذ المتفرغ بجامعة بغداد
وعضو المجمع العلمي العراقي ببغداد والمجمع العلمي العربي بدمشق



سامرّا قديمــــاً

سامرّا اسم آراميّ [1] وهو في أصله مقصور كسائر الأسماء الآرامية بالعراق مثل «كربلا وعكبرا وحَرَوْرا وباعقوبا وبتَمَّارا وتامَرّا» وقد مَدَّ العرب كثيراً من هذه الأسماء الآرامية المقصورة في استعمالهم إياها ، وخصوصاً ذكرها في الشعر إلحاقاً لها بالأسماء العربيّة أو توهماً منهم أنّها عربيّة تجمع بين المدّ والقصر مثل كثير من الأسماء التي انضمت عليها اللغة العربيّة ذات الأصول العربيّة .

رأيت «سامرا» مكتوبة في نسخة تاريخ الطبري المطبوعة بمصر أعني بالألف المقصورة وسيأتي النصّ وهكذا .

ولم يذكر لسترنج المستشرق المشهور العالم المحقق معنى «سامرّا» الآرامية ، ولا مُترجما كتابه إلى العربية [2] في الترجمة ، وإذ كانت الآرامية فرعاً من فروع اللغة السامية الأمّ ، وكان الغالب على سنيها أن تبدل شيئاً في العربيّة جاز أن يكون بين مادة «شمر» العربيّة و «سامرا» الآرامية صلة

---

(١) G. L. Strange « The Lands of the Eastern Caliphate p. 53 Cambrige at the University Press 1930 »

(٢) بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد « ص ٧٦ طبعة مطبعة الرابطة ببغداد سنة ١٩٥٤ ولكنهما ذكراه في مجلة سومر« مج ٨ ح ٢ ص ٢٦٣ سنة ١٩٥٢ » .

لفظية وصلة معنوية ، قال الأصمعي : « التشمير : الارسال من قولهم : شمّرت السفينة ، أرسلتها وشمّرت السهم ، أرسلته » وقال ابن سيده : « شمّر الشيء : أرسله ، وخصّ ابن الأعرابي به السفينة والسهم » وقال أبو عبيدة في التسمير (بالسين) الوارد في الحديث : « وسمعت الأصمعي يقول : أعرفه بالشين وهو الارسال ، قال : وأراه من قول الناس : شمّرت السفينة : أرسلتها ، فحُوّلت الشين إلى السين » [1] . فغير بعيد أن كانت « سامرا » عند الآراميين فرضة كبيرة لارسال السفن في دجلة أو دار صناعة لها ، ولدجلة عندها خليج لا يزال على حاله القديمة يتبطّح فيه الماء عند الزيادة . مع هذا فتفسيري هذا لا يخرج عن عداد الحُسبان وذلك لعُسر تفسير الأسماء الواغلة في قديم الزمان .

وقال الأب أنستاس ماري الكرملّي الطريقه : « لا جرم أن الذي أسس سامرا وبناها هو الخليفة العباسي المعتصم بالله ... أما اسم المدينة فليس من وضع المعتصم نفسه بل هو قديم في التاريخ فقد ذكره المؤرخ الروماني أميانس مرقلينس الشهير الذي ولد سنة ٣٢٠ م وتوفي سنة ٣٩٠ بصورة (سومرا Sumera) ونوّه به زوسيمس المؤرخ اليوناني من أبناء المائة الخامسة للمسيح صاحب التاريخ الروماني بصورة (سوما Souma ويظن أهل النقد من أبناء هذا العصر أن سقط من آخر الاسم حرفان والأصل (سومرا : Soumara وورد في مصنفات السريان (شومرا) بالشين المنقوطة وعرفها ابن العبري باسم السامرة (كذا) وهذه عبارته [2] : فلما جدّوا (أي الناس في زمن بناء

(١) لسان العرب في « شمر » . (٢) لم تكن هذه عبارته الأولى لذكره « السامرة » بل قال قبل ذلك في الصفحة عينها : وفي سنة مائة واربعين لفالغ (بن عابر) فلغت الأرض اي قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح فصار لبني شام وسط المعمورة : فلسطين والشام وأثور وسامر (وفي نسخة أخرى سامرة) وبابل وفارس والحجاز » . ثم قال : « وفي سنة سبعين لأرعو (ابن فالغ) قال الناس بعضهم لبعض : هلموا نضرب لبناً ونحرق آجراً ونبني صرحاً شامخاً في علو السماء ويكون لنا ذكر كيلا نتبدد على وجه الأرض ، فلما جـدوا في ذلك بأرض شنعار وهي —

برج بابل) في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة ، قات نمرود بن كوش راصفي الصرح بصيده (راجع كتابه مختصر الدول ص ١٩ من طبعة اليسوعيّين في بيروت) » . والغلط ظاهر إذ ليست السامرة في بلادنا بل في فلسطين لكن مجانسة اللفظة الواحد للآخر خدعته فقال ما قال ... أما الكلمة فليست بعربية صرفة وإن ذهب الى هذا الرأي كثيرون من المؤرخين والكتبة واللغويين وذلك لعتقها كما أوضحناه وهي عندنا من أصل سامي قديم ويختلف معناها باختلاف تقدير اللفظة المصحفة عنه ، فاذا قلنا : إن أصلها (شامريا) فمعناها (الله يحرس (المدينة) أو بعبارة أخرى المحروسة) ، وان قدّرنا أصلها (شامورا) بامالة الألف الأخيرة فمعناها الحرس أي منزل الحرس أو موطن الحفظة بتقدير حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه وهو كثير الورود في جميع اللغات السامية ، وعليه نعتبر قولهم إن (سامرا) تخفيف سُرَّ من رأى) أو (ساء من رأى) من قبيل الوضع ولهذا لم يقبل أحد من المستشرقين هذا الرأي وعدّوه في منتهى السخف » [١] .

وزعم الأستاذ هرزفيلد أن اسم هذه البلدة قد جاء في الكتابات الآشورية بصورة (سرمارتا Su-Ur-Mar-Ta وأنها كان لها في أيام الفرس شأن كبير في محارباتهم الرومان » [٢] .

أما مدّ « سامرا » وجعلها سامراء فهو محدث أحدثه العرب إجراءاًمنهم لهذا الاسم مجرى الأسماء العربية كما ذكرت آنفاً ، وكانوا يفعلونه حتى مع اعترافهم بأن الاسم غير عربيّ ، قال ياقوت الحموي : « عُكبرا بضمّ أوله وسكون ثانيه وفتح الباء الموحدة ، وقد يمدّ ويقصر ، والظاهر أنه ليس بعربيّ... وقال

= السامرة ، ونمرود بن كوش قات راصفي الصرح بصيده وهو أول ملك قام بأرض بابل » . ولكن الأب كان مستعجلا فنقل النص الثاني وتخطى النص الأول ، والسامرة او سامر التي ذكرها ابن العبري ليست سامرة فلسطين كما ظن الأب بل هي أرض سومر موطن السومريين

(١) مجلة لغة العرب « ٦ : ٧٢١ ، ٧٢٢ » . (٢) بشير فرنسيس وكوركيس عواد في مجلة سومر « مج ٨ ج ٢ ص ٢٦٣ سنة ١٩٥٢ » .

حمزة الاصبهاني : بزرج سابور معرب وزرك شافور وهي المسماة بالسريانية عكبرا »[١] .

وللاستاذ البارع كاظم الدجيلي مقالة جيّدة بعنوان : « آثار سامراء الخالية وسامراء الحالية » قال فيها : « أما اسمها فقد اختلفت الروايات فيه وفي معانيها (كذا) وكلها لا نصيب لها من الحقيقة ، وأصدق لغة رويت في اسمها هو (كذا) سامراء (بفتح السين بعدها ألف يليها ميم مفتوحة وبجانبها راء مثقلة مفتوحة ثم ألف ممدودة وفي الآخر همزة[٢]) . وأما قولهم : إن الرواية الصحيحة هي سُرَّ مَن رأى أو (سامراه) فهذه وغيرها من مخترعات المخيلة ، ومن التأويل التي انتجتها قرائح بعضهم إجابة للعقل الذي يحب الوقوف على أسرار الكون والاكتفاء بما يرضيه . ولو فكروا قليلاً لأقرّوا أن تأويلهم بعيد لقدم ورود الاسم ، ولعله من وضع البابليين أو الآشوريين أو الكلدانيين أو غيرهم من الأمم الخالية[٣] ، فكيف يطلب لها معنى في اللغة العربية[٤] ؟ » .

قلت : قد ذكرت رُجحان المقصور « سامرا » على الممدود « سامراء » في كلام سابق لهذا ، وبينت أسباب الرجحان ، وأضيف هنا أن مدّ الأسماء الأعلام غير مألوف في غير اللغة العربية من اللغات السامية ، والغالب عليها فيها القصر ، وإذ كانت اللغة البابليّة واللغة الآشوريّة واللغة الكلدانيّة مع تشابههنّ من اللغات السامية كاللغة العبريّة لم أرَ بأساً في البحث عن معنى « سامرا » في اللغة العربية مع مُراعاة أطوار الابدال والاوزان في اللغات المذكورة وهي في الصعوبة بمكان ، بحيث لا يعلمها الا متقن تلك اللغات

---

(١) معجم البلدان في « عكبرا » . (٢) لا تكون الألف ممدودة بغير همزة . (٣) قلت ان الذي قال : أصل اسمها (سام راه) نحا المنحى الذي أراده الأستاذ لأن سام راه فارسي . (٤) مجلة لغة العرب « ج ٣ ص ٨١، ٨٢ سنة ١٩١١ » . وقد وصف الكاتب البارع حضارة سامرا وفضل علم الآثار الجديد ووجوب صيانة الآثار من الدمار والتجار ، وفضل المستشرقين على الحضارة الاسلامية ، وهي من المقالات البديعة التي اجاد فيا القول وأفاد وتشوق قراءتها طالب الفائدة والعلم المستفاد .

ودارس علم الموازنة بينها وهو ما لم نوفق له يا للأسف ، ومع ذلك لم أجد حرجاً في إقامة باعث على التفكير في معنى الاسم ، أو إحداث فكرة تدور حولها ، والبحث عن معاني الأعلام المدنية هو مما اعتاده المؤرخون المحدثون والآثاريون العصريون ، لأنه ذو فائدة لعلم التاريخ والحضارة البشرية وعلم اللغات ، واعتاده أيضاً البلدانيون القُدامى كما ترى في معجم البلدان لياقوت الحموي ، وإنما الذي يؤخذ عليهم أنّهم كانوا يحاولون رجع معظم الأسماء الأعلام وعامّتها إلى اللغة العربية وهو الذي أنكره محقاً الكاتب الفاضل ، مع أن البلاد التي أنشئت فيها تلك المدن والبلدان والقرى والنواحي المعمورة لم تكن قديماً من البلاد العربيّة ، أما مواضع جزيرة العرب فكان لهم كلّ الحقّ في البحث عن معاني أسمائها لأن واضعيها كانوا عرباً .

وكان من الغلط المبين قول ابي محمد الحريري : « ويقولون : للبلدة التي استحدثها المعتصم بالله (سامرا) فيوهمُون فيه كما وهم البحتري فيها إذ قال في صلب بابك :

أخليتَ منه البذّ وهو قراره ونصبته علماً بسامرّاء

والصواب أن يقال فيها (سُرَّ من رأى) على ما نُطق بها في الأصل لأن المسمى بالجملة يُحكى على صيغته الأصليّة كما يقال : جاء تأبّط شراً .. وحكاية المسمى بالجملة من مقاييس أصولهم وأوضاعهم ، فلهذا وجب أن يُنطق باسم البلدة المشار إليها على صيغتها الأصلية من غير تحريف فيها ولا تغيير لها وذاك أن المعتصم بالله حين شرع في انشائها ثقُل ذلك على عسكره فلما انتقل بهم إليها سُرَّ كل منهم برؤيتها فقيل فيها سُرَّ من رأى ، ولزمها هذا الاسم وعليه قول دعبل في ذمّها :

بغداد دار الملوك كانت حتى دهاها الذي دهاها
ما سُرَّ من را بسُرَّ من را بل هي بؤسى لمن رآها

وعليه أيضاً قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في صفة الشعرى :

أقول لما هاج قلبي ذكرى　　واعترضت وسط السَّماء الشعرى
كأنها ياقوتة في مِدرى　　ما أطول الليل بسُرَّ من را !

فنطق الشاعران باسمها على وضعه وسابق صيغته وإن كان قد حذفا همزة رأى لاقامة الوزن وتصحيح النظم [١].

وليس ما قاله الحريري – رح – بالمروي الصحيح وإنّما الصحيح أن المعتصم بالله سأل عن ذلك الموضع فقيل له : اسمه سامرّا ، فأراد التفاؤل على عادة العرب ، فقال : نسميها سُرَّ من رأى [٢] ، قال العلامة أبو الثناء السيد محمود الآلوسي معقّباً « وما أنكر الحريري غير منكر ، قال ابن برّي عن ثعلب وابن الأعرابي : وأهل الأثر يقولون كما قال أيضاً : اسمها القديم ساميرا ، سميت بسامير ابن نوح – ع – لأنه أقطعه إياها ، فكره المعتصم ذلك فغيّرها والأقرب أن يكون التغيير الى سامرا . وحكى بعض أهل اللغة أنها سميت (ساء من رأى) فحذفت همزة ساء وهمزة رأى لطول الكلمة وقيل سامرا . وحكى بعضٌ فيها ست لغات : سُر من رأى ، ببناء الفعل للمفعول ، و (سرَّ من رأى) ببنائه للفاعل او (ساء من رأى) و (سامرا) بالقصر و (سامراء) بالمدّ ، و (ساميرا) . وفي القاموس (سر من رأى) بضم السين والراء وبفتحهما وبفتح الأول وضم الثاني وسامراء ، ومدّه البحتري بالشعر وكلاهما لحن وساء من رأى ، وسُرّاء ممدودة مشدّدة مضمومة ، والنسبة سُرَّمري وسامرّي [٣] وسرّي » [٤] . ونقل بعد ذلك من معجم البلدان لياقوت الحموي .

وأنا لم أنقل التعقيب على الحريري على أنه خبر تاريخي صحيح بكماله

---

(١) درة الغواص في اوهام الخواص « ص ١٨٠ ، ١٨١ طبعة قاسم رجب » . (٢) مروج الذهب « ج ٢ ص ٣٤٩ طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣٤٦ ، واني ناقل النص في الكلام على « الطيرهان » قريباً . (٣) يظهر لك من كل وجه غلط قولهم : فلان السامرائي ، والصواب ، « السامري » بتشديد الراء . (٤) شرح الطرة عن الغرة أو كشف الطرة عن الغرة « ص ٢٨٨ — ٢٩٠ » .

بل نقلته لاثبات أن من القدماء من قال بقدم الاسم «سامرا» ، وإن كان في رأيهم أنه «سامیرا» ففي اللغة يُبدل أحياناً أحد الضعفين ياءاً كما قالُوا «إيبالة» في الإبّالة وهي الحزمة من الحطب والحشيش ، وقالوا أصل الدينار «دنّار» بدلالة جمعه على دنانير ، وقالُوا باطراد في مصدر «فَعَّل يفعِّلُ» تفعيلاً ، وكان القياس يوجب أن يقولُوا «تفعِعْلا» لأن في الفعل عيناً مضعفـة ، ينبغي ظهورها في المصدر كما تظهر في «تفعَّل تفعُّلا» .

ويُعلم مما قدمتُ أنَّ جميع لغات «سامرا» التي نقلناها ، تلك التي يقول فيها ياقوت «سُرَّ من رأى وسُرَّ مَن رَى وسُرَّ من راء وساءَ من رأى وسام راه الفارسيّ وسُرور مَن رأى وسُرَّاء» [1] ما هي إلا تلعّبات باللفظ وتخريجات منه للتفاؤل تارة وللتشاؤم مرة أخرى ، إلا أنَّ تسميته المدينة بُسرَّ من رأى غلبت على جميع التسميات لأن المعتصم شاء ذلك ، ثم ضعفت بمرور الزمان ، فكان من الناس من يسميها «سامرّا» ، وكان منهم من يسمّيها «سُر مَن رأى» على اعتبار أنه الاسم الصحيح وليس بذاك ، كما بيناه هناك .

وسامرّا كثرت فيها الأساطير ككل مدينة عريقة في القدم ، فقال حمزة الأصفهاني : «كانت سامراء مدينة عتيقة من مدن الفرس تحمل إليها الاتاوة التي كانت موظفة لملك الفرس على ملك الروم ودليل ذلك قائم في اسم المدينة لأن (سا) اسم الأتاوة ، و (مرّة) اسم العدد والمعنى أنه مكان قبض عدد جزية الرؤوس» [2] . فحمزة استنتج تاريخها من تحليل اسمها على الطريقة الفارسية لأن اللغة الفارسية آرية أي تركيبية لا اشتقاقية كاللغات الساميّة ، وهذا التحليل واهٍ واهن ، فانه يقال : ما الباعث على حمل الاتاوة إلى اهل هذه المدينة ولم تكنْ من مُدن الحدود بين المملكة الفارسيّة على اختلاف أطوارها والدولة

---

(١) معجم البلدان في «سامرا» وقال في سر من رأى : «قال الزجاجي قالوا كان اسمها قديماً ساميرا سميت بسامير بن نوح ، كان ينزلها لأن أباه اقطعه اياها فلما استحدثها المعتصم سماها سر من رأى» . (٢) معجم البلدان في «سامرا» .

الرومية على اختلاف فتوحاتها ، لأن الدولة الرومية كانت في غرب المملكة الفارسية ، فالأولى أن يكون مكان القبض على الفرات لا على دجلة .

قال ياقوت : « وقال الشعبي : وكان سام بن نوح له جمال ورُواء ومنظر وكان يصيف بالقرية التي ابتناها نوح – ع – عند خروجه من السفينة ببازَبْدَى[1] وسمّاها ثمانين[2] ويشتو بأرض جُوخا[3] ، وكان ممرّه من أرض جوخا إلى بازبدا على شاطيء دجلة من الجانب الشرقي ، ويسمى ذلك المكان الآن (سام راه) يعني طريق سام . وقال ابراهيم الجنيدي : سمعتهم يقولون إن سامراء بناها سام بن نوح – ع – ودعا أن لا يصيب أهلها سُوء[4] » . فهذه أمثلة لما ابتُدع من الأهوال في تاريخ سامرا ، وقد نسب بعضها إلى رجال ثقاة رغبة في ترويجها بين الناس ، وهي طريقة مبتدعي الأساطير المألوفة عندهم المعروفة عند ذوي الأفكار الناقدة .

ومن الطريف ما ذكره ابن بشار المقدسي قال : « سامرا كانت مصراً عظيماً ومستقر الخلفاء في القديم ، اختطها المعتصم وزاد فيها بعده المتوكل وصارت مرحلة ، وكانت عجيبة حسنة حتى سُميت سرور من رأى ثم اختصر فقيل سُرْمَّرى ... فلما خربت وصارت الى ما ذكرنا سُميت ساء من رأى ثم اختصرت فقيل سامرا[5] » . وقال مؤرخ آخر : « حكى في بعض الكتب أن سُرّ من رأى كانت مدينة عظيمة عامرة كثيرة الأهل فأخربها الزمان حتى حتى بقيت خربة وبها دير عتيق وكان سبب خرابها فيما حكي في الكتاب

---

(١) بازبدى او بازبدا كورة من ناحية جزيرة ابن عمر في غربي دجلة ، كما جاء في معجم البلدان وغيره . (٢) بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر فوق الموصل كما في معجم البلدان وغيره . (٣) اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي منه الراذانان وهو خانقين وخوزستان كما في المعجم . قلت : والراذان يعرف اليوم بالروضان في الصحراء المعروفة بالغرفة بين بعقوبه وكركوك في منطقة وادي العظيم . (٤) معجم البلدان في « سامرا » وقريب من ذلك ما ورد في التنبيه والاشراف للمسعودي وزاد « انها كانت آهلة عظيمة عامرة فلم تزل تتناقص على مر الزمان » (ص ٣٠٩) . (٥) أحسن التقاسيم « ص ١٢٢ ، ١٢٣ طبعة ليدن سنة ١٩٠٦ ».

المذكور أن أعراب ربيعة وغيرهم كانوا يغيرون على أهلها فرحلوا عنها »[1].

الطيرهان

وكانت منطقة سامرا تعرف في أيام الساسانيين باسم « الطيرهان » قال أحمد بن أبي يعقوب : « كانت سر من رأى في متقدم الأيام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ، وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار للسلطان المعروفة بدار العامة[2] وصار الدير بيت المال » . وقال أبو الحسن المسعودي في ذكر موضع سامرا : « وهو في بلاد كورة الطيرهان[3] » . وقال أيضاً « فانتهى المعتصم الى موضع سامرا وكان هناك للنصارى دير عاديّ ، فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع ، فقال : يعرف بسامرا . قال له المعتصم : وما معنى سامرا ؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والأمم الماضية أنّها مدينة سام بن نوح . فقال له المعتصم : ومن اي البلاد هي وإلام تُضاف ؟ قال : من بلاد طيرهان[4] ، وإليها تضاف »[5] . ويستفاد من وصف ابن سراخيون للنهر الاسحاقي أن الطيرهان كانت تشمل الجانب الغربي من هذه البقعة فقد ذكر ان الاسحاقي كان يمر بطيرهان حتى يجيء الى قصر المعتصم « ص ١٨ ، ١٩ » .

وذكرها ابن خرداذبه قال : « تكريت ... والطيرهان والسن والحديثة ... قال ذلك في كتّه كور الموصل ، وقال قدامة : « وإذ قد أتينا على أعمال المشرق فلنرجع إلى أعمال المغرب فأولها حدّ الفرات تكريت والطيرهان والسنّ

---

(١) العيون والحدائق « ص ٣٨١ » لمؤلف من أهل ما بعد القرن السادس للهجرة . (٢) لا يزال وجهها وحده شاخصاً ذا ثلاثة اواوين اوسطها كبير وعلى حفافيه صغيران وتعرف عند العامة باسم « بيت الخليفة » وقصر الخليفة ودار الخليفة . (٣) التنبيه والاشراف « ص ٣٠٦ طبعة الصاوي بمصر سنة ١٩٣٨ » . (٤) تصحفت في المروج في الطبعة المقدم ذكرها الى « طيرهات» . (٥) المروج « ٢ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ » .

والبوازيج وارتفاعها على أوسط العِبَر [١] سبع مائة ألف ألف درهم » وكرر ذلك في كتابه [٢] .

وهذه المنطقة كانت مشهورة منذ أواخر القرن الأول للهجرة على عهد الوليد بن عبد الملك ومن بعده فقد جاء في أخبار الجاثليق النسطوري (صليبا زخا) أنه كان من أهل الطيرهان وتعلم بالمدائن وأنه نصب فشيون الباجرمي أسقفاً على الطيرهان . وبقي هذا الاسم مستعملاً بعد ذلك بدلالة ان الجاثليق النسطوري سرجيس رتب قيّوماً تلميذه اسقفاً على الطيرهان وفي أيامه قتل المتوكل على الله العباسي ، وكان إيشوعَزْخا أسقفاً بالطيرهان في خلافة المعتمد على الله العباسيّ ، وفي الربع الأول من القرن الخامس للهجرة كان إيليا الأول أسقفاً على الطيرهان ، وفي أيام القائم بأمر الله العباسي كان مكيخا بن سليمان القنكاني أسقفاً على الطيرهان ، وكان نرسي أسقف هذه المنطقة في بعض عهد الناصر لدين الله العباسي « ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ » ، وقرض المغول الدولة العباسية سنة ٦٥٦ وكان عمانوئيل أسقفاً على الطيرهان بعد هذا التاريخ . وفي بعض عهد الملك أباقاخان ابن هولاكو (٦٦٣ — ٦٨٠ هـ) كان بريخيشوع مطرانها [٣] .

وذكر ماري بن سليمان مؤرخ كرسي الفطاركة ما يفيد أن « الطيرهان » كانت معروفة بهذا الاسم قبل ٣٩٣ من تاريخ اسكندر المقدوني وهي السنة التي توفي فيها مار ماري السليح [٤] . فالتسمية قديمة قد ترتقي إلى العصر الآرامي والعصر اليوناني بالعراق ، واستمرت الى أواخر القرن السابع للهجرة ولعلها بقيت الى اكثر منه ، إلاّ أنّ اسمها مذكور في الكتب النصرانية أكثر مما في الكتب الاسلاميّة ، كما قدّمنا ونقلنا . وطيرهان في صورته اللفظية أقرب الى اللغة الفارسية منه الى اللغات الساميّة ، بالضد من سامرا .

---

(١) العبر بوزن العنب جمع العبرة وهي ما يعرف عند علماء الرياضيات اليوم بالمتـــدل .
(٢) المسالك والممالك وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر « ص ٩٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ طبعة مكتبة المثنى بالأوفسيت . (٣) فطاركة كرسي المشرق لعمرو بن متّى ٦٠—١٢٤ ولماري بن سليمان « ٦٥ — ٧٧ »
(٤) فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان « ص ٤ » .

قدم السكن في سامرا

كانت مدينة «أربيل» الحالية المعروفة في التاريخ الاسلامي بإربل وفي التاريخ الآشوري بأربيلا تعد أقدم بلدة مسكونة في عصرنا هذا لاستمرار السكن فيها من العصر الأشوري الى اليوم وبعده ، ثم ظهر في أن سامرا هي القُدمى فقد أثبتت التنقيبات الأثرية في أطلالها أن موضعها كان آهلاً منذ أدوار ما قبل التاريخ وقد كشف الأستاذ الآثاري الألماني هرزفيلد فيها عن مقبرة من تلك الأدوار بين السنّ الصخر وآثار العصر العباسي على نحو من ميل واحد من جنوب دار الخليفة أي دار العامة القائمة الأواوين الثلاثة ، وعثر على نوع من الفخار المصبوغ اطلق عليه اسم (فخار سامرا) وهو يمثل دوراً من أدوار ما قبل التاريخ المشار اليه آنفاً وقد سمي (دور ثقافة سامرا) إضافة

تماثيل عثر عليها في تل الصوان في الحفريات الأخيرة يرجع تاريخها الى الالف السادس قبل الميلاد



له إلى الموضع الأثري الذي كشف فيه عن هذا الفخار أول مرة ثم عثرت مديرية الآثار العراقية على موضعين آخرين في سامراء يرتقي عصورهما إلى ذلك الزمن ، أحدهما في شمالي المقبرة المقدم ذكرها والآخر في جنوبي سامرا على ضفة دجلة فوق صدر القائم ويسمّى تل صوان وقد جاء اسم هذا الموضع في الكتابات الآشورية بصورة « سُرمارتا Su-ur-mar-ta وكان لهذا الموضع في أيام الفرس شأن كبير في محارباتهم الرومان خاصّة ولقربه من النهر المعروف بالقاطول الكسروي أي القناة الكسروية [١] » *.

---

(١) حاشية بشير فرنسيس وكوركيس عواد على ترجمة كتاب (بلدان الخلافة الشرقية) تاليف لسترنج ص ٧٦ – ٧٧ مع بعض الايضاح في التعبير . (*) وان الحفريات التي اجرتها في السنين الأخيرة مديرة مديرية الآثار العراقية العامة في تل (الصوان) الواقع على بعد ما يقارب عشرة كيلو مترات من مدينة سامراء الحالية كشفت عن حضارة منظمة مستقرة تعتمد الزراعة واعمار الأرض في معيشتها . وقد ظهر في هذا التنقيب عدد من التماثيل يرجع عهدها الى الالف السادس قبل الميلاد . وللاستزادة من المعلومات يمكن الرجوع للعددين الاخيرين من مجلة سومر لهذه السنة وما قبلها . الخليلي

منطقة سامرا على عهد الساسانيين

استطعنا أن نجد وصفاً لمنطقة سامرا على عهد الساسانيين في رحلة الكاتب الرومي «أميانس مرقلانس» فقد رافق هذا الكاتب الحربيّ الانبراطــور «يوليانس» في حملته سنة ٣٦٣م على بلاد الفرس في عهد الملك «سابور الثاني» المعروف بذي الأكتاف ، وقد سار الجيش الرومي من طريق حران فقرقيسيا والفرات واستولى على حصن عانة وأحرق حصوناً وقرى أخرى حتّى بلغ مخالج الأنهار التي تتخلّج من الفرات لتستقي مناطق بابل ومنها نهر الملك وسمّاه «نهر ملكا» بالصيغة الآرامية وقال إنه يسقي المدائن «كتيزيفون» من الجهة الغربية بالبداهة ، وكان الجيش الرومي دائم الازعاج للجيش الساساني لأنه كان يردّ ويصدّ ، والجيش الرومي يسير مُوغلاً في البلاد حتّى بلغ الأنبار المعروفة أيامئذ عند الروم باسم «پيري سابور» أي فيروز سابور وقال إنها كبيرة محتشدة السكان ، يحيط بها الماء كأنها جزيرة وكانت مسوّرة بسُور مُضاعف ذي أبراج وأضلاع ,وفي وسطها حصن مقام على قمة مسطحة لجبل صعب المرتقى ، وكان الحصن محدّب الوسط فكان يشبه تُرساً أرگولياً وكان مدوّراً إلا من الجهة الشمالية ، فقد كان يَسدّ نقصانه من التدوير صخر قائم في الفرات . وهو تحصين له أيضاً ، وكانت أفاريز شرَف الحصن مبنيّة بالقير والآجرّ ، فحاصرها الانبراطور يوليانس فكان السكان لا يهابون قوّة السهام قد نشروا على السُّور أبراداً مُدلاّة ونُسُجاً من الشعر ، وكانوا هم

أنفسهم متترّسين بترسة من الخيزران جدّ وثيقة ، ومغشّاه بجلود الدببة ، فكان ذلك من أشدّ دفاع عن أنفسهم [١] ، وأغنتهم عن إتخاذ وجوه من الحديد ، وكانت أعضاؤهم مغشّاة بصفائح معدنيّة محكمة التلئيم [٢] عليها فهي تقي جميع أبدانهم ، وبعد أن تراجعوا إلى حصنهم أخذوا يرمون بسهام خيزران ذات نصول من الحديد عن قسيّ كبار لا تنثني إلا ببطء لكبرها ثم يرسلون الأوتار بعد نزع هائل من أصابعهم [٣] فأظهر الأنبراطور يوليانس كثيراً من الشجاعة في هذا الحصار ولقي أذىً في بدنه فأمر بصنع مكينة تسمّى هليبول « دبّابة [٤] » فلما رأى المحصورون هذه الآلة استسلموا ، فأمر الانبراطور باحراق الموضع كسائر المواضع المأهولة الأخرى .

وبعد أن سار أربعة عشر ميلاً وصل الجيش إلى موضع فيه مزارع قد أخصبتها مياه غزيرة ، وكان الفرس قد علموا من قبل بوجهة طريقنا وزحفنا فكسروا سكور المياه فتبطّح الماء في الأرض وغمرها فكأنها مستنقع واسع ، فلذلك اضطررنا لصنع قناطر [٥] صغيرة من ظروف جلد المعزى ، وقوارب من الجلود وجسور من جذوع النخل ، وأكثر هذه البقاع مفروشة كرْماً [٦] وأشجاراً مختلفة مثمرة أخرى ، والنخل تكوّن فيها غابات طبيعية تمتد الى ميسان [٧] والبحر الكبير ، كنا نرى أفنان الثمار في كل مكان ، وطلْعاً

---

(١) جمع القلة اذا حلي بالالف واللام أو أضيف قام مقام جمع الكثرة ومنه استعمال « الأنفس » بدلا من النفوس في القرآن الكريم . وإن ورد « النفوس » فيه مرة مقابل اكثر من ١٤٢ مرة للأنفس . (٢) أي التطبيق وهو مصدر « لأم تلئيماً » . (٣) تأمل وصف هذا الكاتب العجيب كأنه هو نفسه كان يرمي عن قوس من قسي الجنود الساسانيين . (٤) هي البرج الحربي . (٥) أراد « معابر » . (٦) لم يكن الكرم قد نقل الى الأرض البابلية قبل غزوة الاسكندر في اواسط القرن الرابع قبل الميلاد . (٧) قال ياقوت في معجم البلدان : ميسان بالفتح ثم السكون وسين مهملة وآخره نون : اسم كورة كثيرة النخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان . وفي هذه الكورة أيضاً قرية فيها قبر عزير النبي – ع – مشهور معمور يقوم بخدمته اليهود ولهم عليه وقوف وتأتيه النذور وأنا رأيته » قال مصطفى جواد : ذكر ياقوت في « المذار » من معجمه أنها قصبة ميسان . وذكر في نهر سمرة أنها قرية فيها قبر العزير النبي وذكر الهروي في الزيارات « ص ٨٠ » أنه نهر سمراء وأنه عزرا .

تكون فيه ثمرة وفيرة العسل — يعني الدبس — والنبيذ ، وقيل إن النخل يتزوج بعضها بعضاً ، ويُستطاع تمييز النخلة الأنثى من الفُحال بسهولة ، وإن الاناث تلُقَّح بأن تُذَرّ بُذور الفَحاحيل عليها ، وإنها تجدُ لذة نوعية في ذلك ، والدلالة على هذا أنّ بعضها مُنحن نحو البعض الآخر بحيث لا تفرّق بينها أعصف الرياح ، وأن الأنثى إذا لم يؤثر فيها الفُحال لا تحملُ إلا طِرحَ ثمر — يعني الشيص — وإذا جَهل المُلقّح الفُحّال الذي عشِقته النخلة وجَبَ رشّ بذرِ فحّال من الفحاحيل على جِذْعها ، فاذا انتشت بهذه الرائحة الطيبة أظهرت أنها تريد الاقتران .

وقد مرّ جنودنا الروم بعدّة جزر فوجدوا فيها أقواتاً كثيرة ، وإذ لم ينفك الفرس يزعجون الامبراطور يوليانس ، بلغ الجيش حيث يتشعّب قسم كبير من الفرات شعباً كثيرة فوضع النار في مدينة هناك كان اليهود يسكنونها ولكنهم جلوا عنها لأن سورها كان خفيضاً جداً . وتابع الامبراطور زحفه حتّى وصل « ما أوكَ ملكا » وهي مدينة كبيرة ومحفوفة بسور وثيق ، إن هذه المدينة كانت محصنة جداً وفيها حصن مقام على هضبة من الصخر ، المهندم ببروج ضخمة هائلة ، فنصب عليها يوليانس آلات الحِصار ، وهرب الذين كانوا يسكنون في ضواحيها إلى المدائن «كتيزيفون» في جذوع منقورة مجوّفة وسوق أشجار كذلك ، أو في زوارق صغيرة ، ونشبت الحرب بين الروم والفرس ببسالة وحماسة وبشآبيب السهام والجلاميد والمشاعل لموقدة والمطارق ذات الرأسين ، وأعمل الروم منجنيقاتهم وعقاربهم الحربيّة وكباشِهم الحصارية ، فاستولوا على الموضع بعد معجزات من الشجاعة ، واستعرض الانبراطور حامية المدينة بالسيوف حتّى أتى عليهم صَبراً ، وكان ناس من السكان لاذُوا بالمغاور وكانت المغاور كثيرة في هذه النواحي فسدّ الرومان عليهم منافذ المغاور بالتبن وحطب الكَرم وأوقدُوا فيها النيران ، فهلك أولئك التاعسون اختناقاً داخل المغاور .

وواصل الجيش الرومي زحفه ظافراً حتّى وصل إلى غياض ومزارع

فيها غلاّت وفيرة ، وكان فيها قصر مبني على الطراز الروميّ فتركه الروم على حاله ، وكان في تلك الناحية بعينها حَيْرٌ وهو سور ضخم مدوّر ، قد أنشيء للاستراحات الملوكيّة ، وقد رأينا فيه حيوانات وحشيّة وأسوداً ذات ذوائب وخنازير ذات أنياب قويّة ، ودببة كالّتي تكون في بلاد الفرس ، مفترسة بحالة تفوق التصوّر وكان في الحير حيوانات أخرى عظيمة الخلقة ، فكسر الفرسان الروم أبواب الحَيْر وقتلوا حيواناته ضرباً بالسيوف ورمياً بالنُشّاب. وكانت الأرض خصبةً ومُحْسنة الزرْع والاستغلال وكانت مدينة «كُوثى» وتسمّى أيضاً «سلُوقية» [1] غير بعيدة عن ذلك الموضع ، فاجتاز الانبراطور يوليانس هذه المدينة المتروكة وكان «ويرس» [2] قد أخربها ، وكان هنالك عين ماء جارية ، قد أحدثت مستنقعاً واسعاً ، يصبّ ماءه في دجلة ، فرأى يوليانس عندها ناساً كثيراً مُعَلّقين على المشانق ، وكانوا ذوي قرابة الجنود الفرس الذين استسلمُوا وأسلموا «فيروز سابور» إلى الروم.

ومن هنالك انتهى الروم الى شواطيء نهر ملكا الجنوبيّة وكان «تراجان وسيفين» الأنبراطوران الروميان قد وسّعا مجراه بالكري والحفر ليكون قناة عريضة ، آخذة مياهها من الفرات وحاملة السُفن الى دجلة ، وكانت القناة جافّةً إذذاك ومردومة في بعضها [3] بحجارة كبيرة ، فأمر يوليانس بكسح الرّدم ، فجرى فيها الماء في الحال ، واستطاع الجيش الرومي أن يعبر في سفنه الى الضفة الأخرى من دجلة على مرتفعات «كتيزيفون» ، وما كاد ينزل يوليانس في الضفة الأخرى حتى اختار للجيش موضع استراحة في حقل

---

(١) الثابت في علم البلدان الأثرية ان «كوثى» غير سلوقية ، على ان الوارد في النص ومنه ترجمنا هو «كوشه» وتعرف كوثى اليوم بتل ابراهيم «راجع مدن العراق القديمة لدروثي مكاي ترجمة الاستاذ يوسف المسكوني» ص ٣٠ وان سلوقية تعرف اليوم بالسور وتل عمر مقابـل المدائن «كيتزيفون» من الجانب الغربي «الكتاب المذكور ص ٢٥» . (٢) قال مصطفى جواد «فيرس» أوويرس انبراطور روماني ولد وتوفي بها «١٣٠ — ١٦٩ م» كان شجاعاً محباً للهو والقصف . (٣) يعني في مصبها المتصل بنهر دجلة .

خصيب زانته شجيرات وكروم وأشجار السّرو والخضرة النضرة ، وكان في وسط الحقل قصر للتنزّه وارف الظلال ، قد زينت جميع أقسامه بتصاوير تزويقيّة مستحسنة ، تمثل الملك في صيده قاتلاً حيوانات وحشية ؛ ذلك لأن الفرس لا يصورون ولا ينحتون إلا مناظر المذابح ومشاهد الحرب .

وبالقرب من «كتيزيفون» أدار الانبراطور رحى حرب طحون هزم فيها الفرس — وعلى حسب وصف أميانس للعدو أي الفرس يعترف الانسان بصدق المنحوتات والتصاوير التي في خورص[1] آباد ففيها صور فيلة — إن الأنبراطور الظافر طارد العدو حتى سور «كتيزيفون» إلا أنّه عدل عن حصارها لأمرين أحدهما هو أنّها متعذّرة الفتح والآخر هو أن الملك سابور (الثاني) قد اقترب من جيش الروم في جيش عرمرم فأحرق يوليانس سفنه وابتعد عن دجلة ، للتوغل داخل البلاد ، فأحرق الفرس بيادر حصادهم ليهلكوا بالقحط ، فلم يجد يوليانس في آخر الأمر بُدّاً من النكوص ، وفكّر في أيّ طريق يسير ؟ أينكص من موضعه هذا بمروره في بلاد «أقور» أي آشور محاذياً الجبال أم يتقدم في نواحي «كوردوين» فيعيث في «شيلوكوم» إن العرّافين لم يشيروا بهذا ولا بذلك ، على أن الأنبراطور سار في جيشه «في اليوم السادس عشر من حزيران سنة ٣٦٣ م» متقدماً نحو أصقاع «كوردوين» وفي ذلك اليوم هب إعصار من التراب أشعرنا باقتراب قطعان من حُمر الوحش أي الفِراء[2] ، وهي كثيرة الوجود في هذه الأصقاع ، وكانت قد تجمّعت على ذلك النحو لتقاوم هجمات الأسود ، فاستراح الجيش يومين عند القصر الصيفي «همبرا» فهناك وجد كثيراً من الأقوات ثم استأنف السّير وبعد أن قطع سبعين استاداً[3] بلغ مارنكا» . قال أميانس : ولما تبلج

(١) هي خرستاباد عند العرب «معجم البلدان» . (٢) في مختار الصحاح «الفرأ بوزن الكلأ : الحمار الوحشي ... وجمعه فراء كجبل وجبال» (٣) يساوي «١٨٥ متراً» فالجيش قطع ١٢٩٥٠ متراً أي زهاء ثلاثة عشر كيلو متراً .

الصبح بان لنا جحفل كبير من الفرس يقودهم « ميرين » أي مهران مقدّم الفُرسان مع ابنين من أبناء الملك سابور وجماعة كثيرة من الأشراف وكانت هذه الفرق مدجّجة الصدور بالحديد وكل أعضائها مغشّاة بالصفائح المعدنيّة المعدنيّة التامّة التطبيق على المفاصل ، وقد غَشّوا رؤوسهم بأغشية تشبه الوجوه البشرية وهي من الصلابة والقوّة ومن كونها حرشفيّة الشكل بحيث لا تنفذ فيها السهام إلا من وصاوص [1] العيون ، فالذين يقاتلون بالحراب كانُوا ثابتين لا يتحركون من مواضعهم كأنّهم مربوطون بالسّلاسل النحاس وكان بالقرب منهم الرُّماة ، وكانوا يبرزون سو اعدهم وينزعون في قسيّهم المتأطّرة السهلة الانحناء بحيث تمسّ الأوتار حَلمات ثندواتهم [2] اليُمَن [3] على حين يمسكون بأيديهم اليُسَر [4] نصال السّهام الخيزران فتطير ولها صفير وتحدث جروحاً خطرة ، ووراء الرُّماة كانت الفيلة مجهزة بأجهزة حربية فخمة ، وكانت خراطيمها الرهيبة تنشر الهول وتبث الرعب وخصوصاً في الخيل وذلك بصَئيِّها [5] ونئيمها ورائحتها ومنظرها المستغرب . وكان فيّالُوها يحملون بأيديهم اليُمن سكاكين ذات نُصُب ، كانُوا استعملوها منذ الهزيمة التي أصابتهم بازاء نصيبين ، فاذا هاج هذا الحيوان عصى فيّاله ، ولمنعه من أن يطأ الجيش بارتداده ويسحقه بدلاً من أن يعينه يقتله الفيّال بأن يغرز المدية بشدّة في المستوى الأفقي من الفقارة للفقَارة التي تصل بين الرقبة والرأس . إن التجربة أثبتت للقائد « هاسدروبعل » أخي « هَنّيبعل » أنه على هذا النحو يستطاع قتل هذا الحيوان قتلاً وَحشيّاً .

وإذ كان من عادة الفرس أن يُقاتلُوا أعداءهم على بُعد لم يثبت الجيش الفارسي لصدمة الجيش الرومي ، فتهارب جنودهم كالمطر تفرّقه الريح ،

---

(١) الوصاوص جمع وصوص وهو ثقب في الستر ونحوه على قدر العين ينظر منه . (٢) الثندوة والثندؤة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة . (٣) اليمن جمع اليمنى كالصغر جمع الصغرى . (٤) اليسر جمع اليسرى . (٥) الصئي على وزن الولي هو صوت الفيل — والنئيم أعلى منه .

وكانوا في أثناء هربهم يرشقون بسهام إلى ورائهم لكي يمنعُوا الروم من أن يتعقبوهم . وبعد هذه الوقعة استراح الجيش الرومي ثلاثة أيام ، وفي أثناء هذه الفترة ارتاع الانبراطور يوليانس من خوارق سماوية نارية وشهب هاوية راجمة ، فقوّض خيام جيشه باليوم الرابع للرحيل ، وواصل سيره محترزاً الاحتراز المألوف . فلم يلبث أن أُنبيء بأنّ ساقة الجيش قد هجم عليها الفُرس فأخذ تُرساً وأسرع إلى الجانب المهدّد من الجيش ولم يلبس درعاً ، وفي ذلك الوقت أيضاً هجمت على قلب جيشه فرقة من الفرس « الفرثيين » مسلحة بكل سلاح ، وفي وسط هذه الملحمة أصابته ضربة مزراق نفذت الى كبده من خلال الضلوع فانتزعه مي كبده بعد أن انقطعت أوتار أصابعه لعُسر انتزاعها عليه ، فحُمل [١] مرتثّاً إلى المخيّم وفيه ضمّدُوا جرحه ، ولما شعر بتناقص الألم امتطى هذا الأنبراطور المقدام فرساًولكن خور قوّته خان شجاعته ، فانتقض جرحه ، ونزفه دم كثير ، فحمل ثانية إلى المعسكر وهناك أسلم روحه بعد أن نطق بهذه الأقوال البديعة :

« أنا غير نادم على شيء ، ولا آسف على شيء أتيته سواء في ذلك زمن نفيي وزمن أخذي بزمام الحكم في الانبراطورية ، فأنا تسلمتها من الخالدين وديعة وافتخر بأني حافظت عليها نقيّة ، وذلك بالحكم فيها باعتدال بحيث لم آتِ أو لم أؤيد الحرب قط الا بعد اختبار نضيج ، فان كانت الغلبة أو الفائدة التي كنت آملها لم تناسب ما كنت انتظره فان الحوادث من صنع الآلهة ، وإيماني بأن الحكومة العادلة ليست لها غاية سوى منفعة شعبها وسعادته ، كنتُ وأنتم تعلمون ذلك ، كثير الميل إلى السّلام . وقد نزهت سيرتي عن الاباحة الخلقية المُخربة والاباحة المبيدة في الأشياء ، إن الجمهورية التي عددتها دائماً أمّاً حاكمة عرّضتني للخطر في كل ناحية من نواحيها ، فصمدتُ [٢] إليه بسُرور

(١) أي حمل جريحاً وبه رمق . (٢) صمد الى الشيء : قصد اليه وانتحاه واستعماله بمعنى « ثبت » غلط قبيح .

وتعودتُ ازدراءَ سخط الحظ ، وللناس الحق في أن يُعدّوا من يُريد الموت ، حين يجب أن لا يُراد ، جبّاناً نذلاً ، وكذلك من يخافه حين ينبغي أن يتقبّله برضاً ، إن قوّتي لا تعينني على أن أقول أكثر من ذلك ، لقد تعمدت أن لا أسمي أحداً لولاية الحكم بعدي ، إن أكن مستطيعاً أن لا أعيّن من هو الأحق بالحكم ، أو أسمّي الأجدر به معرّضاً له لأعظم خطر بهذا التفضيل فاني مع ذلك كالولد الشفيق الذي يتمنّى أن تجد الجمهورية لنفسها رئيساً تراه أهلاً لها بعد موتي .

قال أميانس مرقلانس : فهل في العالم كثير من الرؤساء يستطيعون أن يقولُوا كهذه الأقوال ؟ ولما مات يوليانس لم يكن له من العمر إلا اثنتـان وثلاثون سنة كعمر الاسكندر في بابل ، إن الموضع الذي هلك فيه ينبغي أن يكون قريباً جداً من بغداد [1] .

وانتخب الجيش الرومي يوينيانس لرئاسة الانبراطورية بعد حدوث عدّة دسائس ، فعقد مُعاهدة مخزيةً مع ملك الفرس سابور المذكور التزم فيهـا الروم أن يردوا عـلى الفرس فيما يردون الأصقاع الخمسة في غربي دجلة وهي الأرزن وماكسين وزبديسين ورهيمين وكورداسين ، وكانت مدة الصلح ثلاثين سنة ، وكان من شروط هذه المعاهدة أن يتخلى الروم عن جميع فتوحهم فيما بين النهرين حتى نصيبين ، فنقل سكانها إلى آمد ، إن ارتداد الجيش الروميّ يحتوي على قليل من الأحداث المعتبرة ، إن عدّة إشارات خططيّة ، مستحقّة للتدقيق من حيث الصحة ، إلى المواضع ، يمكن لها في سهولة ويسر ، تعرُّف طريق الروم في ذلك النكوص ، فبعد انتخاب « يوينيانس » بلغ الجيش قبيل المساء والفرس يزعجونه دائماً ، حصن « سوميز »[2] Sumèze فهناك

(١) هذا كلام المترجم الأفرنسي بالبداهة وان كانت بغداد غير منشأة قبل عصر يوليانس . (٢) هكذا ورد بالزاي وورد في مجلة سومر « مج ١٧ ص ١٦٧ » سومير بالراء المهملة وقيل هناك إن لين يعينه بسامراء ، والأولى عندي أن يكون حصن القادسية جنوبي سامراء وهو قائم حتى اليوم ومبني باللبن . ويبقى الاستغراب في الزاي كيف صارت راءاً أو الراء كيف صارت زاياً ؟ ؟ ثم ان كان يوليانس قتل في منطقة كفري وهو متوجه الى الشمال « ص ١٦٥ من سومر » فكيف يعود الجيش الى حصن القادسية « ص ١٦٦ » ثم حصن سامرا ؟

اتصل به أشراف خدمة القصر الجمهوري وكانوا قد التجأوا إلى حصن « وكّات » . وفي اليوم التالي لهذا اليوم خيّم الرومان في واد يبدو للناظر محوّط بسور وليس له إلا مخرج واسع بعض السعة ، فغرز الجيش فيه ، كما يدُور ، أوتاداً مُؤلّلة الرؤوس ، وبالليلة التالية لذلك اليوم خيّم الجيش في «كرخا » [1] وكان حيالها باشورات من التراب أي حواجز ترابيّة ، في طفوفها الشاطئية لمنع العرب من العُدوان على بلاد آشور ، ثم سار الجيش ثلاثين استاداً فوصل إلى « دور » [2] ، وهي مدينة فلبث فيها أربعة أيام ، وفي أثناء هذه الاقامة عبرت بالليل نهر دجلة من الجيش كتيبة ثقيلة مؤلفة من رجال سبّاحين ، وهزمت العدوّ الموكل بحفظ ضفة النهر ، هذه الضربة ضربها الجيش الروميّ في أثناء زيادة الماء خاصّة ، لأن الوقت كان فائظاً ، وسرعان ما عبر الجيش كله فمنهم من عبر بانحراف سباحة وعوماً ومنهم من عبره على زقاق المعزى وآخرون حاولُوا قيادة الكُراع أي حيوانات النقل ، فكانُوا يعومون هنا وهناك على إبّالات [3] من الصفصاف ، وآخر الأمر أنهم بلغُوا الضفّة اليمنى لدجلة ، عدا الذين هلكُوا في هذه العَبْرة [4] . وبعد مسيرة سريعة وصل الجيش الى « حضرا » أي الحضر ، مدينة عتيقة قائمة في صحراء ومهجورة منذ زمن بعيد ، وكان الانبراطور « تراجان » والانبراطور « سيفير » حاولا تدميرها فهلكا مع جيوشهما . قال أميانس : وعلمنا أن طول هذا السهل الفاصل سبعون فرسخاً ، فليس فيه إلا ماء ملِح آسِن ولا طعام إلا القيصوم والشّيح واللُوف وأعشاب أخرى قليلة التشهية . وفي آخر مسيرة كان أمدها ستة أيام لم نجد

---

(١) الظاهر لنا أنها كرخ سامرا . (٢) الظاهر لنا أنها الدور الحالية شمال سامرا .
(٣) الابالة الحزمة من الحطب أو الحشيش . والكلمة الفرنسية تعني الحصر وذلك غير ممكن البتة.
(٤) قال المؤرخ الفرنسي « فيرد هوفر » مترجم هذه الرحلة : ما يأتي من الأخبار يدل على ان الجيش الرومي عبر دجلة من موضع بين ٢٥ الى ٣٠ فرسخاً شمال بغداد ، فلعله القائم او سامرا بازاء بحيرة ملحة في صقع قاحل وهو قول مقارب للصواب وهي بحيرة الشارع ، الا ان ذكر الكاتب الروماني « الكرخ والدور » يؤيد ما قلناه ، فالعبور كان فوق سامرا لا عندها ولا عند قائم القاطول .

شيئاً حتى العشب ، ولحسن حظنّا التحق بنا في حصن « أور » الاطربون موريتيوس ودوق ما بين النهرين كاسين وأنقذانا من الجوع بما جاءا به إلينا من الأزواد ، ولكنها سُرعان ما نفدت وكدنا نأكل اللحوم البشرية لو لم يبق معنا لحم الحيوانات التي قتلناها بعض الزمان ، ومع ذلك تابع الجيش سيّرهُ ، فبلغ بعد أن كابد كثيراً من الجوع « تيسالفاتا » ومن ثَمّ وصل إلى نصيبين وفيها انتهت الأسواء التي أصابته ، ثم دفن « پروكوپ » جثة الانبراطور يوليانس في ربض « تارز » على حسب مُراده . وتوفي يوينياس بعد بُرهة قصيرة في دودستان على سنكاريوس ، المدينة التي تفصل « بثيني » « عن كلاتي » [١]

(١) M. Fred Hoefer (Chaldée. Paris 1852, p. 165 — 172.

ديارات سامرا والقاطول الكسروي

كانت ديارات سامرا ونواحيها أقدم المواضع المسكونة قبل إنشاء المعتصم بالله مدينته الجديدة فيها وكانت الديارات كما هو معلوم تقام على ضفاف الأنهار الكبيرة والقنوات ، ولذلك كان القاطول الكسرويّ أقوى أسباب السكن هناك وأدعى الدواعي إلى إنشاء الديارات فلا حياة بغير ماء ولا نبات ، قال ابن رافيون في معرفة الأنهار التي تحمل من دجلة وإليها تصب : « ويحمل منها أيضاً من شرقيها (القاطول الأعلى الكسروي) أوله أسفل من دور الحارث بشيء يسير ، مماسّ لقصر المتوكل [1] على الله المعروف بالجعفري وعليه هناك قنطرة حجارة ثم يمرّ إلى الايتاخية وعليه هُناك قنطرة كسروية ثم يمر الى المحمدية وعليه هناك جسر زواريق ثم يمرّ إلى الأجمة : قرية كبيرة ثم يمرّ الى الشاذروان ثم يمر إلى المأمونية وهي قرية كبيرة ثم يمر الى القناطر . وهذه قرى عامرة وضياع متصلة ثم يمرّ إلى قرية يقال لها (صولا) وباعقوبا [2] ويسمّى هناك

---

(١) هذا الوصف بالنسبة الى عصر المؤلف وهو القرن الثالث للهجرة ، ولكونه أقدم وصف قدمناه في النقل . (٢) مزج ابن سرافيون في وصفه القاطول الكسروي بقاطول « القناية » قال ياقوت : القناية بكسر اوله وتشديد ثانيه وبعد الالف ياء مثناة من تحت هو نهر في سواد العراق من نواحي الراذانين » وقال ابن عبد الحق في المراصد : « هو مسيل عميق كالوادي بين القاطـول وتامرا قرب بعقوبا » . ومجراه لا يزال ظاهراً بين أول الفرفة وديالى بالجانب الغربي من بعقوبا ، وكثير من الباحثين لم يهتدوا الى معرفته ولذلك تجنبوا وصف ابن سرافيون بالنص .

تامرّا[١] ثم يمرّ إلى باجسرا ويجيء إلى الجسر المعروف بجسر النهروان[٢] ويعرف النهر هناك بالنهروان ثم يمرّ الى الشاذروان الأعلى ثم يمرّ إلى جسر بوران ثم يمرّ الى عَبرتا[٣] ثم إلى برزاطية ثم إلى الشاذروان الأسفل[٤]. وبهذه قرى وضياع جليلة ، ثم يمر الى إسكاف بني الجنيد[٥] وهي مدينة في جانبين والنهر يشقها ثم يمرّ بين قرى متصلة وضياع مادة إلى أن يصب في دجلة أسفل ماذرايا بشيء يسير في الجانب الشرقي »[٦].

وقال ياقوت الحموي : « القاطول فاعول من القطل وهو القطع ... اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة وهو نهر كان في موضع سامرا قبل ان تُعمر كان الرشيد أول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصراً وسمّاه (أبا الجند) لكثرة ما كان يسقي من الأرضين وجعله لأرزاق جنده ... وفوق هذا القاطول (القاطول الكسروي) حفره كسرى أنو شروان العادل ، يأخذ من جانب دجلة في الجانب الشرقي أيضاً وعليه أيضاً شاذروان فوقه يسقي رستاقاً بين النهرين من طسُّوج بزُرج سابور وحفر بعده الرشيد هذا القاطول الذي قدمنا ذكره تحته مما يلي بغداد[٧] وهو أيضاً يصب في النهروان تحت الشاذروان قال جحظة البرمكي يذكر القاطول والقادسية المجاورة لها :

ألا هل الى الغدران والشمس طلقة سبيل ونَوْر الخِير مجتمع الشملِ ؟

---

(١) مزجه المؤلف هنا بالنهر المعروف بديالى وكانت اعاليه فقط تسمى تامراً وأسافلة تسمى ديالى تحت السد . (٢) وهو الموضع الذي جرت فيه وقعة النهروان المشهورة ، قرب الموضع المعروف اليوم بالاسم الافرنجي «كاسل بوست» شرقي خان بني سعد . (٣) لا تزال أطلالها قائمة مع منارة صغيرة على النهروان العتيق . (٤) لا تزال اكثر منشآته قائمة في شمال العزيزية الشرقي . (٥) لا تزال أطلالها قائمة شرقي العزيزية . (٦) ابن سرافيون «ص١٩ من الطبعة الخاصة» . (٧) ذكر ابن عبد الحق في المراصد كلام ياقوت ثم قال : « وهذا كلام فيه اختلال لأن الذي ذكره قال في موضع سامرا فكيف صار الى بغداد وفي طريقه واديان كبيران هما العظيم والراجع لا يمكن ان يجتاز عليها وإنما القاطول الذي بباب بغداد هو نهر يأخذ من تامرا تحت نهر الخالص ويصل ماؤه الى باب بغداد وهو نهر كلواذي » .

ومستشرف للعين تغـــدو ظباؤه   صوائد الباب الرجال بلا نبل
إلى شاطيء القاطول بالجانب الذي   به القصر بين القادسية والنخـــل
إلى مجمع للطير فيه رطانـــة   يُطيف بها القنّاص بالخيل والرّجل
فحانة مرعبد اليهودي إنّها   مشهّرة بالراح معشوقة الأهـــل
وكم راكب ظهرالظلام مغلّس   إلى قهوة صفراء معدومة المثـــل
إذا نفّذ الخمارُ دَنّـــاً بمبزل   تبينت وجه السكر في ذلك البَزْل
وكم من صريع لا يدير لسانه   ومن ناطق بالجهل ليس بذي جَهل
تَرى شرِس الأخلاق من بعد شربها   جديراً ببذل المال والخلق السهل
جمعتُ بها شمل الخلاعة بُرهةً   وفرّقت مالاً غير مُصغ إلى عذل
لقد غنيت دهراً بقُربي نفيسةً   فكيف تراها حين فارقها مثلي »[1] ؟

وقد ورد ذكر القاطول في شعر علي بن الجهم والبحتريّ وغيرهما وفي عدة تواريخ[2] .

والقاطول الكسروي له صلة بنهر يكاد يكون خيالياً لأن اسمه يعني كل انكسار كان يحدثه الفيضان في ضفته اليسرى ، قال ياقوت : « القُورج : بالضم ثم السكون وراء مفتوحة وجيم ، هو نهر بين القاطول وبغداد منه يكون غرق بغداد كل وقت تغرق . وكان السبب في حفر هذا النهر أن كسرى لما حفر القاطول أضرَّ ذلك بأهل الأسافل وانقطع عنهم المـــاء حتى افتقرُوا وذهبت أموالهم ، فخرج أهل تلك النواحي إلى كسرى يتظلمون إليه مما حَل بهم ، فوافوه وقد خرج متنزهاً ، فقالُوا : أيها الملك إنّا جئنا نتظلم . فقال : ممّن ؟ قالُوا : منك ، فثنى رجله ونزل عن دابّته وجلس على الأرض ،

---

(١) معجم البلدان في « القاطول » . وللدكتور أحمد سوسه . بحث مفصل عن القاطول الكسروي والقواطيل الأخرى في كتابه البارع « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » « ١ : ١٤٤ – ٢١١ » ظن فيه أن مجرى قاطول القناية هو مجرى نهر القورج . (٢) ذكر الجهشياري أن يحيى بن خالد البرمكي هو الذي احتفر قاطول الرشيد واستخرج نهراً سماه أبا الجند وأنفق عليه عشرين مليون درهم أي مليوني دينار بالقيمة الشرعية « الوزراء والكتاب ص ١٧٧ طبعة البابي بمصر » .

فأتاه بعض من معه بشيء يجلس عليه ، فأبى وقال : لا أجلس إلا على الأرض إذ أتاني قوم يتظلمون منّي . ثم قال : ما مظلمتكم ؟ قالوا : حفرت قاطولك فخرّب بلادنا وانقطع عنا الماء[1] ، ففسدت مزارعنا وذهب معاشنا . فقال : إني آمر بسدّه ليعود اليكم ماؤكم . قالُوا : لا نجشّمك أيها الملك هذا فيفسد عليك اختيارك ولكن مُر أن يُعمَل لنا مجرى من دون القاطول . فعمل لهم مجرى بناحية القورج يجري فيه الماء ، فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم ، وأمّا اليوم فهو بلاء على أهل بغداد فانهم يجتهدون في سدّه واحكامه بغاية جهدهم ، وإذا زاد الماء فأفرط بَثقَهُ وتعدّى إلى دورهم وبلدهم فخرّبه » .

واختصر ابن عبد الحق كلام ياقوت ولم يعقب عليه ولا ذكر فوهة نهر القورج أين كانت فيما بين القاطول وبغداد ولا كون هذا النهر جارياً أو مندرساً أو مندفناً في زمانه بخلاف عادته مع أنّه لما ذكر وصف ياقوت للقاطول الكسروي عقّب عليه باستحالة امتداده إلى نواحي بغداد كما زعم ياقوت ، وقد نقلت ذلك التعقيب في حاشية سابقة . والعجيب في أمر هذا النهر الخيالي أنه لم يرد ذكره في تاريخ سوى من نقل من معجم ياقوت الحموي ومنهم مؤلف عجائب المخلوقات « ص ١٦٣ » . ومؤلف جريدة العجائب « ص ١١١ » ومؤلفات المراصد من التواريخ ولا ذكرت عليه قرية من القُرى ولا ضيعة من الضياع ولا رآه جغرافي ولا بلداني ولا سائح من القدامى ولا من المتأخرين ، وكل ما ذكر من أخباره أنه انكسار عام في ضفة دجلة ، ليس له موضع معلوم ولا مجرى خاص ، ويسمّى بالعربية « البثق » قال ابو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة ٤٦١ ؛ « وفي جمادي الأولى بلغت زيادة الماء إحدى وعشرين ذراعاً وثُلُثين وبلغ إلى الثريّا[2] ، وفجّرت (بثقاً)

---

(١) يقال هنا : كيف أضر ذلك بأهل الأسافل وأي ماء انقطع عنهم ؟ (٢) الثريا موضع كان في قصر ريفي عظيم للمعتضد وهو على تقديري وتحريري الموضع الذي بني فيه مخزن « السايلو » حتى شمالي محلة الجعدان والفضل من شرقي بغداد .

فوق الدار المعزّية [١] وبلغ الماء الى مشهد النذور [٢] ومشهد السبتي [٣] » فهذا البثق كان يسمّى باصطلاح ذلك العصر « القورج » وقد سمّاه المؤرخ نفسه بعد ذلك « القورج » قال في حوادث سنة ٤٦٦ : « وفي جمادى الآخرة ورد الحاجب السليماني من عكبرا فدخل الديوان ، فرُسم له تدارك القورج الذي هو فوق الدار المعزّية وكانت دجلة قد زادت زيادة مفرطة واتصل المطر بالموصل والجبال ونودي بالعوام أن يخرجُوا معه لذلك . فخرج من الديوان وأراد قصد الموضع فرأى الماء قد حجز بينه وبين الطريق ، فرجع إلى دار المملكة [٤] وجِلاً وجمع زواريق وطرح فيها رحله ليعبر فيهرب [٥] ... » . فقوله « القورج الذي هو فوق الدار المعزية » يدل على أنّ القورج لم يكن واحداً وأنه اسم جنس عام ، وأنه بثق يجوز أن يحدث في كل موضع من الضفة يثلمه الماء ومما نذكره هنا للبرهنة على ذلك أن أبا الفرج ابن الجوزي قال في حوادث سنة ٤٨٩ : « وفي هذه السنة حكم المنجمون بطوفان يكون في الناس يقارب طوفان نوح ... فقبل ما يجتمع في بلد ما يجتمع في بغداد وربّما غرقت فتُقدّم باحكام المسنيات والمواضع التي يخشى منها الانفجار ، وكان الناس ينتظرون الغرق » [٦] . وقال ابن تغري بردي في كلامه على هذه الحادثة : « فأمر الخليفة بأحكام المسنيّات وسد القوارج [٧] وكان الناس يتوقعون الغرق [٨] » . فقولـــه : « وسد القورج أو القوارج » يفسّره قول ابن الجوزي « بأحكام المسنيات والمواضع التي يخشى منها الانفجار » . وهذا المؤرخ نفسه يقول

---

(١) هي ارض الدار التي ابتناها معز الدولة بن بويه الأمير بباب الشماسية أي محلة الصليخ بالأعظمية . (٢) مشهد النذور هو قبر عبيد الله العلوي ويعرف اليوم بأم رابعة . (٣) المنتظم « ٨ : ٢٥٤ » . (٤) دار المملكة كانت في محلة المخرم وهي أرض العلوزاية الحالية والصرافية من شرقي بغداد . (٥) المنتظم « ٨ : ٢٨٤ » . (٦) المنتظم ٩ : ٩٧ » . (٧) في النجوم الزاهرة طبعة مصر وهو مرجعنا « الفروج » وهو تصحيف القورج والقوارج . (٨) النجوم الزاهرة « ٥ : ١٥٨ » .

في حوادث سنة ٥١٦ : « وفي هذه السنة زاد الماء حتى خيف على بغداد من الغرق وتقدّم الى القاضي أبي العباس بن الرُّطبي بالخروج الى القورج » ومشاهدة ما يحتاج إليه ، ولهذا (القورج) الذي غرق الناس منه في سنة ست وستين (وأربعمائة) تولى عمارته نوشتكين خادم أبي نصر بن جهير وكتب اسمه عليه وضرب عليه خيمة ولم يفارقه حتى أحكمه وغرم عليه ألوف دنانير من مال نفسه ... وفي يوم الاربعاء رابع عشر صفر مضى الوزير أبو علي بن صدقة ومعه موكب الخليفة الى القورج واجتمع بالوزير ابي طالب ووقفا على ظهور مراكبهما ساعة ثم انصرفا »[1].

وقال سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٦٦ المذكورة آنفاً : « في جمادى الأولى زادت دجلة زيادة عظيمة لم يعهد مثلها وأمر الخليفة العوام بالخروج مع الحاجب (السليماني) أيتكين إلى عمل القورج ، فخرجوا ، وإذا بالماء قد أقبل مثل الجبال ، فرجع أيتكين والناس ، وجمع الزواريق وجعل فيها رحله ورحل أصحابه ... »[2] ثم قال : « وانكسر القورج على دار الخلافة وصار كالبحر ثم جاء من ناحية الجانب الغربي من الفرات »[3] فتأمل قوله : « ثم جاء من ناحية الجانب الغربي من الفرات » لتتحقق انه أراد مطلق انبثاق سد الماء أو ضفة النهر في أي موضع كان . وقال عز الدين ابن الأثير في حوادث السنة المذكورة — أعني سنة ٤٦٧ — : « في هذه السنة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البريّة مع ريح شديدة وجاء الماء الى المنازل من فوق ، ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم ... »[4].

وقال العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٥٤ : « وعند عودة المقتفي

---

(١) المنتظم « ٩ : ٢٣٢ » . (٢) مرآة الزمان « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقة ١٤٦ » . (٣) المرجع المذكور « و ١٤٧ » . (٤) الكامل في حوادث سنة ٤٦٦ .

غرقت بغداد وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٤ وذلك لأن الماء زاد في تلك السنة على خلاف عادته وتهوّر بثق القورج وتقوّر وغلب وبلغ السور من صوب الظفريّة [١] وتسوّر وطاف بتلك النواحي طوفان نوح ... وركب الوزير وأرباب الدولة فصدّوه وسدّوه » [٢]. وقال أبو الفرج إبن الجوزي في حوادثها : « وفي ثامن عشر ربيع الأول كثر المدّ بدجلة وخرق القورج وأقبل الى البلد وامتلأت الصحارى وخندق السور وأفسد الماء السّور ففتح فتحة ... [٣] » ثم قال في حوادث سنة ٥٦٩ : « وفي غرة رمضان زادت دجلة زيادة كبيرة ... ثم زاد الماء في يوم الأحد عاشر رمضان فزاد على كل زيادة ... وتقدم بالعوام (أن) يخرجوا بالوعاظ الى القورج ليعملوا فيه فخرجنا [٤] وقد انفتح موضع فوق القورج بقرية يقال لها الزورتقية وجاء الماء من قبله فتداركه الناس فسدوه وبات عليهم الجند وتولى العمل الأمير قيماز بنفسه وحده ثم انفتح يومئذ بعد العصر فتحة من جانب دار السلطان وساح المـــاء فملأ الجواد ثم سُدّ بعد جهد » [٥]

وقال عز الدين بن الأثير في حوادث سنة ٥٥٤ : « في هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخُرق القورج فوق بغداد وأقبل المدّ إلى البلد فامتلأت الصحاري ، وخندق البلد وأفسد الماء السور » [٦]. ثم قال في حوادث سنة ٥٦٨ : « في هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق في شعبان ... واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم نقص وكفي الناس شرّه [٧] » ثم قال في حوادث سنة ٥٦٩ : « وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد ... وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطيء

---

(١) الظفرية محلة من محال الجانب الشرقي من بغداد أيامئذ وكانت في أرض شارع الشيخ عمر الحالي وما يليه الى مقبرة الشيخ المذكور . (٢) زبدة النصرة في أخبار الدولة السلجوقية « ص ٢٦٦ طبعة مصر » . (٣) المنتظم « ١٠ : ١٨٩ » . (٤) كان المؤلف من الوعاظ المشهورين فلذلك خرج معهم . (٥) المنتظم « ١٠ : ٢٤٤ » . (٦) الكامل في حوادث سنة ٥٥٤ . (٧) المرجع المذكور في حوادث سنة ٥٦٨ .

دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره ، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسدّه »[١] ، وجاء في كتاب آخر : « ثم إن دجلة زادت زيادة عظيمة في سنة أربع وخمسين[٢] في خلافة المقتفي لأمر الله وانفتح القورج واحاط بالسُّور[٣] » وورد في مختصر الدول في حوادث سنة ٥٥٤ : « وفي سنة أربع وخمسين (وخمسمائة) ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرج القورج بغداد فامتلأت الصحاري وخندق البلد ووقع بعض السُّور[٤] » .

وقال عز الدين ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤ : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق ، فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدّوا السفن لينجوا فيها »[٥] ، ثم قال في حوادث سنة ٦٢٣ : « وفيها في ربيع الأول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريباً من الزيادة الأولة ثم نقص الماء واستبشر الناس »[٦] .

وجاء في حوادث سنة ٦٤٦ لمؤرخ ينقل من تاريخ ابن الساعي : « وفي السابع والعشرين من شوال زادت دجلة زيادة عظمية وأغرقت بالجانب الغربي الدور والدكاكين والمساكن والحمامات ... وأمر الخليفة على نائب المخزن بملازمة القورج وإحكامه ، وأطلق من الديوان ذهب لاقامته الرجال ولزوم العمل ليلاً ونهاراً وخرج الوزير في غرّة ذي القعدة مسرعاً قاصداً للقورج وتتابع خروج الناس في أثره ونزل عن مركوبه وحمل باقة حطب وسار إلى آخر القورج ونبّه الناس على المواضع المستضعفة منه ونقص الماء في ذلك اليوم أربع أصابع »[٧] . وجاء في كتاب الحوادث في الحادثة نفسها : « وكان

---

(١) المرجع المذكور في حوادث سنة ٥٦٩ . (٢) يعني « وخمسمائة » كما هو ظاهر .
(٣) مختصر مناقب بغداد « ص ١٧ ، ١٨ » . (٤) تاريخ مختصر الدول « ص ٣٦٣ » .
(٥) الكامل في حوادث سنة ٦١٤ . (٦) المرجع المذكور في حوادث سنة ٦٢٣ . (٧) العسجد المسبوك « نسخة المجمع المصورة ، الورقة ١٧٤ » تأليف أبي الحسن علي بن الحسن الخزرجي .

من حيث تزايد المـــاء في دجلة تقدَّم باحكام القورج وخرج الوزير ابن العلقمي إلى هناك ونزل عن فرسه وحمل باقة حطب فوافقه كافة الناس واشتدَّ العمل فاتفق أن دجلة نقصت »[١] . وقال الخزرجي في حوادث سنة ٦٥٢ ناقلاً أيضاً : « وفي شهر ربيع الأول انفتحت فتحة في القورج أغرقت قرية يحي[٢] وما يجاورها ثم انفتحت في السبت فتحة أخرى أغرقت عدة نواح بنهر عيسى ونهر الملك ثم زادت الفرات زيادة جاوزت المقدار المعتاد »[٣] . وجاء في الحوادث في سنة ٦٥٤ : « في هذه السنة زادت دجلة زيادة عظيمة وانفتح في القورج فتحة كبيرة عجز من يتولاها عن استدراكها فركب الوزير وكافة الولاة معه وأخذ الوزير في يده باقة شوك ، ففعل سائر العالم مثل ذلك ولم يقع التمكن من سدّها فتركت وانهزم الناس كلهم والماء في أثرهم وأحاط ببغداد[٤]» . وقال الخزرجي في حوادث سنة ٦٥٤ : « وزادت دجلة زيادة أغرقت الجانب الغربي ووقع به دور كثيرة وانفتح في القورج بعد حكامه فتحة عظيمة ومنع الناس من تداركهـــا ، وتوالت الأهوية وخرج الوزير وكافة الناس وأرادوا سدّ الفتحة فتعذر الوصول إليها »[٥] .

وقال مؤلف الحوادث في أخبار سنة ٦٧٤ : « وفيها زادت دجلة وغرق ببغداد عدّة أماكن وانفتح في القورج فتحة عظيمة ، فخرج علاء الدين صاحب الديوان وكافة الولاة والأكابر والعوام وأخذ الصاحب باقة شوك وضعها على فرسه فلم يبق أحد الا فعل مثله ونزل الصاحب وعمل بيده وتكاثر الناس وتساعدوا فاستدركوها وسدّوها »[٦] .

وورد في حوادث سنة ٧٦٥ هـ ، أن الخواجة أمين الدين مرجان بن عبد الله

---

(١) كتاب الحوادث المسمى وهما « الحوادث الجامعة ص ٢٣١ » . (٢) ذكر المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٦٥٣ ان قرية يحيى من نواحي الخالص فتأمل كون الطورج غير معلوم الموضع . (٣) المسجد المسبوك « الورقة ١٨٣ » . (٤) كتاب الحوادث المذكور « ص ٣١٧ » . (٥) المسجد المسبوك « و ١٧٨ » . (٦) كتاب الحوادث « ص ٣٩٤ » .

نائب السلطان أويس إبن السلطان الشيخ حسن الكبير ببغداد « قد فتح سدود دجلة فأغرق أطراف بغداد لمسافة أربع ساعات ، فقد كسر سد القورج وقطع الطريق ، فلم يتمكن السلطان أويس من الاستيلاء على البلد ومضت أيام والوضع في توقف ولم يتيسر الأمر »[١] .

ومما يدل على شيوع اسم القورج أنه كان بالقرب من واسط موضع يعرف بباب القورج منذ العصر الأموي فقد جاء في حوادث سنة ١٢٧ في حرب الخوارج ما هذا نصه « فشدّ منصور بن جمهور على قائد من قواد الضحّاك كان عظيم القدر في الشراة يقال له عكرمة بن شيبان فضربه على باب القورج فقطعه باثنين فقتله »[٢] . وذكر المقريزي أن عبـــد الله بن ميمون القداحي — اعني عبد الله — «كان أصله من موضع بالأهواز يعرف بقورج العباس »[٣] .

وقال الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال — رح — : « لم أجد في المراجع التي بين يدي تعريفاً لموضع هذا البلد[٣] » . قلت ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٥٨ في أخبار صاحب الزنج وقتل صاحبه يحي بن محمد البحراني ، ويفهم من النص التاريخي أنه كان في نواحي البصرة لا في الأهواز قال : « فلما قربوا من نهر العباس جعل يحي بن محمد سليمان بن جامع على مقدمته فمضى يقود أوائل الزنج وهم يجرون سفنهم يريدون الخروج من نهر العباس وفي النهر للسلطان شذوات وسميريات تحمي فوهته من قبل أصغجون ومعها جمع من الفرسان والرجالة فراعه وأصحابه ذلك ، فخلّوا سفنهم وألقوا أنفسهم في غربي نهر العباس وأخذوا على طريق الزيدان ماضين نحو عسكر الخبيث ويحي غارّ بما أصابهم ، لم يأته علم شيء من خبرهم وهو متوسط عسكره وقد وقف على قنطرة قورج العباس »[٤] .

---

(١) العراق بين احتلالين « ٢ : ١١٠ » للأستاذ عباس العزاوي ، وقد جاء القورج في الخبر منكراً لأن الفرس ينكرونه في لغتهم . (٢) الطبري في حوادث سنة ١٢٧ « ج ٨ : ٦١ من طبعة المطبعة الحسينية المصرية » . (٣) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء « ص ٢٨ » . (٤) الطبري في حوادث سنة ٢٥٨ « ج ١١ ص ٢٢٦ من الطبعة المذكورة ».

دير سامرّا

والآن نشرع في ذكر ديارات سامرا العتيقة فقد كانت أقدم زماناً من «سامرا المعتصم» والمألوف في انشاء الديارات أن تكون على ضفاف الأنهار والقنيّ في الأرضين الخصبة لتسهيل العيش على الرهبان والراهبات، والقدرة على القيام بضيافة المضطرين من أهل الأسفار والطرّاء والمنقطعين، فأول دير نذكره هو «ديرسامرا» فانّا لم نجد له اسماً ولكننا وجدنا له ذكراً في الأخبار فقد ذكر جماعة من المؤرخين أن المعتصم اشترى ديراً بسامرا وبنى في أرضه وصار هذا الدير بعد إنشاء دار العامة في أرضه «بيت المال» ولكنهم لم يذكرُوا اسم هذا الدير الشائع أيامئذ ولا اسمه الحقيقي فمن الديارات ما كان يشيع له اسم غير اسمه الحقيقي بسبب قوي من أسباب الشيوع، قال اليعقوبي وهو والبلاذري أقدم من أرّخ إنشاء سامرا المعتصم: «وخرج المعتصم الى القاطول في النصف من ذي القعدة سنة (٢٢٠) فاختط موضع المدينة التي بناها وأقطع الناس المقاطع وجدّ في البناء حتى بنى الناس القصور والدور وقامت الأسواق ثم ارتحل من القاطول إلى (سر من رأى) فوقف في الموضع الذي فيه (دار العامة) وهناك (دير) للنصارى فاشترى من أهل الديــر الأرض واختط فيه وصار إلى موضع القصر المعروف بالجوسق على دجلة فبنى هناك عدة قصور للقواد والكتاب وسمّاها بأسمائهم»[١]. وقـــال في كتاب البلدان: «قال أحمد بن أبي يعقوب: كانتْ سُرَّ من رأى في متقدم الأيام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال» وكرَّر الحديث عوداً على بدء فقال: «ثم ركب المعتصم متصيداً فمرَّ في مسيره حتى صار إلى موضع (سرَّ من رأى). صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ولا انيس فيها إلا دير للنصارى فوقف بالدير وكلّم من فيه من

---

(١) تاريخ اليعقوبي «٣ : ١٩٩ طبعة النجف».

الرهبان وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقال له بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يسمى (سرّ من رأى) وأنه كان مدينة سام بن نوح وأنه سيعمر بعد دهور على يد ملك جليل مظفر منصور لـــه أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة [١] ينزلها ويُنزلها ولده ... » [٢] .

وجاء في تاريخ الطبري « ذكر عن أبي الوزير أحمد بن خالد أنه قال : بعثني المعتصم في سنة ٢١٩ وقال لي : يا أحمد اشتر لي بناحية سامرّا [٣] موضعاً ابني فيه مدينة فاني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني ، حتى أكون فوقهم فان رابني منهم ريب أتيتهم في البرّ والبحر حتى آتي عليهم . وقال لي : خذ مائة ألف دينار . قلت : آخذ خمسة آلاف دينار فكلما احتجت إلى زيادة بعثت اليك فاستزدت . قال : نعم . فأتيت الموضع فاشتريت سامرّا بخمس مئة درهم من النصارى أصحاب الدير واشتريت موضـــع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم واشتريت عدّة مواضـــع حتى أحكمت ما أردتُ ثم انحدرت فأتيته بالصكاك فعزم على الخروج إليها في سنة (٢٢٠) فخرج حتى إذا قارب القاطول ضربت له فيه القباب والمضارب وضرب الناس الأخبية ثم لم يزل يتقدم وتضرب له القباب حتى وضع البناء بسامرّا في سنة ٢٢١ » [٤] .

فهذا الخبر يؤكد وجود الدير وابتياع المعتصم له ولمرافقه وثبت وجود عُمران في تلك البقعة لا كونها صحراء لا عمارة بها ولا أنيس كما زعم اليعقوبي وإنما كانت هُناك قرى منشأة على الأنهار كالقاطول الكسروي وفروعه .

ولم أجد في المراجع النصرانية ولا كتاب الديارات للشابشتي ولا غيره

---

(١) يعني الأتراك من جند المعتصم . (٢) البلدان « ص ٢٣ ، ٢٤ طبعة النجف ، وآخر الخبر ضرب من ضروب الملاحم المخترعة . (٣) هكذا ورد مقصوراً في تاريخ الطبري كما ذكرت في أول البحث وأحلت على هذا النقل . (٤) تاريخ الطبري في حوادث سنة ٢٢٠ ، وهي في « ج ١٠ ص ٣١١ طبعة المطبعة الحسينية المصرية » .

من الكتب التي أرّخت الديارات ذكراً لدير سامرا ، كما سميته انا ، فماري ابن سليمان مؤرخ الفطاركة النساطرة وهم اهل المذهب النصراني الغالب بالعراق أيامئذ يقول : « وفي السنة الثانية من خلافة المعتصم وقع الحريق ببغداد وتلفت أموال التجار قرباً وبعداً ولم يمكن طفيه – يعني إطفاءه – واخرج المعتصم مالاً وسلّمه الى قاضيين لاستحلاف كل إنسان على ما ذهب له ويدفع إليه خمسه ، وخرج إلى الطيرهان للتصيد وصاد وجعل في أعناق السباع الأطواق الحديد ووسم على أفخاذ الظباء وحمير الوحش اسمه واستطاب الموضع وابتاع من سكان ذلك الموضع النصارى الخرابات المتصلة بالمطيرة وجدّد بناء « سُرَّ من رأى » [١] . ولم يذكر ديراً بعينه بل ذكر خرابات كما قرأت . هذا وقد جاء ذكر بني الصقر وكان بموضع الايتاخية التي سميت بعد ذلك المحمدية كما سيأتي في الكلام على الجوسق .

دير مرماري

كان هذا الدير في الطيرهان عند سامرا قرب الموضع الذي عرف بعد تمصير المعتصم لسامرا باسم قنطرة وصيف ، قال الشابشتي : « وهذا الدير بسُرَّ من رأى » [٢] ، وهو دير عامر كثير الرهبان ، حوله كروم وشجر وهو من المواضع النزهة والبقاع الطيبة الحسنة » [٣] . وماري الذي أضيف اليه هذا الدير عرف في تاريخ النصارى النساطرة وهوفطركهم باسم « مارماري السليم » . وهو الذي نشر النصرانية النسطورية في الشرق ونصّر كثيراً من الناس ببابل والعراقيين واليمن والجزائر وبحر اليمن وبحر الهند والأهواز وكور دجلة وفارس وكسكر وأهل الراذانين وحمل رجلاً واسع الحال على إنشاء

---

(١) أخبار فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان « ص ٧٧ طبعة رومة سنة ١٨٩٩ » .
(٢) يعني في عصره وهوالقرن الرابع للهجرة ولذلك سمي « سامرا » سر من رأى . (٣) الديارات « ص ١٦٣ من طبعة مكتبة المثنى ، تحقيق كوركيس عواد » .

ثلاث مئة وستين بيعة وعمْراً وديراً ووقف عليها الوقوف وتوجه الى مدينة سلوقية مقابل المدائن من الجانب الغربي ونشر فيها النصرانية وقاوم المجوسيّة الثنوية ، وعمل العجائب في بناء البيع ومن جملتها البيعة الكبيرة بالمدائن التي كانت مركزاً لنصب الجثالقة بالجدد وبيعة داورتا [1] ببغداد قبل ان يمصرها المنصور وقبل الدولة الاسلامية أصلاً ، ومضى الى الطيرهان منطقة سامرا ثم مضى الى دور قنّى وكان بها امرأة نبيلة جليلة اسمها قنّى [2] ، فسارعت الى تصديقه والايمان بدينه ووهبت له ضياعها وبنى الدير هناك وهو الذي دفن فيه وكان بيتاً لنار المجوس ثم صار الى كسكر وكان اهلها وثنيين فنصّرهم وحملهم على كسر الوثنين اللذين كانا عندهم ثم انحدر الى دستميسان ودخل الابلة وبنى البيعة التي عرفت ببيعة القدس فكانت الابلة هي المدينة الاصلية هناك قبل الاسلام وبلغت دعوته البحر ،وصوّر في البيع صور السيدة مريم –ع– وابرار النصارى ثم توفي سنة (٨٢ م) ودفن بدير قنّى عن يمين المذبح بعد فطركة دامت ثلاثاً وثلاثين سنة » [3] . هذا موجز ما ذكره المؤرخان النصرانيان النسطوريان المذكوران في الحاشية وعليهما عهدة اقوالهما ، وفي هذا الدير يقول الفضل بن العباس بن المأمون :

انضيتُ في سر مَن راخيل لذاتي	ونلت فيها منى نفسي وشهواتي
عمرتُ فيها بقاع اللهو منغمساً	في القصف ما بين انهار وجنات
بدير مرمار إذ نحيي الصبوح به	ونعمل الكأس فيه بالعشيات
بين النواقيس والتقديس آونة	وتارة بين عيدان ونايات
وكم به من غزال اغيد غزل	يصيدنا باللحاظ البابليات [4]

(١) ذكرها ياقوت باسم « ديردرتا » قال : في غربي بغداد وقد تقدم ذكر درتا وهو دير يحاذي باب الشماسية راكب على دجلة ، حسن العمارة ، كثير الرهبان وله هيكل في نهاية العلو ».
(٢) التاريخ العربي يذكر ان قنى كان رجلا نبطياً نصرانياً اكولا وهب له احد الأكاسرة مالا لكثرة اكله فأنشأ هذا الدير « المجموع اللفيف » . (٣) أخبار فطاركة كرسي المشرق ص ٣ ، ٤ ، ٥ » لماري بن سليمان ، وأخبارهم لعمر بن متى « ص ١ ، ٢ » . (٤) الديارات ، ص ١٦٣ » =

وذكر الفضل هذا انه خرج ذات يوم مع المعتز للصيد قال : فانقطعنا عن الموكب انا وهو ويونس بن بغا ، فشكا المعتز العطش ، فقلت له : يا أمـــير المؤمنين ان في هذا الدير راهباً اعرفه له مودة حسنة ، خفيف الروح وفيه آلات جميلة فهل لأمير المؤمنين أن نعدل اليه ؟ قال : افعل فصرنا الى الديراني فرحب بنا وتلقانا أجمل لقاء وجاءنا بماء بارد فشربنا ، وعرض علينا النزول عنده وقال : تتبردون عندنا ونحضركم ما تيسر في ديرنا فتنالون منه . فاستظرفه المعتز وقال : انزل بنا اليه فنزلنا . فسألني الديراني عن المعتز ويونس بن بغا . فقلت : هما من أبناء الجند . فقال : بل مفلتان من ازواج الحور . فقلت : هذا ليس من دينك ولا اعتقادك . قال : هو الآن من ديني واعتقـــادي [1] . فضحك المعتز . ثم جاءنا بخبز وأشاطير وما يكون مثله في الديارات ، فكان من أنظف طعام واطيبه وأحسن آنية ، فأكلنا وغسلنا ايدينا . فقال لي المعتز : قُل له بينك وبينهُ من تحب ان يكون معك من هذين ولا يفارقك ؟ قال الفضل فقلت له . فقال : كلاهما وتمراً . فضحك المعتز حتى مال على حائط الدير من الضحك . فقلت للديراني : لا بُدّ من ان تختار فقال الاختيار في هذا دمار ، ما خلق الله عقلاً يميز بين هؤلاء . ثم لحقنا الموكب فارتاع الديراني . فقال له المعتز : بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه فاني لمن ثم مولىً ولمن ها هنا صديق . فجلسنا ساعة وأمر له المعتز بخمسين الف درهم . فقال : والله لا قبلتها إلا على شرط . قال : وما هو ؟ قال : يكون أمير المؤمنين في دعوتي مع من أحبّ . قال المعتز : ذاك اليك . فاتفقنا ليوم جئناه فيه على ما أحب ، فلم يبق غاية وأقام بمن كان معه وجاء باولاد النصارى فخدمونا احسن خدمة . فسر المعتز سروراً ما رأيته

= وذكر الأبيات ياقوت الحموي في الكلام على « دير مرماري » من معجم البلدان وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار « ١ : ص ٢٨٢ » .

(١) ذكر ابو هلال العسكري في باب اللام من جمهرة الأمثال والكرماني في تنقيح أمثال الميداني المثل « الوط من راهب » قال الأخير: وهذا من قول الشاعر : والوط من راهب يدعي بان النساء عليه حرام

قلت : هو من ابيات ذكرها الشابشتي في كلامه على دير العذارى « ص ١٠٨ » وسيأتي الكلام عليه .

سرّ مثله . ووصله في ذلك اليوم بمال كثير ، ولم يزل يطرقه اذا اجتاز به ويأكل عنده ويشرب مدة حياته »[١] .

دير السوسي

قال الشابشتي : « هذا الدير لطيف[٢] على شاطىء دجلة بقادسية سرّ من رأى وبين القادسية[٣] وسر من رأى أربعة فراسخ ، والمطيرة بينهما وهـذه النواحي كلها متنزهات وبساتين وكروم والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه وهو من مواطن السرور ومواضع القصف واللعب[٤] » . وقال ياقوت : « قال البلاذري : هو دير مريم بناه رجل من أهل السوس وسكنه هو ورهبان معه فسُمي به وهو بنواحي سر من رأى بالجانب الغربي »[٥] . ولابن المعتز في دير السّوسي :

يـا ليـاليَّ بالمطيرة والكـر	خ ودير السّوسي بالله عودي
كنت عندي انموذجات من الجـنّـ	... ة لكنها بغير خلـود
أشرب الراح وهي تشرب عقلـي	وعلى ذاك كان قتل الوليد[٦]

وجاء في مسالك الأبصار : « دير السوسي وهو في الجانب الغربي بسر من رأى ومنه أرضها فابتاعها المعتصم من أهله » . وهذا القول لايصح بعد قـول الشابشتي إنه بقادسية سامرا بينها وبين سامرا ، إلا ان ياقوتاً الحموي ذكر انـه بالجانب الغربي وقد نقلنا قوله ، وقول الشابشتي أثبت وأقدم .

وقال الخالدي : «حدثنا جحظة عن احمد بن ابي طاهر قال : قصدت سرّ من رأى

(١) الديارات للشابشتي « ص ١٦٤ ، ١٦٥ » ومسالك الأبصار « ١ : ٢٨٣ » . (٢) يعني بلطيف صغير الساحة والمساحة . (٣) سيأتي ذكر قادسية سامرا لأنها كانت اقدم زماناً منها . (٤) الديارات « ص ١٤٩ من الطبعة الثانية » . (٥) معجم البلدان في « دير السوسي » والظاهر انه كان بالجانب الشرقي . (٦) الديارات « ١٤٩ » ومعجم البلدان في « دير السوسي » والمسالك « ١ : ٢٦٣ » .

زائراً بعض كتابها بشعر مدحته به ، فقبلني وأحسن الي وأجزل صلتي ووهب لي غلاماً رومياً حسن الوجه ورحلتُ أريد بغداد سائراً على الظهر [1] ولم اركب الماء فلما سرت نحو الفرسخ أخذتنا السماء بأمر عظيم من القطر ونحن بالقرب من دير السوسي ، فقلت للغلام : اعدل بنا يا بني الى هذا الدير نقُم فيه الى ان يخف هذا المطر ففعل وازداد القطر واشتد وجاء الليل، فقال الراهب: أنت العشية ها هنا وعندي شراب جيد فتبيت وتقصف ويسكن المطر وتجف الطريق وتبكّر . فقلت : أفعل . فأخرج الي شراباً ما رأيت قط اصفى منه ولا أعطر . فقلت : هات مدامك . وأمرت بحط الرحل ، وبتّ والغلام يسقيني والراهب نديمي حتى مت سكراً ، فلما اصبحت رحلت وقلت :

سقى (سرّ من را) وسكـانها ... وديـراً لسوسيّها الراهب
سحاب تدفق عن رعده الصـ .... فوق وبارقه الـواصب
فقد بت في ديـره ليلـة ... وبدر على غُصُن صاحـبي
غزال سقاني حتى الصبـا ... حِ صفـراء كالذهب الذائب
على الورد من حمرة الـوجنتين ... وفي الآس من خضرة الشارب
سقاني المُدامة مستيقظـاً ... ونمت ونـام إلى جانـبي
فكانت هنات لك الويل مـن ... جناهـا الذي خطّـه كاتبي
فيا ربّ تُب واعفُ عن مـذنب ... مقرٍ بزلته تـائب [2]

دير باشهرا [3]

قال الشابشتي : « هذا الدير على شاطىء دجلة (بين سامرا وبغداد [4]) وهو

---

(١) كان طريق سامرا الى بغداد بالجانب الشرقي من دجلة وهذا يؤيد كون الدير بالجانب الشرقي . (٢) معجب الأدباء « ١ : ١٥٧ طبعة مرغوليوث الأولى ، وقد نقل الخبر ابن فضل الله العمري في المسالك « ١ : ٢٦٣ » وحذف اسم الخالدي ولم يذكر المرجع التاريخي فتأمل ذلك . (٣) جاء في حاشية محقق الديارات للشابشتي ان معنى باشهرا « محل السهر » . (٤) الزيادة من معجم البلدان وقد صرح صاحبه بأنه نقل كلام الشابشتي .

دير حسن عامر نزه ، كثير البساتين والكروم ، وهو احد المواضع المقصودة والديارات المشهودة ، والمنحدرون من سرّ من رأى والمصعدون اليها ينزلونه ، فمن جعله طريقاً بات فيه وأقام به ان طاب له ومن قصده أقام به في ألذّ عيش وأطيبه وأحسن مكان وأنزهه ،ولأبي العيناء فيه وكان نزله وأقام به واستطابه وقال فيه :

نزلنا دير باشهرا	على قسيسه ظهرا[1]
على دين يسوعي[2]	فما أختى وما أسرى
فأولى من جميل الفعـ	ـل ما يستعبد الحرّا
وسقّانا وروّانـا	من الصافية العذرا
وطاب الوقت في الدير	فرابطنا به عشرا
وسُقّينا به الشمس	وأخدمنا به البدرا
وأحييت لـذة الكأس	ولكن قتّلت سُكرا
ونلنا كل ما نهوا	ه من لذاتنا جهرا
تصابينا وغنّينا	وأرغمنا به الدهرا
وقد ساعدنا ربّنُ ...	طوعاً منه لا جبرا
جزاه الله عن خير	به قابلنا خيرا
فقد أوسعته شكراً	كما أوسعنا برّا[3]

دير عبدون

قال ياقوت الحموي : « دير عبدون هو بسر من رأى الى جنب المطيرة

---

(١) ذكر ياقوت من هذه القصيدة خمسة ابيات وقال : « فان صح وهو غريب لأن أبا العيناء قليل الشعر جداً لم يصح عندي له شيء من الشعر البتة » . مع ان الشابشتي قال : « وكان حسن الشعر جيد العارضة مليح الكتابة والترسل » . (٢) في الديارات المطبوع « ايسوع » ولا يوفي الوزن والذي ذكرناه من معجم البلدان . (٣) الديارات للشابشتي « ص ٧٩ ، ٨٠ » وذكره ابن فضل الله العمري بايجاز « المسالك ١ : ٢٨٢ » .

وسمي بدير عبدون لأن عبدون أخا صاعد بن مخلد ، كان كثير الالمام به والمقام فيه فنسب اليه وكان عبدون نصرانياً وأسلم أخوه صاعد على يد الموفق واستوزره وزاد ابن فضل‌الله العمري « وبلغ معه المبالغ العظيمة . وحكى البحتري أنه كان مع عبدون في هذا الدير في يوم فصح ومعه ابن خرداذبه ، قال فأنشدته قصيدتي التي مدحته بها وأولها :

لا جديد الصبا ولا ريعـــانهْ   راجع بعدما تقضى زمانـــهْ

فأمر لي بمائتي دينار وثياب خزّ وشِهريّ [1] بسرجه وبلجامه ، وأخوه حينئذ مع الموفق في قتال العلوي البصري (صاحب الزنج) ، فسرّ بذلك وقال لي : يا ابا عبادة ، قُل في هذا شعراً أنفذه الى ذي الوزارتين — يعني أخاه — وكان لُقّب بهذا ، فقلت :

ليكْتنفْكَ السرور والمـــــرحُ   ولا يفتْك الابريق والقدحُ
فتح وفصح قد وافياك معـــاً   فالفتح يقرى والفصح يفتتحُ
فانعم سليم الاقطار تغتبق الصهـ......باء كن دنها وتصطبحُ
فان أردت اجتراح سيئـــة   فهــاهنــا السيئــات تجترح

وأقمنا يومنا الى الليل وخلع على ابن خرداذبه وحمله وانصرفنا » [2] . واستطرد الشابشتي الى ذكر عبدون بن مخلد هذا بغير باعث يبعثه على الاستطراد ولعل في كتاب الديارات نقصاناً حدث به زوال الباعث قال : « وكان عبدون بن مخلد اخو صاعد بن مخلد عند وفاة اخيه واطلاقه من الحبس صار الى دير قنى فأقام فيه وتعبد .. ومات وهو مترهب بدير قنى في سنة عشر وثلاث مئة » [3] قال : « وكان عبدون هذا متخلف الصنعة شديد التخلف وبلغ مع ذلك مبلغاً عظيماً في ايام اخيه . قال [4] : فأهدت ريق المغنية الى عبدون فاكهة مبكرة

---

(١) الشهري بكسر الشين احد الشهرية نوع من البراذين بين البرذون المعروف والمقرف من الخيل أو بين الرمكة والفرس العتيق وتجمع على شهارى . (٢) المسالك « ١ : ٢٦٤ » . (٣) الديارات « ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ » . (٤) ماندري الى من يعود ضمير قال .

مبكرة فيها تين ورمان وغيرهما ، فقال لكاتبه : اكتب اليها جواب رقعتها بشعر . فحلف انه ما قال شعراً قط . فغضب عبدون غضباً شديداً وقال : أنت بين يدي منذ سنين لا تحسن القصائد السبع ياحمار اكتب اليها :

قد أتتنا هديتانك في يوم مهرجانك
وأكلنا من رمانك لأنك جانجاننا ونحن جانجانك [١]

ثم ذكر خبر القبض عليه وعلى اخيه واستصفاء أموالهما .

وذكر ماري بن سليمان وعمر بن متى في اخبار فطاركة كرسي المشرق ان عبدون بن مخلد كان من اعيان النصارى النساطرة بسرّ من رأى ، وشارك في انتخاب الفطرك « يوحنا بن نرسي » وكان الاجتماع بالمطيرة [٢] ولعله كان بدير عبدون . وقال ياقوت : « وفي هذا الدير يقول ابن المعتز الشاعر :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
يا طالما نبهتني للصبوح به في ظلمة الليل والعصفور لم يطر
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نقارين في السحر
مزنّرين على الأوساط قد جعلوا على الرؤوس أكاليلاً من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له طوعاً وأسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت افرش خدي في التراب له ذلاً واسحب اذيالي على الأثر
فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيراً [٣] ولا تسال عن الخبر [٤]

---

(١) الديارات « ص ٢٧٠ » . قلت : الظاهر ان « جان » لفظة فارسية وهي بمعنى الروح العربية ، ولا يزال المغنون العراقيون يستعملونها في أغاني المقامات من باب الاستعانة على تزجية النغمات فيكررونها بقولهم « جان جان » ولعلها كانت مستعملة قديماً ايضاً في الغناء لأن القصة قصة ريق المغنية . (٢) أخبار الفطاركة « لماري ص ٨٢ ، ولعمرو ص ٧٥ » . (٣) كان اجدر به ان يقول : فظن شراً ، وهكذا كان خلق هذا الأديب الحكيم الشاعر الذي بويع بالخلافة فلبث =

وقد ذكر ابن خلكان هذه الأبيات في ترجمة عبدالله بن المعتز ، وفي نقله زيادة هذا البيت :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنــا مثل القلامـــة قد قدت من الظفر [1]

دير صبّاعي

قال الشابشتي : « هذا الدير شرقي[2] تكريت مقابل لها ، مشرف على دجلة ، نزه عامر ، له ظاهر عجيب فسيح ومزارع حوله على نهر يصب من دجلة الى الاسحاقي [3] وهو خليج كبير ، فيقصد هـذا الدير من قرب منـه في أعياده وأيام الربيع ، وهو اذ ذاك منظر حسن فيه خلق كثير من رهبانه وقسانه ، ولبعض الشعراء فيه :

حنّ الفؤاد الى دير بتكـــريت لبر [4] صباعي وقس الدير عفريت [5]

وزاد ياقوت الحموي على ما ورد في الديارات قوله : « وفيه مقصد لأهل الخلاعة » [6] . وقال ابن فضل الله العمري : « دير صباعي وهو على شاطيء دجلة الشرقيّ فوق تكريت بقليل وهو كثير الرهبان ولـه مزارع وجنينات ، ولرهبانه يسار وغنىً وفيه يقول بعض لصوص بني شيبان :

ألا يا ربّ سلم دير صبّاعا !؟ وزد رهبان هيكله اجتماعـا

= فيها يوماً واحداً وقتل ، فالخلق الفاضل هو العاصم الأكبر . وعـد الباحث حبيب الزيات قول ابن المعتز هذا من بابة الخيال دفاعا عن الرهبان « الديارات ص ٧١ » . (٤) معجم البلدان في « دير عبدون » . (١) وفيات الأعيان « ١ : ٢٨٠ طبعة ايران » . (٢) كونه في شرقي تكريت يقربه من سامرا ، وقد اراد بالشرقي الجنوبي لأنها في جهة واحدة . (٣) الاسحاقي نهر كان يحمل ماءه من دجلة من غربيها أسفل من تكريت ويصب في دجلة بازاء المطيرة ، ذكره ابن سرافيون في كتابه « ص ١٨ الطبعة الجزئية » وهو منسوب الى اسحاق احد رجال دولة المعتصم بالله . (٤) في الديارات « بين » ونحسبها محرفة من « لبر » وقـد اثبتنا ما استرجحنا للصحة والوزن . (٥) الديارات « ص ١٧٥ » . (٦) معجم البلدان في « دير صباعي » .

فكم جئناه أمواتاً سغاباً ورُحنا منه أحياءاً شباعا
فيا للقصف ما أسرى نبيذاً ألذّ طلاً وأحسنه شعاعا
لنعمته ومنته علينا عمرناه وخرّبنا الضياعا[1] »

قال كوركيس عواد المحقق الفاضل بكتاب الديارات : « تصحف اسم هذا الدير تصحفاً غريباً في دائرة المعارف الاسلامية (باللغات الفرنجية) إلى (دير سعابة) فليصحّح ، وفي نسخة الديارات للشابشتي إلى (دير ضِباعى) بالضاد المعجمة وهو تحريف أيضاً والصواب (دير صَبّاعى) بصاد مهملة مفتوحة فباء مشددة . والمقصود به هنا القديس الشهيد (شمعون برصباعي) . وبرصباعي لفظ سرياني بمعنى (ابن الصباغين)لأن أهله كانُوا يصبغون ثياب الملك وباسمه عُرف هذا الدير ، كان شمعون برصباعي جاثليق المشرق في المدائن وأصله من السّوس وقد ابتدأت جثلقته سنة ٣٢٩ م ثم أذاقه سابور الثاني الملك الساساني شديد الاضطهاد ومر العذاب إكراهاً له على جحد النصرانية ليدين بالمجوسية ، لكن شمعون لم يحد عن دينه ، فكان مصيره القتل مع جملة كبيرة من رفاقه سنة ٣٤١ م في مدينة كرخ ليدان من أعمال الأهواز ، ولشمعون برصباعي تآليف سريانية مختلفة ضاع أغلبها وبقي منها رسائل وقصائد دينية اتخذها النصارى الكلدان في صلواتهم الكنائسيّة وهي تعد من أقدم الآثار الأدبيّة في السريانيّة وأنفسها »[2] .

وذكر عمرو بن متّى أن الفطرك شمعون بن صباعي كان من مدينة السوس وكان أكثر مقامه بالمدائن ، ونصب للفطركة في السنة السادسة لسابور الثاني — يعني سنة ٣١٦ — وفي أيامه اشتد اضطهاده للنصرانيّة وتقتيله لهمْ ، وذلك لأنه عرض على هذا الفطرك المجوسيّة ليدين بها هو وأتباعه فأبى كل الاباء وحرّض النصارى على التمسُّك بنصرانيّتهم حتّى الموت وخصوصاً نصارى

---

(١) المسالك « ١ : ٣٠٥ » . (٢) ملحق الديارات المرقم ١٢ « ص ٣٧٢ » وذكر الفاضل في الحاشية مراجع ترجمة الجاثليق المذكور وهي اثنا عشر مرجعاً .

المدائن واسفاين ، فأمر سابور بالقبض عليه ولكنه لاطفه ليتمجّس فامتنع كل الامتناع فغضب عليه وعلى مائة وثلاثة من رجال النصرانية وأمر بسجنهم ثم جمع من مملكته ستين ألف نصراني وأخرجهم إلى الميدان بكرخ ليذان وطلب من الفطرك المذكور أن يأمر النصارى الحاضرين أن يكفروا بالمسيح –ع – ويدخلُوا في دينه فان فعلُوا ذلك فانه يعطيهما أحبُّوا من المال والجاه ويجعلهم أشرافاً [1] ، وإن أبوا فانه يأمر بضرب أعناقهم بلا تأخير . فلما سمع شمعون ذلك حمّسهم وحضّضهم على الاباء والرفض ، فغضب سابور وأمر أن تضرب رقابهم بحد الحسام ومعهم الفطرك المذكور ، وفي تمام تلك السنة أمر سابور بقتل النصارى في باجرما وكرخ سلوخ والأهواز والدير الأحمر وإربل وآشور والموصل ونينوى والمرج والجزيرة والفرات فقُتل منهم مائة ألف وتسعون ألفاً [2] وكان بينهم دخنان شاه بنت "ملك الأهواز»[3].
وذكر ماري بن سليمان أنّ الفطرك شمعون بن صباعي كان يلبس الثياب الديباج ، ولما رتّب في منصب الفطركة منع النساء من الاختلاط بالرجال في الصلاة ، وأنه في عهده بسط سابور ذو الأكتاف أذيته على النصارى وكان يعذبهم بأنواع العذاب من الجوع والضرّ والحبس وغير ذلك ويسفك دماءهم ويبقر بطون الحوامل ، ويمنع من دفنهم حتى تأكلهم الطير ، وأغراه أولياؤه واليهود بشمعون بن صباعي وقالُوا له : لا ينفعك شيء مما تفعل لأن شمعون يشجع النصارى ويمدهم بالنفقات فقبض عليه وعلى مائة رجل ورجلين منهم مطارنة وأساقفة وقسّان وشمامسة ، وطلب من ابن صباعي تطبيق الجزية على أصحابه وأخذها من أصحاب الصرف وغيرهم فقال له : إني لست جابي مال لكن راعي غنم المسيح . وانتهى أمره إلى القتل [4] على النحو الذي ذكرت .

---

(١) ومعنى ذلك جعلهم من طبقة الأحرار والنبلاء المسماة (آزادان) راجع كتاب « ايران في الساسانيين » تأليف العلامة كريستنسن « ص٨٧ من الترجمة العربية » ترجمة يحيى الخشاب .
(٢) وهذا من مبالغات مؤرخي النصرانية . (٣) أخبار فطاركة كرسي المشرق لعمرو بن متى « ١٥–١٩»
(٤) أخبار الفطاركة لماري بن سليمان « ص ١٦ – ١٩ » .

وقال كريستنسن : « ولم يكن أول اضطهاد الحق النصارى أيام كسرى راجعاً إلى التعصب الديني بل كان مرجعه إلى أمور سياسيّة ، ويحكي الكتاب السرياني الذي يصف حياة القديس أوجين أنّ سابور قد رغب في رؤية هذا الزاهد النصراني وكان يجلّه كثيراً فقد شفى أوجين ولدين للملك [1] ، كانا فريستين للشيطان ، وحق أنّ كتاب حياة أوجين مصدر مشكوك فيه كثيراً ... ومع ذلك فان البغض الدفين الذي يحمله نصارى ايران للدولة كان خطراً دائماً عليها ، ذلك بعد أن اتخذ ملوك الروم شعاراً الصليب ولم يتردد سابور في اضطهاد هذا العدو المواطن وقد استمر هذا الاضطهاد إلى نهاية عهده الطويل »[2]

دير العذارى

قال الشابشتي : « هذا الدير اسفل الحظيرة [3] ، على شاطيء دجلة ، وهو دير حسن ، حوله البساتين والكروم ، وفيه جميع ما يحتاج إليه ، ولا يخلو من متنزه يقصده للشرب واللعب ، وهو من الديارات الحسنة وبقعته من البقاع المستطابة ، وإنما سُمّي بدير العذارى لأن فيه جواري متبتلات عذارى هُنّ سكانه وقطانه فسمي الدير بهنّ ، وذكر يموت بن المزرع عن الجاحظ قال : حدثني ابن فرج الثعلبي أن قوماً من بني ثعلب [4] أرادوا قطع الطريق على مال السلطان فأتتهم المعاينة فأعلمتهم أن السلطان قد نذربهم فساروا ثم أزمعُوا على الاستخفاء في دير العذارى ، فصارُوا الى الدير ففتح لهم فما استقرُّوا حتى سمعُوا وقع حوافر الخيل في طلبهم ، فلما أمنوا وجاوزتهم الخيل خلا كل واحد منهم بجارية هي عنده عذراء فاذا القسُّ قد فرغ منهنّ فقال بعضهم :

---

(١) على حسب قصة « سيرة القديس أوجين » تأليف مؤرخ نصراني بالسريانية . (٢) ايران في عهد الساسانيين « ص ٢٣٧ » . (٣) قرية كبيرة من نواحي دجيل ، جنوب سامرا ، خربت بانقطاع الماء عن نهر دجيل وآثارها معروفة اليوم . (٤) الصواب « ثعلبة » كما في معجم البلدان في مادة « دير العذارى » .

وألوط من راهب يدّعي بأن النساء عليه حرامُ[1]
يحرِّم بيضاء ممكورة ويغنيه في البضع عنها غلامُ
إذا مامشى[2] غضّ من طرفه وفي الدير بالليل منه عُرامُ
ودير العذارى فضُوح لهُنّ وعند اللصوص حديث تمامُ»[3]

وقال ياقوت الحموي : « والشعر المنقول في دير العذارى يدل على أنه بنواحي دجيل ... وقال الشابشتي : دير العذارى بين سُرّ من رأى والحظيرة . وقال الخالدي : وشاهدته وبه نسوة عذارى وحانات خمر وإن دجلة أتت[4] عليه بمدودها فأذهبته حتى لم يبقَ منه أثراً ، وذكر أنه جئا به في سنة (٣٢٠) وهو عامر ... وقال أبو الفرج : ودير العذارى بسُرّ من رأى إلى الآن موجود تسكنه الرواهب . فجعلهما اثنين ، وحدث الجاحظ في كتاب المعلمين قال حدثني ابن فرج الثعلبي أنّ فتياناً من بني ملاصة من ثعلبة أرادُوا القطع على مال يمرّ بهم قرب دير العذارى ، فجاءهم من خبّرهم أن السلطان قد علم بهم وان الخيل قد أقبلت تريدهم فاستخفَوا في دير العذارى ، فلما حصلُوا فيه سمعُوا أصوات حوافر الخيل التي تطلبهم وهي راجعة من الطلب فأمنوا ، فقال بعضهم لبعض : ما الذي يمنعكم أن تأخذوا القسّ وتشدُّوه وثاقاً ويخلو كل واحد منكم بواحدة من هذه الأبكار ، فاذا طلع الفجر تفرقنا في البلاد ، وكُنّا جماعة بعدد الأبكار اللواتي كنّ أبكاراً في حسابنا ، ففعلنا ما اجتمعنا عليه ، فوجدنا كلّهُنّ ثيّبات قد فرغ منهن القسّ قبلنا ، قال بعضنا :

ودير العذارى فضوح لهُنّ وعند القسوس حديث عجيبُ
خلونا بعشرين صُوفيّة ونيل[5] الرواهب أمر غريبُ

---

(١) ذكرنا هذا البيت فيما تقدم من تعليقاتنا ، تأييداً لما اشتهر هؤلاء من اللواط لا الزنا ، فاستشهاد المؤلف بقول الشاعر بارد ومضاد لما حكى فتأمل ذلك . (٢) في الديارات « اذا مشى » وبكسر الوزن (٣) الديارات « ص ١٠٧ ، ١٠٨ » . (٤) في الأصل « أتى » و « مدودة » مذهوباً فيه الى النهر وهو مذكر ولكنه قال بعد ذلك « فأذهبته » فدل على التأنيث . (٥) أبدلت حرفاً من المصدر لتهذيبه ، وحذفت الأبيات من الأدب المفضوح .

سباع تموج وزاقولة لها في البطالة حظ رغيبُ
وللقسّ حُزن يهيض القلوبُ ووجد يدلُّ عليه النحيبُ

وقال الشابشتي[١] ... «وذكر ما قال الشابشتي وقد نقلته آنفاً. وقال ابن فضل الله العمري : « دير العذارى وهو بين سُرَّ من رأى وبغداد بجانب العلْث على دجلة في موضع حسن فيه رواهب عذارى وكانت حوله حانات الخمر وبساتين ومتنزهات ، لا يعدم من دخله أن يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقدود والألحاظ والألفاظ . قال الخالدي : ولقد اجتزتُ به فرأيته حسناً ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملاهي وكان ذلك اليوم عيداً له ، ورأيت في جُنينات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفر ولا يماثل خمره خدودهنّ ، ثم إنّ دجلة أهلكته بمدودها حتى لم يبقَ منه أثر وبجحظة فيه أخبار وأشعار لأنه كان مكانه ومأواه ، وإليه ينجذب هواه وفيه يقول ابن المعتز :

أيا جيرة الوادي على المشرع العذب سقاك حياً حيّ الثرى ميت الجدب
وحسبك يا دير العذارى قليل ما يحن بما تحويه من طيبة قلبي
كذبت الهوى إن لم اقف اشتكي الهوى اليك وان طال الوقوف على صحبي
وعجت به والصبح ينتهب الدجى باضوائه والنجم يركض في الغرب
أصانع اطراف الدموع بمقلة موفّرة بالدمع غرباً على غرب
وهل هي الا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه في طاعة الحُبّ

وقال الخالدي : وأنشدني جحظة لنفسه :

قالوا قميصك مغمور بآثار من المُدامة والريحان والقار[٢]
فقلت من كان مأواه ومسكنه دير العذارى لدى حانوت خمّار

---

(١) معجم البلدان في « دير العذارى » . (٢) لعل الاصل « والفار » وهو ضرب من الشجر ، ويبعد ان يكون اراد قار الدنان ، فالغالب على ختومها الطين ويثبت ذلك قول ابي نواس : وجيء بالدن على مرفع وخاتم العلج على طينه

وساده يده والأرض مفترشه لا يستطيع لسكر حل أزرار
لم ينكر الناس منه أن حلته خضراء كالروض أو حمراء كالنار »[١]

وذكر ابن فضل الله بعد ذلك بيتين للصنوبري في دير العذارى ، مع أنه ليس بدير عذارى العراق ، بل هو دير عذارى حلب ، كما رأى فقد ذكر ياقوت ديراً للعذارى بظاهر حلب في بساتينها ولا دير فيه ولعله كان قديماً ، ويؤيد ذلك ان الصنوبر تغزل في البيتين بغلام ، وذكر بعدها ابياتاً لابن فيروز البصير في دير العذارى ، وهي من الغزل الغلماني أيضاً فلا صلة لها بدير العذارى ، ثم اورد حكاية الجاحظ وأبيات اللصوص ثم ابيات الديارات التي نقلها الشابشتي وقد قدمت ذكرها وقال أخيراً : « وقيل في راهبة فيه :

يا ايها القمر المنير الزاهر المشرق الحسن المضيء الباهر
أبلغ شبيهتك السلام وهنها بالنوم واشهد لي بأني ساهر[٢]

وقد ذكر دير العذارى بالعراق الباحث حبيب الزيات أحد الكتاب النصارى والمتجرين في بحوثهم للدفاع عن النصرانية[٣] .

دير العلث

قال الشابشتي : « والعلث قرية على شاطيء دجلة في الجانب الشرقي منها وبين يديها من دجلة موضع صعب ، ضيق المجاز ، كبير الحجارة ، شديد الجرية تجتاز فيه السفن بمشقة وهذه المواضع تسمى الأبواب ، واذا وافت السفن الى العلث ارست بها فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهاد من أهلها يكترونه ، فيمسك السكان ، ويتخلل بهم تلك المواضع ، فلا يحطها حتى يتخلص منها . وهذا الدير راكب دجلة وهو من احسن الديارات موقعاً وأنزهها موضعاً ، يقصد من كل بلد، ويطرقه كل أحد ، ولا يكاد يخلو من

---

(١) مسالك الأبصار « ١ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ » . (٢) المسالك « ١ : ٢٦٠ ، ٢٦١ » . (٣) الديارات النصرانية في الاسلام « ص ٢٥ ، ٨٩ ، ١٠٤ » .

منحدر ومصعد ، ومن دخله لم يتجاوز الى غيره لطيبه ونزهته ، ووجود جميع ما يحتاج اليه بالعلث وبه »[١] . وقال ياقوت : « دير العلث ، زعم قوم أنه دير العذارى بعينه ، وقال الشابشتي : العلث قرية على شاطىء دجلة من الجانب الشرقي في قرب الحظيرة دون سامرا وهذا الدير راكب دجلة وهو من الديارات وأحسنها وكان لا يخلو من أهل القصف »[٢] . وقال في موضع آخر : « العَلْث بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره ثاء مثلثة ... وهي قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء ، وذكر الماوردي في الأحكام السلطانية ان العلث قرية موقوفة على العلويين وهي أول العراق في شرقي دجلة » . وقال ابن عبد الحق : « العِلث بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره ثاء مثلثة قرية على دجلة بين عكبرا وسامرّا ، موقوفة على العلويين ، كانت في شرقي دجلة ، وهي الآن من عمل دجيل على الشطيطة »[٣] . وكان قال : « دير العلث وهو دير على دجلة من شرقيها قرب الحظيرة وقيل انه دير العذارى ولعله الذي كان باقياً الى هذه الغاية »[٤] .

وقال الدكتور احمد نسيم سوسة : « أما المدن والقرى المهمة التي كانت على مجرى دجلة ضمن طسّوج بزرج فأولها من الشمال مدينة (العلث) وهي المدينة التي ما زالت خرائبها الواسعة تشاهد على مسافة حوالي سبعة كيلو مترات من شمالي غربي مدينة بلد الحاليّة ، وقد حافظت على اسمها القديم حتى اليوم فهي لا تزال تسمى اطلالها بالعلث ، كما انه لا يزال يسمى سكنة هذه المنطقة (علثاويين) وتمتد خرائب العلث هذه على طول الضفة اليسرى لمجرى دجلة القديم (الشطيطة) وهو المجرى الذي يسمى فيه نهر بلد الحالي الذي يتفرع من ضفة نهر دجيـل اليسرى وينتهي الى بساتين بلد الحديثة ... ومما يدل عـلى استمرار ازدهار مدينة العلث بعد تحول مجرى دجلة عنها ان المنتصر

---

(١) الديارات « ص٩٦ » . (٢) معجم البلدان في « دير العلث » . (٣) مراصد الاطلاع في « العلث » . (٤) مراصد الاطلاع في « دير العلث » .

كان يقصدها بين حين وآخر للاتصال بعلمائها ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان أن المستنصر (كان يمضي الى العلث قرية من دجيل ، بينها وبين بغداد مسيرة يومين حتى يزور اسحاق العلثي الحنبلي »[1] .

وقال الشابشتي بعد وصفه للعلث ودير العلث وبجحظة فيه :

أيها الملاحان بالله جداً ... واصلحا لي الشراع والسكانا
بلّغاني هُديتما البردانا ... وابزلا لي من الدنان دنانا
واعدِ لا بي الى القبيصة[2] فالـزهـ...راء علّي أفرج الأحزانا
وإذا ما اقمت حولاً تماماً ... فاقصدا بي الى كروم أوانا
وانزلا بي الى شراب عتيق ... عتّقته يهوده أزمانا
واحطّا لي الشراع بالدير بالعلـ...ـث لعلي اعاشر الرهبانا
(وظباء يتلون سفراً من الانجيـ...ـل باكرن سُحرة قربانا[3])
لابسات من المسوح ثياباً ... جعل الله تحتها أغصانا
(خفرات حتى اذا دارت الكأ ... س كشفن النحور والصلبانا)[4]

* * * *

وللمعتمد :

يا طول ليلي بفم الصلح ... أتبعت خسراني بالربح
لهفي على دهر لنا قد مضى ... بالقصر والقاطول والشلح
بالدير بالعلث ورهبانه ... بين الشعانين الى الدنح »[5]

وقال ابن أبي أصيبعة : « قال يوسف بن إبراهيم : عدت جبرئيل بن

---

(١) ري سامراء « ص ١٨٣ ، ١٨٤ » . واسحاق بن احمد العلثي توفي سنة ٦٣٤ كما في الشذرات « ٥ : ١٦٢ » وولي المستنصر الخلافة سنة « ٦٢٣ » فيجوز ان تكون زيارته له بعيد سنة ٦٢٣ وتحول مجرى دجلة بعيد ذلك أي قبل تاريخ انشاء قنطرة حربى الذي هو سنة ٦٢٩ . (٢) قرية كانت قرب سامرا ، كما في معجم البلدان . (٣) هذا البيت مزيد من معجم البلدان وعليه تمتمد الأبيات التالية له . (٤) زيادة من معجم البلدان ايضاً . (٥) الديارات « ص ٩٧ ، ٩٨ ».

بختيشوع بالعلث سنة خمس عشرة سنة ومائتين وقد كان خرج مع المأمون في تلك السنة حتى نزل المأمون في دير النساء ، فوجدت عنده يوحنا بن ماسويه وهو يناظره في علته وجبرئيل يستحسن استماعه وإجابته ووصفه ، فدعا جبرئيل بتحويل سنته وسألني النظر فيه واخباره بما يدل عليه الحساب ، فنهض يوحنا عند ابتدائي بالنظر في التحويل ، فلما خرج من الحراقة قال لي جبرئيل : ليست بك حاجة الى النظر في التحويل لاني أحفظ جميع قولك وقول غيرك في هذه السنة وانما أردت بدفعي التحويل اليك ان ينهض يوحنا فأسألك عن شيء بلغني عنه ، وقد نهض ، فأسألك بحق الله هل سمعت يوحنا قط يقول : إنه اعلم من جالينوس بالطب . فحلفت له أني ما سمعته قط يدعي ذلك »[1].

عُمْرُ نَصر[2]

قال ياقوت : « عُمر نصر بسامرّا وفيه يقول الحسين بن الضحّاك :

يا عمر نصر لقد هيجت ساكنة	هاجت بلابل صدر بعد إقصار
لله هاتفة هبّت مرجعة	زبور داود طوراً بعد أطوار
يحثها دالق بالقدس محتنك	من الأساقف مزمور بمزمار
عجّت أساقفها في بيت مذبحها	وعج رهبانها في عرصة الدار
خمّار حانتها إن زرت حانته	أذكى مجامرها بالعود والغار
يهتز كالغصن في سُلب مسوّدة	كان دارسها جسم من القار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته	سقيا لذاك جنى من ريق خمار

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء « ١ : ١٧٣ » . (٢) العمر بضم العين وتسكين الميم من السريانية « عمرا » بمعنى الدار والمنزل ، والمراد بها عند هؤلاء النصارى الدير وجمعه اعمار « راجع حاشية ص ١٩١ » من الديارات للشابشتي ، وبسط القول في شرح العمر ياقوت الحموي في كلامه على عمر كسكر ، ولكنه لم يعلم أنه اصطلاح سرياني .

أغرى القلوب به الحاظ ساجيــة مرهاء تطرف عن أجفان سحار[1] »

وقال الباحث حبيب الزيات : « ومن الديارات التي اشتهرت بهـذا الطرب دير مارت مريم بين الخورنق والسدير ... ونظيره عمر نصرفي سر من رأى وهو من متنزهات آل المنذر قديماً بالحيرة ، قال الحسين بن الضحاك وكان كثيراً ما يألفه : اصطبحت انا واخوان لي في عمر سر من رأى ومعنا أبو الفضل رذاذ وزنام الزامر . فقرأ الراهب سفراً من أسفارهم حتى طلع الفجر ، وكان شجي الصوت جداً ورجع من نغمته ترجيعاً لم أسمع مثلـه ، فتفهمه رذاذ وزنام ، فغنى ذلك عليه وزمر هذا فجاء له معنى أذهل العقول وضج الرهبان بالتقديس فقلت : ياعمر نصر لقد هيجت ساكنة ... » وذكر أربعة ابيات منها بيت لم يذكره ياقوت الحموي على الصحة وهو :

لما حكاهـا زنام في تفننها فافتن يتبع مزموراً بمزمـار »[2]

والقول بأنه أي عمر نصر كان من متنزهات آل المنذر قديماً بالحيرة مناقض لقوله بادىء ذي بدء انه في سر من رأى ، ويكون من المحال تنزه ملوك الحيرة القائمة على الفرات قرب النجف في أرض دير بسامرا على دجلة لبعد المسافة ولأن ارض الطيرهان وفيها الدير لم تكن من مملكة الحيرة ولا كان فيها لملوك الحيرة سلطة ولا سلطان ولا كلمة نافذة .

ورأيت مثل هذا الكلام في مجلة لغة العرب في الكلام على سامرا قـال الكاتب « وكان في جوارها من سابق العهد أي قبل الاسلام عدة أديرة للنصارى كلها شهيرة منها قلاية العمر أو عمر نصر وكان من متنزهات آل المنذر بالحيرة[3] » وقد ذكر نقلاً من معجم البلدان لياقوت الحموي أن عمر نصر كان في ناحية سامرا .

---

(١) معجم البلدان في « عمر نصر » . (٢) الديارات النصرانية في الاسلام « ص ٨٨ ، ٨٩ » وأحال بالخبر على معجم ما استعجم « ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ طبعة اوربية » . (٣) مجلة لغة العرب « ١ : ٨٢ »

دير مرما جرجس

قال ياقوت الحموي : « دير مرماجرجس : دير بنواحي المَطيرة ... وذكره الشابشتي مع دير مرجرجُس ، ولعله هو هو » وقد كان قال : « دير مَرجُرجس بالمزرفة بينه وبين بغداد أربعة فراسخ مصعداً والمزرفة قرية كبيرة وكانت قديماً ذات بساتين عجيبة وفواكه غريبة ، وكان هذا الدير من متنزهات بغداد لقربه وطيبه » . وعلى اعتبار أنه بالمزرفة ، فلا يعد من ديارات سامرا ونواحيها ، وأيدّ كونه بـالمزرفة ابن فضل الله العمري قال : ديرجرجس وهو بالمزرفة أحد الأماكن المشهودة والمواضع المقصودة ، ويخرج اليه من يتنزه مِن أهل بغداد في السُميريّات .لقربه وطيبه وهو على شاطيء دجلة والبساتين مُحدقة بـه والحانات مجاورة له ، وبه كل ما يحتاج إليه »[1] . وقال قبلهما الشابشتي : « دير مرجرجس ، هذا الدير بالمزرفة وهو أحد الديارات والمواضع المقصودة والمتنزهون من اهل بغداد يخرجون اليه دائماً في السميريات لقربه وطيبه وهو على شاطيء دجلة والعروب — يعني طواحين الماء السفُنية — بين يديه والبساتين محدقة به والحانات مجاورة له، وكل ما يحتاج إليـه المتنزهون فحاضر فيه . والمزرفة من أحسن البلاد عمارة وأطيبها بقعة وبها من البساتين ما ليس ببلد .

---

(١) الديارات صفحة ٦٩ .

القادسية

ومن المواضع التي كانت في ناحية سامرا المعتصم قبل تمصيرها « القادسية » قال الشابشتي في الكلام على دير السوسي وقد نقلناه في الكلام على هذا الدير: « هذا الدير لطيف على شاطىء دجلة بقادسية سر من رأى وبين القادسية وسر من رأى أربعة فراسخ والمطيرة بينها ... والقادسية من أحسن المواضع وأنزهها وهي من معادن الشراب ومناخات المتطربين، جامعة لكل ما يطلب أهـل البطالة والخسارة وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوار ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز وجعل اعذاره فيه، وكان من أحسن ابنية المتوكل وأجلها، وبلغت النفقة عليه عشرين الف الف درهم »[1].

وقد أخطأ ياقوت في تعيينها قال: « والقادسية قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربي وسامرا، يعمل بها الزجاج »[2]. وعقب ابن عبد الحق على كلامه هذا قال: « هذه (القادسية) ليست من دجيل، إنما هي في الجانب الشرقي من دجلة من قرى سامرا، خربة تحت سامرا والمطيرة[3] ». وكأن ياقوتاً الحموي شعر بخطئه في معجم البلدان فاستدركه في كتاب له في آخر البلدان أيضاً قال: « والقادسيّة قرية كبيرة قرب سامرا يعمل فيها الزجاج، ينسب اليها الشيخ أحمد بن علي المقرىء القادسيّ الضرير، وابنه محمد بن أحمد القادسي الكتبي مؤلف (ذيل تاريخ ابن الجوزي) وهو حيّ الآن »[4].

وقال الاستاذ المستشرق لسترنج: « وفي شمال غربي العلث حيث ينعطف النهر اليوم إلى ناحية الشرق انعطافه العظيم قادسية دجلة، فلا يخلطنّ بين هذه القادسية وقادسية الفرات التي كانت في غرب هذا النهر، وكانت قادسية دجلة مشهورة بعمل الزجاج »[5] وقال مترجما كتاب لسترانج: « يقوم

---

(١) الديارات « ص ١٣٩، ١٥٠ ». (٢) معجم البلدان في مادة « القادسية ». (٣) المراصد في مادة « القادسية ». (٤) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً « ص ٣٣٧ ». (٥) بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد « ص ٧٢ ».

سور القادسية في جنوب أطلال سامراء بين الضفة اليمنى لنهر القائم المندرس وضفة دجلة اليسرى وهو سور مثمن من اللبن طول كل ضلع من أضلاعه (٦٢٠) متراً ، تدعمه من الخارج (١٧) دعامة نصف دائرية وفي كل ركن من أركان السُّور برج مدوّر كبير قطره نحو ثمانية أمتار ، وثخن السُّور أربعة أمتار وعلوه نحو خمسة أمتار ، وتبلغ مساحة الأرض التي يكتنفها السور نحو (٧٤٥) دونماً — والدونم ٢٥٠٠ متر مربع — . وفي هذا السور فتحات تدل على أنها كانت أبواباً له ، والسُّور من الداخل مؤلف من أروقة كل رواق بين دعامتين من دعائمه ، وبعض هذه الأروقة اتخذ حجرات . وتشاهد في داخل القادسية في وسطها معالم أبنية من اللبن ، وقد جيء بالماء الى القادسية من النهر المار من القاطول الكسروي إلى نهر القائم ، ثم يعبره فوق قنطرة من الآجرّ قد اندرست ، وعند وصول النهر الى سور القادسيّة يدخلها من أحد أبوابها ويتفرّع في داخلها . راجع سامراء لدار الآثار العراقية ص ٧٢ وسومر ٣ : ١٦٧ وري سامراء ٢٤٨ » . ثم قالا : « يلاحظ الآن في شرقي سور القادسية خرائب عباسية قرب ضفة دجلة تكثر فوق سطحها كتل من الزجاج المصهور وكسر كثيرة من الأواني الزجاج وقد نقّبت دائرة الآثار العراقية هذا الموضوع سنة ١٩٤٠ وعثرت فيه على مقادير كبيرة من هذه المواد الزجاجية وعلى بقايا أبنية وأكوام من رماد »[1] .

قلنا : وتدل الدلائل الآثارية من السور المشبه بقيته سور دسكرة أبرويز قرب شهربان على أن هذا البنيان ساساني . وقال الشابشتي في ذكر إعذار المعتز بن المتوكل أي ظهوره بقصر بركوار : « لما صح عزم المتوكل على إعذار أبي عبد الله المعتز أمر الفتح بن خاقان بالتأهب له وأن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً للايوان في عرضه وطوله ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً ، فلم يوجد إلا فيما قبض من بني أمية ، فانه وجد في أمتعة هشام بن

(١) حاشية بلدان الخلافة الشرقية « ص ٧٢ ، ٧٣ » .

عبد الملك على طول الايوان وعرضه ، وكان بساطاً إبريسماً غرز وذهب مُفروز مبطّن ، فلما رآه المتوكل أعجب به وأراد أن يعرف قيمته ، فجُمع عليه التجار ، فذُكر انه قوّم على أوسط القيم عشرة آلاف دينار ، فبسط في الايوان ، وبُسط للخليفة في صدر الايوان سرير ومُدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع ذهب مرصعة بالجوهر فيها تماثيل العنبر والند والكافور (المعمول به على مثل الصّور ، منها ما هو مرصع بالجوهر مفرداً ومنها ما عليه ذهب وجوهر) وجعلت بساطاً ممدوداً ، وتغدّى المتوكل والناس » وجلس على السّرير وأحضر الأمراء والقواد والندماء (وأصحاب المراتب[1]) فأجلسُوا على مراتبهم وجعل بين صوانيهم والسماط فُرجة ، وجاء الفراشون بزُبُل قد غُشّيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين ، فصُبّت في تلك الفُرَج حتى ارتفعت ، وقام الغلمان فوقها ، وأمرُوا الناس عن الخليفة بالشرب [2] ، وأن ينتقل كل من يشرب بثلاث حفنات ما حملت يداه من ذلك المال ، فكان إذا أثقل الواحد منهم ما اجتمع في كُمه [3] أخرجه إلى غلمانه فدفعه إليهم وعاد إلى مجلسه ، وكلما فرغ موضع أتى الفراشون بما يملؤونه (منه) حتى يعود الى حاله . وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع كل واحد (وأقاموا إلى أن صليت العصر والمغرب) وحُملُوا عند انصرافهم على الأفراس والشهاري . وأعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد ، وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاثة أثواب ، وكان في صحن الدار بين يدي الايوان أربعمائة بُليّة[4] ، عليهن أنواع الثياب بين أيابيهنّ ألف نبيجة[5] خيزران فيها أنواع الفواكه والأترج والنارنج على قلته ـ كان ـ في ذلك الوقت ، والتفاح الشامي والليموه وخمسة آلاف باقة

---

(١) الزيادة زادها محقق كتاب الديارات من كتاب مطالع البدور في منازل السرور للغزولي « ١ : ٥٨ » . (٢) هكذا كان امر امير المؤمنين وامام المسلمين اجمعين ، يأمر الناس بشرب الخمر . (٣) كان يضع الدنانير والدراهم في كمه لان الجيوب المعروفة اليوم لم تكن معروفة ايامئذ . (٤) يظهر انهن من اجناس الجواري . (٥) النبيجة من معانيها الطبق من خوص او خيزران كما ذكر المؤلف .

نرجس وعشرة آلاف باقة بنفسج ، وتقدم إلى الفتح أن ينثر على البليات وخدم الدار والحاشية ما كان أعده لهم وهو عشرون ألف ألف درهم ، فلم يقدم أحد على التقاط شيء ، فأخذ الفتح درهماً ، فأكبت الجماعة على المال فنُهب ، وكانت قبيحة (أم المعتز) قد تقدمت بأن تضرب دراهم عليها (بركة الله لأعذار أبي عبد الله المعتز) فضرب لها ألف درهم ، نُثرت على المزيّن ومن في حيّزه من الغلمان والشاكرية وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان ، وكان ممن حضر المجلس ذلك اليوم محمد[1] بن المنتصر وأبو أحمد أبو سليمان ابنا الرشيد وأحمد والعباس ابنا المعتصم وموسى بن المأمون ، وابنا حمدون النديم وأحمد بن أبي رؤيم والحسين بن الضحاك وعلي بن الجهم وعلي ابن يحي بن المنجم وأخوه . ومن المغنين عمرو بن بانة ، أحمد بن أبي العلاء ، ابن الحفصي ، ابن المكي ، سلمك ، عثعث ، سليمان الطبال ، المسدود ، حشيشة ، ابن القصار ، صالح الدفاف ، زنام الزامر . ومن المغنيات عريب ، بدعة جاريتها ، سراب ، شارية وجواريها ، ندمان ، منعم ، نجلة ، تركية ، فريدة ، عرفان ، قال إبراهيم بن المدبر : لما ظهر المعتز اجتمع مشايخ الكتاب بين يدي المتوكل وكان فيهم يحي بن خاقان وابنه عبيد الله إذذاك الوزير وهو واقف موقف الخدم بقباء ومنطقة ، وكان يحي لا يشرب النبيذ ، فقال المتوكل لعبيد الله : خذ قدحاً من تلك الأقداح واصبُب فيه نبيذاً وصيّر على كفك منديلاً وامضِ إلى أبيك يحي فضعه في كفّه . قال : ففعل . فرفع يحي رأسه الى ابنــه . فقال المتوكل : يا يحي لا تردّه . قال : لا يا أمير المؤمنين[2] . ثم شرب وقال : قد جلّت نعمتك عندنا يا أمير المؤمنين ، فهنأك الله النعمة ولا سلبنا ما أنعم به علينا منك . فقال : يا يحي إنما أردتُ أن يخدمك وزير بين يدي خليفة في طهور ولي عهد . وقال ابراهيم بن العباس : سألت

---

(١) لعل الأصل « محمد المنتصر » وهو أخو عبدالله المعتز . (٢) نداء جوابي فيه تبكيت وتوبيخ لأمير المؤمنين .

أبا حرملة المزيّن في هذا اليوم فقلت : كم حصل لك إلى أن وُضع الطعام ؟ فقال : نيف وثمانون ألف دينار سوى الصياغات والخواتيم والجواهر والعدات . قال : وأقام المتوكل ببركوار ثلاثة أيام ثم أصعد الى قصره الجعفريّ وتقدم باحضار إبراهيم بن العباس وأمره أن يعمل له عملاً بما انفق في هذا الأعذار ويعرضه عليه ، ففعل ذلك فاشتمل العمل على ستة وثمانين ألف الف درهم وكان الناس يستكثرون ما أنفقه الحسن بن سهل في عرس ابنته بوران حتى أرّخ ذلك في الكتب وسميت دعوة الاسلام ثم أتى من دعوة المتوكل ما أنسى ذلك »[1] .

وعلى ذكر بركوار القصر الفخم الذي بناه المتوكل بسامرا وجعل مساحة إيوانه مائة ذراع في خمسين ذراعاً ، أقول : قدّمنا من قول الشابشتي ما يفيد أن القصر بني بالقادسية : قادسية سامرا وأن بين القادسية وسامرّا أربعة فراسخ والمطيرة بينهما ، والأربعة الفراسخ تساوي في الأقل « ١٨ » كيلو متراً ، من مقاييس الطول في عصرنا ، فهل ينطبق آثار القصر « المنقور » المعروفة اليوم بسامرّا على « قصر بركوارا » ؟

جاء في مقالة بعنوان « آثار سامراء الخالية وسامرا الحالية » وقد تقدم ذكرها ، قول كاتبها « ولقد سبر الدكتور هرتسفلد بعض السّبر قصراً واقعاً على عدوة دجلة اليُمنى يعرف بقصر العاشق ورأى أن يتابع السّير بعد ذلك . أما الآن فانه يجري التنقيب في قصر مبني قد افترش من الأرض فسحة عظيمة تناهز كيلو مترين مربعين ونصفاً وهو واقع في جنوبي سامراء واسمه المنقور ، وهو ولا شك القصر المعروف سابقاً باسم (بلكوارا) الذي بناه وسكنه المعتز بالله ابن المتوكل على الله وذلك قبل ارتقائه عرش الخلافة[2] » . ثم قال : « وبازاء العاشق في الجانب الشرقي من ضفة دجلة الگويرا (بالكاف الفارسية وتصغير الاسم) وهو تلول مسافة طولها قرابة مائة متر وعرضها اليوم قرابة عشرة

---

(١) الديارات « ص ١٥٠ — ١٥٦ » . (٢) مجلة لغة العرب « ١ : ٩١ سنة ١٩١١ » .

أمتار وقد أكل الشط نصفها وبقي النصف الآخر وظهرت فيها غرف مبنية بالجص والآجرّ مع سراديب وهي اليوم في وسط الماء إذ مَهواه عليها وفي أيام الفيضان يحيط بها الماء وتكون شبيهة بالجزيرة [١] » .

وعلّق الأب انستاس اللغوي المعروف على كلمة « الكوير) قوله : « لفظة الكوير تشابه كُلّ المشابهة لفظة بلكوارا ، لا سيما لأننا نعلم أن العرب كثيراً ما تستثقل الألفاظ الكثيرة الحروف ، فيتصرفون بها كل التصرّف ، وقد وردت ألفاظ كثيرة حذفوا منها صدرها وأبقوا عجزها ، فيحتمل أنهم حذفوا صدر (بلكوارا) وقالُوا (كوارا) ، ولما كان التصغير شائعاً على ألسنة أعراب العراق جميعهم قالُوا فيها (كوير) بحذف الألف الأخيرة من باب التخفيف . والظاهر أن (بلكوارا)كلمة آرامية قديمة مركبة من (بل) أي بعل و (كوارا) أي الجبّار أو القويّ [٢] ، أو الإله ، ومحصل معناه « بعل الجبّار » فيكون موطن هذا القصر في السابق هيكل (كذا) لبعل الأكبر [٣] ، وتلفظ الكاف في (كوارا) كالكاف الفارسيّة وكالجيم الآرمية أو المصرية وبتشديد الواو ، وقد يكتب العرب الجيم المصرية أو الكاف الفارسيّة كافاً لخلوّ حروف هجائهم من هذا الحرف (راجع تاج العروس مادة ج ب ر . والمزهر ١ : ١١ . ومقدمة ابن خلدون ، طبعة بيروت الأولى (٥٠٩) . ومع كل هذه الأدلة التي يظنها الباحث أنها من البراهين المقنعة فلا يظن الاستاذ هرتسفلد أن (الكوير) هو (بلكوارا) والسبب الأعظم في رفض هذا الرأي هو أن بلكوارا كان في الجنوب الأقصى من موقع المدينة ، وهذا لا يصدُق اليوم على موقع الكوير ، ثانياً أن أعراب العراق لا يجعلون كافاً فارسية أو جيماً مصرية إلا القاف فيقولون : گال ، بالكاف الفارسية في « قـــال » .

---

(١) المرجع المذكور « ص ١٣٧ — ١٣٩ » . (٢) قلت : هي اولى بأن تفسر بالجوّار مبالغة من « الجائر » لأن الواو مشددة حتى في الآرامية كما سيأتي . والجور يعتمد على القوة غالباً.

(٣) هذا الرأي هو الذي بعثنا على تفصيل القول فيه لاعتداده متقدم الزمان على سامرا المعتصم .

وعليه فيكون «كذا» أصل لفظ الكوير (القوير) تصغير القارة. وبمعنى الجُبيل المنقطع عن الجبال أو الصخرة العظيمة مع حذف الهاء للتخفيف. هذا رأي الدكتور العلامة (هرتسفلد). وأما سكان سامراء فيزعمون أن الكوير سمّي بهذا الاسم من الگاوور والكاوور عندهم الكفار أو النصارى، فيكون معنى اللفظ (تل الكفار) وهذا أيضاً لا يُسلّم به[1]، والسبب هو أن الكاف في كلا اللفظين (كاوور وكوير) وإن كانت تلفظ كالكاف الفارسيّة إلاّ أنّ الكاوور لا يصغر هذا التصغير أي على وزن ربير. كما أنه لا موجب هناك أن يسمى الكوير بهذا الاسم، إن كان هذا معناه، ولا يسمّى غيره بمثله، وعليه فهذا الرأي فاسد لا محالة. بيد أن ما يثبت كل الاثبات أن المنقور هو (بلكوارا) هو أن اليعقوبي يقول في كتابه تاريخ البلدان — ص ٢٦٥ — إن المتوكل ... أنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوارا، فاتصل البناء من بلكوارا إلى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار أربعة فراسخ. وقد حضر الدكتور هرتسفلد في المنقور فوجد هناك رقيماً عليه مكتوب (الأمير المعتز بالله ابن أمير المؤمنين) ولما كان المنقور (ويلفظ بالكاف الفارسية) آخرا خربة سامراء لم يعد[2] يبقى شك في أن المنقور هو بلكوارا في السابق»[3].

قلت: القادسية معلومة الأثر والأطلال وقد ذكر الشابشتي أن المتوكل بنى قصر بلكوارا فيها، والمنقور القائم الأطلال لا يعد اليوم من القادسية، فكيف يكون هو «بلكوارا»؟ ثم إن المنقور تسمية عامية فان العوام يقولون مثلاً: حجر منقور.ورحى منقورة وخشب منقور بالمنقار، وجاء في وصف دير متى شرقي الموصل «وأكثر بيوته منقورة في الصخر» كما في معجم البلدان.

---

(١) الصواب «لا يسلم» بغير جار ومجرور، يقال: سلمت لك رأيك اي ايقنت به فهو مسلم. (٢) الصواب «لم يبق شك» وقوله «لم يعد» فضلة لا محل لها هناك. (٣) لغة العرب «١: ١٣٧، ١٣٨ في الحاشية».

أي فيها تحفيرات بآلات الحفر ، ولا تشبه لفظة بلكوارا لفظة « المنقور » حتى يصحفها العوام إليها بَلْهَ أن المنقور اسم عربي معرّف محلى بالألف واللام ، وبلكوارا اسم أعجمي لم يدخل عليه أحد الألف واللام ولم يقل أحد « البلكوارا » حتى يُحتج لذلك التحريف البعيد ، ولو كان المنقور تصحيفاً لذاك لبقي في الأقل على صورة « منقورا » بغير تعريف بالألف واللام . هذا والأخبار التي نقلتُها آنفاً مذكور فيها أن في قصر بلكوارا إيواناً طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً ، فينبغي أن يبحث في خِطة قصر المنقور عن موضع ينطبق على مساحة ذاك الايوان ، فان وجد فذلك من مقويات الرأي القائل بأن المنقور هو أطلال بلكوارا ، وإن كانت جميع القصور أيامئذ تحتوي على أواوين وكان المتوكل قد أحيا الطراز البنائي الحيري المعروف بالحاري ذي الكمين وذكره المسعودي في مروج الذهب .

ولعل المنقور هو « الجوسق الخاقاني » قال اليعقوبي : « ثم أحضر المعتصم المهندسين فقال : اختارُوا أصلح هـذه المواضع فاختارُوا عدة مواضع للقصور ، وصيّر إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر فصير الى خاقان غرطوج أبي الفتح بن خاقان بناء (الجوسق الخاقاني) والى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري »[١] . ثم قال : « وولي

صورتان من بقايا اطلال الجوسق الخاقاني





(١) البلدان « ص ٢٥ طبعة النجف » .

جعفر المتوكل ابن المعتصم فنزل الهاروني[١] ، وآثره على جميع قصور المعتصم وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق[٢] » ، وقال أبو علي التنوخي : « ومن مُلح أخبـار القاضي أحمـد بن أبي دؤاد ما حكي أن المعتصم كان بالجوسق مع ندمائه وقد عزم على الاصطباح وأمر كلاً منهم ان يطبخ قدراً ونظر سلامة غلام أحمد بن أبي دواد فقال : هذا غلام ابن أبي دواد جاء ليعرف خبرنا والساعة يأتي فيقول : فلان الهاشمي وفلان القرشي وفلان الأنصاري وفلان العربيّ فيقطعنا بحوائجه عما كنا عزمنا عليه وأنا أشهدكم أني لا أقضي له اليوم حاجة . فلم يكن بأسرع من أن دخل ايتاخ يستأذن لأحمد بن أبي دواد . فقال (المعتصم) لجلسائه : كيف ترون ؟ قالوا : لا تأذن له يا أمير المؤمنين . قال : سوأة لهذا الرأي والله لحُمّى سنة أسهل عليّ من ذلك . فأذن له ، فدخل ، فما هو إلا أن سلم وجلس حتى أسفر وجه المعتصم وضحكت اليه جوارحه ثم قال : يا أبا عبد الله قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدراً وقد جعلناك حكماً في أطيبها ، قال : فلتحضر لآكل وأحكم بعلم . فأمر المعتصم باحضارها فأحضرت القدور بين يديه ، وتقدم القاضي أحمد بن أبي دواد ، فجعل يأكل من أول كل قدر أكلاً تاماً . فقال له المعتصم : هذا ظلم . قال : وكيف ذاك ؟ قال : أراك قد أمعنت في هذا اللون وستحكم لصاحبه . قال : يا أمير المؤمنين ليس بلقمة ولا باثنتين تدرك المعرفة باخلاط الطعام وعليّ أن أوفي كلا منها حقّه في الذوق ثم يقع الحكم بعد ذلك . فتبسم المعتصم وقال : شأنك إذن . وأكل من جميعها ، كما ذكر ، ثم قال : أمّا هذه فقد أحسن صاحبها إذ أظهر فلفلها وقلّل كمونها . وأما هذه فقد أجاد صاحبها إذ كثّر خلّها وقلّل فلفلها ليشتهى حمضها . وأما هذه فقد أحكمها طبّاخها بتقليل مائها وكثرة رُبّها . وأقبل يصفها واحدة واحدة ، حتى أتى

---

(١) هو القصر الذي صار المعشوق بعد ذلك مقابلا له وعرف عند العامة بالكوير تصغير القوير وهومنسوب الى هارون بن المعتصم . (٢) البلدان « ص ٣١ ، ٣٢ » .

على جميعها بصفات سرَّ بها أصحابها »[١].

وجاء في كتاب الأغاني عن أبي عبد الله الهشامي قال . «كانت متُيم (الهشامية) للبانة بنت عبد الله بن إسماعيل المراكبي مولى عريب فاشتراها علي بن هشام منها بعشرين ألف درهم وهي إذذاك جويرية ، فولدت لـــه صفية وتكنى أم العبَّاس ثم ولدت محمداً ويعرف بأبي عبد الله ثم ولدت بعده ابناً يقال له هارون ويعرف بأبي جعفر ، سمَّاه المأمون وكنَّاه لما وُلد بهذا الاسم والكنية ، قال : ولما توفي علي بن هشام عتقت ، وكان المأمون يبعث اليها فتجيئه فتغنّيه ، فلما خرج المعتصم إلى سُرَّ من رأى أرسل إليها فأشخصها وأنزلها داخل الجوسق في دار كانت تسمّى الدمشقيّ وأقطعها غيرها ، وكانت تستأذن المعتصم في الدخول إلى بغداد إلى ولدها فتزورهم وترجع ».

وهذا الخبر يشعر بسعة بقعة الجوسق الخاقاني بحيث أنشئت دور ومرافق فان كان اقطاع المعتصم لها من أرض الخاقاني أيضاً فهذا التناهي في وساعة القصر ومرافقه ، وقال أبو علي التنوخي : « قال أبو اسحاق أخبرنا أحمد بن أبي دواد قال : دخلت على المعتصم يوماً فقال لي : يا أبا عبد الله لم يدعني اليوم أبو الحسن الافشين حتى أطلقت يده على (أبي دلف) القاسم بن عيسى فقمت من بين يديه ولم أبصر شيئاً جزعاً على أبي دلف ودخلني أمر عظيم وخرجت فركبت دابتي وسرت أشدّ سير من الجوسق إلى باب الافشين بقرب المطيرة أؤمل أن أدرك أبا دلف من قبل أن تحدث عليه حادثة[٢] ». وأنهى القصة بتنحية أبي دلف فكانت من الفرج بعد الشدّة الذي هو موضوع الكتاب .

وذكر أبو محمد البلوي في خبر ارتحال المعتمد على الله سنة ٢٦٩ إلى

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد « ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ » تحقيق محمد كرد علي والحكايــة بقية في الكتاب . الأغاني «ج ٧ ص ٢٩٤ طبعة دار الكتب المصرية » . (٢) الفرج بعد الشدة « ١ : ٦٧ طبعة مطبعة الهلال بالقاهرة » .

مصر والعزم على الاستقرار فيها أن إسحاق بن كنداج القائد سار من نصيبين الى الموصل في خيل جريدة أربعة آلاف مملوك ، فلحق المعتمد بين الموصل والحديثة ومنعه من الارتحال وأعاده الى سامرا قال : « فلما بلغوا سُرَّ من رأى تلقاه أبو العباس ابن الموفق وصاعد بن مخلد (الوزير) فسلمه إسحاق إليهما وانصرف إلى دار الخليفة ينتظر عودتهم فأنزلا المعتمد دار أبي أحمد ابن الخصيب التي في طرف الجسر ومُنع من نزول الجوسق والمعشوق ووكلا به قائداً في خمسمائة رجل يمنعون أن يدخل إليه أحد »[1] .

وقال ابن أبي أصيبعة : « قال يوسف بن إبراهيم : « كان خروج أمير المؤمنين (المعتصم بالله) عن مدينة السلام عن غير ذكر تقدم الخروج إلى ناحية من النواحي وكان الناس قد حضروا الدكة بالشماسيّة[2] لحلبة السروج في يوم الاربعاء لسبع عشرة وليلة خلت من ذي العقدة سنة عشرين ومائتين ، فأخرجت الخيل ودعا بالجمّازات فركبها ونحن لا نشك في رجوعه من يومه ، ثم أمر الموالي والقواد باللحاق به ، ولم يخرج معه من أهل بيته أحد إلا العباس بن المأمون وعبد الوهاب بن علي ، وخلّف المعتصم الواثق بمدينة السلام إلى أن صلى بالناس يوم النحر سنة عشرين ومائتين ثم أمر بالخروج إلى القاطول ، فخرج فوجهني أبو اسحاق(ابراهيم بن المهدي) بحوائج له إلى باب أمير المؤمنين ، فتوجهت فلم يزل سيّارة مرة بالقاطول ومرة بدير بني الصقر وهو الموضع الذي سمّي في أيام المعتصم والواثق بالايتاخيّة[3] وفي أيام المتوكل بالمحمدية[4] ، ثم صار المعتصم الى سُرَّ من رأى فضرب مضاربه فيها وأقام بها في المضارب ، فإني لفي بعض الأيام على باب مضرب المعتصم إذ خرج سلمويه بن بنان (طبيب المعتصم) فأخبرني

---

(١) سيرة احمد بن طولون « ص ٢٩١ — ٢٩٣ طبعة المطبعة العربية بدمشق ، تحقيق محمد كرد علي » . (٢) ذكرنا ان باب الشماسية هي محلة الصليخ الحالية فالشماسية هناك . (٣) نسبة الى قائدة ايتاخ التركي . (٤) لعله نسبة الى ابنه محمد .

أن أمير المؤمنين أمره بالمصير الى الدور والنظر إلى سوارتكين الفرغاني والتقدم الى متطببه في معالجته من علّة يجدها بما يراه سلمويه صواباً وحلف عليّ أن لا أفارقه حتى نصير الى الدور ونرجع . فمضيت معه ، فقال لي : حدّثني في غداة يومنا نصر بن منصور بن بسّام أنه كان يساير المعتصم بالله في هذا البلد – يعني بلد سُرّ من رأى – وهو أمير ، قال لي سلمويه قال : قال لي نصر إن المعتصم أمير المؤمنين قال : يا نصر أسمعت قط بأعجب ممّن اتخذ في هذا البلد بناءاً وأوطنه ؟ ! ليت شعره ما أعجب مُوطنه : حزونة أرضه ، أو كثرة أخاقيقته[1] أم كثرة تلاعه وشدّة الحرّ فيه إذا حمي الحصى بالشمس ؟ ! اما ينبغي أن يكون متوطن هذا البلد الا مضطراً مقهوراً أو رديء التمييز . قال لي سلمويه قال لي نصر بن منصور : وأنا والله خائف أن يوطن أمير المؤمنين هذا البلد . فان سلمويه ليحدثني عن نصر إذ رمى ببصره نحو المشرق فرأى في موضع الجوسق المعروف بالمصيب أكثر من ألف رجل يضعون أساس الجوسق . فقال لي سلمويه : أحسب ظن نصر بن منصور قد صحّ . وكان ذلك في رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ، وصام المعتصم في الصيف في شهر رمضان من هذه السنة وغدّى الناس فيه يوم الفطر واحتجم المعتصم بالقاطول يوم سبت وكان ذلك اليوم آخر يوم من صيام النصارى ، واستأذنه في المصير الى القادسية ليقيم في كنيستها باقي يومه وليلته ويتقرب فيها يوم الأحد ويرجع الى القاطول قبل وقت الغداء من يوم الأحد ، فأذن له في ذلك وكساه ثياباً كثيرة ووهب له مسكاً وبخوراً كثيراً فخرج منكسراً مغموماً وعزم عليّ بالمصير الى القادسية فأجبته الى ذلك[2] » . فتأمل ثانية سعة قصر الجوسق الخاقاني بحيث اشتغل بوضع أساسه أكثر من ألف رجل وغدّى المعتصم فيه الناس يوم الفطر .

---

(١) الاخاقيق جمع اخقوق وهو شق في الارض ، وهي لغة في اللخقوق ، وفي الحديث « فوقعت به ناقة في اخاقيق جرذان » . (٢) عيون الأنباء « ١ : ١٦٥ ، ١٦٦ طبعة ملر بمصر » والقصة بقية في الكتاب .

وقال اليعقوبي في سيرة المعتصم : « وتوفي يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ وصلّى عليه ابنه هارون ودفن في قصره المعروف بالجوسق وكانت سنه ٤٩ سنة » [١] . وقال الخطيب البغدادي في ترجمة محمد المنتصر ابن المتوكل ناقلاً : « مات المنتصر بالله يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وصلى عليه ابن عمه أحمد بن محمد المستعين بالله ، ودفن في سر من رأى في موضع يقال له الجوسق » ثم قال ناقلاً : « ولد المنتصر بالله بسرّ من رأى ومات بسرّ من رأى وهو أول من أظهر قبره في خلفاء بني العباس وكان عمره أربعاً وعشرين سنة [٢] » .

ولم يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان « جوسق المعتصم » هذا أي الجوسق الخاقاني في مادته ولا في كتابه المشترك مع أنه ذكر جواسق عدة في بلدان مختلفة ولكنه ذكره في مادة « سامرا » في الكلام على القصور التي أنشأها المتوكل فيها وغيرها أن منها « الجوسق في ميدان الصخر خمسمائة ألف درهم » وقيمة هذا المبلغ الشرعية « خمسون ألف دينار » وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى نفقات القصور الأخرى التي كانت فيها أقل نفقات البناء خمسمائة ألف دينار للقصر المختار ، والمليح ، وقصر التل ، ما عدا قصر القلائد فقد كانت النفقة عليه خمسين ألف دينار كنفقة الجوسق . وأنا أستدل بهذا على أن المتوكل لم يكن المنشيء لقصر الجوسق بسامرا وإنما أنشأه المعتصم وأحدث المتوكل فيه بنياناً جديداً فنُسب إليه ، دلّني على ذلك أن المؤرخين الذين ذكروا الجوسق بعد قتل المتوكل لم يميّزوا بين جوسقين في التسمية والاضافة ، بل أطلقوا لفظ « الجوسق » ودلّني أيضاً أن الشابشتي قال : « وذكر أحمد بن حمدون قال : بنى المعتز في الجوسق في الصحن الكامل بيتاً قدّرته له أمه ومثّلت حيطانه وسقوفه فكان أحسن بيت رئي » [٣] . فهذا

(١) اليعقوبي « ٣ : ٢٠٤ » . (٢) تاريخ بغداد « ٢ : ١٢١ » . (٣) الديارات « ص ١٧٠ » .

يدل على أن الجوسق كان من السعة في خطّته الأصلية ومرافقه مـا يمكن معه إضافة أبنية أخرى .

وقد وردت أخبار لما حدث بعد وفاة المنتصر ابن المتوكل سنة ٢٢٨ احتوت على ذكر «الجوسق» في تاريخ الطبري وغيره ، وأحسبها لجوسق المعتصم لأن جوسق المتوكل لا يزال غير مميّز ذكره عن الجوسق العتيق سوى نسبته الانشاء إلى المتوكل مع أن النفقة لا تدل على إنشاء قصر فخم بالنسبة إلى القصور الأخرى [1] .

(١) اقرأ فصلا كاملا عن تمصير سامرا بقلم الدكتور مصطفى جواد في الجزء الثاني من هذا القسم الذي سيمثل للطبع في المستقبل ان شاء الله .

سامراء
في ظل الخلافة العباسية

كتبـــه

الدكتور حسين امين

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بجامعة بغـــداد

والحائز على درجة دكتوراه الشرف الأول
من جامعة الاسكندرية



سامراء في ظل الخلافة العباسية

في أيام المعتصم

تولى الحكم في دولة بني العباس بعد وفاة المأمون ، أخوه ابو اسحق محمد ابن هرون الرشد والملقب بالمعتصم سنة ٢١٨ هـ ، ٨٣٣ م ، وكان المعتصم قد اكثر من شراء الاتراك ، الى حد صار عنده سبعون الف مملوكاً ، كما اشترى من كان ببغداد من رقيق الناس ، وممن اشتري ببغداد ،(أشناس) وكان مملوكاً لنُعيم بن خازم ابن هارون بن نُعيم ، وإيتاخ كان مملوكاً لسلاّم بن الابرش ، و (وصيف) كان زراداً مملوكاً لآل النعمان ، وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرئاستين الفضل بن سهل ، وكان اولئك الاتراك العجم إذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدُون على مَنْ فعل ذلك فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد فخرج الى الشماسية وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج فيقيم به الايام والشهور . فعزم ان يبني بالشماسية خارج بغداد فضاقت عليه ارض ذلك الموقع وكره ايضاً قربها من بغداد[1] .

---

(١) اليعقوبي — البلدان ص ٢٥٥ — ٢٥٦ طبعة ليدن .

ويبدو ان المعتصم تنقل إلى أمكنة متعددة ، فقد اقام بالبردان ثم انتقل الى باحَمشا من الجانب الشرقي من دجلة ، ثم صار الى المطيرة فأقام بها مدة ثم مَدّ الى القاطول ، والقاطول نهر كان في موضع سامراء قبل ان تعمر وكان الرشيد اول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصراً سماه ابا الجند لكثرة ما كان يسقي من الأرضين وجعله لارزاق جنده ، وفوق هذا القاطول القاطول الكسروي ، حفره كسرى انوشروان [1] . ولم تعجب ارض القاطول المعتصم وركب متصيداً فمر في مسيره حتى صار الى موضع سر من رأى وهي صحراء من ارض الطيْرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها إلاّ دير للنصارى فوقف بالدير وكلّم من فيه من الرهبان ، وقال : ما اسم هذا الموضع ، فقال له بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سُرَّ من رأى وانه كان في مدينة سام بن نوح وانه سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور له اصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ، ينزلها وينزلها ولده . فقال : أنا والله ابنيها وانزلها وينزلها ولدي [2] .

وأمر المعتصم ببناء القصور والدور ، واستقدم المهرة من الصناع والفنيين لتشييد قصوره وبناياته وجلب اصناف الأشجار المثمرة من جميع البلدان فغرست البساتين في كل مكان ، وما انقضت سنتان او ثلاث حتى ارتفعت القصور واقيمت المساجد ودواوين الدولة وبنيت الدور ومدت الأسواق والشوارع واحكمت اسوار القطائع ، وشيد فيها ثكنات لسكن ٢٥٠ الف جندي واصطبلات واسعة لاستيعاب ١٦٠ الف حصان [3] .

ويبدو ان المعتصم بعد ان وافق على اختيار موضع سامراء ، صَيَّر الى كل رجل من أصحابه بناء قصر ، فصيَّر الى خاقان عُرْطُوج أبي الفتح بن خاقان بناء الجَوْسَق الخاقاني ، والى عمر بن فَرَجْ بنـــاء القصر المعروف

---

(١) ياقوت – معجم البلدان ج ٤ ص ١٦ طبعة لايبزك . (٢) اليعقوبي – البلدان ص ٢٥٧ . (٣) سيد امير علي – مختصر تاريخ العرب ص ٢٤٣ .

بالعُمَريّ ، والى ابن الوزير بناء القصر المعروف بالوَزيريّ ، ثم خَطَّ القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد الجامع ، ووسعت صُفوف الأسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حِدتهم ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد ، وكتب في اشخاص الفعلة والبنائين . واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات وفي حمل الساج وسائر الخشب والجُذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ، وفي حمل عَمَلة الرخام وفرش الرخام فأقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام ، وافرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم ، لا يختلطون بقوم من المُوَلَّدين ولا يجاورهم إلاّ الفراغنة . واقطع اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضَمّ إليه عدة من القواد الاتراك والرجال وامره ان يبني المساجد والاسواق[1] .

يظهر لنا من النص السابق ان المعتصم لما وقع اختياره على موضع سامراء رغب في جعل الاتراك يستقلون في مواضع خاصة من المدينة ولا يختلطون بعناصر غريبة قد تفسد مزاجهم وتعمل على ضعف همتهم ، كما انه الزم كل قائد ورجاله بتحمل مسؤولية العمل على المساهمة في البناء ، وهذا يقودنا الى حقيقة مهمة ، انــه بهذه الطريقــة تمكن من اكمال مدينته بهذه السرعة العجيبة ، واستخــدام الاتراك بجهودهم واموالهم إضافة إلى الفنيين والفعلة من ارجاء العالم الاسلامي ، فترى في ذلك الوقت ما يزيد على خمسين ألف من الرجال يعملون باخلاص ونظام وبهذا ارتفعت القواعد واقيمت الأركان وشيدت المساجد العامرة والقصور الكبيرة والدور العديدة والحدائق النضرة ، فكانت مدينة تفتخر بها الحضارة الاسلامية وكانت معجزة من معجزات الانسان في القرون الوسطى .

ويبدو ايضاً ان من سياسة المعتصم عزل جنده الاتراك عن كل العناصر

---

(١) اليعقوبي — ص ٢٥٨ .

الغريبة منهم ، فقد صُيّرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة عن الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره ، ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا الى احد من المُوَلَّدين الى ان ينشأ لهم الولدُ فيتزوج بعضهم الى بعض واجرى لجواري الاتراك ارزاقاً قائمة واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته ولا يفارقها[١] .

كما نلاحظ ان المعتصم أمر قادته ورجاله الذين اقطعهم الأراضي لبنائها ، بأن لا يطلق لغريب مجاورتهم ، كما ألزمهم بتشييد الاسواق الضرورية ، قال اليعقوبي : ولما اقطع اشناس التركي في آخر البناء مغرباً واقطع اصحابه معه وسمّى الموضع الكرخ أمره ان لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم ولا يطلق معاشرة المولّدين ، فاقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدُّور وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمامات وجعل في كل موضع سُوَيْقة فيها عدة حوانيت ، واقطع الأفشين خيذر بن كاوس الأسروشني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمي الموضع المطيرة ، فاقطع اصحابه الاسروشنية وغيرهم من المضمومين إليه حول داره وامره ان يبني فيها هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بد منه ومساجد وحمامات[٢] .

وعُني المعتصم بمدينته عناية فائقة، فقسمها الى قطائع كل قطيعة لجماعة معينة ، وامتدت الشوارع المستقيمة والمنظمة وكان من اكبر شوارع المدينة الشارع المعروف بالسريجة وهو الشارع الأعظم ويمتد من المطيرة الى الوادي المعروف بوادي اسحق بن ابراهيم ، وهناك شوارع اخرى مثل شارع ابي احمد بن الرشيد ، وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم ابن بانيجور وقطيعة عُجَيْف بن عنبسة وقطيعة الحسن بن علي المأموني وقطيعة

---

(١) اليعقوبي ص ٢٥٩ . (٢) المصدر السابق .

هرون بن نعيم وقطيعة حزام بن غالب ، وظهر قطيعة حزام ، الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصّية والعامية ، يتولاها حزام ويعقوب اخوه ، ثم مواضع الرطّابين وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحُجر والغرف والحوانيت للرقيق ثم مجلس الشرط والحبس الكبير ومنازل الناس والأسواق في هذا الشارع يمنة ويسرة مثل سائر البياعات والصناعات ويتصل ذلك الى خشبة بابك [1] ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل اهل مهنة لا يختلطون بغيرهم ، ثم الجامع القديم الذي لم يزل يجمّع فيه الى أيام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحَيْر المسجد الجامع والاسواق من احد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل واسواق اصحاب البياعات الدنيّة مثل الفُقّاع والهرائس والشراب ، وقطيعة راشد المغربيّ وقطيعة مبارك المغربيّ وسويقة مبارك وجبل جعفر الخيّاط وفيه كانت قطيعة جعفر ثم قطيعة ابن الوزير ثم قطيعة العباس بن علي بن المهدي ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهـــدي ويمتد الشارع وفيـــه قطائع عامة الى دار هرون بن المعتصم ، وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحي بن اكثم في ايام المتوكل لما ولاه قضاء القضاة ، ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين والخميس ، ثم الخزائن ، خزائن الخاصة وخزائن العامة ، ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم وإليه الخزائن ثم قطيعة قَرْقاس الخادم وهو خراساني ثم قطيعة ثابت الخادم ثم قطيعة أبي الجعفاء وسائر الخدم الكبار .

والشارع الثاني يعرف بأبي احمد وهو ابو احمد بن الرشيد أوّل هذا الشارع من المشرق ، دار بختيشُوع المتطبب التي بناها في ايام المتوكل ثم قطائع قواد خراسان واسبابهم من العرب ومن اهل قُم واصبهان وقزوين والجبل وآذربيجان

---

(١) خشبة بابك : المكان الذي صلب فيه رأس بابك الخرمي .

يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ الى شارع السريجة الاعظم وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ الى شارع ابن احمد ، ديوان الخراج الأعظم ، وقطيعة عمر وقطيعة الكتّاب وسائر الناس وقطيعة احمد بن الرشيد في وسط الشارع ، وفي آخره مما يلي الوادي الغربي يقال له وادي ابراهيم بن رياح ، قطيعة ابن ابي دُوّاد وقطيعة الفضل بن مروان وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيّات وقطيعة ابراهيم بن رياح في الشارع الأعظم . ثم تتصل الاقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب الى يمنته ويسرته الى قطيعة بُغا الصغير ثم قطيعة بُغا الكبير ، ثم قطيعة سيما الدمشقي ، ثم قطيعة برمش ، ثم قطيعة وصيف القديمة ثم قطيعة إيتاخ ويتصل ذلك إلى باب البستان وقصور الخليفة .

والشارع الثالث ، شارع الحَيْر الأول الذي صارت فيه دار احمد ابن الخصيب في ايام المتوكل ، وفيه قطائع الجند والشاكرية واخلاط الناس ويمتد الى وادي ابراهيم بن رياح .

والشارع الرابع يعرف بشارع برغامش التركي ، فيه قطائع الاتراك والفراغنة ، فدروب الاتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة ، والأتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة بازائهم بالدروب التي في ظهر القبلة ، كل درب بازاء درب لا يخالطهم أحد من الناس ، وآخر منازل الاتراك وقطائعهم ، قطائع الخزر مما يلي المشرق ، اول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الافشين التي صارت لوصيف واصحاب وصيف ، ثم يمتد الشارع الى الوادي الذي يتصل بوادي ابراهيم بن رياح .

والشارع الخامس يعرف بصالح العباس وهو شارع الاسكر ، فيه قطائع الاتراك والفراغنة ، والاتراك ايضاً في دروب منفردة والفراغنة في دروب منفردة ممتدة من المطير الى دار صالح العباس التي على رأس الوادي ، ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة .

وشارع الحير الجديد ، يقع خلف شارع الاسكر ، فيه اخلاط من الناس من قواد الفراغنة والاسروشنية والاشتاخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان ،

وهذه الشوارع التي من الخير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطاً غيره ، وخلف الحائط الوحش من الظباء والايايل والحمير الوحش والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة .

والشارع الذي على دجلة يسمى شارع الخليج وهناك الفُرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر [١] وسائر السواد من البصرة والأبلة [٢] والاهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وبعربايا [٣] ، وديار ربيعة وما اتصل بذلك ، وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم او اكثرهم [٤] .

واخذت مدينة سامراء في الاتساع ايام الخليفة المعتصم وحمل إليها الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان ، كما عقد جسراً يربط الجانب الشرقي بالجانب الغربي ، حيث انشأ هناك العمارات والبساتين [٥] .

في أيام الواثق بالله

وتوفي المعتصم سنة ٢٢٧ ه ، وتولى الخلافة ولده هرون الواثق ، ومن اشهر عماراته في سامراء ، انشاؤه القصر الذي عرف بالقصر الهاروني ، وهو على دجلة ، وبينه وبين سامراء ميل وبازائه بالجانب الغربي المعشوق [٦] . وكانت لهذا القصر مجالس في دكّة شرقية ودكّة غربية [٧] ، ولما توفي الواثق سنة ٢٣٢ ه ، دفن في القصر الهاروني [٨] .

---

(١) كسكر : بالفتح ثم السكون ، كورة واسعة وقصبتها واسط القصب التي بين الكوفة والبصرة ، ويقال ان حد كورة كسكر من الجانب الشرقي في آخر سقي النهروان الى ان تصب دجلة في البحر . (ياقوت : ج ٤ ص ٢٧٤ — ٢٧٥) . (٢) الأبلة : ضم اوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها ، وهي بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج ، وهي اقدم من البصرة . (ياقوت : ج ١ ص ٩٦ — ٩٧) . (٣) بعربايا : وتكتب باعربايا ايضاً وهي قرية من قرى الموصل (ياقوت : ج ١ ص ٤٧٢) . (٤) اليعقوبي : البلدان ص ٢٥٨ — ٢٦٣ . (٥) المرجع السابق : ص ٢٦٣ . (٦) ياقوت : ج٤ ص ٩٤٦ . (٧) اليعقوبي : ص ٢٦٤ . (٨) الطبري : حوادث سنة ٢٣٢ ه كذلك ابن الأثير في حوادث نفس السنة .

في أيام المتوكل

وارتقى عرش الخلافة العباسية المتوكل بن المعتصم ، واتخذ القصر الهاروني منزلاً له ، وآثره على غيره من القصور ، كما انزل ابنه محمداً الملقب بالمنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وانزل ابنه ابراهيم الملقب بالمؤيد بالمطيرة وانزل ابنه المعتز ببلكوارا .

ويعتبر المتوكل من اكثر الخلفاء العباسيين عناية بمدينة سامراء ، فعمل على زيادة عماراتها ومدّ شوارعها ، ومن أشهر أبنيته بناؤه المسجد الجامع في اول الحير في موضع خارج منازل المدينة ، وجامع سامراء من أهم الآثار العباسية في منطقة سامراء وهو يظهر بجلاء ، الجهود العظيمة التي بُذلت في سبيل انشائه واظهاره بالشكل الذي يليق ومكانة العاصمة العباسية ، والزائر له اليوم لا يرى إلاّ بقايا جدرانه الخارجية ، ومئذنته الشهيرة بالملوية ، وطول المسجد ٢٤٠ متراً وعرضه ١٦٠ م ، ويبلغ علو الجدران نحو عشرة امتار وثخنها لا يقل عن المترين ، ويدعمها من الخارج ابراج نصف دائرية عددها اربعون برجاً ، اربعة منها في الأركان وثمانية في الضلع الجنوبية وفي الضلع الشمالية وعشرة في الضلع الشرقية وفي الضلع الغربية ، وفي القسم الأعلى من الجدار الجنوبي الى الجهة القبلية نوافذ مستطيلة ضيقة من الخارج واسعة من الداخل ، ويظهر في داخل كل نافذة عمودان من الآجر يحملان طاقاً مكوناً من خمس حنايا .

وفي الجهة القبلية المحراب وعلى طرفيه بابان ، وفي الجدران الأخرى هناك واحد وعشرون باباً ، خمسة في الجدار الشمالي وثمانية في كل من الجدارين الشرقي والغربي ، ويستدل من استكشاف العلامة الآثاري هرزفلد ، على انه كان في المسجد ٢٥ رواقاً وان الاوسط منها اكثر اتساعاً من الاروقة الاخرى ، و ٢٤ صفاً من الأعمدة في كل منها عشرة عمد ، هذا عدا الايوان الشمالي وفيه ٢٤ صفاً من الأعمدة في كل صف منها ثلاثة عمد والرواقين الجانبيين

في كل منها ٢٢ صفاً من الأعمدة في كل صف منها اربعة عمد ، وبذلك تكون جملة عدد الأعمدة ٤٨٨ عموداً . وكانت السقوف ترتكز على العمد مباشرة دون طيقان من البناء[١] .

ويبدو من الأخبار التاريخية انه كانت في وسط المسجد نافورة ، فقد قال اليعقوبي : وبنى المسجد الجامع في اول الحَيْر في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع والاسواق واتقنه ووسّعه واحكم بناءه وجعل فيه فوّارة ماء لا ينقطع ماؤها[٢] . وكانت الفوارة تستمد مياهها من القناة التي أنشأها المتوكل لايصال الماء الى مدينة سامراء[٣] .

ويذكر بعض المؤرخين ان جدران المسجد الجامع في سامراء كانت فيها المرايا ، ومن النصوص الطريفة ما ذكره ابو الحسن الهروي قوله : وجامعها موضع شريف به المعجون كأنه المرآة يبصر المتوجه الى القبلة الداخل والخارج من الشمال[٤] .

وعلى بعد خمسة وعشرين متراً من الجدار الشمالي وعلى محور باب المسجد تقع المئذنة الشهيرة بالملوية ، وهي مخروطية الشكل تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٢ متراً ، يصعد الى قمتها بمرقاة حلزونية تدور حولها من خارجها باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة خمس مرات وتبدأ المرقاة من وسط الضلع الجنوبية للقاعدة وتنتهي في القمة بغرفة صغيرة مستديرة علوها ستة امتار لها باب من الجهة الجنوبية ، ويبلغ ارتفاع الملوية على سطح الأرض ٥٢ متراً .

وكان الاعتقاد السائد ان الفارس كان يطلع هذه المئذنة ، ذكر ابن خرداذبه ان بمنارة اسكندرية ثلثمائة بيت وستة وستين بيتاً دائرة والمسجد بها في اعلاها

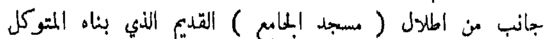
---

(١) سوسة : ري سامرا جـ ١ ص ١١٠ (٢) اليعقوبي : البلدان ص ٣٦٥ (٣) سوسة : ري سامراء ص ١١١ . (٤) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات .

ويركب الفارس والفارسان الى اعلاها بغير درج ، انما يدور الفرسان والرجالة الى اعلاها ، مثل منارة سُرَّ من رأى[1] . ولكنني اعتقد عكس ذلك إذ لا أرى ضرورة ان يصعد الفرسان الى اعلا المئذنة إضافة الى صعوبة ذلك ، كما ان المئذنة وهي جزء من المسجد له قدسيته وجلاله ، فمن الواجب الاحتفاظ به منزهاً من حوافر الخيل وفضلاتها .

وذكر ياقوت ان المتوكل انفق على بناء المسجد الجامع خمسة آلاف الف درهم[2] . والرأي السائد ان مئذنة سامراء بنيت على غرار الأبراج البابلية المدرجة (الزقورات) والمنشآت الصينية في عهد تانج[3] .

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١١٤ – ١١٥ . (٢) ياقوت : المعجم جـ ٣ ص ١٨ . (٣) ص ١٨ . (٤) كونل : الفن الاسلامي ص ٣٤ .



جانب من اطلال (مسجد الجامع) القديم الذي بناه المتوكل

ومن الجدير بالذكر ان احمد بن طولون بنى في مدينة القطائع بمصر مسجداً على غرار جامع سامراء ، ومن لوحته التأسيسية المثبتة على احدى دعائم المسجد يتبين لنا ان المسجد الطولوني انشىء بأمر الامير احمد بن طولون سنة خمس وستين للهجرة ، وقد ذكر بعض المؤرخين تواريخ أخرى مقاربة من ذلك فقد ذكر المقريزي ان بناء المسجد كان في سنة ٢٦٤ هـ[١] . بينما ذكر ابن دقماق ان البناء بدأ في سنة تسع وخمسين ومائتين للهجرة[٢] ، ويحتل مسجد ابن طولون مربعاً طول كل ضلع من اضلاعه ١٦٢ متراً تقريباً وهو اكثر مساجد مصر اتساعاً ، وتقع المئذنة في الزيادة الشمالية وقاعدة المئذنة مربعة تقريباً مقاساتها ١٢,٧٥ سم من الجانبين الشمالي والجنوبي و ١٣,٦٥ من الجانبين الأخرين[٣] ، وهو على طراز جامع سامراء وفي مصلاه عقود مدببة قائمة على خمسة صفوف من الدعائم ، وتندمج فيها اعمدة مبنية ايضاً بالآجر[٤] .

وقد بُني بسامراء جامع يعرف بجامع ابي دلف ، ومساحة هذا الجامع اقل قليلاً من جامع سامراء وهو مستطيل الشكل ، طول ضلعه الكبير ٢١٥,٤٧ متراً وضلعه الصغير ١٣٨,٢٤ متراً ، وفي وسطه صحن مكشوف مستطيل الشكل ايضاً ، وحول الصحن من جوانبه الاربعة ، اروقة عددها في الضلع القبلي خمسة اروقة ، وفي الاضلاع الأخرى رواقان وما تزال اساطين هذه الاروقة المشيدة بالآجر والجص قائمة وكذلك أقواس بعضها ، وقد قامت مديرية الآثار العراقية بتقوية معظم هذه الاساطين وصيانة عدد من الاقواس ، واليوم بامكان الزائر مشاهدة هذا الأثر العباسي وقد اعيد له طرازه الاول بفضل الجهود المبذولة من اجل الحفاظ عليه واظهاره بالمظهر الذي يليق به كأثر عربي اسلامي .

وسور الجامع مشيد باللبن ، ودلت التنقيبات ان ثخن هذا السور لا يقل

(١) المقريزي : الخطط : جـ ٢ ص ٢٦٨ . (٢) ابن دقماق : كتاب الانتصار جـ ٤ ص ١٢٢
(٣) احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها — المدخل ص ١١١ . (٤) كونل : ص ٣٤ .

عن ١,٦٠ م وانه كان في اركانه الاربعة ابراج مستديرة ويدعم كل جانب من الجانبين الشرقي والغربي عشرة ابراج نصف دائرية . وفي الضلع الشمالي ثمانية ابراج وفي الضلع القبلي عشرة ابراج ايضاً .

وبالجامع المتوكلية (جامع ابي دلف) ثمانية عشر باباً ، ثلاثة منها وهي في ناحية القبلة وتفضي الى مشتملات تتصل بالضلع الجنوبي ويبدو ان هذه الأبنية كانت معدة لاستراحة الخليفة إذا جاء لصلاة الجمعة وكان يدخل الى الجامع من باب بجانب المحراب .

اما مئذنة الجامع فانها تشبه ملوية جامع سامراء ، وهي ذات مرقاة خارجية وهي اصغر حجماً من ملوية جامع سامراء ويبلغ علو المئذنة نحو ١٩ متراً ، وتبدأ المرقاة من يمين الباب وتدور ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة ، ويستدل من الاخبار التاريخية ومن موضعه ان من عمل المتوكل العباسي ، ولكن لا ادري لم عُرف هذا الجامع بجامع ابي دلف ، علماً ان القائد العباسي القاسم بن عيسى العجلي ، توفي سنة ٢٢٦ هـ ، في حين ان المتوكل الذي أمر ببناء الجعفرية او المتوكلية ومن ضمنها جامع ابي دلف ، تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ ، معنى ذلك ان ابا دلف لم يعاصر بناء المتوكلية ولم ير جامعها .

ويبدو ان المتوكل العباسي ، كان ذا هواية كبيرة في تشييد الأبنية ومد العمران ، ومن اشهر القصور التي شيدها قصر الجعفري ، وهو بالقرب من سامراء بموضع يسمى الماحوزة[1] ، ولا تزال بقايا القصر وبركته تشاهد على ضفة دجلة في شمال السور الداخلي لمدينة المتوكلية في الزاوية التي يكونها نهر دجلة من جهة ونهر القاطول الكسروي من الجهة الثانية[2] . ونستشف من الاخبار التاريخية ان بناء القصر كلف الحاكم العباسي المتوكل اموالاً طائلة ،

---

(١) ياقوت : جـ ٢ ص ٨٦ .   (٢) سوسة : ري سامرا ط ص ١٣٣ .

ذكر ابو الفدا : ان المتوكل انفق في عمارته اموالاً تجل عن الحصر [١] ، وذكر ايضاً ان المتوكل انفق على بنائه الفي الف دينار وكان المتولي لذلك دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا الشرابي [٢] .

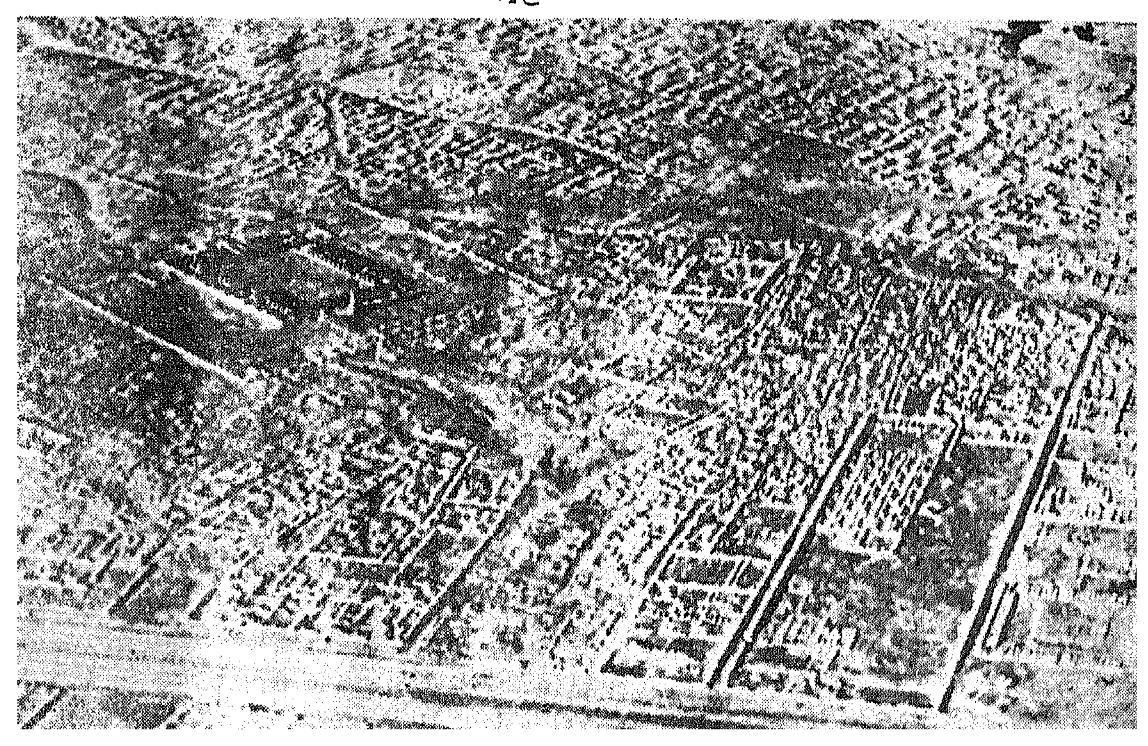
وبعد أن تمّ بناء المتوكلية انتقل المتوكل وحاشيته ورجال دولته وعامة الناس اليها ، وللبحتري الشاعر قصيدة عامرة في هذا القصر وبانيه يقول في مطلعها :

قد تَمّ حُسنُ الجعفريّ ولم يكن
ليتمّ إلاّ بالخليفة جَعْفَرِ

ولأبي علي البصري وصف حال المدينة العظيمة التي انفقت عليها الأموال

(١) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٢٤٥ . (٢) ياقوت : ج ٢ ص ٨٦ .

مخطط المتوكلية وجامع أبي دلف بسامرا



الطائلة وحالها البائس بعد تحول السلطة والرعية عنها قصيدة طويلة جاء في مطلعها :

إن الحقيقة غير ما يتوهّمُ
فاخترْ لنفسك أي امر تَعْزِمُ

إن هذه المدينة الجديدة التي انتقل اليها المتوكل ورعيته ، لم تكن على ما يبدو بالمدينة الناجحة او الملائمة لحياة السكان ، ذلك ان الذين اشرفوا على مهمة ايصال الماء الى المدينة المتوكلية لم يكونوا على خبرة واسعة وامكانية وافرة ، فجاءت النتيجة على عكس ما كان يرغب المتوكل والناس جميعاً ، وقد لعب مشروع النهر دوراً خطيراً في هجران المدينة ، مثل دوره في نشوء فكرة الانتقال اليها ، وذلك بسبب فشل هذا المشروع وعجزه عن تأمين ايصال المياه إليها في موسم الصيف[1] . وذكر اليعقوبي : ان النهر لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه إلاّ جرياً ضعيفاً لم يكن له إتصال ولا استقامة على انه قد انفق عليه شبيهاً بألف الف دينار ولكن كان حفره صعباً جداً انما كانوا يحفرون حصاً وافهاراً لا تعمل فيها المعاول[2] .

وبدىء العمل في تشييد المدينة سنة خمس واربعين ومائتين ووجّه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة ، فقدر النفقة على النهر الف الف وخمسمائة الف دينار ، وامر بأن تختط القصور والمنازل واقطع الولاة والامراء والكتّاب والجند . ومدّ الشارع الاعظم من دار اشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ الى قصوره ، واقطع الناس يمنة الشارع الاعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع ، وقدّر ان يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره ، وبُنيت القصور وشيدت الدور وارتفع البناء ، واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع

---

(١) سوسة : ج ٢ ص ٣١٥ . (٢) اليعقوبي — ص ٣٦٧ .

المعروف بالدُّور ثم بالكرخ وسرّ من رأى مادّاً إلى الموضع الذي كان ينزله ابو عبد الله المعتز ، ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرجٌ ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ[1] .

ان ذلك العمل الذي قام به المتوكل ، يعتبر من الأعمال الخارقة ، والتي تستحق النظر والاعتبار ، وبصورة خاصة إذا ما قدرنا تلك الظروف وامكانياتها الفنية التي تكاد تكون امكانيات بدائية ، ورغم ذلك فان المدة التي تَمّ فيها بناء المدينة المتوكلية مدة قصيرة جداً ، فقد كُمل بناؤها في اقل من سنتين وانتقل المتوكل الى قصور المدينة اول يوم من المحرم سنة سبع واربعين ومائتين للهجرة ، واقام فيها حوالي تسعة اشهر وقتل في شوال سنة سبع واربعين ومائتين في قصره الجعفري ، وتولى الخلافة العباسية ولده المنتصر ، فانتقل الى سرّ من رأى وامر الناس جميعاً بالانتقال عن الماحوزة (مكان المتوكلية) وان يهدموا المنازل ويحملوا النُقْض الى سامراء فانتقل الناس وحملوا نقض المنازل الى سامراء وخربت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه واسواقه في اسرع مدة وصار الموضع موحشاً لا أنيس به ولا ساكن فيه والديار بلاقع كأنها لم تعمر ولم تُسكن[2] .

وللمتوكل آثار عمرانية في سامراء ، بعضها لا يزال شاخصاً حتى اليوم والبعض الآخر نتعرف عليه من الاخبار التاريخية ، وخير مَنْ يلخص اعمال هذا الحاكم العباسي ، ياقوت في معجمه قوله : من الابنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعروس انفق عليه ثلاثين الف الف درهم ، والقصر المختار خمسة آلاف الف درهم والوحيد الفي الف درهم والجعفري المحدث عشرة آلاف الف درهم ، والغريب عشرة آلاف الف درهم ، والصُبح خمسة آلاف الف درهم ، والمليح خمسة آلاف الف درهم وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف الف درهم والتلّ علوّه وسفله

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٦ – ٣٦٧ . (٢) اليعقوبي – البلدان ص ٣٦٧ .

خمسة آلاف الف درهم والجوسق في ميدان الصخر خمسماية الف درهم والمسجد الجامع خمسة عشر الف الف درهم وبركوان[١] للمعتز عشرين الف الف درهم والقلايد خمسين الف دينار وجعل فيها ابنية بماية الف دينار ، والغَرْد في دجلة الف الف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماجوزة[٢] خمسين الف الف درهم ، البهو خمسة وعشرين الف الف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف الف درهم[٣] .

يعتبر عام ٢٢١ هـ ، هو بداية حياة سامراء كعاصمة للدولة العباسية ، وفي هذه السنة سارت جحافل العباسيين الى محاربة بابك الخرمي ، الذي خرج على الدولة العباسية ، وقد دارت معارك شديدة بين العباسيين وأنصار بابك ، وفي سنة ٢٢٢ هـ ، سقطت مدينة (البذ)[٤] ، التي كانت قاعدة لبابك الخرمي ، وقد نجح الافشين القائد العباسي ان يأسر بابك الخرمي ويقتاده اسيراً إلى سامراء سنة ٢٢٣ هـ ، حيث قتل ثم صلب .

ومن سامراء توجه المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ، لمحاربة البيزنطيين وقصد عمورية بجيش كبير ، وانتصر الجيش العباسي انتصاراً رائعاً ، ولما عاد المعتصم الى سامراء بعد ذلك النصر الذي احرزه على البيزنطيين في عمورية احتفل باستقباله احتفالاً باهراً ، ومدحه ابو تمام الشاعر بقصيدته التي جاء فيها : —

السيف اصدق انباءاً من الكتب　　في حده الحدُّ بين الجد واللعب

وفي سنـــة ٢٢٧ هـ ، توفي المعتصم ودفن في سامراء بقصره المعروف بالجوسق ، وكان من وزرائه ، احمد بن عمار بن شادي ومحمد بن عبد الملك الزيات .

---

(١) بركوان : بركوارا . (٢) الماجوزة : الصحيح الماحوزة . (٣) ياقوت — معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧ — ١٨ . (٤) البذ : وهي كورة بين أذربيجان وايران بها كان مخرج بابك الخرمي في أيام المعتصم . ياقوت جـ ١ ص ٥٢٩ .

عودة للواثق

وتولى الخلافة من بعد المعتصم ولده هارون الواثق ، ويعتبر من افاضل الخلفاء العباسيين ، وكان فاضلاً لبيباً ، فطناً فصحيحاً وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته[١] .

وفي مفتتح خلافته ثارت القيسية بدمشق ، فأرسل الواثق إليهم رجاء بن ايوب الحضاري وكانوا معسكرين بمرج راهط ، فحاربهم رجاء وهزمهم وأعاد الأمن والاستقرار لدمشق[٢] .

وفي سامراء سنة ٢٢٨ هـ ، اعطى الواثق اشناس تاجاً ووشاحين[٣] .

وفي سنة ٢٣٢ هـ ، توفي الواثق في سامراء ودفن في قصره المعروف بالهاروني . ولم يستوزر الواثق سوى محمد بن عبد الملك الزيات وزير ابيه[٤] .

عودة للمتوكل

وتولى الحكم المتوكل جعفر بن المعتصم ، ولم تمض شهور حتى أمر بالقاء القبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وبحبسه ، وفي سنة ٢٣٥ هـ امر بقتل ايتاخ .

وفي سنة ٢٣٥ هـ ، ظهر بسامراء رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري فزعم أنه نبي وانه ذو القرنين وتبعه سبعة وعشرون رجلاً وخرج من اصحابه ببغداد رجلان بباب العامة وآخران بالجانب الغربي ، فأتى به وباصحابه المتوكل فأمر به فضرب ضرباً شديداً حتى مات[٥] .

وفي سنة ٢٣٦ هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليه السلام وهدم

---

(١) ابن طباطبا : الفخري : ص ١٧٦ . (٢) ابن الأثير : الكامل : جـ ٥ ص ٢٦٧ .
(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٦٩ . (٤) الفخري : ص ١٧٦ . (٥) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٢٨٧ .

ما حوله من المنازل والدور وان يبذر ويسقى موضع قبره وان يمنع الناس من اتيانه ، فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة حبسناه في المطبق[١] .

وفي سنة ٢٣٧ غضب المتوكل على احمد بن ابي دؤاد وقبض ضياعه واملاكه وحبس اولاده ، واحضر المتوكل يحي بن اكثر من بغداد الى سامراء وولاه قضاء القضاة ثم ولاه المظالم ، فولى يحي بن أكثم قضاء الشرقية حيان ابن بشر ، وولى سوار بن عبدالله العنبري قضاء الجانب الغربي وكلاهما اعور ، فقال الجماز فيهما :

رأيت من الكبائر قاضيين هما احدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين قدرا كما اقتسما قضاء الجانبين الخ[٢]

وفي سنة ٢٤١ هـ وقع مطر شديد بسامراء في شهر آب[٣] ، وفي سنة ٢٤٣ هـ سار المتوكل من سامراء الى دمشق على طريق الموصل ، ودخل دمشق سنة ٢٤٤ هـ ، وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها وامر بالبناء بها ثم استوبأ البلد ، وذلك بأن هواه بارد ندي والماء ثقيل والريح تهب فيها مع العصر فلا يزال يشتد حتى يمضي عامة الليل وهي كثيرة البراغيث وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والمسيرة فرجع الى سامراء وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً[٤] . ويذكر المسعودي ان المتوكل نزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق ، على ساعة من المدينة ، في اعلا الأرض ، وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة واكثر الغوطة ويعرف بقصر المأمون الى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة[٥] .

وفي سنة ٢٤٥ هـ ، امر المتوكل ببناء مدينة المتوكلية وقد تعرضنا بالكلام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٧ . (٢) المرجع السابق ص ٢٨٩ . (٣) المرجع السابق ص ٢٩٦ .
(٤) ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٩٧ – ٢٩٨ . (٥) المسعودي : ج ٤ ص ٦٤ .

عنها فيما سبق . وفي سنة ٢٤٦ انتقل المتوكل الى المتوكلية ، وفي سنة ٢٤٧ هـ ، قُتل المتوكل بقصره بالمتوكلية ، قتله باغر التركي واصحابه الأتراك[١] .

أيام المنتصر

وبويع المنتصر ابن المتوكل خليفة للعباسيين ، وحضر الناس الجعفرية (المتوكلية) من القواد والكتاب والوجوه والشاكرية والجند وغيرهم فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن المنتصر ان الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به فبايع الناس[٢] .

ويكاد يجمع المؤرخون من ان المنتصر كان راسخ العقل كثير المعروف راغباً في الخير[٣] ، جواداً كثير الانصاف ، حسن العشرة وأمر الناس بزيارة قبر علي والحسين عليهما السلام ، وأمن العلويين وكانوا خائفين ايام أبيه وأطلق وقوفهم[٤] .

توفي المنتصر سنة ٢٤٨ هـ ودفن في قصر الجوسق[٥] ، ذلك لأن اباه انزله ذلك القصر الذي بناه المعتصم[٦] ، والمنتصر اول خليفة من بني العباس عرف قبره وذلك ان امه طلبت اظهار قبره[٧] ، ومن الجدير بالذكر ان المنتصر عاد الى سامراء فبدأ الخراب يدب الى المتوكلية ، ورجع الناس الى منازلهم بسامراء[٨] .

في أيام المستعين بالله والمعتز

وبويع في سامراء احمد بن محمد بن المعتصم في اليوم الذي تولى فيـــه

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٦٩ . (٢) ابن الأثير : ج ٥ ص ٣٠٥ . (٣) المسعودي: ج ٤ ص ٨٢ . (٤) ابن الأثير : ج ٥ ص ٣١٠ – ٣١١ . (٥) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٢٨ . (٦) اليعقوبي – البلدان ص ٣٦٥ . (٧) ابن الأثير – ج ٥ ص ٣١٠. (٨) اليعقوبي – تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢٢٦ .

المنتصر ، ولقبه المستعين بالله، وفي عصره ظهرت بعض الفتن في سامراء التي اثارها الجنود الأتراك ، ففي ٢٤٩ هـ ، وثب الجند بسامراء مرة بعد اخرى وتحاربوا وتحاملوا على (أوتامش) وقالوا أخذ ارزاقنا وازال مراتبنا ، وخرجت عصبة من الأتراك والموالي الى الكرخ[١] ، فخرج إليهم اوتامش ليسكنهم فقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم وذلك في شهر ربيع الآخر ونهبت دورهما فوقع ذلك بموافقة المستعين وكتب إلى الآفاق بلعنه[٢] .

ويذكر ابن الأثير ان نفراً من الناس لا يدرى من هم بسامراء فتحوا السجن واخرجوا من فيه فبعث في طلبهم جماعة من الموالي فوثب العامة بهم فهزموهم ، فركب بغا واتامش ووصيف وعامة الأتراك فقتلوا من العامة جماعة ، فرمي وصيف بحجر فأمر باحراق ذلك المكان وانتهب المغاربة ثم سكن ذلك آخر النهار[٣] .

وهذه الحوادث تدل على سوء الاوضاع واختلال الامور ، وصار القادة الاتراك يوشي بعضهم ببعض ويتآمر احدهم بالآخر ، ففي سنة ٢٥١ هـ ، قُتل باغر التركي ، قتله وصيف[٤] ، وبعد ذلك انحدر المستعين مع بغا ووصيف وشاهك الخادم واحمد بن صالح بن شيرزاد الى بغداد في حراقة ، ثم تتابع الى بغداد الكتاب والعمال وبنو هاشم وجماعة من اصحاب وصيف وبغا[٥] .

وفي السابع من محرم سنة ٢٥٢ هـ بويع للمعتز بالله في سامراء[٦] وكان سبب البيعة ان المستعين لما استقر ببغداد اتاه جماعة من الاتراك والقوا انفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذللاً وخضوعاً وسألوه الصفح والرضا ، قال لهم المستعين : انتم اهل بغي وفساد واستقلال للنعم ، الم ترفعوا إلي في اولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام ؟ وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن

---

(١) الكرخ هذه كرخ سامرا وليست بكرخ بغداد – الخليلي . (٢) اليعقوبي – جـ ٣ ص ٢٢٨ . (٣) ابن الأثير – جـ ٥ ص٣١٣ . (٤) ابن مسكويه – تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٧٤ . (٥) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٣٢٠ . (٦) اليعقوبي – التاريخ جـ ٣ ص ٢٣١ .

في عداد المتزوجات وهن نحو من اربعة آلاف وغير ذلك كله أجبتكم اليه وأدرت عليكم الأرزاق ، فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها لصلاحكم ورضاكم وانتم تزدادون بغياً وفساداً ، فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال المستعين : قد عفوت عنكم ورضيت . فقال له احدهم واسمه بابي بك[1] : فان كنت قد رضيت فاركب معنا الى سامراء فان الاتراك ينتظرونك . فأمر محمد بن عبد الله بعض اصحابه فقام إليه فضربه ، وقال محمد : هكذا يقال لأمير المؤمنين : قم فاركب معنا . فضحك المستعين وقال : هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام ، وقال لهم المستعين : ترجعون الى سامراء فان ارزاقكم دارة عليكم وأنظر انا في أمري فانصرفوا آيسين منه وأبغضهم ما كان من محمد بن عبد الله الى (بابي بك) وأخبروا من وراءهم خبرهم وزادوا وحرضوا تحريضاً لهم على خلعه ، فاجتمع رأيهم على اخراج المعتز وكان هو والمؤيد في حبس الجوسق وعليهم من يحفظهم فأخرجوا المعتز من الحبس وبايعوا له بالخلافة .

ولما علم المستعين استعد لمواجهة الموقف فمنع الميرة عن سامراء وامر بتحصين بغداد وبحفر الخنادق في الجانبين ، ونصب على الأبواب المنجنيقات والعرادات وشحن الاسوار ، وفرض فرضاً للعيارين وجعل عليهم عريفاً اسمه (يبنويه) وعمل لهم تراساً من البواري المقيرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الحجارة للرمي ، وكتب المستعين الى عمال الخراج بكل بلدة ان يكون حملهم الخراج والاموال الى بغداد ولا يحمل منها الى سامراء شيء وكتب الى الجند الذين بسامراء يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء له ، وجرت بين المعتز ومحمد بن عبد الله مكاتبات ومراسلات يدعو المعتز محمداً الى المبايعة ويذكره ما كان المتوكل اخذ له عليه من البيعة بعد المنتصر .

---

(١) ابن الأثير : ج ٥ ص ٣٢٠ وفي الطبري (بابي بك) بايكباك .

وقدم عبد الله بن بقا الصغير من سامرا الى المستعين وكان قد تخلف بعد ابيه فاعتذر وقال لأبيه : انما قدمت لاموت تحت ركابك فأقام ببغداد أياماً ثم هرب الى سامراء ، فاعتذر الى المعتز وقال : انما سرت الى بغداد لاعلم اخبارهم وآتيك بها فقبله المعتز ورده الى خدمته ، وورد الحسن بن الأفشين بغداد فخلع عليه المستعين وضم اليه جمعاً من الاشروسنية وغيرهم [١] .

ودارت بين جيوش المعتز وجيوش المستعين معارك شديدة تبادلا فيها النصر والهزيمة ، وأخيراً انتصرت جيوش المعتز وأُرغم المستعين على خلع نفسه ، وخلال تلك الحوادث ، اجتمعت العامة بسامراء ونهبوا سوق الجوهريين والصيارفة [٢] ، ثم نقل المستعين الى واسط وبعد فترة قصيرة ، بعث المعتز اليه من قتله ، وحمل رأسه الى سامراء وقُدّم الى المعتز وهو يلعب الشطرنج وقيل له هذا رأس المخلوع فقال : ضعوه حتى افرغ من الدست ، فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه وامر لقاتله بخمسين الف درهم وولاه معونة البصرة [٣] .

وكثرت الاضطرابات سنة ٢٥٣ هـ في سامراء ، وقد سببت تأخر اموال البلدان ونفاد ما في بيوت الاموال ، فوثب الاتراك فخرج إليهم (وصيف) ليسكنهم فرموه فقتلوه وحزّوا رأسه ، وتفرد بغا بالتدبير وضعف امر المعتز حتى لم يكن له أمر ولا نهي وانتفضت الاطراف ، وخرج بديار ربيعة رجل من الشراة يقال له مساور بن عبد الحميد ويعرف بأبي صالح من بني شيبان ثم صار الى الموصل فطرد عاملها حتى قرب من سامرا ونزل في المحمدية [٤] ، فدخل القصر وجلس على الفرش ودخل الحمام وندب له المعتز قائداً وجيشاً بعد قائد وجيش وهو يهزمهم حتى كثف جمعه واشتدت شوكته [٥] .

وتوفي الامام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي

---

(١) ابن الأثير : الكامل : جـ ٥ ص ٣٢١ . (٢) المرجع السابق ص ٣٢٣ . (٣) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٣٣٣ . (٤) على بعد ثلاثة فراسخ من قصور الخليفة . (٥) اليعقوبي — جـ ٣ ص ٢٣٤ .

بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) بسامراء لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٥٤ هـ ، وبعث المعتز بأخيه ابن احمد بن المتوكل فصلى عليه في الشارع المعروف بشارع ابي احمد ، فلما كثر الناس واجتمعوا كثر بكاؤهم وضجتهم فرد النعش الى داره فدفن فيها[١] ، وهو يلقب بالعسكري لمقامه بسامراء وكانت تسمى العسكر[٢] .

وفي عصر المعتز تولى احمد بن طولون امر مصر نيابة عن (بابكباك) كما ظهر يعقوب بن الليث الصفار واستولى على فارس وجمع جموعاً كثيرة ، ولم يقدر المعتز على مقاومته[٣] .

وفي سنة ٢٥٤ هـ ، قُتل بغا الشرابي ، ونصب رأسه بسامراء وببغداد واحرقت المغاربة جسده[٤] .

وفي سنة ٢٥٥ خلع المعتز وقد وردت في هلاكه عدة روايات ، ذكر المسعودي : انه ادخل الحمام مكرهاً وكان الحمام محمياً ومنع الخروج منه ، وذكر روايتين بعد حادثة الحمام ، فالاولى تقول انه ترك في الحمام حتى فاضت نفسه ، والاخرى تقول : أنه اخرج بعد ان كادت نفسه تتلف للحمّى ، ثم أسقي شربة ماء مقراة ثلج ، فنثرت الكبد وغيره ، فخمد من فوره ، وذلك ليومين خلّوا من شعبان[٥] .

وذكر ابن الاثير : ان الاتراك طلبوا منه مالاً ، فلم يتمكن من تلبية طلبهم ، فدخل إليه جماعة منهم فجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، واقاموه في الشمس ، فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، ... ثم ادخلوه سرداباً

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٤ اقرأ ترجمة حياة علي الهادي بالتفصيل في جزء مقبل من الموسوعة – الخليلي . (٢) ابن عنبة : عمدة الطالب ص ١٩٩ . (٣) الفخري – ص ١٨١ .
(٤) ابن الأثير – ج ٥ ص ٣٣٨ . (٥) المسعودي – مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٥ .

وجصصوا عليه فمات[1] .

وبويع محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي ، خليفة للعباسيين ، لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ، بعد ان أحضر الأتراك الخليفة المعتز فخلع نفسه امام الناس والى القارىء الكريم صورة الرقعة بخلع المعتز نفسه : —

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما شهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب شهدوا أن ابا عبدالله بن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقر عندهم واشهدهم على نفسه في صحة من عقله وجواز من امره طائعاً غير مكره ، انه نظر فيما كان تقلده من امر الخلافة والقيام بامور المسلمين فرأى أنه لا يصلح لذلك ولا يكمل له وأنه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ، فأخرج نفسه وتبرأ منها وخلعها من رقبته وخلع نفسه منها وبرأ كل من كانت له في عنقه بيعة من جميع اوليائه وسائر الناس مما كان له في رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والايمان بالطلاق والعتاق والصدقة والحج وسائر الايمان ، وحللهم من جميع ذلك وجعلهم في سعة منه في الدنيا والآخرة بعد ان تبين له ان الصلاح له وللمسلمين في خروجه عن الخلافة والتبرىء منها ، وأشهد على نفسه بجميع ما سمي ووصف في هذا الكتاب ، جميع الشهود المسمّين فيه وجميع من حضر بعد أن قرىء عليه حرفاً حرفاً فأقر بفهمه ومعرفته جميع ما فيه ، طائعاً غير مكره وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين » فوقع المعتز في ذلك بقوله : أقر أبو عبدالله بجميع ما في هذا الكتاب ، وكتبه بخطه وكتب الشهود شهاداتهم ، شهد الحسن بن محمد ، ومحمد بن يحي ، واحمد بن جناب ، ويحي بن زكريا ابن ابي يعقوب الأصبهاني ، وعبدالله بن محمد العامري ، واحمد بن الفضل ابن يحي ، وحماد بن اسحق ، وعبدالله بن محمد ، وابراهيم بن محمد ،

(١) ابن الأثير — جـ ٥ ص ٣٤٢ . ابن طباطبا — الفخري ص ١٨١ .

وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين [١]

في أيام المهدي

ويعتبر المهتدي من خلفاء العباسيين الذين وصفوا بحسن السيرة والتقوى والورع وكثرة العبادة [٢] .

وفي رمضان من سنة ٢٥٥ هـ ، وثب عامة بغداد وجندها بمحمد بن أوس البلخي ، الذي كان قدم من خراسان بجيوشه ، فأعطى اصحابه من اموال جند بغداد فتحرك الجند والشاكرية في طلب الارزاق ، وكان الذين قدموا مع محمد بن اوس من خراسان قد أساؤوا مجاورة اهل بغداد وجاهروا بالفاحشة وتعرضوا للحرم ، فاتفق العامة مع الجند فثاروا واتوا سجن بغداد عند باب الشام فكسروا بابه واطلقوا من فيه ، ونهب اهل بغداد منازل الصعاليك من اصحاب محمد بن اوس البلخي ، وجرح بن اوس البلخي وانهزم هو واصحابه وتبعهم الناس حتى اخرجوهم من باب الشماسية وانتهبوا منزله وجميع ما كان فيه [٣] .

وواجهت خلافة المهتدي أخطر مشكلة ، تلك هي مشكلة الزنج وقيام حركتهم في منطقة البطائح من جنوب العراق ، وقد بدأت تلك الحركة سنة ٢٥٥ هـ ، واشغلت الخلافة العباسية حتى سنة ٢٧٠ هـ ، ودارت بين الزنج وجيوش العباسيين حروب طاحنة انتهت بانتصار الموفق ولي عهد الخلافة العباسية ايام الخليفة المعتضد العباسي [٤] .

حاول المهتدي أن يتقرب من العامة ليستند إليهم ويتخذهم عوناً قوياً له في كفاحه الاتراك ، فبنى قبة لها اربعة ابواب وسماها قبة المظالم ، وجلس

---

(١) الطبري – التاريخ – حوادث سنة ٢٥٥ . (٢) الفخري – ص ١٨٢ . (٣) ابن الأثير – جـ ٥ ص ٣٤٥ . (٤) راجع في موضوع حركة الزنج : الدكتور عبد العزيز الدوري – دراسات في العصور العباسية المتأخرة – الدكتور فيصل السامر – ثورة الزنج .

فيها للخاص والعام ، وامر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحرم الشراب ونهى عن القيان ، واظهر العدل ، وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ، ويخطب الناس ويؤم بهم[١] . ولما اشتد النزاع بينه وبين الاتراك ، أحضر جماعة منهم فضرب أعناقهم وفيهم بابكيال رئيسهم فاجتمع الاتراك وشغبوا فخرج إليهم المهتدي في السلاح معلقاً في عنقه المصحف واستنفر العامة واباحهم دماءهم واموالهم ونهب منازلهم[٢] .

ولكن يبدو ان الاتراك كانوا من القوة أن سيطروا على زمام الامور في سامراء ، حيث تجمعوا فتفرق العامة وتمكنوا من الخليفة ودخلوا قصره وقضوا عليه[٣] ، وذكر ابن الأثير يصف اللحظات الأخيرة للخليفة المهتدى وصراعه مع الأتراك فيقول : فركب المهتدي وقد جمع له جميع المغاربة والأتراك والفراغنة فصير في الميمنة مسروراً البلخي وفي الميسرة ياركوج . ووقف هو في القلب مع اسارتكين وطبعايغو وغيرهما من القواد ، فأمر بقتل بابكيال والقى رأسه إليهم عتاب بن عتاب فحملوا على عتاب فقتلوه . وعطفت ميمنة المهتدي وميسرته بمن فيها من الاتراك فصاروا مع اخوانهم الاتراك فانهزم الباقون عن المهتدي ، وقتل من اصحاب المهتدي خلق كثير وولى منهزماً وبيده السيف وهو ينادي : يا معشر المسلمين ، انا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم ، فلم يجبه احد من العامة الى ذلك ، فسار الى باب السجن فأطلق من فيه وهو يظن انهم يعينونه فهربوا ولم يعنه احد . فسار الى دار احمد بن جميل صاحب الشرطة ، فدخلها وهم في اثره فدخلوا عليه واخرجوه وساروا به الى الجوسق على بغل فحبس عند احمد بن خاقان ، وقبل المهتدي يده فيما قيل مراراً عديدة[٤] ، وجرى بينهم وبينه كلام ارادوه فيه على الخلع واستسلم للقتل وقالوا : انه كان قد كتب بخطه رقعة لموسى بن بغا وبابكيال وجماعة

---

(١) المسعودي- مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٤ . (٢) اليعقوبي - التاريخ ج ٣ ص ٢٣٧ .
(٣) المسعودي - ج ٤ ص ١٢٧ . الفخري - ص ١٨٣ : جاء فيه ان الأتراك خلعوه فمات في سنة ٢٥٦ هـ . (٤) ورد في الطبري - (وقتل المهدي فيما قيل في الوقعة عدداً كبيراً بيده) .

من القواد انه لا يغدر بهم ولا يغتالهم ولا يفتك بهم ، ولا يهم بذلك وانه متى فعل ذلك فهم في حل من بيعته والامر إليهم يقعدون من شاؤوا فاستحلوا بذلك نقض امره ، فداسوا خصيتيه وصفعوه فمات واشهدوا على موته انه سليم ليس به أثر ودفن بمقبرة المنتصر[١] .

في أيام المعتمد على الله

تولى الخلافة بعد هلاك المهتدي ابو العباس أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد على الله ، وفي أيامه كان الأمر والنهي لأخيه طلحة المعروف بالموفق ، وكانت للموفق ايضاً قيادة الجيوش ومحاربة الاعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والامراء ، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته[٢] .

وفي سنة ٢٥٦ هـ ، اي في السنة التي بويع فيها المعتمد بالخلافة ، دخل الزنج مدينة البصرة وقتلوا كثيراً من اهلها واحرقوها[٣] ، وفي نفس السنة ظهر علي بن زيد العلوي بالكوفة واستولى عليها وازال عنها نائب الخليفة واستقر بها ، فسيرت الجيوش لمحاربته وانتصر في بداية الأمر علي بن زيد ولكنه لم يتمكن من الوقوف امام كيجور التركي وجيوشه ، واستقامت الامور للقائد التركي في الكوفة وعاد بعدها الى سامراء بغير امر الخليفة ، فوجه إليه الخليفة نفراً من القواد فقتلوه بعكبرا في ربيع الاول سنة سبع وخمسين ومائتين[٤] .

وفي سنة ٢٥٨ حصل وباء في العراق شمل بغداد وواسط وسامراء ، وذكر اليعقوبي أنه مات كثير من الخلق وكان الرجل يخرج من منزله فيموت قبل ان ينصرف ، فيقال انه مات ببغداد في يوم واحد اثنا عشر الف انسان[٥] .

واشتدت المعارك بين جيوش الخليفة العباسي والزنج ، وفي سنة ٢٥٩ هـ ،

---

(١) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٣٥٦ . مقبرة المنتصر — اي في قصر الجوسق . (٢) الفخري ص ١٨٦ . (٣) ابن الأثير — جـ ٥ ص ٣٥٩ . (٤) المرجع السابق ص ٣٦٠ . (٥) اليعقوبي التاريخ جـ ٣ ص ٢٤٠ . ابن الأثير : جـ ٥ ص ٣٦٦ .

عاد الموفق من حرب الزنج متعللاً بالمرض فبعث المعتمد موسى بن بغا ، فشخص من سامراء نحو الزنج وجرت بينه وبينهم حروب شديدة[١] ، وفي هذه السنة دخل الأهواز ، كما دخل يعقوب بن الليث الصفار مدينة نيسابور[٢] .

وفي سنة ٢٦٠ هـ توفي في سامراء الامام الحسن بن علي بن محمد (ع) المعروف بالعسكري ودفن في داره في البيت الذي دفن فيه ابوه وهو ابن ثمان وعشرين سنة[٣] .

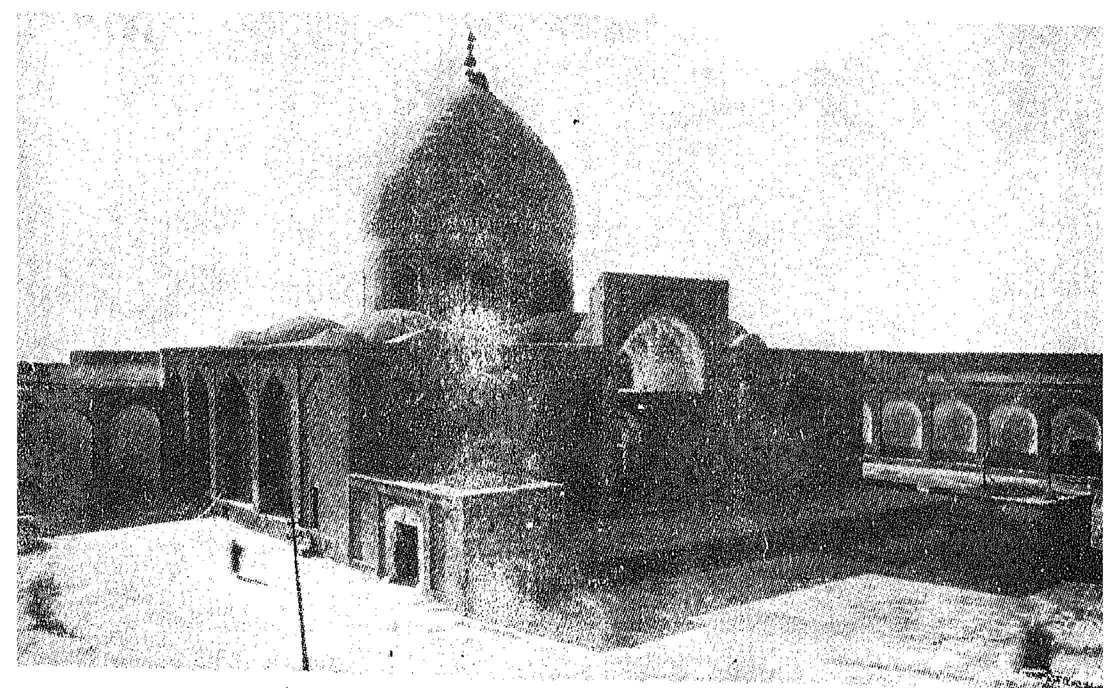
في أيام المعتمد

وفي سنة ٢٦١ هـ ، جلس المعتمد العباسي في دار العامة بسامراء فولى ابنه جعفراً العهد ولقبه المفوض الى الله ، وولى اخاه الموفق العهد بعد جعفر ولقبه الناصر لدين الله وولاه المشرق وبغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكسكر ، وكور دجلة والاهواز وفارس واصبهان وقم وكرج ودينور والري وزنجان والسند ، وشرط ان حدث به الموت وجعفر لم يبلغ ، ان يكون الامر للموفق ثم لجعفر بعد وأخذت البيعة بذلك . وامر الموفق ان يسير الى حرب الزنج[٤] .

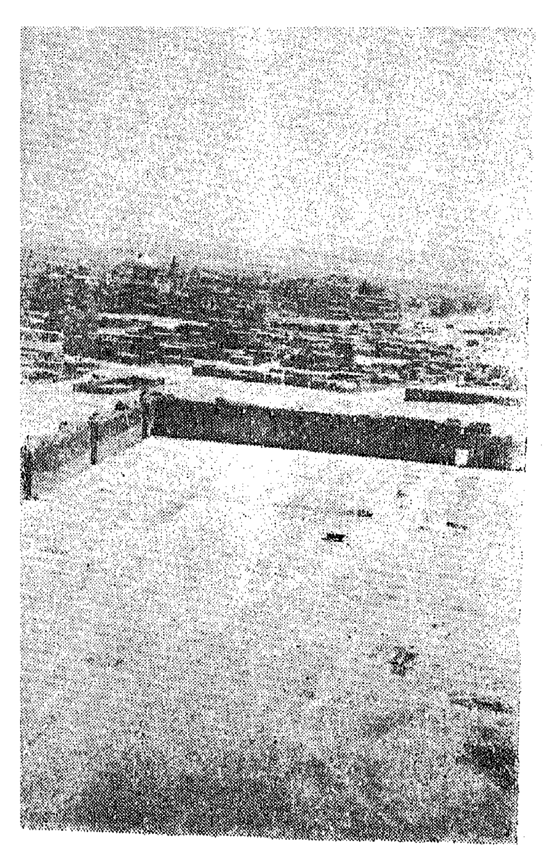
وفي سنة ٢٦٢ سار المعتمد العباسي بجيشه الى سامراء لمحاربة يعقوب بن الليث الصفار ، فوصل بغداد ثم الى الزعفرانية فنزلها وقدم أخاه الموفق ، ودخل يعقوب الصفار مدينة واسط ، وسير المعتمد اخاه الموفق في العساكر لمحاربة يعقوب ، فتنازل الموفق مع جيوش يعقوب واوقع بها هزيمة كبيرة ، ورجع المعتمد الى سامراء[٥] .

---

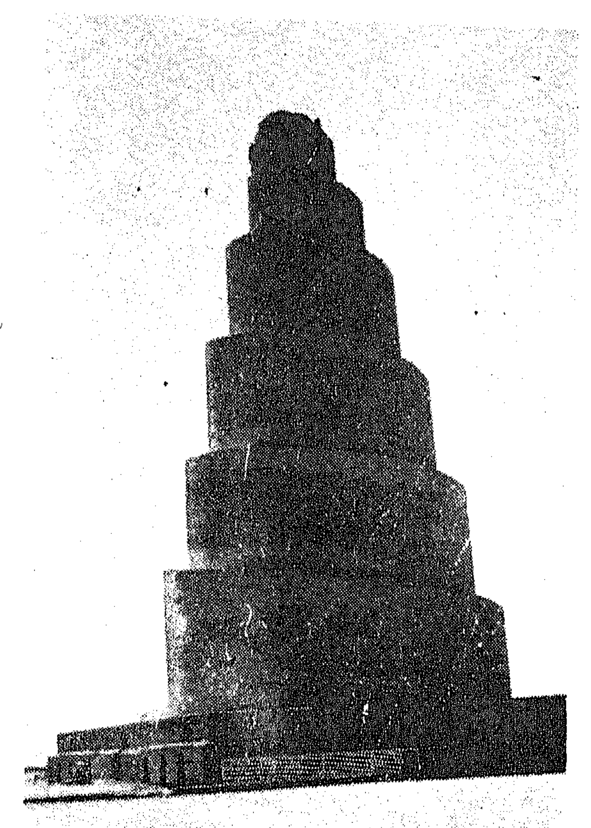
(١) ابن الجوزي : جـ ٥ ص ١٨ . (٢) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٣٦٨ . (٣) النوبختي : فرق الشيعة ص ١١٨ — اقرأ ترجمة حياة الأمام العسكري بالتفصيل في جزء مستقل من موسوعة العتبات المقدسة في المستقبل القريب . الخليلي . (٤) ابن الجوزي — جـ ٥ ص ٢٦ . ابن الأثير : جـ ٦ ص ٣ . (٥) ابن الأثير : جـ ٦ ص ٨ .



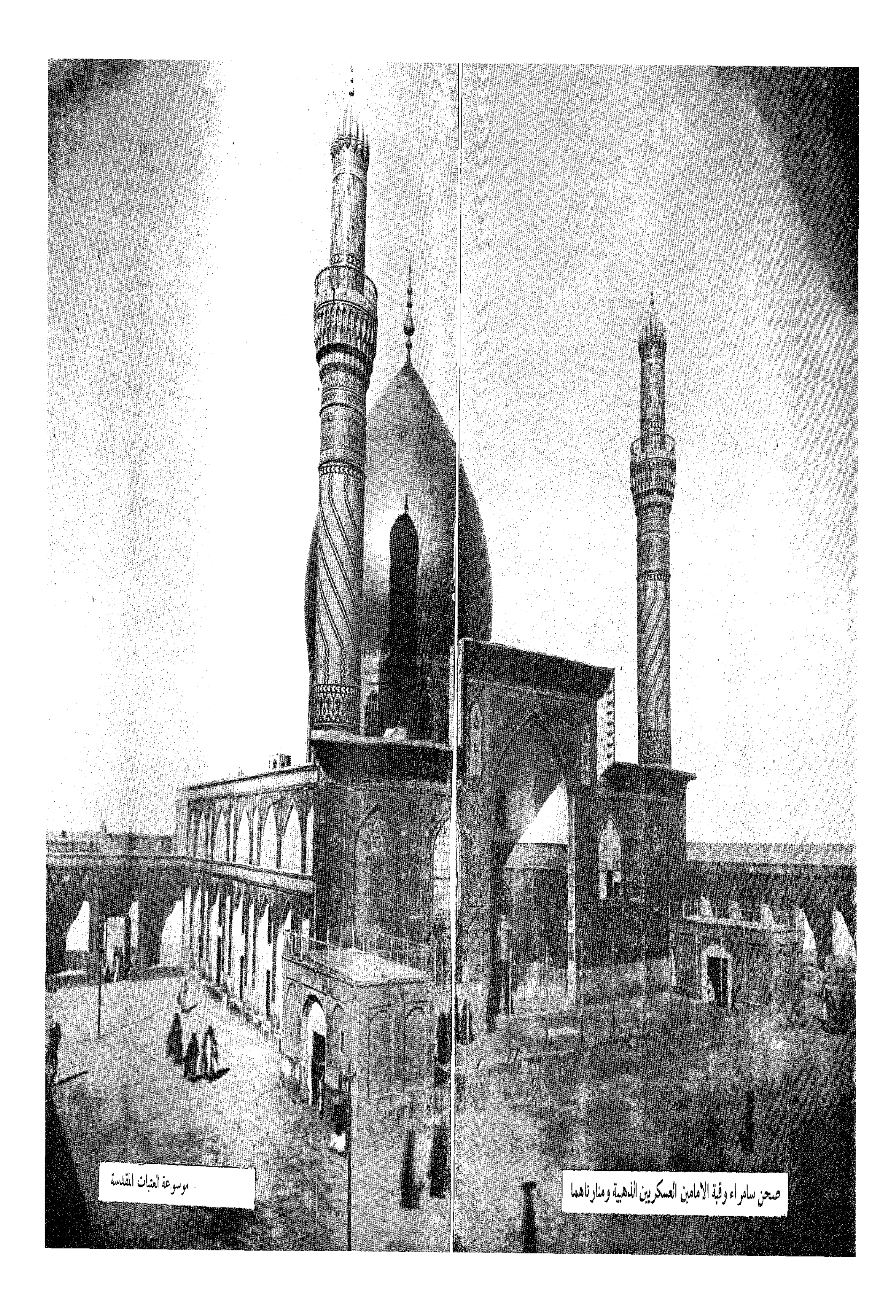
قبة الغيبة المعروفة بقبة صاحب الزمان المزينة بالقاشاني



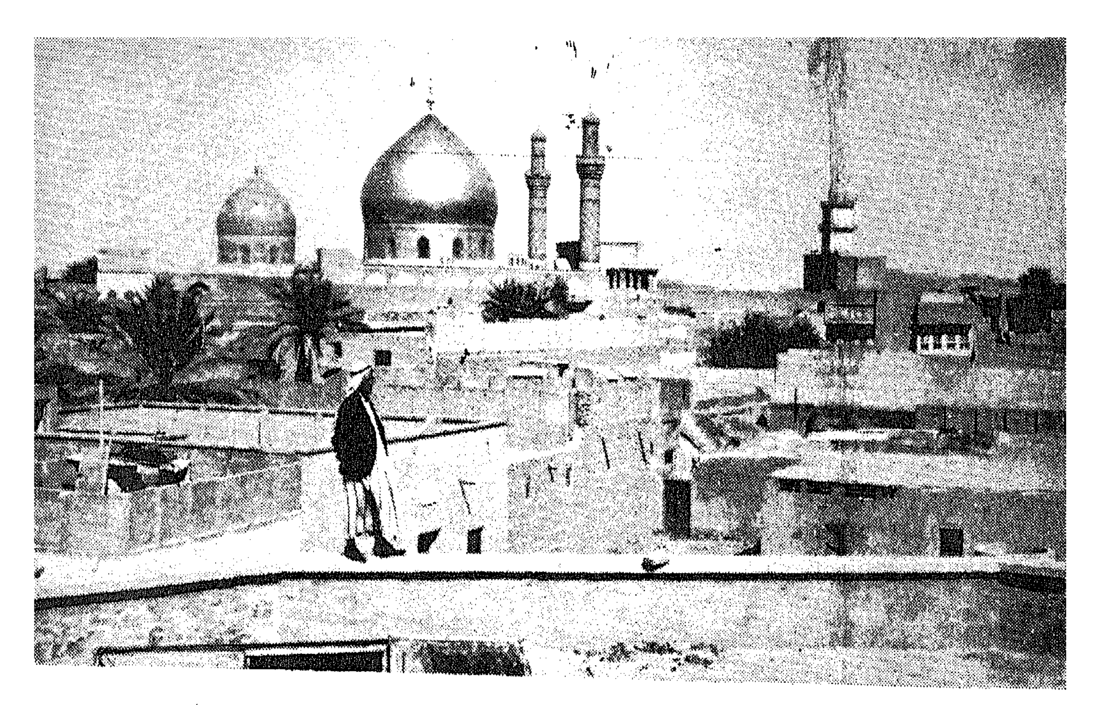
بقايا من سور الجامع الكبير بسامراء



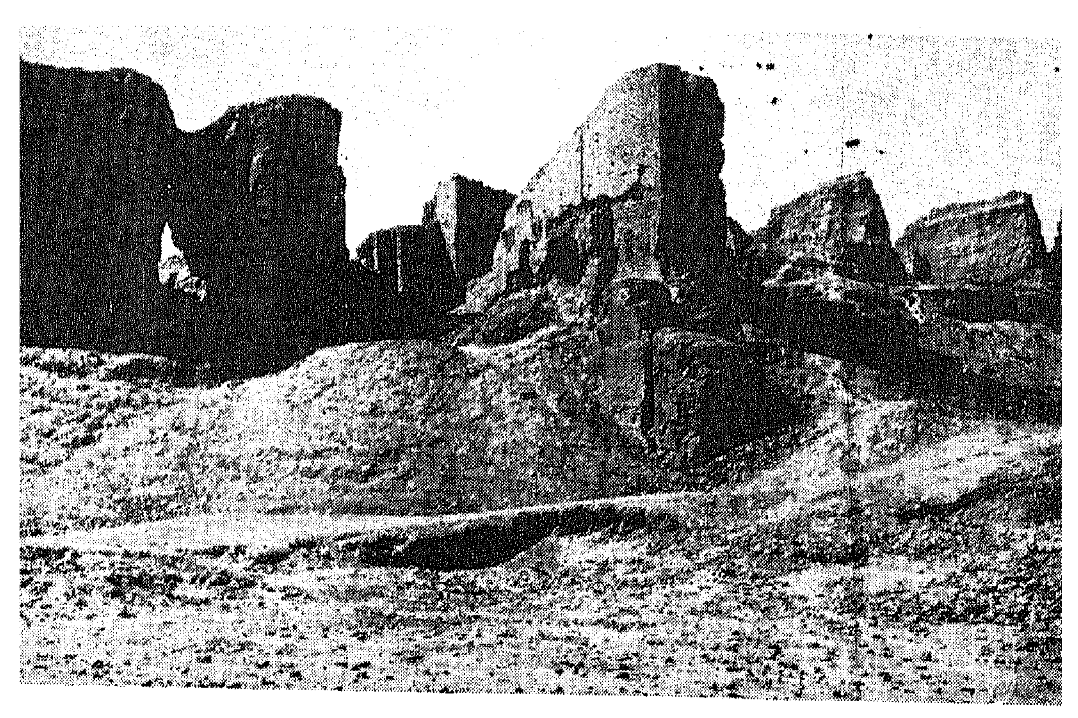
الملوية وهي منارة الجامع الكبير بسامراء



صحن سامراء وقبة الامامين العسكريين الذهبية ومنارتاهما



طرف من مدينة سامراء تزينها قبة العسكريين الذهبية وقبة الغيبة من خلفها



بقايا من اطلال قصر المعشوق بسامراء

وفي سنة ٢٦٤ حصلت مشكلة بين الاخوين الخليفة المعتمد وولي عهده الموفق ، وسببها انه خرج سليمان بن وهب من بغداد الى سامراء وشيعه الموفق والقواد ، فلما صار إلى سامراء غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وابراهيم ، واستوزر الحسن بن مخلد في ذي القعدة ، فسار الموفق من بغداد إلى سامراء ومعه عبدالله بن سليمان بن وهب ، فلما قرب من سامراء تحول المعتمد الى الجانب الغربي فعسكر به مغاضباً للموفق ، واختلفت الرسل بينه وبين الموفق واتفقا وخلع على الموفق ، واطلق سليمان بن وهب وعاد الى الجوسق[1] .

وتوفي يعقوب بن الليث الصفار وتولى من بعده اخوه عمرو بن الليث ، وعينه الموفق على الشرطة ببغداد وسامراء ، كما ولي خراسان وفاراب ، واصبهان وسجستان وكرمان والسند[2] .

وفي هذه الفترة شددت الخلافة العباسية على محاربة الزنج والقضاء عليهم ، فقد تحسنت اوضاع الخلافة بعض الشيء خاصة بعد وفاة يعقوب بن الليث الصفار ، كما ان توسع الزنج وسيطرتهم على مدينة واسط وتهديدهم الخلافة كان من العوامل المهمة التي دفعت بالخلافة العباسية والقادة العباسيين الى اتخاذ مواقف حاسمة ضد الزنج ، فجهز الموفق الجيوش الكثيفة ، واعد كذلك اسطولاً نهرياً ، واصبحت قيادة ذلك الجيش لابي العباس المعتضد ابن الموفق ، وانتصر المعتضد انتصارات اولية على جيوش الزنج كانت لها اهمية كبيرة في تقوية المعنويات في صفوف العباسيين ، فقد انتصر على قائد الزنج سليمان ابن جامع انتصاراً رائعاً ونجح في تمزيق جيشه[3] .

ولما اعد الزنج قوة كبيرة لمحاربة المعتضد ، توجه الموفق سنة ٢٦٧ بجيش كبير لينضم الى جيش المعتضد وليكون قوة وسنداً له ، ولما سمع المعتضد

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ . (٢) ابن الجوزي – جـ ٥ ص ٥٠ . (٣) الطبري – جـ ١١ ص ٢٦١ .

بتحركات الزنج واستعداداتهم تراجع الى مقره بجوار واسط لينتظر والده[1]. ثم سار الموفق وابنه المعتضد وسيطروا على مدينة (المنيعة) القريبة من واسط وهي من حصون الزنج الكبيرة ، ثم سارا بجيوشهما لاحتلال (المنصورة) وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به[2]. ثم سار الموفق الى المختارة عاصمة الزنج القريبة من ابي الخصيب في لواء البصرة ، وكانت هذه المدينة محصنة بتحصينات منيعة ، فحاصرها الموفق ومنع التموين عنها واطال الحصار عليها ، وقد حاول الزنج فك الحصار المضروب عليهم ولكن دون جدوى .

واخذت هجمات العباسيين على المختارة بشكل متتابع وكان الهجوم العام على شرقي أبي الخصيب وغربيه في اواخر محرم من سنة ٢٧٠ هـ وتمزقت جيوش الزنج وهرب رئيسهم وابنه وسليمان[3] ، وبذلك انتهت هذه المشكلة الخطيرة التي هددت الخلافة العباسية والتي كانت من اهم عوامل تفككها وانحلالها .

وحصلت بين المعتمد الخليفة العباسي وولي عهده الموفق جفوة ، فقرر المعتمد الذهاب الى مصر ، وكتب الخليفة الى احمد بن طولون يشكو إليه حاله سراً من اخيه الموفق ، فأشار عليه احمد بن طولون اللحاق به بمصر ووعده النصرة وسير عسكراً الى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم . فاغتنم المعتمد غيبة الموفق وانشغاله في حروب الزنج ، فسار وسار معه جماعة من القواد فأقام بالكحيل[4] يتصيد ، فلما سار الى عمل اسحق بن كنداج وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداج بمن مع المعتمد من القواد فقبضهم وانحدر بهم الى سامراء[5] فتلقاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، فسلم

---

(١) المرجع السابق ج ١١ ص ٢٦٦ . (٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ . (٣) المرجع السابق ص ٣٢٢ . (٤) الكحيل : تصغير الكحل مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي ، ولا أثر لهذه المدينة اليوم ياقوت – ج ٤ ص ٣٤٠ . (٥) الطبري – حوادث سنة ٢٦٩ – ابن الجوزي – حوادث سنة٢٦٩ .

اسحق بن كنداج ، الخليفة إليه فأنزله دار احمد بن الخصيب ومنعه من نزول دار الخلافة ، ووكل به خمسمائة رجل يمنعون من الدخول إليه ، ولما بلغ الموفق ذلك ، بعث الى اسحق بخلع واموال ، واقطعه ضياع القواد الذين كانوا مع المعتمد ، ولقبه ذا السندين ، ولقب صاعداً ذا الوزارتين ، واقام صاعد في خدمة المعتمد ، ولكن ليس للمعتمد حل ولا ربط ، وقال المعتمد في ذلك :

أليس من العجائب أنَّ مثلي يَرَى ما قَلَّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يَدَيْه
إليه تُحمَلُ الأموال طرّاً ويمنع بعض ما يجبى إليه [١]

وفي سنة ٢٧١ هـ ، تأزمت الحالة بين الطولونيين والعباسيين ، وسار المعتضد على رأس جيش لمحاربة خمارويه بن احمد بن طولون ، وانتصر الطولونيون على جيش العباسيين [٢] ، وفي نفس السنة عُزل عمرو بن الليث عن خراسان ، ووقعت معارك بين الصفاريين والعباسيين ، ودارت الدائرة على جيش عمرو بن الليث الصفار فانهزم عمرو وعساكره ، وغنم العباسيون عدداً كبيراً من الدواب والبقر [٣] .

وبلغت الخلافة العباسية حداً من الضعف والفوضى وعدم السيطرة والضبط على الامور ، حتى لنلمس ذلك في تصرفات القادة والامراء ، ومن امثلة ذلك ان خلافاً شخصياً وقع بين محمد بن ابي الساج واسحق بن كنداج وكلاهما من ولاة الامر في الجزيرة ، وان محمد بن ابي الساج نافر ابن كنداج في الأعمال واراد التقدم وامتنع عليه اسحق ، فماذا كانت النتيجة ؟ ارسل ابن ابي الساج الى خمارويه بن احمد بن طولون صاحب مصر واطاعه وصار معه وخطب له بأعماله وهي قنسرين [٤] . فقامت الحرب بين المتنافرين وتدخل خمارويه بجيوشه لصالح محمد بن ابي الساج ، حتى سيطر على الجزيرة

---

(١) السيوطي – تاريخ الخلفاء ص ٣٦٥ . (٢) ابن الجوزي ج ٥ ص ٨٠ . (٣) ا الأثير : ج ٦ ص ٥٨ . (٤) المرجع السابق ص ٦١ .

والموصل وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه بعده[١]. وهذا مما لا شك فيه من العوامل التي ادت الى اضعاف الدولة العباسية وهبوط هيبة الخلافة . واستمرار الحروب بين المتنافسين قد سبب ارتباكاً عاماً في جهاز الدولة الاقتصادي والعسكري .

وفي سنة ٢٧٤ هـ ، عادت الحرب ثانية بين العباسيين والصفاريين ، وفي سنة ٢٧٦ هـ ، جعلت شرطة بغداد الى عمرو بن الليث الصفار وكتب اسمه على الاعلام والترسة وغيرها[٢] .

وفي سنة ٢٧٨ توفي الموفق ولي عهد الخلافة العباسية وكان مريضاً بالنقرس[٣] ، وفي ذات السنة تحرك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة ، واشتهر منهم حمدان وكان قد اتخذ كلواذي القريبة من بغداد مقراً له ، وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويصلي اكثر الناس ويصوم[٤]، ويظهر انه كان أكاراً بقاراً[٥] ، وقد نظّم حمدان حركة القرامطة تنظيماً كان له الأثر الكبير في نجاح الدعوة القرمطية وانتشارها في انحاء مختلفة من العالم الاسلامي[٦] .

وفي سنة ٢٧٩ هـ ، خرج المعتمد العباسي وجلس للقواد والقضاة ووجوه الناس واعلمهم انه خلع ابنه المفوض الى الله جعفر من ولاية العهد ، وجعل ولاية العهد للمعتضد بالله ابي العباس احمد بن الموفق[٧] .

ويبدو ان المعتمد العباس ترك سامراء ، وانه اتخذ بغداد حاضرة ملكه ، وذلك بعد ان عَمّر قصره العظيم المعروف في التاريخ بقصر المعشوق[٨] . وفي نفس السنة توفي الخليفة المعتمد على الله في القصر الحسني ببغداد ، وحمل

---

(١) ابن الأثير : ج ٦ ص ٦١ . (٢) المرجع السابق ص ٦٦ . (٣) ابن الجوزي — ج ٥ ص ١٠٩ . (٤) المرجع السابق — ج ٥ ص ١١١ . (٥) ابن النديم : ص٢٦٥ . (٦) راجع موضوع القرامطة : ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٠ . ابن الأثير : ج ٦ ص ٦٩ — الدوري دراسات في العصور العباسية المتأخرة . (٧) ابن الأثير — ج ٦ ص ٧٢ . (٨) اليعقوبي — البلدان ص ٣٦٨

الى سامرا فدفن بها[١] .

وهكذا انتهت قصة سامراء عاصمة العباسيين ، والتي عاشت حوالي الخمس والخمسين سنة ، ملك بها ثمانية خلفاء هم المعتصم ، والواثق بالله ، والمتوكل على الله ، والمنتصر بالله ، والمستعين بالله ، والمعتز بالله ، والمهتدي بالله ، والمعتمد على الله .

وبانتقال الخليفة العباسي الى بغداد ، انتقلت معه الدواوين وجميع اجهزة الدولة ، وبعد فترة وجيزة اصبحت سامراء من المدن الصغيرة ، بعد ان كانت قد ضاهت بغداد في سعتها وكثرة عمرانها وجمال قصورها ونضارة متنزهاتها .

ذكر القزويني في سامراء : انها اعظم بلاد الله بناء واهلاً ... ولم يكن في الارض احسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها[١] ، وقال ابن جبير في رحلته : ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق[٢] ... وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينـــة (سر من رأى) وهي اليوم عبرة من رأى أين معتصمها وواثقها ومتوكلها ، مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلاّ بعض جهات منها هي اليوم معمورة ، ولم يبق إلاّ الأثر من محاسنها والله



طرف من اطلال قصر المعشوق

(١) ابن الجوزي ج ٥ ص ١٢٢ – ابن الأثير ج ٦ ص ٧٣ . (٢) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٥٨ . (٢) حصن المعشوق : الصحيح قصر المعشوق .

وارث الأرض ومن عليها لا إله غيره [١] .

ومن المرجح ان بناء مدينة سامراء كان مشروعاً لم تتوفر له اسباب ودعائم النجاح ، والذي أبقاها كمدينة (قضاء) اليوم هو وجود العتبات المقدسة فيها ، وكونها قريبة من بغداد وان لآثارها العباسية اهمية تاريخية واثرية تعمل على ورود كثير من السيّاح والجوابين إليها .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٨٥ .

سامرا في الشعر

جمعه ونسقه

حسب الحروف الهجائية

نماذج مقتطفة مما جاء من ذكر سامراء في الشعر

فؤاد عباس

من خريجي الجامعة الاميركية ببيروت

والمفتش الاختصاصي

في وزارة التربية العراقية



أحمد بن أبي دؤاد [1]

(سُرّ من را) أسَرّ من بغدادِ ... فارم بغداد عامداً ببعاد [2]
حبذا مسرحاً تُها ليس تخلو ... ابداً من طريدة وطراد
وديار كأنما نسج الدهر ... عليها محبّر الابراد
واذكر المشرف المطلّ من التلّ ... على الصادرين والورّاد
واذا روّح الرعاة فلا تنس ... تداعي فراقد الاولاد [3]

السيد أحمد الموسوي

قال مؤرخاً تجديد ضريحي العسكريين (ع) بسامرّاء :

الى مهرجان أقام الهدى ... له حفلات باسمى معرّس
رأت (سرّ من را) ومن أمّها ... ضريحاً على خير مثوى يؤسّس
نعم هو مثوى هداة الانام ... كأن النبيّ بمغناه يُرْمَس
به شيّد الحق تاريخه : ... (وجدّد نصب ضريحٍ مقدّس)

---

(١) اخبار القضاة – لوكيع – القاهرة سنة ١٩٥٠ ص : ٣ – ٢٩٩ . (٢) في معجم البلدان (سامراء) نسبت هذه القطعة الى الحسين بن الضحاك . (٣) فراقد : جمع فرقد وهو ولد البقرة الوحشية ؛ ونجم معروف .

الشيخ أحمد النحوي

قال مصدّراً والاعجاز لولده الشيخ محمد رضا وقد نظماها في طريق أسامرّاء من قصيدة [1] :

رحها فقد لاحت لديك المعاهد ... وعمّا قليـــل للديـــار تشاهـــد
وتلك القباب الشامخات ترفّعت ... ولاحت على بعد لديك المشاهد
وقد لاحت الاعلام اعلام من لهم ... حديث المعالي قد رواه (مجاهد)
حثثنا اليها العيس قد شفّها النوى ... وقد اخذت منها السرى والفدافد
نؤمّ بها دار العلى (سرّ من رأى) ... ديار لآل الله فيهـــا مراقـــد
ديار بها الهادي الى الرشد وابنه ... ونجل ابنه والكل في الفضل واحد

وله من قصيدة عند زيارته الامامين العسكريين (ع) في سامرّاء [2] :

فيا ابن النبي المصطفى وسميّه ... ومن بيديه الحلّ في الكون والعقد
اليك حثثناها خفافاً عيـــــا بها ... على ثقة أنْ سوف يوقرها الرفد
فألوت على دار أنـــاخ بها الندى ... وألقى عليها فضل كلكله المجد
فعوجا فهذا السر من (سرّ من رأى) ... يلوح فقد تمّ الرجا وانتهى القصـــد
وهاتيك ما بين السراب قبـــابهـــم ... فآونة تخفى وآونـــةً تـــــبدو

البحتري

قال من قصيدة يمدح بها ابا سعيد محمد بن يوسف الثغري ويذكر انتصاره

---

(١) شعراء الحلة – دار الأندلس (بيروت) سنة ١٩٦٤ ص : ١ – ٤٩ . (١) المصدر السابق : ٥٧ – ٥٩ .

على بابك[1] :

ما زلت تقرع باب بابك بالقنا ... وتزوره في غارة شعــواء
حتى اخذت بنصل سيفك عنوةً ... منه الذي اعيا عــلى الخلفــاء
اخليت منه (البذّ) وهي قراره ... ونصبته علماً بـ (سامرّاء)

وقال في (الخضر بن أحمد)[2] :

قالت اراك بسرّ من را ثــاوياً ... في مرتعٍ جشبٍ وعيش مُنْصب
قلت اربعي في سرّ من را سيّدٌ ... كزمت ضرائبه عظيم المنصب

وقــال[3] :

كم ليلة ذات اجراس واروقة ... كاليمّ يقذف امواجاً بامواج
* فالزوّ و (الجوسق) الميمون قابله ... غنج (الصبيح) الذي يدعى بصنّاج
(بسرّ من را) سرى همي وسامرني ... لهو نفى الهم عن قلبي باخراج

وقال يمدح عليّ بن مرّ الطائي[4] :

اهزّ بالشعر اقواماً ذوي وسنٍ ... في الجهل لوضربوا بالسيف ماشعروا
علي نحت القوافي من مقــاطعها ... وما عليّ لهم ان تفهم البقــر
لارحلنّ وآمالي مطرّحـــــة ... (بسر من راء) مُستَبطى لهاالقدر

* * *

وقال[5] :

وأرى المطايا لا قصور بهـــا ... عن ليل (سامرّاء) تَدّرِعُـــهْ

---

(١) ديوان البحتري – تحقيق حسن كامل الصيرفي – دار المعارف (مصر) سنة ١٩٦٣ ص : ١/ ٩ . (٢) المصدر السابق ص : ١/ ٣٤٠ – ٣٤١ . (٣) المصدر السابق ص : ١/ ٤٣١ . (٤) المصدر السابق ٢/ ٩٥٥ . * الجوسق والصبيح : من قصور المتوكل في سامراء . (٥) المصدر السابق ٢/ ١٢٤٩ .

وقال [١] :

ولما قصدنا (سرّ من را) تضاءلا
ولا خِضرَ يقري فيهما ، البدوُ والحَضْرُ

وقال يخاطب ابراهيم بن المدبّر [٢] :

ايّ شيء الهاك عن سرّ من را … اي وظلّ للعيش فيها ظليل

بديع الزمان الهمداني [٣]

أما تروني اتغشّى طمرا … ممتطياً في الضرّ أمراً مُرّاً [٤]
اقصى امانيّ طلوع الشعرى … فقد غنينا بامانيّ دهرا
وكان هذا الحرّ أعلى قدرا … وماء هذا الوجه اغلى سعرا
فانقلب الدهر لبطنٍ ظهرا … وعاد عرف العيش عندي نكرا
لم يُبق من وفريَ الا ذكرا … ثم الى اليوم هلمّ جرّا
لولا عجوزٌ لي (بسرّ من را)
وافرُخٌ دون جبال (بُصرى)
قد جلب الدهر عليهم ضرّا … قتلت يا سادة نفسي صبرا

أبو تمّام

قال من قصيدة طويلة يمدح بها المعتصم ويذكر اخذ بابك الخرّمي [٥] :

---

(١) المصدر السابق ٢/١١٠٠ . (٢) نور القبس – للمرزباني – نشر رودلف زلهايم ڤيسبادن سنة ١٩٦٤ ص : ٩٣ . (٣) شرح مقامات بديع الزمان – محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٦٢ ص : ١٥–١٦ . (٤) ربما كان الصحيح ان يكون : (ألم تروني) وكان الخطأ مطبعياً فاثبتناه على المطبوع . (٥) ديوانه – شرح شاهين عطية – المطبعة الأدبية (بيروت) سنة ١٨٨٩ ص : ٢٣٥ .

لما قضى رمضان فيـه قضـاءه   شالت به الأيـام في شوّال
ما زال مغلول العزيمـة سادراً   حتى غـدا في القيد والأغلال
متلّبساً للموت طوقـاً من دمٍ   لما استبان فظـاظة الخلخال
لاقى الحِمام (بسرَّ مَن راءَ) التي
شهدت لمصرعه بصدق الفـال
قطعت به اسبابه لمـا رمى   بالطرف بين الفيـل والفيّـال

* * *

وقال من قصيدة يمدح ابا سعيد وقد غاب عنه[1] :

سأوطىء اهل (العسكر[2]) الآن عسكراً
من الذلّ محّاءً لتلك المعـالم
فاني وما حورفت في طلب الغـنى
ولكنكم حورفتُمُ في المكـارم

* * *

وقال في اصدقاء له ثلاثة[3] :

لي في نصيبين شجوٌ يستهلّ لـه   دمعي وشجوٌ (بسامرّا) وأرّان
ثلاثةٌ سلبتنيهم حتوفهـم   بعد ائتلاف وخلّتني واحزاني
لقد خبت منهم بعد استنارتها   في الافق أنجم إنعـامٍ وإحسان

* * *

وقال يذم بغداد ويمدح سرّ من رأى[4] :

---

(١) المصدر السابق ص : ٢٥٧ – ٢٥٨ . (٢) العسكر – من اسماء سامراء على التعميم، ومن هنا نسبة الامام الحسن العسكري (ع) . (٣) المصدر السابق ص : ٣٥١ . (٤) المصدر السابق : ص : ٤٦٢ .

لقد اقام على بغداد ناعيهـــا فليبكها لخراب الدهر باكيهـــا
كانت على ما بها والحرب موقدة والنار تطفيء حسناً في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحةٌ فالآن اضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولّت شبيبتها وبان منها جمالٌ كان يحظيهـــا
لزّت بها ضرّة وهزاء واضحـــةٌ
كالشمس احسن منها عند رائيهـــا

جابر الكاظميّ

قال من قصيدة بمناسبة تعمير مشهد العسكريين (ع) في سامرّاء الذي تمّ سنة ١٢٨٥ هـ[١] :

شمس قدس أبى سناهـــا الغيابا قد انارت من العراق الرحابـــا
سامرتْ (سامرّاء) منها ذُكـــاءٌ نورُها اذهب الظلام ذهـــابـــا
تأخذ الشمسُ أهبةً من ضياها ثم تهدي الى النهار إهـــابا

وقال يمدح السيّد مرزا محمد حسن الشيرازي ويهنّيه بيوم الغدير[٢] :

ان يوم الغدير يومٌ منـــــير ملأَ الارضَ والسما منه نـــور
قد صفا الدهر وازدهى بصفـــاه
إذْ أعـــاد الصفا اليـــه الغـــدير
أيّ سبط سرّت به (سرّ من را)
إذْ لهـــا بالهداة دام الســــرور

---

(١) ديوان جابر الكاظمي : تحقيق محمد حسن آل ياسين – بغداد سنة ١٩٦٤ ص : ٧٠ – ٧١ . (٢) المصدر السابق : ٢٣٠ – ٢٣١ .

السيد جعفر كمال الدين

قال في دار السيد حسن الصدر في سامرّاء[١] :

لقد بقيت بسامرّاء منفـــرداً مثل انفراد سهيل كوكب اليمن
والدهر لما رماني في فوادحــــه آليت لا اشتكي إلاّ الى (الحسن)

الجواهري

من قصيدة عنوانها : الطبيعة الضاحكة في سامرّاء[٢] :

حييت سامــرّا تحية معجب برواء متسع الفناء ظليلـــه
بلد تساوى الحسن فيه فليله كنهاره وضحاؤه كأصيلـــه
ساجي الرياح كأنما حلف الصبا ألاّ يمرّ عليه غير عليلـــه
طلق الضواحي كاد يُربي مقفر منه بنزهته عــلى مأهولـــه
وكفاك من بلد جمالاً أنـــه حدب على انعاش قلب نزيله
عجبي بزهو صخوره وجباله عجبي بمنحدراته وسهولـــه
بالشاطىء الأدنى وبسطة رمله بالشاطىء الأعلى وبرد مقيله
بجماله والبدر يملوه سنــاً بجلاله رهن الدجى وسدوله
بالنهر فياض الجوانب يزدهي بالمُطربَيْن : خريره وصليلـــه
ذي جانبين : فجانبٌ متطـامنٌ يقسو النسيم عليه في تقبيله
بازاء آخر جـائش متلاطم يرغو اذا ماانصبّ نحو مسيله
فصلتهما الجُزُر اللطاف نواتئاً كلٌّ تحفز ماثلاً لعديلـــه
وجرت على الماء القوارب عورضت بالجري فهيَ كراسفٍ بكبوله
فاذا التوت لمسيله فكأنهـــا تبغي الوصول اليه قبل وصوله

---

(١) المصدر السابق : ٢٤٦ . (٢) ديوان الجواهري . مطبعة الغري سنة ١٩٣٥ ص: ١١ – ١٦ .

واذا نظرت رأيت ثمّة قارباً ... تمتازه بالضوء من قنديله
أو صوت مجذاف يبين بوقعه ... فوق الحصى عن شجوه وعويله

* * *

ساد السكون على العوالم كلّها ... وتجلبب الوادي رداء خموله
وتنبهت بين الصخور حمامة ... تصغي لصوت مطارح بهديله
واشاع شجواً في الضفاف ورقةً ... إيقاظ نوتيٍّ بها لزميله
ولقد رأيت فويق دجلة منظراً ... الشعر لا يقوى على تحليله
شفقاً على الماء استفاض شعاعه ... ذهباً على شطآنه وحقوله
حتّى اذا حكم المغيب بداله ... شفقٌ يحوط البدر حين مثوله
فتخالف الشفقان : هذا فائرٌ ... صُعُداً ، وهذا ذائبٌ بنزوله
ثم استوى فضي نورٍ عابث ... بالمائجيَّيْن : مياهه ورموله
فاذا الشواطىء والمساحب والربى ... والشط والوادي وكل فضوله
قمراء راقصة الأشعّة جُلّلَتْ ... بخفيّ سرٍّ رائعٍ مجهوله
والجوّ افرط في الصفاء فلو جرى ... نَفَسٌ عليه لَبان في مصقوله
هذي الحياة لمثلها يحنو الفتى ... حرصاً واشفاقاً على مأموله

* * *

واذا اسفت لمؤسفٍ فلأنه ... خصب الثرى يُشجيك فرط محوله
قد كان في خفض النعيم فبالغت ... كف الليالي السود في تحويله
بدت القصور الغامرات حزينة ... من كل منهوب الفناء ذليله
كالجيش مهزوم الكتائب فلّهُ ... ظفرٌ ، ورقّ عدّوه لفلوله
(العاشق) [1] المهجور قُوِّض ركنه
كالعاشق الآسي لفقد خليله

---

(١) العاشق – والصحيح : المعشوق – من قصور العباسيين في سامراء .

والجعفريّ[١] ولم يقصّر رسمه — الباقي – برغم الدهر – عن تمثيله
بادي الشحوب تكاد تقرأ لوعةً — لنعيمه المسلوب فوق طلوله
وكأنما هو لم يجد عن (جعفر)[٢] — بدلاً يُسَرّ به ولا عن جيله
فُضّتْ مجالسه به وخلون من — شعر (الوليد)[٣] بها ومن ترتيله

* * *

ولقد شجتني عبرة رقراقة — حيرانة في العين عند دخوله
اني سألت الدهر عن تخطيطه — عن سطحه عن عرضه عن طوله
فأجابني : هذي الخُرَيْبَةُ صدره — والبلقع الخالي مجرّ ذيوله
وسل الرياح السافيات فانها — ادرى بكل فروعه واصوله
وتعلّمَنْ ان الزمان اذا انتحى — شهبَ السما كانت مداس خيوله
مدّت بنو العباس كفّ مطاول — فمشى الزمان لهم بكفّ مغوله
واجتاح صادق ملكهم لما طغوا — بدعيّ ملكٍ كاذبٍ منحوله
وكذا السياسة في التقاضي عنده — تسليم فاضله الى مفضوله
خلّدت سامرّاء لم اوصلك من — فضلٍ حشدتِ عليّ غير قليله
يا فرحة القلب الذي لم تتركي — اثراً للاعج همه ودخيله
وافاك ملتهب الغليل وراح عن — مغناك يحمد منك برد غليله
أنعشتِه ونفيت عنه هواجساً — ضايقنه وأثرن من تخييله
وصدقته أملاً رآك لمثله — أهلاً ، فكنت ، وزدت في تأميله
هذا الجميل الغض سوف يردّه — شعري اليك مضاعفاً بجميله

وله من قصيدة عنوانها : سامرّاء او ساعة مع البحتريّ[٤] :

أسدى اليّ بك الزمان صنيعا — فحمدت صيفاً طيباً وربيعا

---

(١) الجعفري – من قصور المتوكل نسب الى اسمه . (٢) جعفر – المتوكل . (٣) الوليد – اسم البحتري الشاعر . (٤) المصدر السابق ص : ١٩٦ – ١٩٨ .

أجللتُ منظرك البديع ومنظرٌ … اجللته لِمَ لا يكون بديعــا !!؟
درج الزمــان بها سريعاً بعدما … ناشدته الاّ يمرّ سريعـــــا
قرّت بمرآها العيون وقرحــــةٌ … للعين الاّ تُبصِر المسموعــا
ونعمت اسبوعاً بهــا وسعيــدة … سنة نعمت خلالهــا اسبوعــا
الفيت حسن الشاطئين مرقرقــاً … غضّاً وخصب الشاطئين مريعا
واضعت احلامي وشرخ شبيبتي … وطلاقتي فوجدتهن جميعــا
صبحٌ اغرّ وليلة جذلانــــةٌ … بيضاء تهزأ بالصباح سطوعا
والبدر بالأنوار يملأ دجلــــة … زهواً ويبعث في النفوس خشوعا
وترى ارتياحاً في الضفاف وهزة … تعلو الرمال اذا أجدّ طلوعــا
وجرت على الحصباء دجلة فضّة … صُهِرتْ هناك فموّعتْ تمويعا
وكأنما سبكوا قواريراً ، بها … مضّى السنا ، فتصدّعت تصديعا
وترى الصخور على الجبال كأنما … لبست بهنّ من الهجير دروعا

* * *

دور الخلائف عــافها سمّارها … وتقطعت اسبــابهــا تقطيعــا
درجت بساحتها الحوادث وانبرى … خطب الزمان لها فكان فظيعــا
حتى شواطيء دجلة منسابــــة … تأبى تشاهد منظراً مفجوعا
أبنتُها مرثيّةٌ ولطــالمــــا … غازلت منها حسنها المسموعا
ولقد تُذَمّ جلادةٌ في موقف … للنفس أجمل ان تكون جزوعا
قصر الخليفة جعفر كيف اغتدى … بيد الحوادث ، فظّةٌ ، مصفوعا !
وكم استقرّ على احتقار طبيعةٍ … لم تأله التحطيم والتصديعا !!
ولقد بكيت وما البكاء بمُرْجِعٍ … ملكاً بشهوة مالكيه بيعــــا
زُر ساحةِ السجن الفظيع تجدْ به … ما يستثير اللــوم والتقريعــــا

ان الذين على حساب سواهــم … حلبوا ملذّات الحياة ضروعا
رفعوا القصور على كواهل شعبهم … وتجــاهلوا حقّاً لـــه مشروعا
حتى اذا ماالشعب حرّك بــاعه … فاذا هم ادنى وأقصر بوعــــا

الحسين بن الضحاك

قال مفضلاً سامرّاء على بغداد :

على سرّ من را والمصيف تحيــة مجلّلة مــن مغرم بهــواهمــا

ألأهل لمشتاق ببغداد رجعــةٌ تقرّب من ظلّيهما وذراهما ؟؟

محلاّن لقّى اللهُ خــير عبــاده عزيمةَ رشد فيهما فاصطفاهما

وقولا لبغداد اذا مــا تنسّمّتْ على أهل بغداد جُعِلْتُ فداهما

أفي بعض يومٍ شفّ عينيّ بالقذا حَرورُك حتى رابني ناظراهما !![1]

حيدر الحلي[2]

أدم ذكرها يا لسان الزمــــان وفي نشرها فمكَ العـــاطر

وهنّ بها (سرّ من را) ومن به ربعهــا آهلٌ عـــامر

وقل يا تقدّست من بقعــةٍ بها يغفر الزلــةَ الغــافر

كلا اسميك في الناس بادٍ لــه باوجههم أثرٌ ظـــاهــر

فأنت لبعضهم (ساءَ مَــنْ رأى) وبه يوصَف الخــاسر

وأنت لبعضهمُ (سُرَّ مَــنْ رأى) وهو نعتٌ لهم زاهر

وقال من قصيدة في مدح النبي والعسكريّيْن (ع) والعلاّمة محمد حسن الشيرازي[3] :

زان (سامرّا) وكانت عاطلاً تتشكّى من محلّيهــا الجفــاء

---

(١) معجم البلدان (سامراء) – وستنفلد – طبعة لايبزك سنة ١٨٦٨ . (٢) ديوان السيد حيدر الحلي – طبعة الهند (بدون تاريخ) ص : ١٧٨ . (٣) المصدر السابق ٤١ – ٤٢ .

وغدت افناؤهـا آنسـةً ... وهي كانت اوحش الارض فضاء
حيّ فيها (المرقد الاسنى) وقل ... زادك الله بهاءً وسنـاء
ثم ناد (القبّة) العليا وقـل ... طاولي يا قبة (الهادي) السماء
بمعالي (العسكريين) اشمخي ... وعلى افلاكها زيـدي علاء
وبنا عرّج عـلى تلك الـتي ... اودعتنا عندهـا (الغيبة) داء

خالد الكاتب

كانت اول شيء قيل في بناء سرّ من رأى [1] :

عزم السرور عـلى المقـا ... م بسرّ مـن را للامـام
بلـد المسرّة والفتـو ... ح المستنـيرات العظـام
وتـراه اشبـه مـنزلٍ ... في الارض بـالبلـد الحـرام
فـالله يعمـره بمـن ... اضحـى بـه عـزّ الأنـام

وقال فيها أيضاً [2] :

بيّنَ صفوُ الزمـان عن كدره ... في ضحكات الربيع عن زهره
يا سرّ من را بوركت من بلدٍ ... بورك في نبته وفي شجـره
غرس جدود الأنام نكبتها ... (بابك) و (المازيار) من ثمره
فالفتح والنصر ينزلان بـه ... والخصب في تربه وفي شجره

وقال فيها أيضاً [3] :

اسقني في جرائرٍ وزقـاق ... لتلاقي السرور يـوم التلاقي
من سلاف كأن في الكأس منه ... عبرات من مقلتي مشتـاق
في رياضٍ بسرّ من را الى الكر ... خ [4] ودعني من سائر الآفاق

(١) ، (٢) ، (٣) الأغاني طبعة الساسي – مصر سنة ١٣٢٣ هـ ص ٣٢/٢١ . (٤) الكرخ من سامرا غير الكرخ من بغداد .

يادكارات كل فتح عظيم   لامام الهدى أبي اسحاق [1]

دعبل بن علي الخزاعي

قال يهجو عميراً الكاتب [2] :

خرجتُ مبكراً من (سرّ من را)   ابادر حاجةً فاذا (عُمير)
فلم أثْنِ العنان وقلت أمضي   فوجهك يا عمير .... وخيّر

وقال في انشاء سرَّ من رأى [3] :

(بغداد) دار الملوك كانت   حتى دهاها الذي دهاها
ما غاب عنها سرور ملك   عاد الى بلدة سواها
ما (سرّ من را) بسرّ من را   بل هي بُؤْسى لمن يراها
عجّل ربي لها خراباً   برغم أنف الذي ابتناها

سكن

جارية محمود الورّاق قالت في المعتصم العبّاسي [4] :

ان الامام اذا ارفا الى بلد   أرفا اليه بعمران وايناس
فاصبحت (سرّ من را) دار مملكة   مختطّةٍ بين انهار وأغراس
يا غارس الآس والورد الجنيّ بها
غرس الامام خلاف الوَرْد والآس
غِراسهُ كل عاتٍ لا خلاقَ له
عبل الذراع شديد البأس قِنْعاس [5]

---

(١) ابو اسحاق : المعتصم العباسي . (٢) ديوان دعبل بن علي — للدكتور عبد الكريم الأشتر — دمشق سنة ١٩٦٤ ص : ١٠٧ . (٣) المصدر السابق ص : ٢٠٥ . (٤) طبقات الشعرا — لابن المعتز — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦ ص : ٤٢٣ . (٥) القنعاس : الرجل الشديد المنيع .

كبابكٍ وأخيه اذ سما لهمـــا
بباترٍ للشوَى والجيـــد خلاّس
فذاك بالجسر نَصْبٌ للعيـون وذا
(بُسرَّ من را) على سامي الذرا راسي

شاعر

يهجو ابا الفرج محمد بن علي السامرّي (نسبة الى سامرّاء) احد وزراء الخليفة العباسي المستكفي بالله [1] :

الآن إن كفر المُقترُ رزقُـــهُ — قالوا كفرت فخَفْ عقابَ النار
أأكـون رجلي مـركبي وجنيبتي — خُفُيّ على ذلٍّ بـذاك وعار
و (السُرَّ مَنْ رائي) في اصطبله — مئتا عتيـق فـاره مختـــار
كلبٌ حمارٌ بالخيول ، وكاتبٌ — فَطِنٌ يضيقُ به كِراءُ حمار !؟
انا قد دُهِشت فعرفوني أنتم : — هذا من الانصاف في الاقدار ؟؟

الشيخ عبد الحسين الحويزي

قال مادحاً الامام علي الهادي (ع)[2] :

بك ارض (سامرّاء) اشرق نورها — فمحت دجاها بالسنا المتوقـد
وعلت بهيكلك الشريعة مسنداً — والسُمْك يعلو بارتفاع الاعمد
ونزلت كالبيت العتيق مكـانةً — زيّنتها في نـائلٍ متجدّد

وقال من قصيدة مادحاً الامام الحسن العسكري (ع) [3] :

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية – نشر المستشرق اهلوارد – طبع مدينة غريفزولد سنة ١٨٥٨ ص : ٣٣٥ – ٣٣٦ . (٢) ديوان الحويزي – جمع حميد مجيد هدو – مطابع النعمان (النجف) سنة ١٩٦٥ ص : ٢/١٥٤ . (٣) المصدر السابق ص : ٢/١٥٧ .

شخصت لرفعتك النجوم طوالعاً اكبرن شخصك بالعيون الحسّد
وخطرت عن عمرو العلا باروءة نشرت على الخضرا ذوائب سؤدد
اصبحت ملتزماً (مقام حظيرة) قدسيّة عظمى و (قبلة مسجد)
باب لدار علاك اضحت (حطّة)
مُسِحَتْ بها جَبَهاتُ قومٍ سُجّد

عبيد الله بن أبي طاهر[1]

اقول لمّا هاج قلبي ذكرى واعترضت وسط السماء الشِعرى
كأنها ياقوتةٌ في مِدرى ما أطول الليلَ بُسرَّ من را

الوزير الكاتب (أبو محمد بن سفيان)

كتب الى ابي اميّة ابراهيم بن عصام يعرّض باحد الملوك[2] :

امرر بقاضي القضاة ان له حقّاً على كل مسلم يجب
وقل له ان ما سمعتَ به عن (سرّ من راء) كلّه كذب
قد غرّني مثلُ ما غُررت به فجئته يستحثّني الطرب
حتى اذا ما انتهيت صرت الى
سراب قفرٍ من دونه حُجُب
وملّة للسماح ناسخة
لها نبيٌّ إلهُهُ الذهب

(١) درة الغواص في اوهام الخواص – للحريري – طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ ص : ١٨١ .
(٢) قلائد العقيان – طبعة باريس سنة ١٨٦٠ م ص : ١٥٧ – ١٥٨ .

السيد محمد علي آل خير الدين

من قصيدته « الحنين الى سامرّاء[١] :

عج للمحصّب من مشارق دجلة ... حيث الفضا والماء والخضراء
فهناك مربع جيرتي وهناك مَفْـ ... زَع حيرتي وهناك (سامرّاء)
فاحبس بحيث العز يسحب ذيله
تيهاً ويُنشر للفخار لواء
واخضع بحيث المجد القى رحله ... واخشع بحيث أظلّت العلياء
واجنح الى الحرم المنيع فلودنى ... مَلِكٌ زوته هيبة وبهاء
تبصِرْ تجلي نور ربك في ثرىً ... رقدت به ساداتنا النجباء

ابن المعتز

قال في سرّ من رأى[٢] :

مقفرة الربع لجّ هاجرها ... عامرها موحشٌ وغامرها
ينتحب البوم في منازلها ... كأن اوطانها مقابرها

وقال[٣] :

بأبي يا سرّ من را ... لا اراك الله شرّاً

(١) مجلة المرشد — للسيد هبة الدين الحسيني — المجلد : ٢ جزء : ٦ تموز سنة ١٩٢٧ . تفضل بها علينا السيد سلمان هادي الطعمة . (٢) شعر عبدالله بن المعتز — للصولي — نشر المستشرق ب . لوين — استانبول مطبعة المعارف سنة ١٩٤٥ ص : ٩١/٤ . (٣) المصدر السابق : ٩٥/٤ .

مــا ارى مــن يتقــرّى والــذي لا يتقــرّا
منهم إلا الأبــــرّا مـا جـد الاخـلاق حرا

وقال [١] :

يا سرّ من را لُعنت من بلـد يخيب فيك الادلاج والبُكُـر
كأنما الليـل حين يسكنـها يُقدَحُ فيـه مـن بقّها شرر

وقال في خراب سامرّاء [٢] :

قـد اقفرت (سرّ مـن را) ومـا لشيء دوام
فالنُقْض يُحمَـلُ منهـا كأنـه الآجـام
ماتت كمـا مـات فيـلٌ تسلّ منـه العظـام

المنتصر العباسي

كتب الى المتوكل وهو بالشام [٣] :

الى الله اشكو عبرةً تتحير ولو قد حدا الحادي لظلّت تحدّرُ
فيا حسرتا أن كنتُ في (سُرّ من رأى)
مقيماً وبالشام الخليفةُ جعفر

(١) المصدر السابق : ٤/٩٨ . (٢) المصدر السابق ٤/١١٩ . (٣) معجم البلدان (سامراء) – المستشرق وستنفلد – لا يبزك سنة ١٨٦٨ .

السيد موسى الطالقاني[1]

وعلى (سرَّ مَنْ رأى) فاحبس الركـ ـبَ ونُحْ في عِراص ربعٍ مَحيل
واسعد اليوم في المناح على خير البرايـا بزفرة وعـويل
كم شهيد ثوى بها وشريـد غاب فيها وكان مأوى الدخيل
فمتى ينجلي النـوى عن محيّاً فيه يُشفى قلبي ويُطفى غليلي ؟

(١) ديوان السيد موسى الطالقاني – تحقيق محمد حسن الطالقاني – النجف سنة ١٩٥٧ ص : ٥٨ .

سامراء
في المراجع العربية

كتبــه

الدكتور حسين علي محفوظ

دكتوراه الدولة من جامعة طهران

والمفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً

والاستاذ بكلية الآداب في جامعة بغداد اليوم



سامراء في التواريـــخ

الجامع المختصر

سنة ٦٠٢ هـ

وفيها قتل الأمير سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بأرض المعشوق [١] . قتله اخوه علي . وذلك ، في شعبان [٢] .

الحوادث الجامعة

سنة ٦٤٠ هـ

وفيها ؛ وقع حريق في مشهد سر من رأى، فأتى على ضريحي علي الهادي والحسن العسكري – عليهما السلام – فتقدم الخليفة المستنصر بالله بعمارة المشهد المقدس ، والضريحين الشريفين ، واعادتهما الى أجمل حالاتهما .

وكان الضريحان مما أمر بعملهما ارسلان البساسيري [٣] ..

---

(١) المعشوق ؛ ويسمى الآن « العاشق والمعشوق » اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة ، قبالة سامراء . « من تعليقات الدكتور مصطفى جواد » . (٢) الجامع المختصر ص ١٧٦ .
(٣) الحوادث الجامعة ص ١٥٢ – ١٥٤ .

سنة ٦٤٣ هـ

وفيها ؛ تقدم الخليفة بارسال طيور من الحمام ، إلى اربع جهات ، لتصنف أربعة اصناف ، منها : مشهد حذيفة بن اليمان بالمدائن ، ومشهد العسكري بسر من رأى ، ومشهد غني بالكوفة ، والقادسية .

وتفذمع كل عدة من الطيور — عدلان ووكيل . وكتب بذلك سجل ، شهد فيه العدول على القاضي بثبوته عنده . وسميت هذه الاصناف باليمانيات ، والعسكريات ، والغنويات ، والقادسيات .

ونظم النقيب الطاهر ، قطب الدين الحسين بن الاقساسي في ذلك ابياتاً وعرضها على الخليفة ، أولها :

خليفة الله يا من سيف عزمتــه ... موكل بصروف الدهر يصرفهــا

ويقول فيها :

ان الحمام التي صنفتها شرفت ... على الحمام التي من قبل نعرفها

والقادسيات أطيــار مقدسة ... إذ أنت يا مالك الدنيا مصنفها

وبعدها غنويات تنال بهــا ... غنى الحياة وما يهوى مؤلفهــا

والعسكريات أطيــار مشرفة ... وليس غيرك في الدنيا يشرفهــا

ثم الحمام اليمانيات ما جعلت ... الا سيوفاً على الأعداء ترهفهــا

لا زلت مستعصماً بالله في نعم ... يهدى لمجدك أسناها وألطفهــا [١]

سنة ٦٥٣ هـ

وفيها ؛ حملت القصعة الحجر ، المعروفة بـ « قصعة فرعون » من سر من رأى إلى بغداد في كلك .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

ورفعت تحت دار الخليفة . وكانت عظيمة جداً ، فلم تزل إلى سنة سبع وخمسين وستمائة ، ثم كسرت [1] .

دوحة الوزراء

سنة ١٢١٠ هـ

انتهز الوزير فرصة حلول موسم الزيارات ، واعتدال الهواء ، وقرر السفر نحو سامراء . وتحرك من بغداد في اليوم الحادي والعشرين من شهر شوال ، وظل يتنقل في تلك المناطق للاصطياف ، وتمضية الوقت ، ثم عاد إلى بغداد [2] .

تاريخ العراق بين احتلالين

سنة ٩٦١ هـ

جاء إلى سامراء (سيدي على رئيس .. الذي أودع إليه السلطان قبطانية مصر) وزار فيها علياً الهادي ، والامام حسناً العسكري [3] .

سنة ١١١٧ هـ

في أواسط هذه السنة ؛ توجه الوزير (حسن باشا الجديد) لزيـــارة الامامين عــلي الهادي ، وحسن العسكري في سامراء . فأنعم على الفقراء والخدام ، ثم ذهب يتصيد في تلك الفلوات [4] .

---

(١) المرجع المذكور ص ٣٠٦ . (٢) دوحة الوزراء ص ١٩٩ . (٣) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ص ٧٢ . (٤) المرجع المذكور ج ٥ ص ١٦٦ .

سنة ١١٣٢ هـ

في اواخر السنة الماضية ؛ وقع الطاعون وكثرت الاصابات . ويعد بالألف أو أزيد يومياً . وهرب أغلب الأهلين ، وخرج الوزير بعساكره إلى أنحاء سامراء . واستمر (الطاعون) إلى أوائل هذه السنة ... [١]

سنة ١٢١٠ هـ

في ١ شوال ، خرج (الوزير سليمان باشا) من بغداد متوجهاً نحو سامراء للزيارة . ومنها ، مضى إلى عشيرة بني عز . قضى بضعة أيام في الصيد [٢] ...

سنة ١٢٧١ هـ

أمر (الوزير ؛ الوالي محمد رشيد باشا الكورنكي) بكري نهر الدجيل في (بلد) التابعة لقضاء سامراء [٣] .

سنة ١٢٨٦ هـ

قضاء سامراء ... (من اقضية لواء بغداد) في ايام مدحت باشا [٤] .

سنة ١٢٨٧ هـ

زار (ناصر الدين شاه) العتبات في النجف ، وكربلاء ، وسامراء [٥] .

سنة ١٢٩٦ هـ

هاجم الهماوند سامراء ، ولم تنقطع غوائلهم [٦] .

---

(١) المرجع نفسه ج ٥ ص ١٩٩ . (٢) المرجع نفسه ج ٦ ص ١١٥ . ولاحظ دوحة الوزراء ص ١٩٩ . (٣) المرجع نفسه ج ٧ ص ١٠٩ . (٤) المرجع نفسه ج ٧ ص ١٦٩ . (٥) المرجع نفسه ج ٧ ص ٢٤٤ . (٦) المرجع نفسه ج ٨ ص ٤٣ .

سنة ١٣٣٥ هـ

في ٥ جمادى الأول ، سنة ١٣٣٥ هـ ، و ٢٧ شباط سنة ١٩١٧ م ... تبين ان العدوّ يبلغ جيشه مائتي الف ، وليس لنــا أكثر من خمسة آلاف محارب ، فأمرت الدولة بنقل ما عندها من سجلات ، ونقود ، ومهمات أخرى إلى سامراء في القطار [١] ...

*

بعد واقعة بغداد تبعثر الجيش العثماني وانحل انحلالاً كبيراً ... توزعت جيوشه إلى جبهات عديدة ..

في ٢٩ آذار سنة ١٩١٧ ... انسحبت قوة العثمانيين إلى نهر العظيم .. ومن ثم اتصل (القول اردو ١٣) بجيش سامراء . وحدثت واقعة العظيم في ١٨ نيسان سنة ١٩١٧ م ، وعادت المفرزة من العظيم إلى سامراء ..

وفي جبهة سامراء نفسها كان قد رجع الجيش إلى اصطبلات .. وفي ٢١ نيسان سنة ١٩١٧ م تعرض الانكليز له بقوى كبيرة فضايقه ، واضطره ان ينسحب ولم يثبت على القصف الشديد من العدو .

ترك سامراء ومحطة القطار . وهذه الواقعة تعرف بـ(واقعة السكّر) لأن لدى الجيش العثماني في المحطة مقداراً كبيراً من السكّر . ثم حدثت واقعة رويضات ... والغريب ان الانكليز بعد أن ربحوا المعركة رجعوا إلى سامراء لما أصابهم من ضايعات كبيرة . فعادت خيالة الجيش العثماني ، فأشغلت تكريت [٢] .

---

(١) المرجع نفسه ج ٨ ص ٣٠٥ . (٢) المرجع نفسه ج ٨ ص ٣٠٥ — ٣٠٧ .

الحقائق الناصعة

في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها

فكر المخلصون بالقاء زمام القضية من ناحيتها الدينية إلى أحد كبار العلماء المجتهدين .. وهو آية الله المرحوم الميرزا محمد تقي الشيرازي . وقد كان .. يومذاك يسكن مدينة سامراء [1] ..

*

وعندما صمدت عشائر العزة في وجه الجيش البريطاني المحتل (في لواء ديالى) ، أوعز حاكم سامراء « الميجر بري » الى عشائر العبيد بأن يذهبوا فيحرقوا بيوت عشائر العزة وقراهـم ، وينهبوا أموالهم (وكانت بين العزة وعشائر العبيد خصومة قديمة) [2] .

*

وصلت الحركة إلى قضاء سامراء ، فاشترك فعلياً أفراد عشيرة الجبور برآسة المرحوم عبد الحميد السلامة ، والمجمع برآسة محمد المهدي ، والبوأسود برآسة حسين المطر ، والبوفراج من العزة برآسة علوان المحمد ، وبنو تميم برآسة حاتم الهذال ، والعزة برآسة لفته الهيلان ، وبعض العشائر الأخرى فهجموا على مركز قضاء سامراء ، وحاصروا « الميجر بري » الحاكم السياسي و « فورنو » ضابط البوليس ، وطلبوا منهما أن يسلما . إلاّ انهما اعتصما في المدينة داخل السور ، وساعدهما سكان قصبة سامراء بحجة انهما دخلاء عليهم (اي في حمايتهم) كما أن بعض العشائر هناك قد قامت بمساعدة الانكليز ، واصطدمت بالثوار فحال ذلك دون تحرير سامراء ، والفتك بالحامية الانكليزية [3]

---

(١) الحقائق الناصعة ج ١ ص ٧٩ . (٢) المرجع المذكور ج ١ ص ٣٢٨ . (٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٣٠ .

وشايح السراء في شأن سامراء

لفظة سامراء ، معناها طريق سام . وكان سام بن نوح – على ما يزعمون – إن أتى جوخى ، في فصل الشتاء – مر عليها ... او ان لفظ سا ؛ اتاوة الملك ، ولفظ مرا ؛ عدد ، وكان كسرى يأخذ الخراج في ذلك الموضع . وصحفت – على كلا القولين – بالهمز والتشديد في حرفين .

ثم أتى نحوها المعتصم اذ اشتكت بغداد من جنده . فارتاد سامراء للاجناد ، واختارها . ثم بنى ما شاء من دساكر ، فسرّ من رأى من العساكر . فسميت سرّ ، وسرّ من رأى ، وسامرا ، وسر من راء ، وسرى . وسميت عسكر ، ومعناها مجتمع الجنود ، وسميت ساء من رأى بعدما انهدم البناء بها .

عمرت سنة ٢٢١ ه ، وهدمت سنة ٢٧٩ .

طولها (مايد) ، أيْ : ٤٥ درجة و ١٤ دقيقة ، وعرضها (لديه) ، أي ؛ ١٤ درجة و ١٥ دقيقة . جوُها طلق ، وتربها نقي ، وماؤها جار ، حلّ بها المعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدي ، والمعتمد ، والمعتضد ، وهو الذي اقام في بغداد ، من ضغط الأتراك . فظعن المقيمون فيها ، وتركوا تلك القصور والرياض ، وخربت تلك المباني اجمع [1] .

*

هذا ، ولما صفا الهواء للمتوكل واستوى على عرش الملك في سامراء اصغى إلى وشاية الأعادي ، واستقدم الامام « علي الهادي » ، فجاء هو وابنه الحسن ، وظل يعفى تارة ، ويسجن تارة . حتى سمّه المعتز سنة ٢٥٤ وكان

---

(١) وشايح السراء في شأن سامراء ، للشيخ محمد السماوي ، طبعة النجف سنة ١٣٦٠ ه . ص ٣ – ٥ .

المهدي بن الحسن ولد في تلك السنة . ثم قضى الامام الحسن سنة ٢٦٠ هـ ، سمّه المعتمد[١] ، .

*

ثم شيد ناصر الدولة الحمداني الدار والجدث ، وكلل الضريح بالستور ، وحاط سر من رأى بسور ، سنة ٣٣٣ هـ[٢] .

*

ثم شاده معز الدولة البويهي ، فأسس الدعائم ، وعمر القبة والسرداب ، ورتب القوام والحجاب ، ورفع الضريح بالأخشاب ، وملأ الحوض بالتراب ، اذ صار كالبئر إذ كان الناس يأخذون التراب منه للبركة . وذلك لأن العسكري كان يتوضأ به أحياناً .

وجدد الصحن وسوره ، وطرز البناء ، وأكمل عمارة الحمداني ، سنة ٣٣٧ هـ[٣] .

*

ثم سيج عضد الدولة البويهي الروضة بالساج ، وستر الضريح بالديباج ، وعمر الاروقة ، ووسع الصحن ، وشيد السور ، وذلك في سنة ٣٦٨[٤] .

*

ثم ترك الأمير ارسلان بغداد ، وحل تكريت ، وعمر القبة ، والضريح وعمل الصندوق من الساج ، وجعل الرمان فيه من ذهب ، وذلك في سنة ٤٤٥ هـ[٥] .

*

---

(١) وشايح السراء ص ٥ — ٧ . (٢) وشايح السراء ص ٢٨ — ٢٩ . (٣) وشايح السراء ص ٢٩ . (٤) وشايح السراء ص ٢٩ . (٥) وشايح السراء ص ٢٩ — ٣٠ .

ثم جدد بركياروق السلجوقي الأبواب ، وسيج الروضة ، ورمم القبة والرواق والصحن والدار ، على يد الوزير مجد الدولة ، في سنة ٤٩٥ هـ [١] .

*

ثم عمر الناصر العباسي القبة والمآذن ، وزين الروضة ، وعقد السرداب ، ومنع ان يأخذ احد تراباً من الحوض ، وكتب اسماء الأئمة الاثني عشر على نطاق العقد ، على يد الشريف معد بن محمد بن معد ، سنة ٦٠٦ هـ [٢] .

*

ثم ابدل المستنصر الصندوق – بعد الحريق – وجعله من الساج وعمر الروضة ، والسياج ، على يد السيد جمال الدين احمد بن طاووس ، سنة ٦٤٠ هـ [٣] .

*

ثم زين ابو أويس حسن الجلائري الضريح ، وشيد القبة ، وعمل البهو ، وشاد الدار ، ونقل المقابر التي في الصحن إلى الصحراء ، وذلك في سنة ٧٥٠ هـ [٤] .

*

ثم زين الشاه حسين الصفوي الروضة بالساج ، ودعم البناء ، وعمل الشباك من الفولاذ ، ورخم الأرض والدور ، سنة ١١٠٦ هـ [٥] .

*

ثم عمر احمد الدنبلي البرمكي الروضة والسرداب ، وبدّل بابه ، واخشابه بالحجر الصوان والرخام ، وكان وكيله الميرزا السلماسي . وتوفي الخان الدنبلي ولما يكمل البناء ، وبقي السلماسي ينفق عليه ، وذلك سنة ١٢٠٠ هـ [٦] .

*

---

(١) وشايح السراء ص ٣٠ . (٢) وشايح السراء ص ٣٠ – ٣١ . (٣) وشايح السراء ص ٣١ . (٤) وشايح السراء ص ٣١ . (٥) وشايح السراء ص ٣٢ . (٦) وشايح السراء ص ٣٢ – ٣٣ .

ثم واصل البناء ابنه حسين ، وأكمل البهو والأبواب ، وزين جامع السرداب ، وكتب الآيات على الاركان ، وزين القبة بالكاشاني ، وحفر قبراً له مع أبيه في الرواق ، وذلك على يد الميرزا السلماسي ايضاً ، سنة ١٢٢٥ هـ [١] .

*

ثم جدد ناصر الدين شاه القاجاري الشباك ، وذهب القبة ، وعمر الضريح ، والرواق ، والقبة ، والصحن ، والمآذن ، والدار . ورخم الروضة ، والرواق ، والبهو ، والصحن . وشرع الأبواب ، ورمم السور — الذي بناه الدنبلي من قبل — وذلك على يد شيخ العراقين ، الشيخ عبد الحسين الرازي ، سنة ١٢٨٥ هـ [٢] .

*

ووسعت في زمان الملك فيصل الأول الطرق بين الدور وذلك سنة ١٣٤١ هـ [٣] .

*

وهكذا في زمان الملك غازي الأول سنة ١٣٥٢ [٤] ، وفيصل الثاني سنة ١٣٥٩ [٥] هـ .

*

ونورت الروضة بالكهرباء سنة ١٣٤٩ هـ [٦] وعملت اسالة الماء سنة ١٣٤٣ هـ [٧] .

*

---

(١) وشايح السراء ص ٣٣ . (٢) وشايح السراء ص ٣٣ — ٣٤ . (٣) وشايح السراء ص ٣٤ (٤) وشايح السراء ص ٣٤ . (٥) وشايح السراء ص ٣٤ — ٣٥ . (٦) وشايح السراء ص ٣٥ — ٣٦ . (٦) وشايح السراء ص ٣٦

كبار الحوادث :

سنة ٢٦٠ هـ ، سجن سراري الامام الحسن .

سنة ٢٧٩ هـ ، عاد المعتضد إلى بغداد بعد الفتنة .

سنة ٤٤٥ هـ ، حرب البساسيري والسلجوقيين .

سنة ٦٤٠ هـ ، احتراق المشهد بسبب الشمع .

سنة ١١٠٦ هـ ، احتراق المشهد أيضاً .

سنة ١٣١١ هـ ، الفتنة بين الأهالي .

سنة ١٣٥٦ هـ ، سرقة لوحتين من الذهب ، وقطع من الفضة[1] .

*

مقابر المشاهير :

السيدة حليمة بنت الامام الجواد ، عمة الامام علي الهادي ، سنة ٢٧٤ هـ .

السيدة نرجس زوج الامام الحسن العسكري ، ام المهدي ، سنة ٢٦٠ هـ .

ابو هاشم ، داود ، من ذرية عبد الله بن جعفر ، سنة ٢٦١ هـ .

احمد الدنبلي الخوئي ، سلطان خوي ، سنة ١٢٠٠ هـ .

ابنه ؛ الحسين بن احمد الدنبلي الخوئي ، سنة ١٢٠٧ هـ .

محمود الطهراني ، سنة ١٣٠٤ هـ . عبد الحميد اللاري ، سنة ١٣٠٦ هـ ؛ مهدي الشيرازي ، ١٣٠٨ هـ . اسد الله الطبيب الشيرازي ؛ اخو الميرزا

---

(١) وشايع السراء ص ٣٧ – ٤٠ .

محمد حسن الشيرازي ، سنة ١٣١١ هـ. ابراهيم النوري ، سنة ١٣٢٠ هـ. محسن الزنجاني ، سنة ١٣٢١ هـ. رضا بن هادي الهمذاني ، سنة ١٣٢٠ هـ. شريف الحسيني التويسركاني ، سنة ١٣٢٢ هـ. حسين بن رضا علي المقري ، الطبيب الهندي ، سنة ١٣٣٤ هـ . حسين بن محمد رضا بن علي الحسيني ، الأصفهاني ، سنة ١٣٣٤ هـ[١] .

(١) وشايح السراء ص ٤١ — ٤٥.

مآثر الكبراء في تاريخ سامراء

سنة ١٣١٨ هـ

المسألة الدخانيـــة

ومما وقع في عصر (الميرزا محمد حسن الشيرازي ، نزيل سامراء ، المجدّد المصلح الامام) المسألة الدخانية . وكان ممن عارض السلطان ناصر الدين شاه ، وشدد النكير عليه في اعطائه امتياز التنباك لانكلترا هو السيد جمال الدين الأفغاني فأخرجه ناصر الدين شاه من ايران فلما وصل الى البصرة في سنة ١٣٠٨ كتب الى سيدنا الامام الكبير الشيرازي قدس سره كتاباً بليغاً يستفزه في ذلك ويستصرخه ويستنجد به بأنواع العبارات المهيجة والمؤثرة في النفوس وقد شاع هذا الكتاب في وقته ووصلت نسخته الى النجف ، قال العلامة السيد محسن العاملي كنت في النجف وقرأناه وقرأه الناس وقد نشرت صورة الكتاب في بعض اعداد العرفان الصيداوية ولكن الامام الشيرازي لم يظهر منه شيء في هذا الباب من اجل هذا الكتاب وهذه صورته :

كتاب السيد جمال الدين الأفغاني لسيدنا الإمام الكبير الشيرازي رحمه الله [1]

بسم الله الرحمن الرحيم حقاً اقول ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية اينما وجدت وحيثما حلت وضراعة تعرضها الامة على نفوس زكية تحققت شؤونها كيفما نشأت وفي اي قطر نبغت الا وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وان كان عنوانه خاصاً.

حبر الامة ، وبارقة انوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق عن الشرع المبين ، الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام ، ورد به كيد الزنادقة اللئام ، لقد خصك الله بالنيابة العظمى عن الحجة الكبرى ، واختارك من العصابة الحقة وجعل بيدك ازمة سياسة الامة بالشريعة الغراء وحراسة حقوقها بها ، وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها ، واحال اليك من بين الانام وانت وارث الانبياء مهام امور تسعد بها الملة في دارها الدنيا وتحظى بها في العقبى ووضع لك اريكة الرياسة العامة

---

(١) هذا الكتاب قد كتب بعد عودة السيد جمال الدين الأفغاني من العراق الى ايران ، ورجوعه منفياً فالذي لا شبهة فيه هو انه كان قد درس الفقه والاصول في ايام شبابه في مدينة النجف الأشرف ، وكأن قد رأى الامام السيد حسن الشيرازي بسامرا وتعرف اليه عن كثب فقد كان السيد جمال الدين يقيم في الدار التي آلت ملكيتها الى بعض اسرته من الهمدانيين في النجف ، وهي واقعة في نهاية سوق العمارة وقبال المسجد المتصل بمقبرة آل الخليلي ، وممن كان له اتصال به في النجف هو المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي وقد قص علي المجتهد الشيخ محمد حرز الدين انه زاره في هذه الدار . وكون السيد جمال الدين من مدينة اسد آباد التابعة لهمدان دلائل كثيرة وقد عثرت على رسالة من المجتهد الميرزا باقر الشيرازي وهو والد محمد الباقر صاحب جريدة البلاغ ببيروت وقد كتبها للسيد جمال الدين يقول فيما يقول له موريا بالفارسية :

« يارم همداني ومنم هيچ مداني »

والمعنى ان صديقي – وهو يعني السيد جمال من مدينة همدان، وتعني (همه‌دان) معنى ثانياً هو انه (يعرف كل شيء) لما انا – يقول الشيرازي فانني (هيچ مداني) اي اني لا اعرف شيئاً – الخليلي .

على الافئدة والنهى ، اقامة لدعامة العدل ، وانارة لمحجة الهدى ، وكتب عليك بما أولاك به من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها والشهادة دونها على سنن من مضى ، وان الامة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضيعها وعاليها ، قد اذعنت لك بهذه الرياسة السامية الربانية جاثية على الركب ، خارّة على الاذقان ، تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تعروهـــا وتطل بصائرها اليك في كل مصيبة تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان امنها وامانيها فيك ، فاذا لمح منك غض نظر ، او نأيت بجانبك لحظة ، واهملتها وشأنها لمحة ، ارتجفت افئدتها ، وانتكثت عقائدها وزاغت ابصارها ، وانهدت دعائم ايمانها ، نعم لا برهان للعامة فيما دانوا إلا استقامة الخاصة فيما امروا ، فان وهن هؤلاء في فريضة او قعد بهم الضعف عن اماطة منكر اعتور أولئك الظنون والاوهام ، ونكص على عقبه مارقاً عن الدين القويم ، حائداً عن الصراط المستقيم ، وبعد هذا وذاك وذلك اقول ان الامة الايرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين وتطاول الاجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك اعني) عن القيام بناصرها وهو حامل الامانة ، والمسؤول يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعاً ، وطاشت عقولها ، وتاهت افكارها ، ووقفت موقف الحيرة ، وهي بين انكار واذعان ، وجحود وايقان لا تهدي سبيلاً وهامت في بيداء الهواجس في عتمة الوساوس ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلاً واخذ القنوط بمجامع قلوبها وسد دونها ابواب رجائها وكادت تختار يأساً منها الضلالة على الهدى وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى وان احاد الامة لا يزالون يتساءلون شاخصة ابصارهم عن اسباب قضت على حجة الاسلام (اياك اعني) بالسبات والسكوت وحتم عليه ان يطوي الكشح عن اقامة الدين على اساطينه واضطره الى ترك الشريعة واهلها الى ايدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ويحكمون فيها ما يشاؤن حتى ان جماعة من الضعفاء زعموا ان قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء وحسبها ان الامر

احبولة الحذق واسطورة المذق وذلك لأنها ترى وهو الواقع ان لك الكلمة الجامعة والحجة الساطعة وان أمرك في الكل نافذ وليس لحكمك في الامة منابذ وانك لو اردت ان تجمع آحاد الامة بكلمة منك وهي كلمة تنبثق من كيان الحق الى صدور اهله لترهب به عدو الله وعدوهم وتكف عنهم شر الزنادقة وتزيح ما حاق بهم من العنت والشقاء وتنشلهم من ضنك العيش الى ما هو أرغد واهنأ فيصير الدين بأهله منيعاً حريزاً ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزاً هذا هو الحق انك رأس العصابة الحقة ، وانك الروح الساري في آحاد الأمة فلا يقوم لهم قائم الا بك ولا تجتمع كلمتهم الا عليك لو قمت بالحق نهضوا جميعاً ولهم الكلمة العليا ولو قعدت تثبطوا وصارت كلمتهم هي السفلى وربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الامة طرفه عن شؤونهم وتركهم هملاً بلا راع وهمجاً بلا رادع ولا داع يقيم لهم عذراً فيما ارتابوا خصوصاً لما رأوا ان حجة الاسلام قدالفى « !؟ » فيما اطبقت الأمة خاصتها وعامتها على وجوبه واجمعت على خطر الاتقاء فيه خشية لغوبه الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة ومن يكون اليق بهذه المزايا واحرى بها ممن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر وجعله برهاناً لدينه وحجة على البشر ، ايها الحبر الاعظم ان الملك قد وهنت مريرته فساءت سريرته وضعفت مشاعره فقبحت سيرته فعجز عن سياسة البلاد وادارة مصالح العباد فجعل زمام الامور كليها وجزئيها بيد اثيم غشوم ثم بعد ذلك يسب الانبياء في المحافل جهراً ولا يقيم لشريعة الله امراً ولا يرى لرؤساء الدين وقراً يشتم العلماء ويقذف الاتقياء ويهين السادة الكرام ويعامل الوعاظ معاملة اللئام وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع العذار وتجاهر ... وموالاة الكفار ومعاداة الابرار هذه هي افعاله الخاصة في نفسه ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لاعداء الدين المعادين والسبل الموصلة اليها والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تنشعب فروعها

الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول نهر كارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج والجادة من الاهواز الى طهران وما على اطرافها من العمران والفنادق والبساتين والحقول والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنى وجد وحيث نبت وحكر العنب للخمور وما يستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع اقطار البلاد والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل والبنك وما أدراك ما البنك وهو اعطاء الاهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم وتسليمهم له بالرياسة والسلطان ، ثم ان الخائن البليد اراد ان يرضي العامة بواهي برهانه فحبق قائلاً ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية لا تطول مدتها ازيد من ماية سنة ، يالله من هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقاً لسكوتها لو سكتت مرداب رشت وانهر طبرستان والجادة من أنزلي الى خراسان وما يتعلق بها من الحدود والفنادق والحقول ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها واعرضت عن قبول تلك الهدية وهي عازمة على استملاك خراسان والاستيلاء على آذربيجان ومازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تفسخ هذه المقاولات القاضية بتسليم المملكة تماماً بيد ذلك العدو هذه هي النتيجة الأولى لخيانة هذا الاخرق ، وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول ببيع المزاد وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم السلام للأجانب ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم بخسة معدودة نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللآمة والشره بالخيانة والسفه وانك ايها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الامة ولم تجمع كلمتهم ولم تنزع السلطة بقوة الشرع من يد هذا الأثيم لأصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الاجانب يحكمون فيها ما يشاؤون ويفعلون فيها ما يريدون واذا فاتتك هذه الفرصة ايها الحبر ووقع الامر وانت حي لما ابقيت ذكراً جميلاً بعدك في صحيفة العالم واوراق التواريخ وانت تعلم ان علماء ايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك

وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها ومن خصه الله بقوة كيف يسوغ له ان يفرط فيها ويتركها سدى ، ثم اقول للحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية تتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لأنها تعلم مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية واستيلاءها عليها تجلب الضرر الى بلادها لا محالة وان وزراء ايران وامراءها كلهم يبتهجون لكلمة تنبض في هذا الشأن لانهم بأجمعهم يعافون هذه المستحدثات طبعاً ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ويجدون بنهضتك مجالاً لابطالها وفرصة لكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ، ثم ان العلماء وان كان كل صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء اعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين مـــا قرت كسلسة المعدات قراراً ولاجمعتها وحدة المقصد في زمان واحد وهؤلاء لتماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرياسة وتساويهم في الرتب غالباً عند العامة لا ينجذب بعضهم الى بعض ولا يصير احد منهم لصقاً للآخر ولا يقع بينهم تأثير الانجذاب حتى تتحقق هيأة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة كل يدور على محوره وكل يردع الزور وهو في مركزه هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي وانت وحدك ايها الحجة بما اوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم وقوة جامعة لقلوبهم وبك تنظم القوى المتفرقة الشاردة وتلتئم القدر المتشتة الشاذة وان كلمة تأتي منك بوحدانية تـــامة يحق لهـــا ان تدفع الشر المحدق بالبلاد وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام فالكل منك وبك واليك وانت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس ، ثم اقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذلك شدائد ما سبق لها منذ قرون وتحملوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة ، ولا شك ان حبر الامة قد سمع ما فعله ادلاء الكفر واعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج ملافيض الله

الدربندي وستسمع قريباً ما فعله الطغاة الجفاة بالعالم المجتهد النقي البار الحاج السيد علي اكبر الشيرازي وستحيط علماً بما فعله بحماة الملة والامة من قتل وكي وضرب وحبس ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك ... في الحبس والفاضل الكامل البار الحاج سياح ، والفاضل الأديب النجيب الميرزا محمد علي خان ، والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم واما قصتي وما فعله ذلك الظلوم معي فمما يفتت اكباد اهل الايمان ، ويقطع قلوب ذوي الايقان ويقضي بالدهشة على اهل الكفر وعبدة الاوثان ان ذلك ... امر بسحبي وانا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن ان يتصور مثلها في الشناعة هذا كله بعد النهب والغارة انا لله وانا اليه راجعون ثم حملني زبانيته الاوغاد وانا مريض على برذون مسلسلاً في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتني جحفلة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرطة الى بغداد ، ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه ان يبعدني الى البصرة علماً منه انه لو تركني ونفسي لأتيتك ايها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الأمة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا ... ودعوتك ايها الحجة الى عون الدين وحملك على اغاثة المسلمين وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبقى على دست الوزارة المؤسسة على خراب البلاد واهلاك العباد واعلاء كلمة الكفر ومما زاده لؤماً على لؤمه ودناءة على دناءته انه دفعاً لثرثرة العامة وتسكيناً لهياج الناس نسب تلك العصابة التي ساقتها غيرة الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي بقدر الطاقة والامكان الى الطائفة البابية كما اشاع بين الناس اولاً بأني مجنون ، وإسلاماه ما هذا الضعف ! ما هذا الوهن كيف امكن ان صعلوكاً دني النسب ووغداً خسيس الحسب قدر ان يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ويزدري العلماء ويهين السلالة المصطفوية وبيت السادة المرتضوية بالبهتان العظيم ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لقلوب المؤمنين ،

وانتقاماً لآل سيد المرسلين عليه السلام ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة امسكت عن بث الشكوى ، ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي اكبر الى البصرة طلب مني الى الحبر الاعظم كتاباً ابث فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث فبادرت اليه امتثالاً وعلمت ان الله تعالى سيحدث بيدك امراً والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

يقول الامير شكيب ارسلان في تعليقه على حاضر العالم الاسلامي فكان هذا النداء من السيد الحسيني من اعظم اسباب الفتوى التي افتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتفاض العامة الى الغائه انتهى .

وقال العلامة السيد محسن العاملي (ولكن الحقيقة ان الامام الشيرازي افتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه اعطاء الامتياز الى الدولة البريطانية قبل ان يرسل له السيد جمال الدين هذا الكتاب ولم يكن افتاؤه بتأثير كتاب السيد جمال الدين ولو لم يكن له مؤثر ديني من نفسه عظيم لم يؤثر فيه كتاب جمال الدين ولكن الناس اعتادوا اذا مالوا الى شخص ان يسندوا كل وقائع العالم اليه [١] .

المسألة الدخانية التي طار صيتها في الآفاق

ألف بعض الفضلاء من المتأخرين رسالة واسعة في المسألة الدخانية باللغة الفارسية ، ورأيت نسخة منها مخطوطة عند العلامة الميرزا محمد الطهراني بسامراء فأحببت ايراد بعض عباراتها المهمة التي لها دخل في المقصود قال (ما تعريبه) لما استولت دول الاجانب على بلاد ايران جعلوا يتربصون بأهلها الدوائر حتى اخذوا امتيازات الكثير من اجناسهم واطعمتهم فعطلت أسواق التجارات من جراء ذلك وكثر الحزن في مكاسبهم فآل امرهم الى

---

(١) مآثر الكبراء ج ٢ ص ٢٧ – ٣٤ .

الفقر والمسكنة وبطلت مصانع منسوجاتهم ومعامل سكرهم ثم لم يقنع الأجانب بذلك فجعلوا يفسدون اخلاقهم ويعيرون علماءهم ويزينون للجهال معارفهم ولا ريب أن النفوس ميالة الى اللهو واللعب والناس الى امثالهم أميل والمجالسة مؤثرة والمخالطة تورث المحبة والمحبة تورث الاتحاد في اللباس والمآكل والمشارب والعلوم والمعارف وجميع الآداب والرسوم فيؤول حينئذ أمر المسلمين الى الفناء والزوال ، وكان الأجانب يرسلون في كل سنة عدة من ابنائهم الى ايران فيدخلون انفسهم في مكاسبهم بكل حيلة ومكيدة حتى مهنة التجارة والخياطة والعمارة والصياغة وغيرها ؛ وكان الامر كذلك الى ان سافر السلطان ناصر الدين شاه الى لندن في سنة ١٣٠٦ھ فاستقبلوه في موكب عظيم واحتفلوا به وبذلوا جهدهم في اكرامه واحترامه اللائق به وهو غافل عن مقاصدهم وما يريدون منه ثم احتفلوا به في محفل كبير وقالوا له ان امتيار التتن والتنباك نستدعيه منكم مدة خمسين سنة بشروط نقوم بها :

الاول : — نرسل في كل سنة خمسة عشر الف ليرة الى خزينتكم سواء ربحنا او خسرنا وهذا المبلغ نؤديه كله في مدة خمسة اشهر .

الثاني : — يجب على أولياء الحكم في جميع بلدان ايران اجبار الزراعين باعطاء التعهدات لنا وان كل ما يزرعون من التتن والتنباك لا يجوز لهم بيعه وشراؤه وتضمينه الا باذن صاحب الامتياز ، وليس لاحد اصدار الاجازة بذلك الا من صاحب الامتياز وليس للبايع والمشتري ان يعامل بغير دفتر الاجازة ومن فعل ذلك فعليه المجازاة .

الثالث : — يجب على صاحب التتن والتنباك ان يسلم ربع المنافع الى الخزانة وذلك بعد وضع جميع المخارج المتعلقة بذلك وللمأمورين تفتيش الدفاتر في رأس كل سنة .

الرابع : — حرية الآلات والمكائن المتعلقة باصلاح التتن والتنباك وخلوها عن مصارف العشارين حين دخولها في ايران .

الخامس : — عدم جواز الحمل والنقل من التتن والتنباك مطلقاً الا باجازة صاحب الامتياز .

السادس : — يجب على اصحاب الامتياز شراء جميع الدخان الموجود في ممالك ايران وليس للبايع الامتناع من ذلك .

السابع : — يجب على اولياء الحكم أن لا يزيدوا في الاعشار والكمارك المعمولة الى مدة خمسين سنة .

الثامن : — كل من باع او ابتاع خفية او وجد عنده شيء منه بدون اجازة فيجب على المأمورين للدولة العلية الايرانية مجازاته الشديدة .

التاسع : — يجوز لاصحاب الامتياز انتقال حقوقهم مع شروطها الى من يريدونه كائناً من كان .

العاشر : — يجوز لأصحاب الامتياز ابتياع الأراضي للمخازن الدخانية نعم لا يجوز ابتياع ازيد من ذلك .

الحادي عشر : — لو تجاوز حكم ما قرر في دفتر الشروط عن مقدار السنة بمعنى ان الهيئة التي تعرف باسم الكمپانية لم يشتغلوا بالعمل حتى ينقضي من تاريخ كتابة الشروط مقدار سنة بطلت الشروط وبطل الامتياز فيجب تشكيل ذلك بسرعة ثم كتبوا وثيقة الامتياز صورتين وختمهما السلطان ناصر الدين شاه بخاتمه، وقبل ذلك كله غفلة عن حقيقة الحال او عدم علمه بالمآل ثم رجع السلطان الى عاصمة ملكه طهران وجاءت من لندن هيئة تعرف باسم الكمپانية واشتغلوا بشراء الأراضي وبناء المخازن واحضار المكائن والآلات والأدوات وانتشر الخبر في الآفاق ونشروا ذلك في الجرائد وهتفوا بخطأ هذه المعاملة وقالوا ان دخانية اصبهان وحدها في سنة واحـــدة تبلغ عشرين الف ليرة وطعنوا بالسلطان وكثر اللغط فبينما هم كذلك اذ جاء من لندن جماعة من

الاجانب لا يقل عددهم عن مائة الف نسمة بين رجال ونساء[1] ودخلوا طهران وشرعوا في تنفيذ مقاصدهم وارسلوا في كل بلد من بلاد ايران عدة من هيئتهم وقويت بذلك كل ملة في ايران سوى ملة الاسلام وكثرت الفواحش وشرب الخمور فلم تزل كل يوم تكثر هذه الدواهي وقد فتح الاجانب المدارس لدعوة الناس الى مذهب المسيح وجعلوا المبشرين (البرتستانت) في جميع المستشفيات ينفقون اموالاً جمة على الفقراء والمساكين ويستخدمون بنات الاسلام وفتيانها وصار المسلمون مقهورين تحت ايديهم وفرقوا اربعمائة الف تومان بين الامراء والحكام ليوافقوهم في تنفيذ مقاصدهم وابتاعوا قطعة ارض قرب حديقة الايلخاني بخمسة واربعين الف اشرفي وانفقوا لعمارتها مائة وخمسين الف ليرة وجعلوها مسورة بسور رفيع حصين ونصبوا على ابراجها مدافع ، وكان قطر السور اربعة اذرع فلما فرغوا من استحكاماتهم في طهران ارسلوا هيئة الى شيراز فلما قربوا من البلدة وانتشر خبر قدومهم فيها اجتمع الاشراف عند علمائهم وانكروا هذا العمل فوافقهم العلماء في ذلك مصلحة لدينهم واصلاحاً لمفاسد امورهم فأخبر بذلك اصحاب الامتياز فخافوا ان يدخلوا البلدة الى ان سيرت الحكومة السيد العلامة الحاج السيد علي اكبر الذي كان من قدوة العلماء في شيراز الى (ابو شهر) خفية فلما علم بذلك اهل البلدة هاجوا وماجوا واضطربت الامور وعطلت الاسواق ولاذوا بالحضرة المقدسة حضرة السيد احمد بن موسى بن جعفر عليهم السلام الذي يعرف بشاه جراغ وكثر البكاء والضجيج بحيث خشيت الحكومة المحلية فأمرت باحضار جنود لتفريق الناس بالبنادق فقتل عدة من المسلمين وانهزم الباقون مجروحين خائفين وجلين ولكن الاضطراب يشتد في كل يوم غير ان الحكومة المحلية استقبلت اصحاب الامتياز وادخلتهم البلدة مع كل

---

(١) اغلب الظن ان الأمر لا يخلو من مبالغة قد تتجاوز حدود المعقول بهذا التقدير خصوصاً وان ليس هنالك من مصادر تؤيد هجرة ما لا يقل عن مائة الف نسمة من لندن الى ايران في اي تاريخ من التواريخ ما عدا ايام الحرب — . الخليلي

للاحترام وسار الحاج السيد علي اكبر الشيرازي مع جماعة من العلماء من (ابو شهر) الى (سر من رأى) واستعانوا بآية الله المجدد الشيرازي قدس سره فأمر رحمه الله بضيافة السيد وتجليله وتعظيمه بما لا مزيد عليه، ثم ان أصحاب الامتياز ارسلوا هيئة الى آذربيجان فأخبر بذلك العلامة الحجة الميرزا جواد آقا فأمر بمنع دخول الهيئة وانكر ذلك اشد الانكار فآل الامر الى تأخير ذلك الحكم عن آذربيجان وكثرت المراسلات بين السلطان بين هذا العالم الغيور الاسلامي الى ان قهر واضطهد ودخلت الهيئة آذربيجان بالقوّة القاهرة واخذوا يبتاعون النقاط الرئيسية للبلدة والامكنة المعمورة وابتنوا فيها قصوراً شاهقة وابنية فخمة فزاد ذلك وحشة الناس وخوفهم على اضمحلال بلاد ايران وسقوطها بيد الاجانب بلا كلفة فاستغاث الناس بعلمائهم واستدعوا منهم المكاتبة الى سلطانهم والاحتجاج عليه وان يبينوا له مفاسد هذه المعاملة ففعلوا غير انهم ما نالوا مرادهم فكتبوا الى سر من رأى بالقصة التفصيلية واستغاثوا كلهم بآية الله المجدد وكان قدس سره من خطته أن لا يتداخل فيما يتعلق بأمور المملكة والسياسة فلما كثرت الشكاوى من جميع بلاد ايران وتواترت الكتب من العلماء والاشراف ومعاريف التجار وتكلموا في اطراف القضية واوضحوا مفاسد هذا الامتياز أبرق آية الله المجدد في التاسع عشر من ذي الحجة سنة ١٣٠٨ الى السلطان ناصر الدين وكتب كتاباً مفصلاً الى نائب السلطنة اوضح فيه ما يجب ايضاحه وشرح ما يجب شرحه فأرسل السلطان جواب المكتوب مع كمال التعظيم والتوقير وكان مفاده.

اولاً ـ ان ايران حالها في هذا اليوم ليس كحالها في الامس فيجب على سلطانها ان يحفظ استقلالها وهذا لا يتم إلا باظهار المودة مع الدول القوية.

وثانياً ـ دفع الفاسد بالافسد امر راجح.

وثالثاً ـ خراج ايران الذي يعرف باسم الماليات لا يفي بمصالح الملك فليس لنا بد عن امثال هذه المعاملات مع الاجانب لتتم به مصالح المملكة.

ورابعاً ـ لا يجوز للسلطان اذا ختم بخاتمه في دفتر المعاملة ان ينقضه.

وخامساً ــ لا يمكن الفسخ والابطال فيها لانها تحولت الى ايد قوية من دول اوربا وكيف يمكن للسلطان مع ضعفه ان ينازع الأقوياء .

وسادساً ــ على فرض امكان السلطان من فسخ هذه المعاملة وابطالها فانه يحتاج الى مصارف كثيرة لا يمكننا تحصيل عشرها ، فأرسل السلطان الكتاب الى قنصله في بغداد وكتب له بأن يسافر إلى (سر من رأى) حاملاً معه الكتاب ويبذل جهده في ارضاء الامام الشيرازي ففعل القنصل فلم يقبل (قدس سره) هذه المعاذير واجاب عن كل واحد منها وابرق للسلطان برقية ثانية وكتب كتاباً ثانياً ادلى فيه ببراهين قاطعة أخطاء هذه المعاملة الفاسدة فكتب في آخر الكتاب ان عجزت الدولة عن الجواب فلسنا بعاجزين وان لم تقدر ان تجيب الخصم وتطالب بحقوق الملة فخل بيننا وبينه ثم في خلال ذلك صدر الأمر من رئيس اصحاب الامتياز بجمع التنباك الموجود في جميع ممالك ايران وشرائه فوقع التشاجر والتنازع في القيمة ومقدار الثمن وما ادخره بعض لحاجة أو لغرض آخر حتى ان احد التجار كان له اثنا عشر الف كيس من التنباك فجاء اليه اصحاب الامتياز لابتياع ذلك فلم يرض البايع بما عينه صاحب الامتياز من الثمن فاستمهله لغد فلما خرج اصحاب الامتياز من عنده اخرج اكياس التنباك في الفضاء وصب عليها النفط واحرقها جميعه فلما اصبحوا جاؤا اليه وطالبوه بالاكياس فقال بعتها باغلى الثمن فاستشاطوا غضباً وقالوا له كيف بعتها من غير إذن منا فذهب بهم الى الرماد وقال بعتها لهذا غيرة للدين فافعلوا الآن ما شئتم فكثر الاضطراب بين الناس واشتد الأمر على الزراع وضاق الأمر على الرعية لكثرة ما حملوهم من التكاليف الشاقة الضارة لدينهم ودنياهم واتصل باصحاب الامتياز كثير من الدجالين الذين يريدون التقرب اليهم ويدعون انهم من المسلمين ، فكانوا يدلونهم على اعراض الناس ونواميسهم وما ادخروا من التنباك وجعلوا يصرفون عوام الناس عن إطاعة العلماء فاضطهد اهل الدين وكانوا يحبذون السفور لبنات المسلمين وينصبون الكراسي في المعامل الاسلامية

ليجلسوا وينظروا الى بنات المسلمين اللاتي يشتغلن في المعامل ، وهن سافرات ووقع من امثال ذلك مالا يحيط بيانه القلم ، فلما رأى العلماء في اصبهان ان البلية قد عمت البلاد امتنعوا عن استعمال التنباك وبيعه وشرائه فوافقهم أهل الدين وانتشر الخبر فهددوهم بارسال المدافع الى بيوتهم وتخريب مساكنهم غير ان العلماء لم يكترثوا بهذه التهديدات غيرة للدين فآل أمرهم الى النفي والاخراج فخرج بعضهم خفية وبعضهم جهراً الى (سر من رأى) واستغاثوا برئيس الشيعة الامام المجدد رحمه الله فلما رأى أنه قد تفاقم الأمر وانتهى الأمر الى هذه النتيجة السيئة التي لا ترضي الله ورسوله كتب مصدراً فتواه التي رنّ صداها في العالم الاسلامي لا سيما في ايران فكان نص تعريبها بعد البسملة« اليوم استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كان ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه » ونصهـــا بالفارسية (بسم الله الرحمن الرحيم امروز استعمال تنباكووتتن درحكم محاربه امام زمان عليه السلام است حرره الاحقر محمد حسن الحسيني) فأرسل صورة الفتوى الى اكبر علماء طهران الحاج ميرزا محمد حسن الأشتياني قدس سره وفي اواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٩ اقام اصحاب الامتياز الاجانب في دائرة الكمپاني حفلة عظيمة اجتمع فيها خلق عظيم من رجالهم ونسائهم وحضر القنصل الروسي والقنصل الالماني والقنصل الايطالي والامريكي والقنصل التركي وغيرهم من القناصل والمأمورين والامراء والحكام والتجار الايرانيين وكانت هذه الحفلة حفلة سرور ونشاط لظفرهم بمرادهم وكانوا فرحين بانقضاء مدة الاستمهال حسبوا انهم من الغد يسيطرون على المسلمين وينالون مرامهم فلما اصبح الناس في غاية الحزن والانكسار سمع بعضهم من بعض ان الامام الشيرازي حرم استعمال التنباك والتتن وجعله في حكم المحاربة مع الامام الحجة ابن الحسن (ع) فكادوا يطيرون فرحـــاً وسروراً وجعلوا يسألون من أين جاء هذا النبأ العظيم الذي فيه حياة ايران والايرانيين فازدحموا على دار حجة الاسلام الآشتياني لكي يعرفوا صحة الخبر وكان

الآشتياني مترقباً هذه الفتوى غير ان البريد تأخر اسبوعاً فأخذ أولياء الامر يعاقبون من تكلم بحرمة الاستعمال ويقولون هذا من حيلكم ولم تصدر من الامام الشيرازي فتوى بالحرمة فاذا بالبريد قد دخل دار الآشتياني وأعطاه صورة الفتوى فقرأها الآشتياني على عموم الناس فلم تنقض ساعات إلا واستنسخوا عنها مائة الف نسخة وقرأوها على المنابر في المساجد والمحافل وما أمسى الناس إلا وطبق البلدة الخبر وانتشر في البلدان والقرى التي كانت من اعمال طهران فأمرت الحكومة بجمع النسخ وأخذها من أيدي الناس غير أنه ما نالت مرامها وجعلت تسأل عن نسخة الاصل فدلت على الآشتياني وكان قدس سره يخشى من إظهار نسخة الاصل فاستعلمت الحكومة الامر من (سر من رأى) فأبرقوا للعلامة الميرزا حسين النوري والشيخ الحاج آقا النوري وأمثالهما فأجيبوا بصحة صدور الفتوى من الامام الشيرازي فايقنوا بصدق صدور الحكم فابرق التجار والعلماء الى جميع ممالك ايران بذلك وخضع الناس جميعاً للحكم وانقادوا وامتثلوا مبتهجين مسرورين وكل من كان عنده شيء من التنباك أحرقه وكسر غليانه وشطبه ومن عجيب نفوذ هذا الحكم ان الفساق المتجاهرين بالفسق الذين يفطرون شهر الصيام ويشربون الخمر امتنعوا عن استعمال الدخان فقيل لهم ما بالكم تشربون الخمر ولا تشربون التنباك قالوا ان شرب الخمر له توبة وهذا ليس له توبة فمن استعمل التنباك فهو مثل من قتل الامام علياً (ع) وقاتل الامام لا تقبل توبته ، ومن عجيب نفوذ هذا الحكم بسرعة ان اصحاب المقاهي كسروا كل ما عندهم من ادوات الغليان ، وان كان من أغلى الأثمان وأبطل اصحاب المعامل كل ما له تعلق بالغليان سواء في ذلك التاجر والكواز والصياغ وغيرهم ، وكسروا ما عندهم في المعامل فبلغ الامر الى أن رجلاً سأل بعض العلماء وقال اني رششت التنباك بالشمس لييبس وأريد الآن جمعه فاجعله في كيس واخرجه من داري فهل هذا استعمال اولاً ؟، وارسل رجل رأس غليان الى دكان ليصلحه قبل وصول الحكم فبعد انتشار الحرمة ذهب ليأخذ رأس

رأس الغليان فرأى أن الأستاذ يصلح ثقبته وما هو معد لشرب الافيون ورد رأس الغليان كما كان ولم يصلحه فقال له الرجل هل يجوز شرب الافيون قال لا ولكن له توبته بخلاف شرب الغليان الذي ليس له توبة ، ورأوا درويشاً يشرب الغليان فانكروا عليه فحلف انه ليس فيه تنباك وانما هو حشيشة فلم يقنعوا بذاك حتى قلبوا رأس الغليان فرأوا انه قد صدق فتركوه ، ومن عجيب نفوذ هذا الحكم الشريف أن خوانين حرم السلطان وجواريها قد كسروا ما كان عندهم من الغليان واستعفى السلطان ناصر الدين شاه خدامه عن هذا العمل فعفا عنهم وخلي سبيلهم ، ومن عجيب نفوذ هذا الحكم الشريف أن اليهود والمجوس وسائر الفرق الباطلة وافقوا جماعة المسلمين وقالوا ان هذا حكم محترم يجب اتباعه ولا يجوز التخلف عنه فمن تخلف عنه فبعيد عن الشرف ، ولا يدلنا التاريخ منذ خلق الله الدنيا على ان حكماً نفذ بسرعة في جميع طبقات الناس كبيراً كان أو صغيراً رجالاً أو نساء مؤمناً أو منافقاً مسلماً او كافراً عالياً كان او دانياً مثل هذا الحكم فانتشر في العالم الاسلامي امتنع المسلمون عن شربه بسرعة بالطوع والرغبة ويرون ذلك فخراً لأنفسهم ، وقد دلّنا التاريخ من أحوال الأنبياء عليهم السلام انهم من بعد سنين متطاولة من تبليغهم احكام الله وتحملهم المذلة والأذى في ذلك يتبعهم شرذمة قليلة وعظمة نفوذ هذا الحكم الشريف بلغت درجة لا يمكن وصفها لانا نرى بالعيان ونسمع بالآذان انه قل ما يوجد اتفاق جميع العلماء في جميع البلدان في حكم يتعلق بالمصلحة العامة وهذا الحكم الشريف لما صدر من مصدره خضع له جميع العلماء واستقبلوه بكـــل ارتياح وقبول وانقادوا اليه بكل ابتهاج وسرور ولعمري أن هذا من النوادر الغريبة التي قلّ ما تتفق في عصر من العصور كما يدلنا سير التواريخ لا سيما تواريخ العظماء المصلحين ثم ان اصحاب الامتياز اصبحوا حيارى مبهوتين كأن على رؤوسهم الطير فكتبوا الى لندن بهـــذا المضمون (ان قد وقعت داهية عظمى لا يدلنا التاريخ على مثلها في ايران وهي ان شرب التنباك والانفية التي كانت عادتهم استعمالها في الليل والنهار

وأهم لوازمهم بل كانوا يعدونه من الواجبات في بيوتهم تركوه بتاتاً حين وصلت اليهم فتوى رئيسهم بالحرمة . ومن حين صدور الحكم من رجل واحد تركوا اعظم ما كانوا متعودين به منذ سنين متطاولة من غير كره ولا اجبار وعامة المسلمين خضعوا لفتوى رئيسهم حتى دوائر الحكومة الايرانية وصار استعمال التنباك عندهم من انكر المنكرات ولم يزالوا يكسرون (الشطب) (والغليان) ويرمون بخزفه وأخشابه الى دائرة الامتياز) ومثل ذلك كتب السفراء الى ممالك اوربا فاجتمع اصحاب الامتياز الى السلطان واستغاثوا به فوعدهم بالعلاج وكان السلطان فرحاً بهذا الحكم الشريف بالباطن غير انه لم يكن له بد من المماشاة مع اصحاب الامتياز فعقد حفلة عظيمة دعا فيها مشاهير علماء دار الخلافة منهم الميرزا الآشتياني والمولى السيد علي اكبر التفرشي والشيخ فضل الله النوري وشريعة مدار امام الجمعة وشريعت مدار السيد محمد رضا والآخوند ملا محمد تقي القاشاني ، ومن طرف الدولة أحضر السيد عبدالله البهبهاني ونائب السلطنة وأمين السلطان وأمين الدولة ومشير الدولة وقوام الدولة ومخبر الدولة فلما اجتمعو احضر السلطان صورة ما قرر بينه وبين اصحاب الامتياز وخاطب العلماء وقال هذا ما قرر بين الدولة وبين اصحاب الامتياز فانظروا فيه فما كان فيه مخالفاً لحكم الشرع المطاع نأمر بتغييره . وأما أصل المسألة فابطاله محال ، فلما قرأوا فاذا في صدر الدفتر كلمة (مينويل) فسأل العلماء عن تفسير هذه الكلمة فقيل لهم أن هذه الكلمة معناها بالانكليزية الامتياز والانحصار يعني ان التنباك لا يجوز بيعه ولا شراؤه إلا باجازة اصحاب الامتياز ، وهذا حق يختص به فقط ، فقال العلماء هذا اول ما يجب تغييره او اسقاطه لأنه خلاف ما قرر في شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الاصول المقررة الثابتة قاعدته ان (الناس مسلطون على أموالهم) فعلى هذا الأصل كل واحد من الناس مسلط على ماله يفعل فيه ما يشاء فهو مختار على بيعه وادخاره بأي نحو كان ،وقاعدتكم

هـــذه مخالفة لحكم الشرع المطاع حيث انكم أمرتم بـــأن الرعية لا تبيع إلا لشخص معين وبثمن معين في مكان معين وهـــو مجبور مسلوب الاختيار في جميع ذلك والشارع لا يرضى بذلك أبداً فبهتوا وافحموا ، وكل واحد من اركان الدولة لم يحر جواباً ، فقال الوزير الاشتياني أن السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي مجتهد وجنابك ايضاً مجتهد فيمكنك أن تفتي بالاباحة كما انه فتى بالحرمة ، فاجابه الآشتياني بكلمات قارصة وقال ان مولانا الميرزا الكبير سيد الشريعة وامام الشيعة وملاذ الأمة ونائب الأئمة حكمه مطاع وأمره لازم الاتباع ونحن عبيده ومطيعوه في كل ما يقول لأن الراد عليه على حد الشرك ، فيئس الوزير الأعظم من اقناع العلماء ووعدهم برفع الامتياز فلما مضى اسبوع على عقد المجلس المشار اليه عقدوا مجلساً آخر وأحضروا المذكورين وحضر السلطان ناصر الدين وقالوا قد ابطلنا الامتياز عن داخل ايران فآحاد الرعية مختار في بيع التنباك بأي وجه يريد وبأي ثمن وفي أي وقت يشاء لا إجبار في البين غير أن الامتياز باق بحاله في خارج المملكة والتنباك من ايران يحمل الى المملكة العثمانية فقط ومعلوم عندكم ان اختيار الخـــارج ليس بأيدينا فنستدعي من العلماء أن يصعدوا المنابر ويعلنوا بالاباحة فقالوا ما افتينا بتحريمه حتى نفتي باباحته ولا ربط لنا في المسالة انما القول قول السيد الكبير الميرزا الشيرازي منه الأمر ومنا الاطاعة والانقياد فراجعوه انتم في المسألة حتى يتبين لكم الأمر ، فكتبوا صورة برقية وختموها بخواتيم العلماء وارسلوها الى سامراء وكانوا في انتظار الحكم بالاباحة فاذا الجواب من سامراء مفاده (التشكر من السلطان والرجاء بقطع أيدي الأجانب مـــن ايران) فلم يبق مجال للسلطان على علماء دار الخلافة فبقي حكم الحرمة بحاله ، فلما مضى اسبوع رأى الناس في صبيحة يوم الاثنين اعلاناً على حائط شمس العمارة مفاده ان يوم الاثنين الآتي نحن مأمورون بالجهاد فمن كان مسلماً فيجب عليه الجهاد بفتوى الامام الشيرازي مد ظله فولول الناس فهاجوا وماجوا وانتشر الخبر الى تمام دار الخلافة وخاف الأجانب على انفسهم فجعلوا ينهزمون خفية حتى ان كثيراً

منهم خرجوا من ايران لابسين ثياب النساء وكانت قلوبهم مملوءة رعباً من الحكم بحرمة الدخان وقالوا ان المسلمين مستميتون ونرى ان رئيسهم الديني لـو أمرهم باحراق انفسهم بالنار لا يتخلفون عـن امره فالاقامة في ايران فيها خطر عظيم ، واما اصحاب الامتياز فلجأوا الى شمس العمارة أواستغاثوا بالسلطان ناصر الدين شاه فارسل السلطان الى الآشتياني واستخبر منه فحلف انه لاعلم له بذلك ووعد السلطان بتسكين الناس وكان كثير من الناس يبتاعون الاسلحة ويجددون العهد والوصية وعلت اصوات البكاء من دورهم وكانوا يودعون نساءهم وصبيانهم فلم تزل هذه الأمور تتضاعف ويشتد خوف الأجانب واصحاب الامتياز فدعا الآشتياني اصحاب المنابر والمحاريب وامرهم بتسكيت الناس وان هذا الاعلان لا اصل له فهدأت فورة الناس غير ان سفراء اوربا خافوا الأمر وزعموا ان هذه الهدنة من المسلمين سياسة واغفال للخصم فاحتفلوا قبل مضي اسبوع واحضروا اصحاب الامتياز والسلطان ناصر الدين شاه وكثيراً من الأكابر والأشراف وكان المتكلم السفير الروسي وخاطب الحضار وقال (زنده باد اتفاق مسلمانها) أي ليحي اتفاق كلمة الاسلام على السلامة فتعجب السفراء من هذه الكلمة فلما رأى السفير الروسي تعجبهم قال حضرت هذه الحفلة حتى اقول لكم هذه الكلمة وان شئتم اشرح لكم . قيل له قل . قال اليوم مقدار مائتي الف من رؤوس (الغليان) وكيزان البلور للغليان وغيرهما مما يتعلق بالدخان وقفت تجارتها عن روسيا ولا يدرى الى ما يصير مآلها وكان السبب في ذلك ان « آرسن » رئيس اصحاب الامتياز وضع حكما في ايران يخالف قوانينهم الاسلامية فافتى رئيسهم المطاع بحرمة استعمال الدخان فاطاعوه وتركوا عادة كانوا متعودين عليها منذ خمسمائة سنة ومنشأ هذه الخسائر ليس إلا (آرسن) رئيس الامتياز . اليس من الواجب عليه رفع يده عن هذه المعاملة قبل حدوث حادثة اكبر من هذه . قالوا باجمعهم نعم . ثم قال هذا سهل يمكن تحمله ، ولو فرضنا ان رئيس الامتياز لم يرفع يده عن هذه المعاملة ورئيس الاسلام يشدد في الحكم لقطع يد الأجنبي ويفتي بحرمة شرب « الشاي »

ومن المعلوم ان تأثيره في قلوب المسلمين ليس بأقل من تأثير حرمة الدخان فعنده هل يمن احصاء الخسائر التي ترد الينا والى سائر دول اوربا لأن ذلك يعطل تجارة السكر بأنواعه وتجارة جميع الآلات التي يتوقف عليها استعمال « الشاي » وقد يكون ذلك سهلاً لو فرض ولكن لو اصدر سيدهم المطاع فتوى بحرمة استعمال جميع ما يرد من البلاد الخارجية الى ايران لعمت الخسائر والاضرار جميع الدول ولو فرضنا مع ذلك سهولة هذه الخسائر العظيمة ولكن لو اصدر فتواه الحاسمة بوجوب قتل جميع المسيحيين الذين هم منتشرون في بلاد ايران وتنزيهها عن الأجانب فما تفعلون فقالوا باجمعهم لا شبهة انه لو افتى بذلك لقاتلونا لانهم يرون الجهاد واجباً عليهم ومن قتل منهم يكون شهيداً فعند ذلك نكون مسؤولين تجاه صاحبنا لأن التبعة الخارجية كثيرة في بلاد ايران وتلك داهية عظيمة ، فقال السفير الروسي لهم فانظروا عندئذ عواقب المسألة فقالوا بأجمعهم الحق ما تقول ويجب على (آرسن) رئيس الامتياز فسخ المعاملة وابطالها فقال (آرسن) كيف افسخ هذه المعاملة واني منذ دخلت ايران الى يومي هذا انفقت اربعة كرور من الليرات في الرسومات والعمارات والآلات والوظائف وغيرها ، فقال السفير الروسي هذه الخسائر التي وردت عليك كنت قد اقدمت عليها لعلمك خلاف القوانين الاسلامية ورؤساؤهم الدينيون لم يرضوا بذلك ، فبهت (آرسن) ولم يحر جواباً ثم استمهل السفراء لينظروا في امره فكان كلما فكر في الأمر لم تطب نفسه الى ترك المعاملة ، فكتب اليه السفراء بأن لا تقوم في ايران الا ان تأخذ الاجازة باستعمال الدخان من علماء الاسلام ، ثم ان (آرسن) جعل يسأل عن احوال علماء دار الخلافة ومراتب زهدهم وتقواهم الى ان وجد فيهم من كان يطلبه فدخل داره خفية ورشاه بثلاثة آلاف تومان له وخمسمائة تومان لكاتبه فقبل تلك الرشوة فقال برئيس الامتياز أنا افتيت بالحرمة لجهات اقتضت والساعة أفتي بالاباحة فشرب في الوقت الدخان فلما رأى ذلك (آرسن) فرح بذلك وزعم أنه نال مرامه من هذا الفاسق

المتهتك فقال المرتشي أنا متعهد بإبقاء معاملة الامتياز على حالها واستعمال الشعب الدخان ولكن يجب عليك ان تواجه السلطان وتستدعي منه إخراج من هو معارض لنا من طهران ، فقام (آرسن) واتى الى السلطان وقال ما جئنا الى ايران الا معتمدين عليك لتزيل عنا كل غائلة حدثت واليوم أصابتنا خسائر فادحة وفيها مسؤولية عند السفراء فنستدعي من حضرتكم اما ان تتحمل خسائرنا لنرجع الى بلادنا او تأخذ لنا الاجازة من العلماء ، ولما كان الأول غير ممكن للسلطان وعده بالثاني اضطراراً ثم حدثه بالقصة وما وقع الاتفاق عليه مع المرتشي المذكور فبقي السلطان متحيراً فكتب إلى الآشتياني بما مضمونه ان جنابك مخير بين ان تعلن بأباحة استعمال الدخان أو تسافر مدة قليلة من طهران فان الأمر كذا وكذا فكتب اليه الآشتياني أما نقض حكم الامام الشيرازي فمحال ، واما المسافرة فاسافر مع الغد إن شاء الله فانتشر نبأ المسافرة في تمام البلدة بسرعة هائلة فعظم ذلك الأمر عند العلماء فاجتمعوا من كل محلة وقصدوا دار الآشتياني واجتمع من طبقات الناس خلق كثير فملئت الشوارع والاسواق ورفعوا اصواتهم بالبكاء والنحيب مستنكرين ذلك أشد الانكار وكان الأمر كذلك الى قريب من الظهر فبينما هم كذلك اذ بأفواج النساء صارخات باكيات يهرعن الى الأسواق فكلما رأين دكاناً مفتوحاً امرن بسده فعطلت الأسواق وملئت الشوارع والسكك من الرجال والنساء فجعلوا يسبون اصحاب الامتياز وكل من ينصرهم ويعينهم وتارة يصرحون باسماء الوزراء الكبار بحيث خاف أركان الدولة على أنفسهم فسدوا ابواب شمس العمارة ونصبوا المدافع على سطوحها وأمروا الجيوش باطلاق نيران بنادقهم فخالف الجيوش أوامر الضباط وكانوا يبكون لبكاء النساء وعلت اصوات البكاء من حرم السلطان وجواريها وكن يشتمن الوزراء الذين تعهدوا ببقاء الامتياز وهتفن بالسب الشنيع والشتم الفظيع فارسل السلطان نائب السلطنة ليسكت الناس فلما صادف الناس صاحوا في وجهه وضربوه ضرباً مبرحاً فاطلق بعض حواشي السلطان بندقية فقتل نفراً

من الرجال فكثر الضجيج فسكتهم الآشتياني وقال السلطان استدعى مني أن لا أخرج من دار الخلافة فامضوا إلى مساكنكم فهدأت فورة الناس فدخل عضد الدولة الآشتياني بعد تفرق الناس مع جماعة من وجوه حواشي الدولة واعتذر منه بكل لسان وقال له رفعنا الامتياز عن الخارجية فضلا عن الداخلية وقطعنا ايدي الأجانب بالكلية من ايران فنرجو من فضلكم الآن أن تبرقوا الى سامراء وتشرحوا للامام الشيرازي حقيقة الأمـــر ليصدر فتواه بجواز استعمال الدخان فاجابه الآشتياني لذلك فابرق برقية مفادها ان امتياز الدخانية رفع بيمن بركاتكم ومساعيكم الجميلة من داخل ايران وخارجها وبطلت المعاملة الجائرة وعاد الأمر كما كان وقطعت ايدي الأجانب من ايران فالناس منتظرون امركم في جواز استعمال الدخان . وبهذا المضمون أرسل سائر العلماء برقيات إلى سامراء فجاء الجواب للآشتياني مفاده ان برقيات العلماء وصلت الي وأنا اشكر مساعيكم واصدق اقوالكم غير اني لا اعتمد على طريق الوصول وهي البرقية فان كتبتم إلي تفصيل ما في البرقيات بقطع يد الأجنبي عن ايران بتاتاً وعود امر الدخانية الى ما كان سابقاً فالترخيص يجيئكم انشاء الله . فكتبوا اليه قدس سره فجاء الجواب بالترخيص فخرج اصحاب الامتياز من ايران راجعين الى اوربا بخفي حنين . وكان يوم وصول الترخيص يوماً مشهوداً وفرح السلطان ناصر الدين شاه فرحاً شديداً وقال ان الميرزا الشيرازي أحيى دولة القاجارية وكان قدره مجهولاً عندنا واليوم عرفنا منزلة هذا الرجل الكبير أدام الله بقاءه . واستنسخوا الف صورة من كتاب الامام الشيرازي وارسلوها إلى سائر بلاد ايران فعاد الأمر كما كان وانتشر الخبر الى سائر آسيا وبلاد اوربا وافريقيا وامريكا ونشر ذلك في الجرائد الخارجية . وأرسل الأمريكان الى سفيرهم في بغداد سائلين عن هذا الرجل الكبير المطاع الديني الذي قام في قبال اربع دول ونال مرامه وغلب عليهم وأمر الروس سفيرهم في بغداد بمسافرته الى سر مــن رأى ليظهر اخلاصه فامتثل وكان الأجانب من كل جانب يسألون حاله قدس سره حتى خيف عليه

من اليد العادية ولكن يد الله فوق أيديهم ؛ وكتب السلطان ناصر الدين شاه عريضة مفصلة بديعة ، أظهر فيها اخلاصه الصميم . وكذا الوزراء والحكام ؛ حتى اشتهر — قدس سره — بآية الله المجدّد ؛ لأنه جدد الدولة والمنة ..[١—٢] .

العراق قديماً وحديثاً [٣]

قضاء سامراء

سامراء من المدن الواغلة في القدم والعمران ، فهناك من يقول ان وجودها سبق ظهور الاسلام بزمن بعيد ، إذ دلت بعض الحفريات على أن بعض مواطنها كانت مأهولة منذ زمن ما قبل التاريخ وانها من بعد ان بلغت ابعد شأو في المدينة والحضارة أخذت في الهوي والهبوط شأن كل موجود حتى جاء المعتصم بالله فجدد بناءها سنة ٢٢١ هـ — ٨٣٥ م ومنهم من يرى أنها

---

(١) مآثر الكبراء ج ٢ ص ٦٣ — ٧٨ . (٢) ان الذي عرفناه بالتواتر يغاير الشروح الواردة في (مآثر الكبراء) وان اتفق معها في الجوهر ، فالمعروف هو انه عند صدور امتياز التنباك والتبغ هاج الناس في ايران وماجوا وكتب العلماء بذلك الى الميرزا الشيرازي بسامرا فاستدعى الميرزا الشيرازي عدداً من زراع التنباك وعدداً من تجاره وحتى الذين يتعاطون تجارته في العراق وطلب رأيهم في هذا الامتياز حتى اذا تاكد من فداحة الضرر وخسران هذه الصفقة اصدر فتواه التي كان لها دوي كبير في محافل الشيعة حتى اضطرت الحكومة الايرانية الى الغاء هذا الامتياز ولم يكن هناك شيء يسمى فساداً وافساداً او حمل البنات على السفور والتفرج عليهن من قبل الاوروبيين وكل هذا من الشروح التي مرت كانت من المزيدات على ما علمنا اذ لم يتجاوز امر دراسة الامتياز عند الميرزا الشيرازي الناحية الاقتصادية والتثبيت مما اذا كانت هذه الاتفاقية صالحة ام مجحفة حتى اذا ثبت لدى الميرزا الشيرازي اجحافها بحقوق الشعب افتى بحرمتها واندفع الناس كلهم الى الاضراب عن تدخين التنباك بشكل عجيب لم يسبق له نظير حتى الغي الامتياز ، وكانت بين السياسة الروسية والسياسة الانكليزية منافسة قوية ومع ذلك فلم يكن للسفير الروسي في اصل الفتوى اي اصبع لأنها كانت نتيجة دراسة اقتصادية بحتة تجلت منفعتها بعد ذلك بمدة وجيزة — وقد تركنا المقال المنشور على حاله من حيث الركة والغلط والمبالغات. الخليلي .

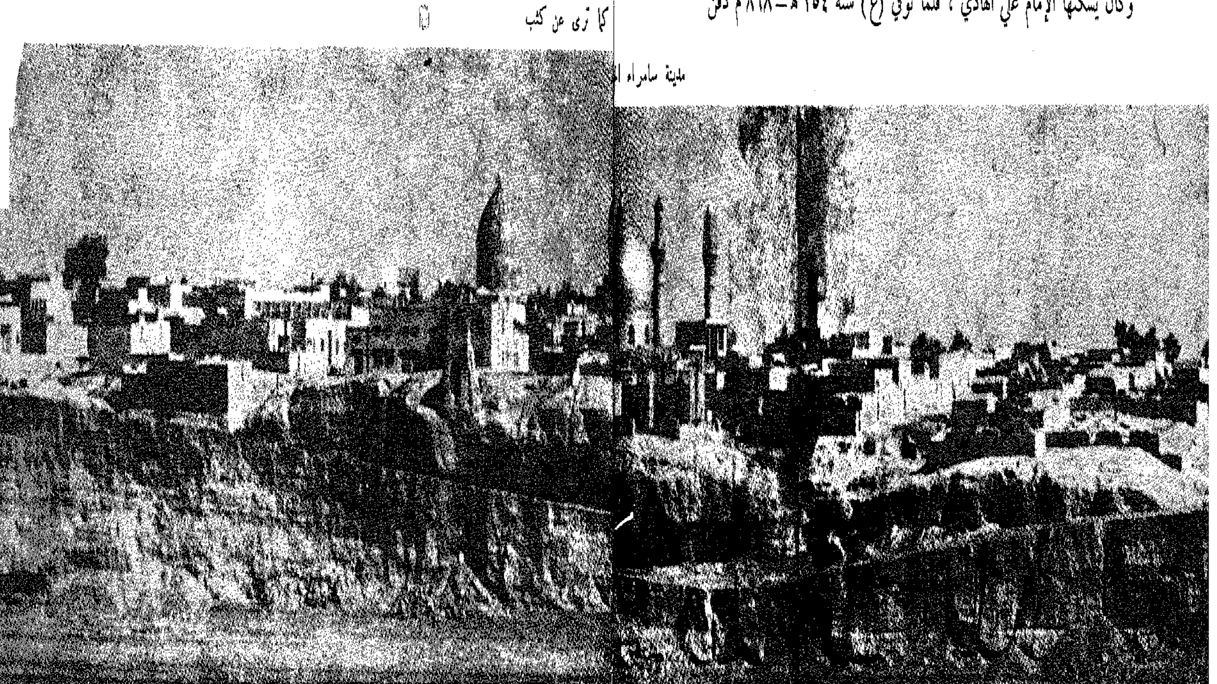
(٣) ملخص من كتاب (العراق قديماً وحديثاً) للسيد عبد الرزاق الحسني ط ٢ ، ص ١٠٩—١١٥

مدينة عباسية بحتة ، اختطها المعتصم بن الرشيد في السنة المذكورة على الجانب الشرقي من دجلة ، وحمل إليها الأغراس المختلفة من سائر أنحاء المملكة الإسلامية ، وزينها بالقصور والبرك والميادين ، ثم جاء بعده بعض الخلفاء العباسيين فأقاموا فيها القصور ، فبنى هارون الواثق بالله القصر المعروف بالهاروني ، وأضاف إليها جعفر المتوكل على الله القصر المسمى بالجعفري ، وشيد المعتمد على الله ابن المتوكل القصر المسمى بالمعشوق ، والمعروف الآن بالعاشق . وكان الناس قد اتسعوا في العمران في زمن المتوكل أكثر مما اتسعوا في بغداد حتى اتصل من «الدور» إلى «بلكوارا» أو «المنقور» كما يعرف الآن ، فلم تزل المدينة في سامراء في تقدم وتوسع حتى غدت أجمل مدن العراق دار متعة وعزة وسطوة للعباسيين أكثر من خمسين عاماً ، ثم قلب لها الدهر ظهر المجن فجعلها خرائب وآكاماً تمتد اليوم على شاطىء دجلة الايسر إلى نحو من ثلاثين كيلو متراً .

أما سامراء الحالية فإنها كانت إحدى المحلات الشهيرة في أيام المعتصم وكان يسكنها الإمام علي الهادي ، فلما توفي (ع) سنة ٢٥٤ هـ – ٨٦٨ م دفن

في بيته ، ولما توفي ابنه الحسن العسكري سنة ٢٦٠ هـ – ٨٧٣ م دفن إلى جوار أبيه فاتخذ شيعتهما مرقديهما مزارين[1] وقد بنوا حولهما العمارات وأنشأوا

(١) أصل الحضرة في سامراء دار ابتاعها علي الهادي ، الإمام العاشر ، من دليل بن يعقوب النصراني (أ) فلما توفي الإمام سنة ٢٥٤ هـ – ٨٦٨ م دفن في داره ولما توفي ولده الحسن العسكري ، الإمام الحادي عشر ، سنة ٢٦٠ هـ – ٨٧٣ م دفن إلى جوار أبيه فكان قبرا الإمامين عليهما السلام نواة حضرتها (ب) فلما كانت أيام ناصر الدولة الحمداني سنة ٣٣٣ هـ – ٩٤٤ م بنى قبة على الضريحين وسورها بسور متين . فلما كانت أيام الدولة البويهية أنفق معز الدولة ، ثالث ملوكهم ، أموالا جزيلة لمواصلة تعمير قبة العسكريين وسرداب الغيبة ، وجعل لضريحيهما صندوقاً من الخشب ورتب لها الحجاب ، وأجرى لهم الأرزاق (ج) فلما انتقل الملك الى ابن اخيه ، عضد الدولة البويهي ، أمر هذا بعمارة الروضة والأروقة ، ووسع الصحن ، وشيد سوراً للبلد الذي اخذ بالاتساع وكان ذلك في عام ٣٦٨ هـ – ٩٧٨ م . وفي سنة ٤٤٤ هـ – ١٠٥٢ م أمر البساسيري بعمارة عالية على قبر الإمامين . وفي سنة ٦٤٠ هـ – ١٢٤٢ م «وقع حريق في مشهد سر من رأى فأتى على ضريحي علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام فتقدم الخليفة المستنصر بالله بعمارة المشهد المقدس والضريحين الشريفين وإعادتها إلى أجمل حالاتها وكان الضريحان مما أمر بعملها ارسلان البساسيري» (د) ، اما العمارة التي تشاهد للعسكريين في سامراء ، اليوم ، فقد شرع في تشييدها احمد خان الدنبلي من =



مدينة سامراء ا[...] كما ترى عن كثب

الدور والمنازل العامة فحافظت على عمرانها ووضعها إلى ما بعد انقراض

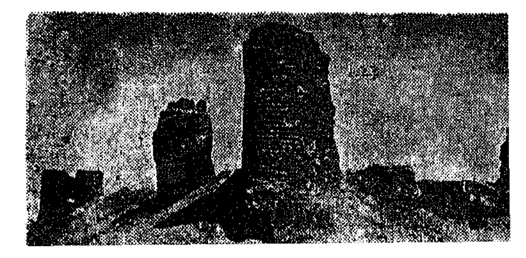
حكام اذربيجان ، في حدود سنة ١٢٠٠ هـ — ١٧٨٥ م وأتمها ولده حسين قلي خان الدنبلي سنة ١٢٢٥ هـ — ١٨١٠م وكان ذلك برعاية المرزة محمد السلماسي فقد انفق الوالد وولده مبالغ طائلة على توسيع الصحن والأروقة ، وابدلا الأخشاب بالأحجار ، وكتبا آياً من الذكر الحكيم في اعلى الجدران كما هو ثابت للعيان ، وفي سنة ١٢٨٥ هـ — ١٨٦٨ م أمر ناصر الدين شاه إيران بتجديد شباك الضريحين ، وغشى القبة بالذهب الابريز ، والمآذن بالقاشاني البديع كما هو مسطور على جوانب القبة الأربعة .

وصحن سامراء عبارة عن ثلاثة صحون يتصل احدها بالآخر ، وصحن الهادي والعسكري ، اكبرها يبلغ طوله ٧٨ متراً و٨٠ سنتمتراً وعرضه ٧٧ متراً وعشرة سنتمترات ، وعدد الإيوانات في كل من ضلعيه الشرقي والغربي ١٨ إيواناً « بما فيها الباب» وعددها في الضلع الجنوبي ستة عشر إيواناً عدا إيوان الباب . ومن هذا الصحن يتشعب مصلى طوله ٤٠,٨٠ متراً وعرضه ٣٨,٥٠ متراً، وهو الصحن الثاني ، أما الصحن الثالث وهو صحن الغيبة ، فطوله ٦٣,٨٠ متراً وعرضه ٦١,٣٠ متراً . وعلى ذكر سرداب الغيبة نقول ان البعض من الكتاب والمؤرخين يسندون الى الشيعة أمراً غريباً هو أنهم يعتقدون بأن المهدي ، الإمام الثانى عشر ، دخل هذا السرداب ومنه سيخرج ، اما الواقع فان الشيعة يعتقدون بغياب الإمام ويعتقدون أنه سيخرج ذات يوم ويملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جوراً . ولا يعينون موضع خروجه

وفي سرداب الغيبة باب خشبي جميل باق من عهد الخليفة العباسي « الناصر لدين الله » وهو مكون من أقسام مشبكة ومزخرف بنقوش وكتابات بديعة تدل على دقة عظيمة في صنعة النجارة ، ورقة متناهية في الذوق الفني ، وهذا هو نص هذه الكتابة نقلا عن رسالة « بـــاب الغيبة » لمديرية الآثار القديمة في العراق الصادرة سنة ١٩٣٨ » ص ٦/٧ .

« بسم الله الرحمن الرحيم قل لا أسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الانام ابو العباس الناصر لدين امير المؤمنين وخليفة رب العالمين الذي طبق البلاد احسانـــه وعدله وغمر العباد بره وفضله قرن الله اوامره الشريفة باستمرار النجح واليسر ، وناطها بالتأييد والنصر وجعل لأيامه المخلدة حداً لا يكبو سواده ولآرائه الممجدة سعداً لا يخبو زناده في عز تخضع له الأقدار فتطيعه عواصيها وملك تخشع له الملوك فتملكه نواصيها ، يتولى المملوك معد بن الحسين بن سعد الموسوي الذي يرجو الحياة في ايامه المخلدة ويتمنى إنفاق طيلة عمره في الدعاء لدولته المؤيدة—

جانب من بقايا اطلال قصر المعشوق



الدولة العباسية ، فلما شرع في التنظيمات الإدارية في العراق على عهد الوالي مدحت باشا عنيت بها الحكومة فجعلتها مركز قضاء ، وهي اليوم على مسافة ١٢٨ كيلو متراً من شمالي بغداد ، أكثر بيوتها مبني بالآجر المنتزع من سامراء القديمة ؛ وجل سكانها من العشائر المحيطة بها وهم ، أو أكثرهم ، يدعون السيادة وانهم من نسل الإمامين العسكريين عليهما السلام وكان هؤلاء يعيشون على زوار العتبات المقدسة من الايرانيين والهنود والافغان ، فلما وقف سيل هؤلاء أو كاد ، انصرف الأهلون إلى الارض يحرثونها ويزرعونها ليعيشوا على غلالها ويتجروا بخيراتها ، وقد أدى هذا التحول الاقتصادي إلى ارتفاع مستوى المعيشة فيها فصاروا يأخذون مياه شربهم من الحنفيات بعد أن كانوا يستقونها من النهر على يد السقائين ، وأخذوا يستنيرون بالكهرباء بعد أن كانوا يتخذون الزيوت للإنارة ، وانتشرت في أرجائها الحدائق العامة والخاصة بعد أن كانت بلقعاً ، أما جوها فإنه لم يزل لطيفاً كما ان نسيمها لم يزل نقياً عليلاً ، وقد نصب لها جسر من زوارق حديدية فسهل لها المواصلات بعد أن كان الناس يعبرون النهر بالزوارق الخشبية ، ومما زاد في أهميتها مرور « قطار الشرق السريع » بها وتدل سجلات النفوس على ان نفوس قضاء سامراء بلغت في نهاية سنة ١٩٤٧ (٦٤٩٠٤) نسمات عدا الأجانب .

وقد قامت مديرية الآثار القديمة سنة ١٩٤٠م بترميم بعض هذه الآثار وفتحت متحفاً في (سامراء) وضعت فيه مخططات ومصورات مهمة عن آثارها وجمعت جزءاً مما عثرت عليه من زخارف جصية وجبسية جميلة وآثار

= استجاب الله ادعيته وبلغه في ايامه الشريفة امنيته ذلك في ربيع الثاني من سنة ست وستمائة هلالية وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين وعترته وسلم تسليما »
(الحسني)

(أ) تاريخ بغداد للخطيب ١٢/٥٧ في ترجمة الإمام علي الهادي (ع) . (ب) تاريخ سامراء للشيخ ذبيح الله ص ٢٣٩ . (ج) وشايح السراء في شأن سامراء للسماوي ص ٢٩ . (د) الحوادث الجامعة للفوطي ص ١٥٢ . الحسني

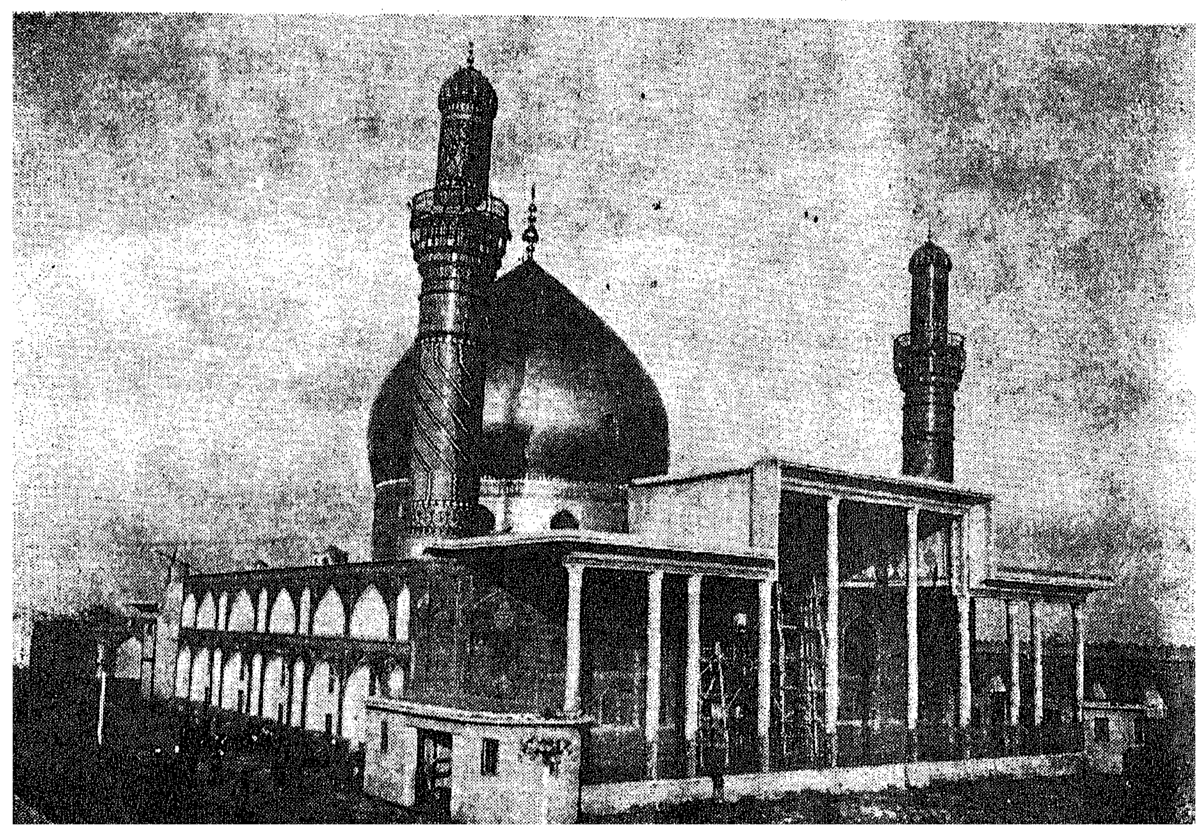
زجاجية وفخارية من الفسيفساء[١] والآجر المزجج على اشكال زهرية او على هيأة الكاشي المعرق .

وكان يحيط بسامراء – الحالية – سور ضخم يبلغ طول محيطه كيلومترين ولا يتجاوز قطره الأعظم ٦٨٠ متراً ، عمّره في حدود سنة ١٢٥٠ هـ – ١٨٣٤ م زين الدين السلماسي وقد انفق على تعميره احد ملوك الهند كما جاء في « شرح الطرّة[٢] » ولهذا السور اربعة ابواب باب القاطول وباب الناصرية

---

(١) جاء في القاموس المحيط ٢ – ٢٣٥ من طبعة بولاق سنة ١٣٠١ هـ : الفسيفساء الوان من الخرز تركب في حيطان البيوت من داخل . (٢) في كتاب « قصص العلماء » المطبوع باللغة الفارسية في إيران ان السيد ابراهيم بن السيد محمد باقر الموسوي الحائري هو الذي سعى واهتم في بناء هذاالسور (الحسني)

مرقد الامامين علي الهادي والحسن العسكري (ع) معكوس من الزاوية الجنوبية الغربية



وباب بغداد وباب الملطوش ، وقد هدمت مديرية الآثار العامة الباب الغربي – اي باب القاطول – في عام ١٩٣٦ م . وبنت الحكومة منه صرحاً لها وداراً للبلدية ومستشفى للأهلين ومدرسة للبنين ونادياً للموظفين ودائرة للبرق والبريد . وهدمت الباب الجنوبي – اي باب الناصرية – فبنت خارجه مسلخاً ومذبحة . وحولت الباب الشرقي – اي باب بغداد – إلى متحف محلي تعرض فيه نماذج الآثار المنتزعة او المستخرجة من الحفريات التي تقوم بها المديرية المذكورة .

وفي مدخل سامرا يقع مشروع الثرثار الذي يقي بغداد من الغرق وهو مؤلف من قسمين هما : ١ – القناة التي تصل دجلة بمنخفض وادي الثرثار ويبلغ طولها ٦٢ كيلو متراًو (٢) سدة على نهر دجلة مقابل مدينة سامراء لحجز المياه الفائضة وتحويلها إلى القناة . وتتكون هذه السدة من سبع عشرة فتحة عرض كل منها (١٢) متراً ترفع بالقوة الكهربائية وبالعتلات التي تدار باليد إذا انقطع تيار الكهرباء . أما طول السدة فهو (٤٤٩) متراً . ويتضمن المشروع أيضاً ناظم من ست وثلاثين فتحة عرض كل منها ١٢ متراً مجهزة بأبواب من الحديد لإمرار تسعة آلاف متر مكعب من الماء في الثانية ، كما يتضمن بناء اسس لتوليد القوة الكهربية تقدر طاقتها الانتاجية بمئة واثني عشر الف كيلوواط وقد بلغت نفقات حفر القناة وإنشاء السدة حوالي ستة عشر مليون دينار وبوشر فيه سنة ١٩٥٢ م فتم افتتاحه في الثاني من نيسان عام ١٩٥٦ م وهو من مشاريع مجلس الإعمار المدعمة بواردات العراق من النفط .

سامراء في الموسوعات والمراجع العامة

وفيات الأعيان

ولما كثرت السعاية في حقه (ــ علي الهادي) عند المتوكل أحضره من المدينة . وكان مولده بها . وأقره بسر من رأى ، وهي تدعى بالعسكر ؛ لأن المعتصم لما بناها ــ انتقل اليها بعسكره ، فقيل لها العسكر .

ولهذا ؛ قيل لأبي الحسن (علي الهادى) المذكور : العسكري ؛ لأنه منسوب إليها ، وأقام بها عشرين سنة ، وتسعة أشهر .

وتوفي بها ، يوم الاثنين ، لخمس بقين من جمادي الآخرة ... سنة اربع وخمسين ومائتين ، ودفن في داره ...[1]

أخبار الدول وآثار الأول

سامرّا (سرّ من رأى)

مدينة عظيمة ، كانت على شرقي دجلة ، بين تكريت وبغداد . بناها المعتصم سنة احدى وعشرين ومايتين . وسكن بها جنوده ، حتى صارت اعظم

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٥ ، ولاحظ ج ١ ص ٣٧٣ ؛ في ترجمة « الحسن العسكري »

بلاد الله . وهي – اليوم – خراب ، وبها اناس قلايل كالقرية [1] .

أحسن الوديعة

سامراء .. وهي بليدة .. ومن بغداد اليها مدت الحكومة الألمانية – بعد أخذ الامتياز من حكومة تركيا – السكة الحديدية المعروفة بالقطار ، وذلك بعد سنة ١٣٢٧ .

وسامراء بلدة عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الداء ...

وهذه البقعة الطاهرة .. هي مزار المسلمين عموماً ، والشيعة خصوصاً . وأمر هذه البلدة كانت في الشدة والضعف ، حتى جاء العلامة الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي ، فسكن بها ، وجعلها – كما كانت – مركزاً علمياً لأصحابنا ، ورحلت إليه طلابنا وأصحابنا ، من البلاد ؛ للتلمذ عليه . فعمر مدرسة كبيرة باقية حتى الآن وحمامين .

واليوم فيها جماعة كثيرة من فضلاء الشيعة ، وأخيارهم ، وعوامهم . وبالجملة ، فسامراء من مراكز العلم قديماً وحديثاً [2] ...

أعيان الشيعة

سامراء ، يقال سر من رأى . ولعل سامراء مخفف منها . بناها المعتصم سنة ٢٢١ ، وسكنها بجنوده ، لما ضاقت بهم بغداد . فصارت مدينة عظيمة .

ولم تزل في تناقص ، حتى قرية ، وكثرت فيها الشيعة ، لما توطنها الإمام الميرزا الشيرازي ؛ السيد محمد حسن . وصارت إليها الرحلة من الآفاق . وكانت فيها في عصره مدرسة عظمى للشيعة في العلوم الدينية . وبعد وفاته

---

(١) اخبار الدول وآثار الاول ، للقرماني ، طبعة بغداد سنة ١٢٨٢ هـ ، ص ٤٥٤ . (٢) أحسن الوديعة ج ٢ ص ٢٢١ – ٢٢٣ .

سنة ١٣١٢ ؛ تناقص عدد الشيعة فيها ، وعادت إلى شبه حالها الاول .

واليوم ؛ فيها جماعة من العلماء والطلاب [١] .

تاريخ الشيعة

سامراء ، اسسها المعتصم عام ٣٢٠ (كذا) ، وجعلها عاصمة ملكه . وانتقل اليها بحاشيته وجيشه . وانت جد خبير بأن التشيع يسير مع الاسلام اينما سار . فكم كان بين الجند ، والقواد ، والامراء ، والكتاب ، من يحمل بين حنايا ضلوعه ولاء اهل البيت عليهم السلام .

وظهر التشيع جلياً بعد ان قام الامامان فيها . وشاهد الناس ما لهما من علم وسجايا حميدة ، ومزايا دلت على انهما فرعان من شجرة النبوة ، ووارثان لذلك العلم الالهي ؛ على الرغم من مناوأة العباسيين لهما ، واجتهادهم في منع الناس من الاجتماع بهما ، واجتماعهما بالناس . ولكن الشمس تفيض على العالم اشعة تنمي الضرع والزرع ، وان حالت السحب دون ذلك الشعاع .

ويشهد لظهور التشيع في سامراء ــ ذلك اليوم ــ ما ذكره اليعقوبي في تاريخه (٣ : ٢٢٥) عن حوادث عام ٢٥٤ ، ووفاة الهادي (ع) تاريخه (٣ : ٢٢٥) فيها ، قال : « فصلي عليه في الشارع المعروف بشارع ابي حمد . فلما كثر الناس ، واجتمعوا ؛ كثر بكاؤهم وضجتهم ، فرد النعش إلى داره ، فدفن فيهــا » .

وهكذا ، ذكر غيره عند وفاة ولده أبي محمد الحسن ــ عليه السلام ــ .

وما زال التشيع فيها راسخ القدم . إلى ان حاربه الأيوبي في تلك الجهات ، واقتفى أثره بعد أمد بعيد ــ السلطان سليم العثماني ــ وجرت على ذلك السياسة العثمانية من بعده .

---

(١) اعيان الشيعة ج ١ ق ٢ ص ٣٦٧ .

ولو لم يكن الا ّ مراد الرابع محارباً للشيعة في هذه المناطق البعيدة عن المجتمع الشيعي لكفى في اخفاء التشيع ، وهرب الظاهرين من رجاله . ولقد نزح عنها ثلة من الناس هرباً بأرواحهم . وكان منهم سدنة ذلك الحرم المقدس .

ولما قطن فيها زعيم اهل الدين – في عصره – السيد ميرزا حسن الشيرازي ! استعاد التشيع فيها نشاطه ، وهاجر إليها كثير من ابناء العلم وارباب المكاسب . وحينما تضاءل – قبل هذا – التشيع زمناً طويلاً ّ كان آخذاً بحظ وافر في قبائلها الجنوبية القاطنة على ضفتي دجلة ، وفي القرى ، والرساتيق الشرقية الجنوبية التي بينها وبين بغداد .

وما زالت – بعد ارتحال السيد الشيرازي (عليه الرحمة) مهبطاً لبعض أهل العلم .

ولم تخل – في عهد من عهودها إلى اليوم ، من رجال ، لهم قيمتهم العلمية والاجتماعية .

ويسكنها – اليوم – جماعة من الشيعة ، من أهل الحرف والعمل .

وسامراء ، من البلاد المقدسة ، التي يؤمها الشيعة لزيارة الامامين الهادي ، وابنه الحسن العسكري عليهما السلام [١] .

---

(١) تاريخ الشيعة ؛ لمحمد حسين المظفري ص ١٠١ – ١٠٣ .

سامراء في الأدلة والجغرافيا

الدليل العراقي الرسمي[1]
لسنة ١٩٣٦

أطلال سامراء

تقع أطلال سامراء المندرسة ، بجوار مدينة سامراء الحديثة . تحتوي هذه الأطلال على آثار عربية مهمة تدل معالمها على ما كانت عليه هذه المدينة من العز ، والمنعة ، ففيها أنقاض السجن ، والكمرك ؛ الذي بناه المتوكل على الله ، والذي يسمى بالعاشق ، وهما مقابلان لسامراء الحالية ، وسور (و) منارة الجامع الكبير الذي بناه المستنصر بالله . وتعرف هذه المنارة بالملوية ... الخ[2] .

دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق

سامراء اليوم

على نحو ١٢٠ كيلو متراً من شمال بغداد ، على ضفة دجلة الشرقية ،

---

(١) وتراجع دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ، ص ٨٦٩ – ٨٧٢ وما فيه منقول من كتاب السيد عبد الرزاق الحسني « العراق قديماً وحديثاً » الطبعة الثانية ص ١٠٩ – ١١٥ . كما سيأتي . (٢) الدليل العراقي الرسمي ص ٦٦٣ – ٦٦٤ .

تقوم بلدة سامراء الحديثة ، فوق جزء ضئيل من اطلال عاصمة بني العباس القديمة ، الممتدة اطلالها مسافة طويلة الى شمالها وجنوبها وشرقها .

وهي — اليوم — مركز قضاء واسع ، من أقضية لواء بغداد .

كان يحيط بهذه البلدة ، إلى ما قبل عشر سنوات سور ضخم ، يبلغ طول محيطه نحو كيلو مترين . شيد منذ نيف ومائة سنة ؛ لصد غارات البدو عنها . وكان له أربعة ابواب ؛ هي : باب القاطول في الغرب ، وباب الناصرية في الشمال ، وباب الملطوش في الجنوب ، وباب بغداد في الشرق .

وقد هدم الآن معظم هذا السور توسيعاً للبلدة التي أخذت تمتد فيها وراءه .

الروضة العسكرية وسرداب الغيبة

وفي قلب مدينة سامراء الحديثة ؛ الروضة العسكرية حيث ضريح الامام علي الهادي (ع) ، والحسن العسكري (ع) . وعليه قبة طليت بالذهب سنة ١٢٨٥ ه .

وكان الامام علي الهادي يسكن سامراء في أيام المعتصم بالله . فلما توفي سنة ٢٥٤ ه ، دفن في وسط داره ، ولما توفي الامام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ ه ، دفن بجنبه .

وفي جانب الضريح ، الجامع . وتعلو بنايته قبة يزينها كل شيء ملون مزخرف . وتحت الجامع سرداب غيبة الامام الثاني عشر ؛ محمد بن الحسن العسكري . وهو السرداب المعروف باسم « غيبة المهدي » . وفيه باب خشبي جميل ، عمل سنة ٦٠٦ ه ١٢٠٩ م ، بأمر الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله : تزينه كتابة نسخية جميلة ، تبرز على ارضية مزخرفة . .

ويزين جدران السرداب كاشي ملون ومزخرف . ويمتد — على طول الجدران الثلاثة — نطاق من الخشب ، طوله ٤٫٨٠ م : فيه كتابة كوفية

بارزة هذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم » — محمد رسول الله ، أمـير المؤمنين علي بن ابي طالب ، الحسن بن علي ، الحسين بن علي ، (علي بن الحسين) ، محمد بن علي ، جعفر بن محمد ، موسى بن جعفر : علي بن موسى ، محمد بن علي ، علي بن محمد، الحسن بن علي ، القائم بالحق — عليهم السلام — . هذا عمل علي بن محمد و بن آل محمد رحمه الله »[١] .

الدليل العام لتسجيل النفوس العام

لسنة ١٩٥٧

العشائر المتوطنة

اسم العشيرة	السكان بموجب ارقام الإدارة المحلية لسنة٥٦	مركز العشيرة أو موطنها وسعة المنطقة بالدونم أو الكيلومتر
البوعباس	٧٠٠٠	يسكنون معيجل ، والعلفة ، وداود الجزيرة .
البودراج	١٢٠٠	يسكنون في العاشك ، والطونيـة ، والجزيرة .
البونيسان	١٢٥٠	في الديوانية الحريجية ، والجزيرة .
البوباقر	٥٠٠	يسكنون ام الطلائب .
البوعيسى	٦٠٠٠	يسكنون مكيشيفة ، والجزيرة .
الدوريين	٤٠٠	يسكنون في الزلابية ، والجزيرة .
العبيد	٢٦٥٠	طعس الدابة وسعتها (٤٠٠كم^2) ، والحدادية وسعتها (١٥٠ كم^2) ، ويسكنون الباصوني وعتبة الامام —

(١) دليل تاريخي ص ٤١ — ٤٢ .

		والصراة ، والدعالج وسعتها (٣٠٠كم٢) ومطيبيجة وسعتها (٤٠٠كم٢) ، والخرابة وسعتها (١٥٠كم٢) ، وعجل وسعتها (٤٥٠كم٢) .
البوصكر	١٠٦	
الصايح	٩٥٥٥	يسكنون ابوفسيلة وسعتها (٤٠٠كم٢) والصراة وسعتها (٤٠٠ كم٢) ، والخاتونية وسعتها (٦٠كم٢) ، ومليحات وسعتها (١٦٠كم٢) وسديدة سعتها (٤٠٠ كم٢) ، والاغير وسعتها (٧٥٠ كم٢) ، والمناهلة وسعتها (٣٠٠ كم٢) ، والحبايش وسعتها (٣٠٠كم٢) ، وابو حواي وسعتها(٤٥٠ كم٢) والزلزلية وسعتها (١٠٠ كم٢) ، والفرحيات وسعتها (٦٥٠كم٢) والبعجي وسعتها (١٥٠ كم٢) ، وصعيد ، وسعتها (١٠٠كم٢) .
السادة	٥٠	الجلوب وسعتها (١٠٠ كم٢) ، والخاتونية سعتها (٦٠ كم٢) ، ومليحات وسعتها (١٦٠ كم٢) ،
العزة	٩٧٠	ام البلبل وسعتها (٤٠٠كم٢) ، وحاوي المتية وسعتها (٥٠٠ كم٢) ، وحاوي الحمود وسعتها (١٥٠ كم٢) ، وقلعة الرمل(١٠٠كم٢)

ومجموع العشائر المتوطنة (١١) عشيرة .

ومجموع نفوس العشائر المتوطنة في سنة ١٩٥٦ (٣٠,٠٧٥) .

مجموع نفوس العشائر المتوطنة تخميناً في ايلول سنة ١٩٥٧ ، بعد اجراء التعديل اللازم (١٨,٦٩٥) [١] .

الأحياء :

محلة العابد ، محلة البوجول ، محلة البوبدري ، محلة البونيسان ، المحلة الغربية ، محلة القاطول ، محلة القلعة ، المحلة الشرقية [٢] .

الدليل الجغرافي العراقي

سامراء

وفيها اطلال مدينة (سر من رأى) العباسية . اسست في زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) لجعلها عاصمة له ، ثم اوصلها الى أقصى اتساعها المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧) هـ .

ومن اهم آثارها : بقايا دار الخليفة ، والمنارة الملوية ؛ التي انشئت مع المسجد الجامع الكبير — على عهد المتوكل .

وفي مدينة سامراء الحالية ؛ ضريحا الامام علي الهادي ، وولده حسن العسكري — ع — كانت وفاة الاول في سنة ٢٥٤ هـ ، والثاني في سنة ٢٦٠ هـ [٣] .

الأماكن المقدسة في العراق

اسس سامراء الخليفة المعتصم بالله ، سنة ٢٢١ هجرية (٧٣٦ ميلادية) .

---

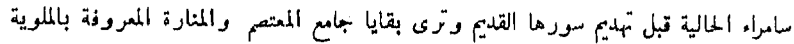
(١) الدليل العام لتسجيل النفوس العام لسنة ١٩٥٧ ، ص ٣١٣ – ٣١٤ . (٢)المرجع المذكور ص ٤٩٥ – ٤٩٦ . (٣) الدليل الجغرافي ص ٥٤ .

وسكنها خلفه حتى سنة ٢٧٩ هجرية (٧٩٢ ميلادية) وفيها ؛ مسجد مشهود ؛ يرجع الفضل في بنائه إلى ثلاثة من أئمة المسلمين الامام العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر . فالعاشر الامام علي العسكري ، والحادي عشر الامام حسن بن علي العسكري . دفنا في ضريح تعلوه قبة محلاة بالذهب ؛ بأمر شاه العجم ؛ ناصر الدين شاه . وفي حجرة صغيرة مبنية تحت الأرض ، غاب الامام المهدي ، الامام الثاني عشر ، المعروف عنه ان جثته قد اختفت من الضريح سنة ٢٦٤ هجرية (سنة ٨٧٨ ميلادية) .

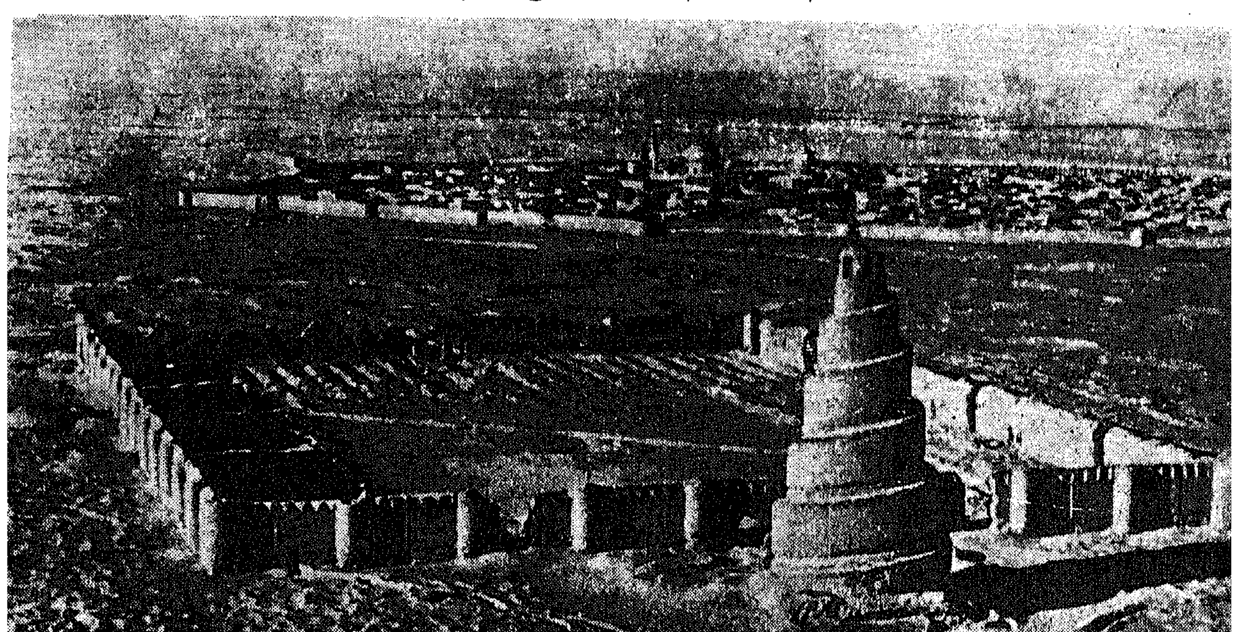
ولما آلت مدينة الخلفاء إلى الخراب ، وأخذت معالمها في الاندثار ؛ استوطن بعض الناس الأماكن المحيطة بالمسجد ، بعد رجوع الخلفاء إلى بغداد وأصبح — بعدئذ — مكاناً شهيراً عند الشيعيين يؤمونه للزيارة . وقد احيطت بلدة سامراء في العهد الحديث بسور من الآجر لصيانتها [١] ..

---

(١) الأماكن المقدسة في العراق ، طبعة البصرة في ايام الحرب ص ٢٨ — ٣٠ .



سامراء الحالية قبل تهديم سورها القديم وترى بقايا جامع المعتصم والمنارة المعروفة بالملوية



جغرافية العراق

سامراء :

تقع سامراء على ضفة دجلة اليسرى بعيدة عن الساحل ، وهي مركز القضاء التابع الى لواء بغداد .

والقصبة مبنية على ارض خصبة رملية . ويحيط بها سور من الآجر . وفيها ، مرقد الإمامين علي الهادي ، والحسن العسكري ؛ في صحن كبير ، واقع في وسط القصبة . ويؤمها الزوار من كل حدب وصوب ، للزيارة والتبرك .

وتقع مزارع القصبة وبساتينها على الضفة المقابلة ، نظراً إلى خصب التربة هناك .

وقد كثرت فيها في الآونة الاخيرة المضخات ، لضخ المـاء من نهر دجلة . وفي شمالي القصبة اطلال قصر الخليفة ، وهي من أجل الآثار العباسية الباقية شأناً .

والبناء يدل على تقدم فن الريازة في عهد العباسيين [١] .

سامراء في الرحلات

رحلة ابن جبير

ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر (سنة ٥٨٠ هـ) على شط دجلة ، بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق ، ويقال انه (كان) متفرجاً لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه — رحمه الله — .

وعلى قبالة هذا الموضع ، في الشط الشرقي ؛ مدينة سر من رأى . وهي

---

(١) جغرافية العراق ، لطه الهاشمي ص ١٢٣ .

ـ اليوم ـ عبرة من رأى اين معتصمها ؟ وواثقها ؟ ومتوكلها .؟

مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها ، الا بعض جهات منها ، هي ـ اليوم ـ معمورة .

وقد أطنب المسعودي ـ رحمه الله ـ في وصفها ، ووصف طيب هوائها ، ورائق حسنها . وهي كما وصف ، وإن لم يبق إلاّ الأثر من محاسنها ، والله وارث الأرض ومن عليها ، لا إله غيره . فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين [١] .

*

الاشارات الى معرفة الزيارات

مدينة سامراء ، وقيل ؛ سر من رأى ، بها الامام علي بن محمد الهادي ، ولد بالمدينة ، عاش خمس (كذا) وسبعين سنة .

وبها الامام الحسن بن علي العسكري (رضه) .

وبها الامام الحجة ، محمد بن الحسن المنتظر (رضه) ؛ مولده سر من رأى ، عمره سبحان عالم الغيب والشهادة ، قبره ؛ الله يقضي حيث يشاء . الخ ... [٢] .

رحلة ابن بطوطة

ثم رحلنا ، فنزلنا موضعا ـ على شط دجلة ، بالقرب من حصن يسمى « المعشوق » . وهو مبني على الدجلة .

وفي الشرقية ـ من هذا الحصن ـ مدينة سر من رأى ، وتسمى ـ أيضاً ـ

---

(١) رحلة ابن جبير ـ طبعة اوربا ـ ص ٢٣٢ . (٢) الاشارات الى معرفة الزيارات ص ٧٢ ـ ٧٣ .

سامرا . ويقال لها « سام راه » ومعناه بالفارسية ؛ طريق سام . وراه هو الطريق .

وقد استولى الخراب على هذه المدينة ؛ فلم يبق منها إلاّ القليل ، وهي معتدلة الهواء ، رائعة الحسن ؛ على بلائها ، ودروس معالمها .

وفيها — أيضاً — مشهد صاحب الزمان — كما بالحلة[١] —[٢] .

نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس

ثم سرنا من بغداد إلى سامرا ... لزيارة الإمام علي الهادي ، والامـــام حسن العسكري ، فزرناهما — رضي الله عنهما —[٣] وفزنا بالقبول ، وبلوغ المأمول ، وأقمنا بها ثلاثة أيام ، ورجعنا إلى بغداد دار السلام ..

مدينة سامرا ؛ على طرف شرقي دجلة . وهي بين بغداد وتكريت . بناها المعتصم بالله العباسي ؛ سنة ٢٢١ عندما ضاقت بغداد بعبيده الأتراك . وأنشأ بها جامعاً ، وعدة دور جليلة ، قيل انه انفق على بنائها خمسمائة الف الف دينار . وبنى بها المنارة[٤] التي كانت من احدى العجائب . وبنى بهـــا قصوراً على شاطيء الدجلة .

وبها نهران يشقان شوارعها ، ويشقان الجامع الذي بها .

وفي الجامع ؛ سرداب قد ثبت — عند الشيعة الامامية — ان المهدي ؛ محمد بن الحسن العسكري — وهو صاحب الأمر المنتظر — قد غاب فيه الغيبة الكبرى[٥] ايام المتوكل العباسي[٦] .

---

(١) قال ابن بطوطة في ج ١ ص ١٣٨ « وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة الحلة مسجد على بابه ستر حرير مسدول ، وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان » . (٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٤٧ . (٣) كذا — وهذا من تغيير الطابع . لأن المؤلف من اهل الصلاة والتسليم . (٤) اي الملوية . (٥) سنة ٣٢٩ هـ . (٦) نزهة الجليس ج ١ ص ١١٩ .

رحلة المنشىء البغدادي

سامرا ؛ من الدور إليها ثمانية فراسخ . طيبة الهواء كثيراً ، وفيها نحو ألفي بيت .

ومن المزارات فيها مزار الامام علي النقي ، والامام حسن العسكري (ع) ، ومحل غيبة الامام محمد المهدي .

وفي كل سنة يبلغ زوار الشيعة — من العرب والعجم — نحو ثلاثين ألفاً ؛ يأتون إلى هذه المشاهد للزيارة .

ويقال لسامراء (العسكر) ، طولها وعرضها ثلاثة فراسخ . وهي تقع على ساحل دجلة .

وهي من بناء الخلفاء العباسيين ، وأكثر بيوتها إلى الآن ظاهرة . ولها مسجد كبير من بناء الخلفاء . والمنارة فيها ويقال لها (الملوية) ؛ وهي لا تزال قائمة ويصعد عليها من الخارج بالتواء ، بخلاف سائر المنائر ؛ فان طريق الصعود إليها من سلم في الداخل .

وفي سامرا البطيخ الأحمر كثير الجودة ، وليس فيها ولا في (الدور) ، وتكريت بساتين من جهة ان أرض تلك الأنحاء كلسية (جص) [1] .

رحلات عبد الوهاب عزام

يوم سامراء ..

يوم السبت ، السابع والعشرين من رمضان (١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) كان يوماً أغرّ بين أيّام رحلتنا . كان أغرّ وإن كره الساخطون ، الذين سموه اليوم العصيب ، وسموا سامرا « غم من رأى » بدل « سر من رأى » . أليس

(١) رحلة المنشىء البغدادي ص ٨٨ .

يوم سامرا أبقى الأيام في نفوسهم أثراً ، وأعظمها وقعاً ؟ .

بدأنا رحلة سامرا بأغلاط ؛ غلطنا في تقدير الطريق طانين أنه ساعتان أو ثلاث . وغلطنا في اختيار المطايا . فأخذنا سيارات من بغداد صغيرة مكان سيارات حيفا القوية ، ثم أضاع سائقو السيارات ٤٥ دقيقة في التزود من البنزين .

خرجنا من بغداد ، والساعة احدى عشرة وخمس وأربعون . وواصلنا السير مسرعين ما أسمحت السيارات ، متعجلين حين تقف . وكثيراً ما وقفتها العلل . فواعدنا قنطرة المستنصر ، فاجتمعنا عندها . وهي قنطرة عظيمة من الآجر ، ذات ثلاث عيون ، بناها المستنصربالله على نهر دجيل ، ولا تزال قائمة متينة . وقد كتب عليها بخط واضح آيات من القرآن ، واسم الخليفة وابيه وجده والثناء عليهم الخ .

وقد نسخنا ما كتب عليها إلاّ كلمات قليلة محاها الزمان . وتاريخ بناء القنطرة تسع وعشرون وستمائة .

تركنا القنطرة نحمد هذا الخليفة العظيم ، باني المستنصرية وغيرها من الآثار الناطقة بهمته وحسن سياسته .

تركنا القنطرة مواصلين السير ، حتى بلغنا شاطيء دجلة ازاء سامرا ، والساعة أربع ونصف . فوجدنا معبراً يسير بسلسلة ممتدة بين الشاطئين . وكان لا بد من نقل السيارات ، وهي سبع لا يمكن نقلها مرة واحدة . فعوّقنا العبور زمناً طويلاً .

سرنا إلى سامرا ؛ فإذا مدينة صغيرة مسورة ، هي سامرا الحديثة . وإذا أطلال سامرا القديمة منثورة في فضاء فسيح يعيا السائر دون نهايته .

وأقرب الأطلال إلى المدينة جامع المعتصم . وهو ؛ واسع المساحة ، عظيم السور ، يذكّر الرائي بجامع ابن طولون . وكأن ابن طولون بنى جامعه على نسقه . وخارج المسجد على مقربة من جداره الشمالي ، منارة عظيمة ، لها

درج من الخارج ، يدور حولها . ويظن ان منارة ابن طولون محاكاة لهذه المنارة ؛ لم تبلغ درجتها من الضخامة والإحكام .

سرنا بين الطلول ؛ نقرأ في سطورها تاريخاً عظيماً دارساً . ورأينا على دجلة مجلساً للمتوكل ، بقي من قصره العظيم .

يدخل الى المجلس المشرف على دجلة ، من رواق عليه قبة تظهر فيها محاكاة ايوان كسرى .

ولا تزال بلاطات المجلس ، والطريق المفضي إلى الباب واضحة المعالم . ورأينا — إلى الشمال — بركة عظيمة جافة . حسبنا أنها البركة التي وصفها البحتري [1] .

عدنا — بعد — إلى سامرا الحديثة ، فاسترحنا قليلاً في دار رئيس البلدية ، وجاءنا هناك القائمقام ؛ أو مأمور المدينة . فذهبنا إلى مشهد سامرا . وهو مسجد على طراز مساجد الكاظمية ، وكربلاء ، والنجف . ولكنه أصغر ، وأقل أبهة .

وتحت قبته مقصورة ، فيها أربعة قبور ؛ للإمام الهادي ، وابنه الحسن العسكري ، والسيدتين سكينة ، وحليمة . ويقال لهما هنا سكينة خاتون ، وحليمة خاتون . وهي كلمة تركيبية مستعملة في العراق ، معناها السيدة . إحداهما ؛ زوج الهادي ، والاخرى ؛ عمته [2] .

كنا أمرنا سائقي السيارات ، أن يعبروا وينتظروا على الشاطيء الآخر . فلما جئنا لزيارة المسجد ، لقيناهم هناك . فقلنا : ما خطبكم ؟ قالوا : لا

---

(١) رجعت الى سامرا بعد ست سنين ، فسرت في اطلالها ما بين جامع المعتصم وجامع المتوكل ، نحو تسعة عشر كيلا ، ورأيت شارعاً سعته نحو مائة متر تتفرع منه شوارع متوازية . ورأيت اسواراً عظيمة لقصور قديمة . ولا ريب ان سامرا على ما أصابها — اعظم ما ترك الخلفاء العباسيون وأبقى آثارهم ، وأدلها على الحضارة ، والبذخ في ايامهم (عزام) . (٢) كذا — وهو من سهو عزام والصحيح ؛ انها : حكيمة بنت الجواد عمة حسن العسكري ، ونرجس زوجه ، ام الامام المهدي .

نستطيع السير ليلاً ، وليس معنا بنزين .

فعرفنا أنها ليلة ليلاء ، وخرجنا — بعد زيارة المسجد — معجلين عن زيارة السرداب ، الذي اختفى فيه الامام محمد المهدي بن الحسن العسكري وهو الامام الثاني عشر صاحب الزمان . وكم أسفنا على أن فاتنا زيارة السرداب ، ونحن بجانبه .. [١]—[٢] .

---

(١) زرت السرداب في سفرتي الثانية الى سامراء وهو في وسط مسجد يهبط اليه درجات . ثم يسار في دهليز يفضي الى حجرتين الأولى مختفى صاحب الزمان ، في نهايتها سياج ، من الخشب ، جميل الصنع . والثانية فارغة (عزام) . (٢) رحلات عبد الوهاب عزام ص ٧٧ — ٨٢ .

سامرا في المراجع الغربية

كتبه وترجمه من مختلف المصادر

جعفر الخياط

الحائز على درجة استاذ علوم M. S. C. من جامعة كليفورنيا
ومدير التعليم الثانوي ، والمفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً
ومدير التعليم المهني العام حالاً



سامراء في المراجع الغربيـــة

تعد سامراء في مقدمة المدن المقدسة في الأسلام ، لأن تربتها الذكية قـــد قبرت فيها رفات الأمامين العسكريين : أبي الحسن علي الهادي وأبي محمد الحسن الخالص الملقب بالعسكري ، ولأن الأمام الحجة المهدي صاحب الزمان قـــد ولد فيها واختفى في بيت من بيوتها مبتعداً عن جور العباسيين واضطهادهم المعروف لآل البيت النبوي الكريم ، الذي أخذ يزداد ويشتد منذ ان تولى المتوكل الخلافة فيها .

الأسم والموقع

وكانت سامراء قد مصّرت في عهد الخليفة المعتصم حينما ضاق سكان بغداد ذرعاً بجنده الأتراك ، وكثر الاصطدام بين الفريقين بحيث ارتأى هذا الخليفة العسكري ان يبتعد بجنده عن بغداد ويشيد عاصمة جديدة له على ضفاف دجلة . فوقع اختياره على بقعة أظهرت التنقيبات الأثرية انها كانت آهلة منذ القدم ، وان حضارتها ترجع الى عصور سحيقة في التاريخ إذ يقول الدكتور سوسه في (ري سامراء في عهد الخلافة العباسية) [1] أنه عثر في أثناء تنقيباتـــه

---

(١) ج ١ ، الص ٥٣ .

وتدقيقاته لآثار سامراء على فخار يعود الى عصر ما قبل التاريخ ، في تل الصوان الواقع على نهر دجلة جنوبي سامراء في جوار منارة القائم . وانه قد اتصل بالبروفسور هرتسفيلد الألماني ، الذي درس آثار سامراء دراسة مستفيضة سنأتي عليها فيما بعد ، وأخبره بذلك فكتب له مؤيداً ما توصل اليه بالأضافة الى قوله ان هذه الآثار هي من بقايا مقابر قديمة ترجع الى عصر ما قبل التاريخ .

ويشير الى هذا: العلامة المستشرق لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) [١] بقوله (في الص ٧٦ من الترجمة العربية) : كانت مدينة سامراء التي اتخذها سبعة من خلفاء بني العباس عاصمةً لهم مدى نصف قرن ونيف ، أي من سنة ٢٢١ الى ٢٧٩ (٨٣٦ – ٨٩٢ م) ، معروفة قبل الفتح العربي ثم بقيت بعد ان تهاوت من ذروة عزها الذي لم يدم طويلاً مدينة ذات شأن ردحاً طويلاً من الزمن . واسمها بالآرامية سامّرا ، فأمر الخليفة المعتصم حين أقام فيها ان تسمى « سر من رأى » . وبهذه الصيغة الأخيرة وجد اسمها في النقود العباسية المضروبة فيها . وكانت التسمية مع ذلك تلفظ بصورة مختلفة ذكر ابن خلكان ستاً ومن اشهرها : « سامراء » ، وهو الاسم الذي اتخذه ياقوت عنواناً لبحثه عن هذه المدينة .

وجاء في تعليق للمترجمين الفاضلين اللذين ترجما لسترنج هذا ان التنقيبات الأثرية في أطلال سامراء قد أثبتت ان موضعها كان آهلاً منذ أدوار ما قبل التاريخ . فقد اكتشف فيها البروفسور هرتسفيلد المنقب الألماني مقبرةً من تلك الأدوار بين بقايا القصر العباسي والسن الصخري الذي بنيت عليه المدينة العباسية على نحو ميل واحد من جنوب دار الخليفة . وعثر فيها على ضرب من الفخار المصبوغ أطلق عليه « فخار سامراء » ، وهو يمثل دوراً من أدوار ما قبل التاريخ

---

(١) Le Strange, Guy — The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge 1930). وقد قام بنقله الى العربية الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس فنشرت الترجمة في ضمن مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٤ (مطبعة الرابطة) .

في العراق سمي بـ « دور حضارة سامراء » نسبة الى الموضع الأثري الذي اكتشف فيه هذا الفخار لأول مرة. كما عثرت مديرية الآثار العراقية القديمة على موضعين آخرين في سامراء يرتقيان الى هذا الزمن ، أحدهما في شمال المقبرة المارة الذكر والآخر في جنوبي سامراء على ضفة دجلة شمال صدر القائم يسمى « تل الصوان » وقد جاء أسم هذا الموضع في الكتابات الآشورية بصورة « سرمارتا » Sur - ur - mar - ta ، وكان لهذا الموطن في أيام الفرس شأن كبير ولا سيما في حروبهم مع الرومان ولقربه من القاطول الكسروي .

اما ما اورده ابن خلكان في أسماء سامراء فهو : « وسر من رأى فيها ست لغات ، حكاها الجوهري في كتاب الصحاح ، في فصل رأى ، وهي (سرمن رأى) بضم السين المهملة وفتحها و (سر من راء) بضم السين وفتحها وتقديم الألف على الهمزة في اللغتين و (ساء من رأى) و (سامراء) . واستعمله البحتري ممدوداً في قوله (ونصبته علماً بسامراء) .

ثم يتابع لسترنج بحثه في هذا الشأن فيقول ان الأرض التي بنى عليها الخليفة المعتصم (وهو اصغر أبناء هارون الرشيد) أول قصر له حين قدم الى سامراء في سنة ٢٢١ (٨٣٦) كانت ديراً للنصارى اشتراه من أصحابه بأربعة الاف دينار (٢٠٠٠ باون استرليني) ، وكانت ارضه تعرف بالطيرهان . ويذكر الشيء نفسه الدكتور دوايت دونا لدسون في كتابه (عقيدة الشيعة) [١] ، ويزيد على ذلك قوله ان اسم سر من رأى أطلقه المعتصم نفسه على عاصمته الجديدة التي اصبحت تسمى « المدينة الثانية لخلفاء بني هاشم » ، وان المسافة ما بين سامرا وبغداد كانت تبلغ حوالي ستين ميلاً (انها اليوم حوالي ١٢٠ ك) ، وان عدد المراحل ما بين سامراء ومكة المكرمة على ما يذكره ابن رسته كان تسعاً وتسعين مرحلة طول كل منها اثنا عشر ميلاً .

---

(١) Donaldson, Dwight M — Shi'ite Religion, Luzac (London 1933) الص ٢٤٢ ، الفصل الثاني عشر .

هذا ويقول المؤرخ الألماني المشهور كارل بروكلمان في كتابه (تـــاريخ الشعوب الاسلامية) ان سامراء اسم فارسي وليس اسماً آرامياً [١] ، كما يستفاد من السطور التالية : واذا كان هارون الرشيد قد آثر في السنوات الأخيرة من حياته ان يفزع الى الرقة ، البلدة الريفية الواقعة على الفرات ، اجتناباً لصخب بغداد ، فقد عزم المعتصم على ان ينشىء سنة ٨٣٦ مقراً جديداً لنفسه في سامراء القائمة على الضفة اليمنى من دجلة(الصحيح على الضفة اليسرى) على مسافة مائة كيلو متراً الى شمال بغداد . ولعل الأذن العربية توهمت ان الأسم الفارسي يخفي في طياته نذير شؤم فُحرّف في الاستعمال الرسمي الى « سر من رأى » . وربما يكونَ بروكلمان قد استمد هذا الرأي من دائرة المعارف الأسلامية (غير المختصرة — ١٩١٣) [٢] . فقد جاء فيها ان شكل الأسم الأصلي قد يكون ايرانياً . وان هذا الافتراض يستند عى كون الأسم قريباً من « سام راه » و « سايي أمورا » أو « سار مورا » ، ومعنى الأسمين الأخيرين « مكان دفع الجزية » .

وفي فصل خاص يفرده لسامراء المستر سيتون لويد ، خبير مديرية الآثار العراقية القديمة مدة من الزمن ، في كتابه عن (المدن الأثرية القديمة في العراق) [٣] يورد السبب المعروف عن كيفية بناء المعتصم مدينة سامراء ويقول ان المعتصم أخذ يطوف في دجلة لاتخاذ المحل المناسب فاقلع مصعداً في دجلة حتى وصل الى هضبة مستوية ترتفع عن ضفته اليسرى بعدة أمتار ، عن مسافة قصيرة من موقع سد نمرود . وكان يقوم هنا دير من الأديرة ، فكانت أول خطوة يخطوها أنه استشار رهبان هذا الدير في الأمر وسألهم عن اسم الموقع . فكان جوابهم

---

(١) اجرى الدكتور مصطفى جواد تحقيقاً واسعاً حول اسم سامراء في صدر هذا الجزء وهو يختلف مع ما ذهب اليه اكثر المحققين ، وان عليه المعول في اسم سامراء . الخليلي

(٢) Encyclopedea of Islam — Edited by M. Houtsma, T. W. Arnold, R. Basset, & R. Hartmann. E. J. Brill (Lyden 1913).

(٣) Lloyd, Seton — Ruined Cities of Iraq (Oxford Univ. Press 1942) الفصل الخامس ، الص ٣٣ .

له « .. اننا نجد فيما عندنا من مدونات ان المكان يسمى سر من رأى ، وأن هناك نبوءة تقول ان ملكاً مظفراً ، قوياً عظيماً ، ترافقه حاشية من رجال تشبه أوجههم طيور الفلا ، سيعيد بناءه في يوم من الأيام » . وكأن الرهبان في جوابهم هذا كانوا يتوقعون قبض نصف المليون من الدنانير التي دفعت لهم فيما بعد تعويضاً عما استملك من أراضيهم في هذا الشأن . وعلى كل فان القسم الأخير من النبوءة هو الذي تأثر به المعتصم ، لأنه سرعان ما تذكر أباه هارون الرشيد وكان قد اخبره بالشيء نفسه تقريباً في مناسبة سابقة . فقد خرج للصيد مع اخوته في يوم من الأيام فلم يكن موفقاً فيه ، ولم يصطد سوى بومة واحدة ، وحينما جاء بها خجلاً ووضعها بقرب ما كان اخوته قد اصطادوه من طيور الحبارى والغزلان تأثر أبوه هارون بذلك لسبب من الأسباب وتنبأ له بأنه سوف يتربع على كرسي الخلافة ذات يوم ، وان رجال حاشيته ستكون لهم أوجه كأوجه البوم . ولذلك استقر المعتصم في سامراء وشرع ببناء قصر منيف له سماه « دار العامة » في مكان الدير . وخطط مدينة من اجمل المدن القديمة في تخطيطها وطراز بنائها .

ويقول السر بيرسي سايكس في كتابه « تاريخ ايران »[١] ان قائداً تركياً كان قد تعين للقيادة العسكرية العليا التي كانت تعمل في غرب الامبراطورية على عهد الخليفة هارون الرشيد ، وكان ذلك قبل ان يتولى المعتصم الخلافة بثمان وأربعين سنة . وفي خلال هذه المدة كان يؤتى بالاف المماليك الأتراك من آسية الوسطى للإنخراط في سلك الجيش ، وتكوين أفواج الحرس الملكي . واستطاع الكثيرون من هؤلاء أن يحوزوا على رضا الخليفة فأخذوا يحلون بالتدريج في محل العرب الذين عادوا الى باديتهم . وقد ظهرت مساوىء هذا الجهاز منذ البداية ، لكن المعتصم كان يزداد اعتماده على الأتراك كلما ازداد

---

(١) Sykes, Sir Percy — A History of Persia, Vol II, (London 1951), P. 10.

كره العرب واحتقارهم لهم حتى تمكنوا بمرور الزمن من اغتصاب السلطة . وحينما ازدادت تعدياتهم على الناس في بغداد وكثر تعرضهم بهم في الطرق والأسواق تأثر المعتصم من ذلك وأسس مدينة سامراء على بعد ستين ميلاً من العاصمة .

وجاء في دائرة المعارف المشار اليها ان سامراء تقع على دورة من دورات دجلة تتجه نحو الجنوب الشرقي ما بين قريتي «كرخ فيروز» في الشمال و «المطيرة» في الجنوب الشرقي منها . وهنالك قناتان تتفرع إحداهما ، وهي القاطول الكسروي ، من فوق (كرخ فيروز) بالقرب من الدور فتجري في اتجاه جنوبي شرقي لتتصل بالقناة الثانية «القاطول اليهودي» التي تتفرع من دجلة فيما تحت المطيرة فتجري في اتجاه شرقي – شمالي شرقي ، وبذلك تحصر سامراء وضواحيها الشرقية في بقعة تشبه الجزيرة . وتقع في الضفة الغربية في مقابل سامراء عدة قصور يمر ما بينها نهر يجري بموازاة دجلة يسمى «الاسحاقي» ثم يعود فيصب في دجلة في موقع يقع تحت المطيرة وما فوق قصر «بلكوارا» بقليل .

ومن الحوادث المشهورة في تاريخ منطقة سامراء القديم المعركة الحامية الحاسمة التي وقعت بين الرومان والايرانيين في يوم ٢٦ حزيران سنة ٣٦٣ قبل الميلاد . فقد اصطدم الجيشان بقيادة الأمبراطور جوليان وشاهپور العظيم ، على ما يسميه السر بيرسي سايكس[١] ، فيما يقرب من سامراء فقتل وخسر الرومان ، فاستعاد الايرانيون بذلك نصيبين وما كان قد استولى عليه جوليان في شرق دجلة ، وعادت جيوشه متقهقرة عبر دجلة بقيادة خلفه جوفيان[٢].

---

(١) الص ٤٢٢ ، الجزء الأول من المرجع الأخير . (٢) اقرأ مفصل هذه المعركة في بحث الدكتور مصطفى جواد من صدر هذا الجزء .

الخليلي

بناء سامراء

وبعد ان اختار المعتصم موقع سامراء ، على ما مر ذكره ، عهد تخطيطها وبناءها الى أشناس ، القائد التركي ، على ما يقول بروكلمان١ . فأنشأ فيها هذا قناتين متفرعتين من دجلة الى الشرق ، خلعتا على المدينة الجديدة ، بالأضافة الى النهر نفسه ، منعة الحصن البحري ، وكانت المدينة تنتظم من قبل ثمانية أديرة نصرانية . ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم أولاً ، حتى اذا ما جاء بعده خلفاؤه وكانوا سبعة طوال نصف قرن ، حلوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة . وعلى الرغم من أنه لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة التي أقيمت خلال تلك الفترة القصيرة من الازدهار الا خرائب وأطلال فالحق أنها تقدم لنا صورة عن فن العمارة في العصر العباسي هي أنبض بالحياة من تلك التي تقدمها بغداد ، حيث عبثت أيدي الأجيال المتأخرة بما ثبت من آثارها في وجه الأعصار المغولي . والواقع ان المعماريين المسلمين اعتمدوا في الشرق ، كما اعتمدوا في الغرب ، التقاليد القديمة سواء بسواء . فقصر الخليفة المتوكل الموسوم بلكوارا وهو أهم بناء لا تزال أسسه محفوظة لنا في سامراء — انما شيد على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم العام ، وتخطيط المساحات وشكل الواجهات . أما مهندسو الجامع الكبير فتأسوا أثراً أعرق وأوفر حظاً من جلال القدم . ذلك أنهم بنوا مئذنة هذا الجامع فوق قاعدة طولها (٣٢٨) ياردة على طراز الأبراج البابلية ذات السلالم الخارجية الملوية ، وهي « الزقورة » . والحق ان الموارد العظيمة التي كانت ماتزال في متناول هؤلاء المعماريين ، على الرغم من أن الامبراطورية كانت في ذلك الوقت قد أخذت في الانحطاط ، لتظهر لنا أوضح ما يكون الظهور من مساحة الجامع الهائلة حقاً . فهو بمثابة مستطيل يبلغ (٢٦٠) متراً طولاً ، و (١٨٠) متراً عرضاً تقريباً . ويستغرق

---

(١) الص ٢١٠ و ٢١١ ، ط ٤ ، من الترجمة العربية .

صحنه الداخلي المتوزع على خمس وعشرين بلاطة اربعة واربعين الف متر مربع . ولأجل أن نكون فكرة واضحة عن معنى هذا الرقم علينا ان نذكر ان صحن كنيسة القديس بطرس في روما يبلغ (١٥١٦٠) متراً مربعاً ، في حين لا يزيد صحن كاتدرائية كولون على (٦١٢٦) متراً .

اما المستشرق لسترنج فيقول في (بلدان الخلافة الشرقية) [1] أن سامراء نفسها كانت تقوم على ضفة دجلة الشرقية ، وتمتد قصورها الى مسافة سبعة فراسخ بمحاذاة النهر ، وكان يقوم في الجانب الغربي أيضاً كثير من القصور . وقد انفق الخلفاء الواحد تلو الآخر اموالاً طائلة لا يكاد يصدقها العقل على إنشاء ميادين جديدة للصيد واللعب ...

وقد أقطع المعتصم جنده الأتراك قطائع في (كرخ فيروز) وما فوقها حتى الدور ، وقطائع أخرى في جنوبي سامراء في جهة المطيرة . وبنى أول مسجد جامع قرب ضفة دجلة الشرقية ، ثم خطط قصره . وكتب في إشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من سائر انحاء الدولة ، وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة ، وفرش الرخام من أنطاكية واللاذقية . واختط الشارع المسمى بالشارع الأعظم بموازاة دجلة . وقامت على يمين الشارع ويساره القصور الجديدة والقطائع . وكان الشارع الأعظم ممتداً من المطيرة الى الكرخ ، وفي جانبيه دروب واسواق . وأنشأ أيضاً بيت المال الجديد ، ودواوين الدولة ودار العامة التي كان يجلس فيها الخليفة في يومي الاثنين والخميس .

ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء في جانب سامراء ، عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة . فأنشأ هناك البساتين والأجنة ، وحمل النخل اليها من البصرة وحملت الغروس من الشام وخراسان وسائر الأقاليم وكان يسقي الجانب الغربي أنهار تحمل من الأسحاقي ، الذي حفره اسحاق بن

---

(١) الص ٧٧ — ٧٩ من الترجمة العربية المشار اليها .

ابراهيم صاحب شرطة المعتصم ... ولما توفي المعتصم سنة ٢٢٧ (٨٤٢ م) كانت سامراء قد أخذت تنافس بغداد في فخامة قصورها وجمال مبانيها . وقد أكمل ابناه الواثق والمتوكل اللذان تعاقبا على الخلافة من بعده مابدأ به أبوهما . فقد بنى هارون الواثق القصر المعروف بالهاروني ، نسبةً اليه ، على دجلة وجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية . وحفر الواثق فرضة من النهر تصلح لدخول السفن التي تردها من بغداد . وخلفه أخوه المتوكل على الله في سنة ٢٣٢ (٨٤٧ م) فنزل الهاروني أولاً ، الا انه في سنة ٢٤٥ (٨٥٩ م) شرع ببناء قصر جديد له على ثلاثة فراسخ شمال الكرخ ، ومد الشارع الأعظم ، وقد عرف قصره والمدينة الجديدة التي قامت حوله بالمتوكلية أو « القصر الجعفري » ، وما زالت أطلال القصر الجعفري في الزاوية التي يؤلفها تفرع النهروان هناك ، واندمجت به الماحوزة وهي المدينة القديمة .

وبنى المتوكل ايضاً جامعاً جديداً متسع الأرجاء في مكان الجامع الذي بناه أبوه ، لأنه ضاق على أهل العاصمة الجديدة . وامتدت القصور والبساتين من المطيرة الى الدور واتصلت . وفي سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) قتل المنتصر أباه المتوكل في قصره المعروف بالجعفري في المتوكلية . وأقام الخلفاء الأربعة الذين أعقبوه في ذلك العهد المضطرب ، في قصر الجوسق في غربي دجلة قبالة سامراء ، وهو من أبنية المعتصم . وقد أقام المعتمد بن المتوكل وآخر الخلفاء في سامراء في الجوسق أولاً ثم ابتنى له قصراً جديداً في الجانب الشرقي وهو القصر المعروف بالمعشوق .



من بقايا اطلال قصر المعشوق بسامراء

ومن هذا القصر انتقل مركز الدولة العباسية الى بغداد قبل وفاة المعتمد سنة ٢٧٩ (٨٩٢ م) . وقد اشارت مراجعنا الى اسماء كثيرة من القصور التي بناها الخلفاء في

سامراء . فذكر ابن سرابيون « قصر الجص » المشهور وهو من أبنية المعتصم على الأسحاقي . وسرد ياقوت جملة كبيرة من القصور ، وزاد على غيره مبيناً ما أنفقه الخلفاء عليها من أموال خيالية . فكان مجموع تلك النفقات مئتي مليون وأربعة ملايين درهم ، أي ما يعادل نحواً من ثمانية ملايين باون استرليني .

ولا بد لنا من ان نعلق هنا على بعض ما أورده لسترنج حول موقع قصري الجوسق والمعشوق فنقول ان المعروف اليوم هو ان المعشوق الذي يسمى بالعاشق يقع في الجانب الغربي وما تزال أطلاله شاخصة ، اما الجوسق فيقع في الجامع الشرقي من سامراء . ونقول علاوة على ذلك ان مترجمي كتاب لسترنج المشار اليه يشيران في حاشية لهما الى ان مديرية الآثار العراقية قد اكتشفت أثراً عباسياً يقع على الأسحاقي المندرس في غربي دجلة على بعد (١٧) كيلو متراً شمال محطة قطار سامراء يعرف بالحويصلات هو قصر الجص نفسه .

ثم يقول [١] المستشرق لسترنج ان ابن حوقل وهو من أهل المئة الرابعة للهجرة (العاشرة ميلادية) يطنب في وصف بساتين سامراء الزاهرة العامرة ولا سيما ما كان منها في الجانب الغربي . لكن المقدسي يذكر أن الكرخ في الشمال أصبح في أيامه أكثر عمراناً من سامراء ، وكان المسجد الجامع فيها ما زال قائماً . ولقد وصفه بقوله : « وبها جامع كبير يُختار على جامع دمشق قد لبست حيطانه بالميناء وجعلت فيه أساطين الرخام وفرش به ، وله منارة طويلة » . وهي ما زالت شاخصة وتعرف بالملوية والملوية الآن على نحو نصف ميل من شمال سامراء الحالية . وهذا ما رآه المستوفي في النصف الأول من المئة الثامنة فقال ان المنارة التي كانت تقوم في المسجد الجامع يومذاك يبلغ طولها مئة وسبعين ذراعاً ، ولها مرقاة من خارجها لا يرى مثلها في مكان

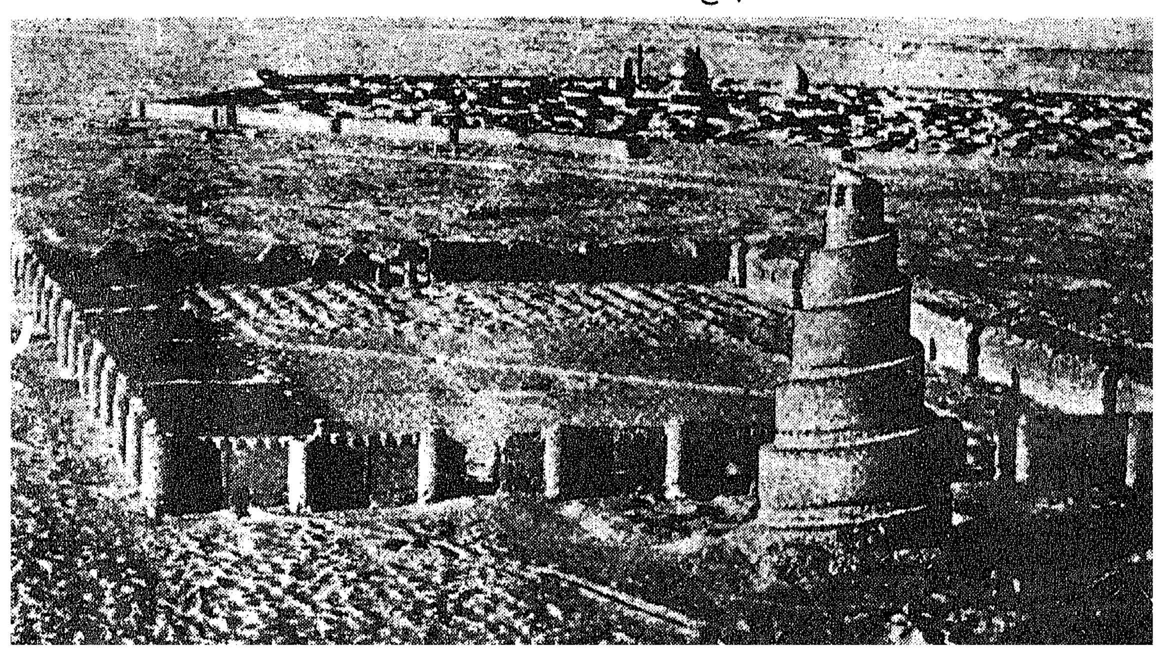
---

(١) الص ٧٩ و ٨٠ ، ط ٤ من الترجمة العربية .

آخر وزاد على ذلك أنه قد بناها المعتصم .

هذا ونضيف هنا ما جاء في حاشية لمترجمي كتاب لسترنج من معلومات عن « الملوية » نفسها . فقد ذكرا أنها تقع اليوم على بعد قليل من شمال شرقي سامراء الحديثة ، على نحو (٢٥) متراً من الجدار الشمالي لجامعها القديم . وكان الخراب قد نال من بعض أقسامها ولا سيما من قاعدتها ، وفي ملتوياتها الأولى ، حتى ان معالم قاعدتها خفيت عن الأنظار بما تراكم عليها من أنقاض ، فظن كثيرون ان مرقاتها تبدأ من سطح الأرض . الا ان مديرية الآثار العراقية عنيت بصيانة هذه المنارة فأزالت عنها تلك الأنقاض وأظهرت أسس القاعدة وأعادت بناءها وعمدت مرقاتها حتى القمة . ومن طريف ما ورد في حواشي المترجمين الفاضلين كذلك ان أبا منصور الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ ، أشار الى الملوية في كتابه (ثمار القلوب) وقال عنها ان المتوكل كان يصعدها على حمار مريسي ، وان درجها من خارجها وأساسها على جريب من الأرض ، وطولها تسع وتسعون ذراعاً .

المسجد الجامع وقد قامت عليه المنارة المعروفة بالملوية



وقد عثرنا في دائرة المعارف الاسلامية المار ذكرها على تفصيلات أخرى عن عمران سامراء العباسية وابنيتها ، جاء فيها انه كان من شوارعها الرئيسة يومذاك (شارع السريجة) الذي يمر بين يدي دائرة الشرطة والسجن ثم يمتد الى المحلة التي كانت تحمل اسم الوزير الحسن بن سهل ، ومن ثم الى شارع أبي أحمد بن رشيد والي قرية الأيتاخية المشيدة على ضفة القاطول الكسروي . وقد سميت الأيتاخية باسم القائد التركي إيتاخ ، لكنها صارت تعرف بعد ذلك بالمحمودية . وكانت هناك كما يفهم من المدونات التاريخية خمسة شوارع رئيسة أخرى هي : شارع الحير ، وشارع برغموش التركي المؤدي الى حي الاتراك ، وشارع صالح المؤدي الى مخيمات المعسكر ، وشارع الحير الجديد ، وشارع الخليج .

وتقول دائرة المعارف هذه كذلك ان المؤرخين يقدمون لنا تفصيلات كثيرة عن الأبنية المهمة التي كانت موجودة فيما يجاور سامراء ، ومنها أبنية كانت هنا قبل أن تشيد سامراء نفسها في تلك المنطقة ، مثل الأديرة الثمانية التي أهمها « ديرالطواويس » و « دير مار ي » و « دير أبي الصفرة » ، لكن أشهر الأبنية كانت القصور الكبيرة . وقبل ان يقتل المتوكل بتسعة أشهر كان منشغلاً بتخطيط مدينة جديدة في شمال سامراء ما بين (كرخ فيروز) والدور ، وقد سميت « الجعفرية » باسمه . ومن التفصيلات التي يوردها المؤ. خون في هذا الشأن ما ذكروه من ان المتوكل جاء من ايران بشجرة السرو المقدسة عند الزردشتيين في كيشمار ليستعمل خشبها في البناء . ويرى بعضهم كذلك ان اندثار قصور المتوكل وخرابها السريع بعد ذلك كان عقاباً من الله له على الجريمة النكراء التي ارتكبها في تهديم قبر الامام الحسين (ع) في كربلاء سنة ٢٣٦ للهجرة . وبعد أن قتل المتوكل أعاد ابنه الخليفة المنتصر بلاطه الى سامراء نفسها ، وجعل إقامته في الجوسق . وقد شيد المعتمد ، وهو آخر خليفة أقام في سامراء ، قصر المعشوق في الضفة الشرقية سنة ٢٥٥ هـ . وقد حل الخراب بمعظم هذه الأبنية والقصور منذ القرن العاشر للهجرة ، ولم

يستقم منها غير الجامع الكبير بالقرب من معسكرات الجيش ، ومن أجل هذا عرفت تلك المنطقة من المدينة باسم « العسكر » .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية هذه أيضاً أن السمعاني يذكر في كتابه (الأنساب) قائمة بأسماء كان يتلقب أصحابها بلقب « سامرائي) أو « سرمري » كما يذكر أسماء أخرى كان يلقب أصحابها بلقب «كرخي » نسبةً الى ولادتهم في «كرخ فيروز »[1] .

بناء سامراء في كتاب سيتون لويد

ويقول سيتون لويد في « مدن العراق الأثرية »[2] المار ذكره أن المعتصم استقر في سامراء بعد ان عين موقعها ، وأخذ يبني لنفسه قصراً منيفاً أطلق عليه اسم « دار العامة » في موقع الدير الذي استملكه من الرهبان . كما أخذ يخطط حوله مدينةً من أجمل المدن القديمة وأكثرها تنسيقاً وعمراناً . وفي خلال أربعين السنة التي أعقبت ذلك،حكم في سامراء خلفاء سبعة آخرون ، فبنى كل منهم قصوراً ومساجد جديدة وامتدت المدينة شيئاً فشيئاً بمحاذاة النهر حتى صار شارعها الأعظم يمتد في وسطها الى مسافة عشرين ميلاً قبل ان ينتهي بالبر المحيط بها . وفي نهاية تلك الفترة المزدهرة ترك كل شيء في سامراء ، وانتقلت العاصمة الى بغداد من جديد . وكان هذا الانتقال ثالث حادث في تاريخ العالم ، يؤدي فيه شذوذ ملك أو أمير الى اقامة مشروع جسيم باهظ التكاليف سرعان ما ثبت عقمه وعدم جدواه ، ولذلك فان مشاهد سامراء القديمة تلوح للزائر اليوم وهي لا تختلف كثيراً عما يشاهده في عاصمة اخناتون التي لم تعمر طويلاً في تل العمارنة بمصر ، أو في مدينة ملك آشور سرجون الثاني في خورساباد القريبة من الموصل . فقد بقيت

---

(١) في الجزء الثاني من قسم سامراء الذي سيطبع فيما بعد بحث مفصل عن كيفية تمصير مدينة سامراء وقصورها وابنيتها كتبه الدكتور مصطفى جواد وهو على فراش مرضه . (٢) الص٣٣–٤٢

أطلالها وهي متأثرة بعوادي الزمن في الغالب بحيث يمكن استقصاء تخطيطها من دون حفريات تقريباً . وبوسع المرء أن يرى من الجو المدينة تلك بقصورها وشوارعها الوسيعة وساحات سباقها ، حتى أنه ليصعب على المرء أن يصدق بأنه ينظر الى مدينة مندثرة تخلى عنها سكانها منذ ثلاثة عشر قرناً .

واذا عدنا الى حديث المعتصم ومدينته نجد انه بعد ان شيد « دار العامة » وجاء بالمهندسين الحاذقين من البلاد النائية ليختاروا له مواقع القصور الأخرى ، والجوامع وما أشبه ، شرع بتخطيط قسم السكن من المدينة وبتخصيص قطع الأرض لبناء البيوت العائدة لمواطنيه . لكنه تذكر السبب الذي ترك بغداد من أجله فشيد ثكنات جسيمة مسيجة لجنده الأتراك في شمالي المدينة ، بمعزل تام عن الأحياء السكنية . ثم اشترى لكل واحد منهم جارية يتخذها زوجة له ، ومنع الطلاق الى حد الجيل الثاني من النسل . وبعد ان انتهى من هذه المهمة ، وجه اهتمامه الى الحصول على الصُنّاع والمواد من أطراف العالم العربي جميعه لتجميل مدينته وما فيها من أبنية . فأُسست مقالع للمرمر وأماكن خاصة للبنائين في أماكن نائية مثل أنطاكية والاسكندرونة في سورية ، ثم أُرسلت الوفود الى مصر لتجمع من الكنائس المسيحية الأعمدة ومواد التبليط والزخرفة . وقد برّهنت البقع الواسعة من الأرض المنحصرة ما بين السن الصخري الذي شيدت فوقه المدينة وضفاف دجلة على خصبها ، فزرعت فيها جميع الأنواع المعروفة من الفواكه والأزهار بحيث صارت القصور المشيدة فوق السن العالي تطل على جنان نظرة من الحدائق والبساتين . وقد اتسعت المدينة نفسها بين عشية وضحاها برعاية الخليفة المستعجل، الذي اعتاد على التجوال في الشوارع خلال الأمسيات ، وتوزيع المنح والهبات السخية الى المواطنين والمهندسين الذين كانوا يتفوقون في أعمالهم العمرانية خلال النهار. ولم تكن المدينة قد اكتمل بناؤها حينما توفي المعتصم ، لكن حمّى التعمير والانشاء كانت قد تفشت فاستمرت تسير من دون انقطاع في أيام من جاء بعده من الخلفاء .

ويأخذ المستر سيتون لويد بوصف الأبنية المهمة التي أُقيمت في سامراء

يومذاك ، مثل المسجد الجامع والملوية ودار العامة وقصر . بلگوارا وغير ذلك ، مستنداً على كتابات المنقب الفرنسي فيوليه ، والآثاري الألماني هرتسفيلد ، مما سنأتي عليه في مكان آخر من هذا المبحث . على انه يتطرق كذلك الى ما فعله المتوكل أيضاً في سامراء ، فيقول أنه حينما جاء دوره في تحسين أحوال المدينة وتوسيعها ابتنى له حياً جديداً بكامله في خارج حدود المدينة الأصلية من جهة الشمال . فنشأت عن ذلك من جديد القصور والمباني المنيفة والشوارع والمخازن وما أشبه . وحينما انتهى من هذا كله صار بوسعه ان يقول بقناعة صبيانية « الآن عرفت اني ملك حقاً ، فقد شيدت مدينةً لنفسي صرت أعيش فيها » . ومع هذا فان أعظم مشروع اضطلع به المتوكل لم يكن مشروعاً ناجحاً . فقد كانت سامراء توزع معظم مائها المستمد من دجلة والآبار على ظهور الحمير ، ولم يكن يروق ذلك للمتوكل ، فشرع يحفر قناة كبيرة تلف حول المدينة من الجهة الشرقية لتزودها بما يكفيها من الماء ، فكلف حفرها مبلغاً يزيد على المليون دينار على ما يقال . لكن المؤسف هو ان المتوكل تطرف في الاعتماد على مهندسيه لأن القناة حينما اكتمل حفرها وجد المهندسون انها عاجزة عن أخذ الماء من دجلة بمقدار كاف ، غير انه ما ان شعر بمرارة هذه الخيبة الفاضحة حتى قضى نحبه ، فهجر خلفه حي المتوكلية بأجمعه وعاد الى الأقامة في سامراء .

ومن الأبنية الشمالية التي عجل الخراب اليها على هذه الشاكلة الجامع الكبير الثاني المعروف بأبي دلف . وكان لجامع أبي دلف أيضاً منارة ملوية ، وقد بقي شيء أكثر من داخليته بحيث أصبح أكثر رونقاً وبهاءاً من المسجد الجامع . فتشاهد فيه الأساطين وهي مبنية بالآجر ومن الأبنية الشمالية التي عجل الخراب اليها على هذه الشاكلة الجامع الكبير الثاني المعروف بأبي دلف فتشاهد فيه الأساطين وهي مبنية بالآجر .

وبقي معظمها شاخصاً حتى اليوم . وهناك بقايا منبر كذلك ومحراب متقن الصنع ، ومن ورائه مجموعة من الغرف تحيط بفناء صغير كاف يجلس فيه الخليفة قبل الصلوة وبعدها . وهناك سور خارجي توجد آثاره أيضاً .

وحينما يعود المرء من أبي دلف الى البلدة الحديثة يمر بأحسن المناطق السكنية ، وبوسعه ان يسوق سيارته بسرعة غير يسيرة على طول « الشارع » الرئيس الذي يبلغ عرضه ثمانين قدماً ، وتلاحظ بقايا جدول للماء في كلا الجانبين . كما تلاحظ بوابات الأبنية المتسطرة على طول الشارع وصفوف الدكاكين ، وجدار السجن . وقد نقبت دائرة الآثار في عدد كبير من البيوت ولذلك يشاهد عدد من الغرف لا تزال جدرانها قائمة بارتفاع عدة أمتار وهي مرتبة بمجموعات مزدوجة إما لتكون للديوان والحرم أو لتستعمل في الصيف والشتاء ، وكلها مزخرف بأحسن الزخرف . فتشاهد في كل مكان تقريباً حشوات الزخرف بالجص الى علو الوزرات ، ولعل هذا من بقايا فكرة الزخرف بالألواح الحجرية التي كانت تكتسي بها أسافل الجدران في القصور الآشورية والحثية . وهناك فوق هذه أحياناً رسوم كلسية تعتبر مقدمة للطراز الأجد من الزخرف الهيليني . وتوجد نماذج جيدة لكلا النوعين في قسم الآثار العربية من متحف بغداد .

وآخر ما يجده المرء عند عودته من أبي دلف الى سامراء الحديثة في الجانب الأيسر من الطرائف التل الطويل الذي يمثل « منصة الخليفة الكبرى » في وسط ساحة السباق الثانية . وتشبه هذه الساحة في شكلها الزهرة ذات الكأسيات الأربع عندما ينظر اليها من الجو ، بحيث أن الخيول او العربات المتسابقة كانت تضطر دوماً ، بعد ان تكون قد دارت أربع مرات في الأطراف ، الى العودة والدوران بصورة جذابة مباشرة على مرأى من المشاهدين من فوق التل القائم في وسط الساحة .

وتعليقاً على ما يذكره المستر سيتون لويد في ملاحظاته عن قناة المتوكل وساحات السباق لا بد لنا من ان نزيد في توضيح هاتين النقطتين باقتباس شيء مما ورد عنهما في الجزء الأول من كتاب (ري سامراء) للدكتور أحمد سوسه . فقد جاء عن قناة المتوكل (الص ٢٧٠) ان المعتصم كان قد اكتفى بجعل عاصمته سامراء تمتد على محاذاة دجلة في الطول ليسهل حمل مياه الشرب

من النهر في الروايا على البغال والأبل ، ولذلك لم يفكر في القيام بمشروع ري كبير يؤمن إيصال المياه الى قلب العاصمة ، وقد رأى ان يوجه عنايته الى الجهة الغربية من دجلة .. فأنشأ نهر الأسحاقي . ولكن المتوكل ، وهو الذي كان له ولع خاص بمثل هذه المشاريع العامة ، لم يقنع بهذا فبذل قصارى جهده لتحقيق مشاريع الري على الجانب الذي تقع فيه عاصمته ... فكان أول مشروع قام به بعد توليه الخلافة المشروع المعروف بـ « قناة المتوكل » أو « قناة سامراء » الذي يؤمن ايصال المياه الى عاصمته سامراء بطريقة الري الجوفي المعروف بري « الكهاريز » . ويشتمل هذا المشروع على كهريزين ضخمين يستعمل أحدهما في الشتاء والآخر في الصيف ، وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمالي الدور فيسيران حوالي أربعين كيلو متراً حتى يصلا الى قلب العاصمة . وقد مد المتوكل هذين الكهريزين الى الجنوب ليخترقا المطيرة ثم يسيران الى ما يجاور القادسية . وبفضل هذا المشروع تمكن المتوكل من انشاء مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي سامراء باتجاه منطقة الحير ، ومن أهم هذه المشاريع انشاء حوض للسباحة خلف « دار الخليفة » وهو الحوض المعروف اليوم باسم « بركة السباع » ، ثم البركة الواسعة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من هذه البركة ، وأخيراً حلبة السباق وتلها الذي يشرف عليها المعروف باسم « تل العليق » وهي الحلبة التي أنشأها المتوكل في جهة الحير .. وهذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي أنشأه في أول الحير بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول اليعقوبي « فوارة ماء لا ينقطع ماؤها » .

اما عن ساحة السباق المشار اليها فيقول الدكتور سوسة (الص ١١٦) أنه يشاهد في غربي ساحة الحير على الحدود الشرقية لمباني سامراء القديمة آثار ثلاث حلبات للسباق ، أحدثها وأكثرها تنسيقاً تلك التي تقع في حدود الحير شمال شرقي المسجد الجامع بقليل ، وهي مكونة من أربع حلقات كبيرة حول

مربع مركزي فيه دكة مرتفعة معدة لجلوس الخليفة وحاشيته (وهي التي يسميها لويد منصة الخليفة الكبرى) . ويبلغ طول الدورة الكاملة في هذه الحلقات المتتالية ما يزيد على خمسة كيلومترات ، في حين ان البعد الأعظم من الدكة المركزية على طول هذه الحلقات يقل عن ستمائة متر . وهكذا كان المتسابقون يقطعون في هذه المساحة مسافة طويلة من دون ان يبتعدوا عن الدكة المركزية أكثر من ستمائة متر في جميع الأحوال .

وجاء فيما كتبه السر پيرسي سايكس [1] عن خلافة المتوكل في سامراء أن أهمية حكم المتوكل تنحصر في الدرجة الأولى برد الفعل السني الذي أخذت تظهر علائمه للوجود . فقد كوفحت مبادىء المعتزلة ، واضطُهد علماؤهم ورجالهم بأعنف الوسائل وأقساها . وصار يضاهي ذلك في العنف الكره الذي بدا من الخليفة الجديد تجاه آل بيت النبي ، حتى أنه أخذ يشجع مهرجه على تقليد « أسد الله » في مظهره ولباسه بينما يغني المغنون من حوله باستهزاء عن « خليفة الاسلام الأصلع البطين » [2] . ثم هدم قبر الحسين فحرث موضعه . وكان المتوكل علاوة على هذا معادياً لغير المسلمين بعناد وتعصب فأحيا القوانين المهجورة التي سنت ضدهم في الماضي . وقد تحتم عليهم بذلك ان يرسموا صورة الشيطان على أبواب بيوتهم ، ويدفعوا رسوماً وضرائب خاصة بهم ، ويلبسوا لباساً أصفر يتميزون به عن الغير ، ومنعوا من تولي اية وظيفة حكومية كما منع أولادهم من تعلم العربية .

ويروي سايكس كذلك قصة شجرة السرو المقدسة في ايران وقطعها ، ثم نقلها من كيشمار إلى سامراء للأفادة منها في بناء « الجعفري » بأمر من المتوكل . فهو يقول : .. وكان الخليفة فاسقاً مسرفاً في الشهوات . وبنى في جوار سامراء قصراً جديداً تكلف مبالغ لا تعد ولا تحصى من المال . ولهذا

---

(١) تاريخ ايران ج ٢ ، الص ١٤ — ١٥

(٢) والمقصود به الاستهزاء والسخرية بالامام علي بن أبي طالب (ع) من لدن المتوكل الخليلي

القصر علاقة بأسطورة كيشمار وكونها ملتقى الملك كوستاشب وزرادشت . فقد قيل ان « نبي ايران » لأجل ان يخلد هذا اللقاء ، زرع شجرةً من أشجار السرو تقدمت في النمو بعد ذلك فأصبح حجمها هائلاً جداً ، وصار الزردشتيون يعتبرونها شجرةً مقدسة . غير أن الخليفة المتعصب أمر بقطعها ، بعد أن بلغ عمرها ١٤٥٠ سنة كما يقال ، برغم المبالغ الجسيمة التي دفعت من أجل انقاذها ، فقطعت ونقلت قطعة قطعة الى سامراء ، لكن الأسطورة تقول ان المتوكل قتل في اليوم الذي وصلت فيه قطع هذه الشجرة الى سامراء ..

فن العمارة في سامراء

لقد أجمع المؤرخون والفنيون ، من المسلمين والأجانب ، على ان بناء سامراء في العهد العباسي ، بقصورها ومرافقها وسائر مبانيها ، قد تجلت فيه آيات الفن المعماري والزخرفي الى أقصى حدٍ ممكن في تلك الأيام . ويؤكد الغربيون من المؤرخين والفنيين على ان ذلك الفنّ المعماري ، الذي بلغ الأوج في ابداعه من عدة اوجه ، قد كان متأثراً لدرجةٍ ما بتأثيرات الفن المعماري الايراني والهندي والهيليني وغير ذلك مما كان معروفاً يومذاك ، فضلاً عن تأثره بفن العمارة العراقي القديم . لكنّ هذه الآراء ، وما يختص منها بالتأثير الهيليني الذي يذكره المنقب هرتسفيلد على الأخص ، تحتاج الى الكثير من النظر والتدقيق في التطورات الطارئة على نظريات الفن الاسلامي برمته .

وأهم من كتب عن آثار سامراء العربية والفن المعماري فيها العلامة الألماني أرنست هرتسفيلد ، الذي ضمن كتاباته جميع ما توصل اليه من دراسات عن سامراء ، ولا سيما بعد التنقيب الذي أجراه بنفسه . ففي مطلع سنة ١٩١١ استطاع الرحالة والعلامة الألماني المشهور فردريك صاره Fredrick Sarre الحصول على امتياز خاص من الدولة العثمانية للقيام بالتنقيب في آثار سامراء ، وعهد بالعمل الى الدكتور أرنست هرتسفيلد الأستاذ في جامعة برلين يومذاك . فاضطلع هذا بمهمته في الحال وقام بأعبائها خير قيام ، ثم نشر ما توصل اليه

في مؤلفات [١] عدة أصبحت منبعاً ثراً يستقي منه الكتاب عن سامراء في جميع اللغات . على أن هذا العمل كان قد تولاه قبله على مقياس ضيق المهندس الفرنسي فيوليه في ١٩٠٧ ، بالنسبة لقصر الجوسق فقط ، فنشر نتائج عمله في بعض المجلات والنشرات الفرنسية المختصة [٢] .

وقد لخص الاستاذ كريسويل ، عضو المجمع العلمي البريطاني ، أهم ما كتبه هرتسفيلد عن سامراء في كتابه المعروف « فن العمارة الاسلامي القديم » [٣] المطبوع لأول مرة سنة ١٩٥٨ . فهو يصف في الفصلين الرابع عشر والسادس عشر عمارة قصر الجوسق الخاقاني (اي قصر المعتصم) بجميع أجزائه ومرافقه ، والجامع الكبير في سامراء بمنارته الملوية ، وجامع أبي دلف ، وبيوت سامراء ، والقبة الصليبية ، ثم يبحث في طراز الزخرفة والزينة في تلك الأبنية بوجه عام .

ويبدأ ذلك بمقدمة تاريخية موجزة عن انتقال العاصمة من بغداد الى سامراء في عهد المعتصم ، ويخلص من ذلك الى القول بأن أول ما فعلههذا الخليفة ،

---

(١) Herzfeld, Ernst — Samarra : Aufnahmen und Untersuchungen (Berlin 1907).
— Erster Vorlaufiger Bericht Uber die Ausgrabungen von Samarra (Berlin 1912).
— Mitteilun Uber die Arbeiten der Zweiten Kampagne von Samarra, in Der Islam, V, P. 196-204.
— Der Wandschmuck de Bauten von Samarra und Bein Ornamentik (Berlin 1923).
— Die Malleri von Samarra (Berlin 1927).
— Geschichte der Stadt Samarra (Hamburg 1948).

(٢) Viollet, H. — Description du palais de al-Moutasim à Samarra, in Memoires de l'Academie des Inscr. et Belles Lettres, XII, pp 577-717.

(٣) Creswell, K. A. — A Short A Count of Early Muslim Architecture (Penguin Books 1958).
الفصلان الرابع والسادس عشر .

حين أقدم على بناء عاصمته الجديدة ، هو انه استقدم الفعلة والبنائين والصناع ، مثل النجارين والحدادين وغيرهم ، من الخارج كما فعل أسلافه حينما عمدوا الى بناء المدينة المدورة (بغداد) من قبل . وجلب أخشاب الساج وجذوع النخل ، وسائر أنواع الخشب من البصرة ، ثم استقدم العمال المختصين ببناء المرمر ونحته من اللاذقية وغيرها . ولم يقتصر هذا على جميع الصناع والعمال المهرة من أنحاء الأمبراطورية حسب ، وانما استجلب شيئاً غير يسير من المواد البنائية من مصر وغيرها أيضاً . وهو ينسب الى عبدالله بن المقفع قوله ان المعتصم بعث بأناس خاصين الى مصر وزودهم بصلاحيات وأوامر قاطعة بأن يجمعوا أنواع المرمر والأساطين من الكنائس أينما وجدت . وبعد ان جردوا كنائس الأسكندرية من كل ما وجدوه فيها من هذا القبيل ذهبوا الى كنيسة القديس ميناس في مريوط ، الكائنة في غرب الاسكندرية ، فاقتلعوا ما كان فيها من المرمر الملون ومواد التبليط التي لم يكن لها مثيل في كل البلاد . وحينما استولى المعتصم نفسه على عمورية في حملته المشهورة سنة ٨٣٨ للميلاد أخذ بوابتها الكبرى ونقلها الى سامراء أيضاً[١] .

الجوسق الخاقاني

كانت أطلال هذا القصر العظيم ، على ما يقول كريسويل ، قد نقب فيها المهندس الفرنسي فيوليه سنة ١٩٠٧ بنطاق ضيق أجرى فيه تنقيبات تجريبية هنا وهناك ، وبعد ذلك بسنوات قليلة تولت التنقيب فيها بمقياس واسع بعثة ألمانية باشراف صاره وهرتسفيلد .

وقد كان أول ما وجدته هذه البعثة حوضاً كبيراً في الأرض المنخفضة

(١) لقد اخطأ كريسويل فيما ذكره على لسان عبدالله بن المقفع بكونه هو القائل بان المعتصم بعث باناس خاصين ليجمعوا له انواع المرمر من الكنائس فقد قتل ابن المقفع في عهد المنصور والمعتصم لم يخلق بعد — الخليلي

المصاقبة لدجلة ، تبلغ مساحته (١٢٧) متراً مربعاً (٤١٧ قدماً مربعاً) . وتصعد من هذا الحوض الى السن العالي الواقع بين يدي « باب العامة » سلّم ضخم عرضه ستون متراً (١٩٧) قدماً .

وتتألف « باب العامة » ، التي حافظت على شكلها أحسن من أي جزء آخر من القصر العظيم ، من جبهة ثلاثية العقود يبلغ ارتفاعها حوالي اثني عشر متراً (٣٩,٥ قدماً) ، وتمتد من ورائها ثلاث غرف مسقفة بعقادات متوازية تطل على نهر دجلة . ويمضي كريسويل في وصف الاواوين ومساحاتها ، وهيكل البناء ومرافقه وصفاً دقيقاً في مساحـــات ثابتةمن الطول والعرض والارتفاع . والأساطين وزخارفهاوهندستها حتى يصور القصر تصويراً مجسماً امام القارىء

ثم يأتي على وصف جناح الحريم من القصر فيقول ، كما يقع في الجهة الجنوبية قسم الحريم الذي يمتد منه ملحق جنوبي يتفرع الى عدة فروع . ويقع على الفناء الأول مباشرة الحمام الكبير . على ان الداخل اذا استمر على السير الى الأمام رأساً يمر في بهو أمامي يؤدي الى « قاعة شرف »طويلة يكون جداراها الشمالي والجنوبي بسيطين خاليين من الزخرف ، بينما تبدو من الجهة الجنوبية جبهة « غرفة العرش »بأبوابها الثلاث [١] .

وتتألف « غرفة العرش » من بهو وسطي مربع الشكل كان من المؤكد ، على ما يبدو ،مغطى بقبة خاصة مع أربعة أبهاء فرعية بُني كل منهـــا علىشاكلة « الباسيليك » الروماني ثلاثي الأجنحة ، وبذلك تكون هذه أشبه بغرفة العرش في قصرالمشتى أيضاً . ويقول هرتسفيلد ان السبب في بناء هذه الابهاء الاربعة على شاكلة الباسيليكهو الحاجةالى تدبير الاضاءة الكافية . وقد وجدت قطع من أفريز مرمر جميل في البهوالأوسط المربع .وكانت هناك بين اذرع الصليب المتكون

---

(١) Herzfeld, Ernest — « Mitteilungen über die Arbeiten der zweiten Kampagne von Samarra » in Der Islam, v, p 200.

من شكل البناء أبهاء أصغر مؤزّرة بقطع من المرمر ، ومصلى للخليفة موزّر بالزخارف الجصية فيه محراب خاص .

ويقع قسم الحرم حول محور مستعرض يمر من الغرفة الوسطى ويتصل بالغرف المكونة شكل (T) من الشمال والجنوب . ولم ينقب الا في القسم الجنوبي من هذا القسم ، ويقع بين يدي البهو الجنوبي من هذا القسم بهو واسع بعرض الفناء المطل عليه . ويشغل ضلعي الفناء الشرقي والغربي عدد من غرف الجلوس ، جهز كل منها بالماء الجاري الذي يصل الى قسمٍ منــها بأنابيب رصاص كبيرة ، وبأنابيب خزفية مزججة أو غير مزججة الى القسم الآخر . وهناك علاوةً على ذلك غرف خاصة للغسيل والمراحيض . وفي مقابل غرفة العرش من جهة الفناء الجنوبية توجد غرفة من نوعٍ خاص مربعة الشكل ، بعرض الفناء نفسه أيضاً . فهي قبل كل شيء محاطة بممر طوله واحد وعشرون متراً (٦٩ قدماً) من كل جهة ، ولها أربعة أبواب واسعة ، مع أربعة أعمدة مرمر في زواياها الأربع . وقد كانت هذه الغرفة مزخرفة كلها برسوم بشرية مختلفة .

ويوجد أمام البهو الشرقي الشبيه بالباسيليك في جناح غرفة العرش بهو كبير آخر يبلغ حوالي ثمانية وثلاثين متراً (١٢٥) قدماً في عرضه ، و (١٠,٤٠ متراً في عمقه ، ويفتح على شرفة عظيمة بخمسة أبواب . وهذه عبارة من ساحة مفتوحة واسعة الأرجاء تبلغ مساحتها ٣٥٠ × ١٨٠ متراً ، ويقسمها جدول من الماء الى قسم غربي مبلط فيه نافورتان وقسم شرقي غير مبلط يخترقه عدد من الجداول الصغيرة .

واذا سار المرء متجهاً الى شرقي الشرفة الكبيرة يأتي السرداب الصغير الكائن على محور القصر الأصلي . ويؤلف مدخل السرداب غرفة مربعة الشكل يوجد على جدرانها أفريز مزين بجمال ماشية من ذوات السنامين منحوتــة بالجص الملون ، مع نافورة دائرية الشكل . ويقع سلم السرداب في الجانب الغربي من البناء الفوقاني . اما السرداب نفسه فهو عبارة عن مغارة منحوتة

في داخل الصخر بعمق ثمانية امتار وطول (٢١) متراً . ويوجد في كل جدار من جدران المغارة ثلاثة كهوف تصلها ببعضها ممرات خاصة ، كما يوجد في قاعها حوض ماء . وتتصل بالمربع المحيط ببناية السرداب ساحة خاصة بها ، كما أن السرداب وما يتصل به كله يحجز بين فنائين متشابهين تقريباً يقع في جهتيهما الشمالية والجنوبية فسطاط بشكل T . وقد كان السرداب محاطاً كله بصفوف متوازية طويلة من الغرف التي يظن أنها كانت اصطبلات للخيل [1] .

وهناك في وسط الساحة الشرقية مقصورة يمكن للمرء أن يطل منها على حيرٍ طويل مستعرض محاط بسياج يبلغ حوالي مائة وثمانين متراً في طوله وخمسة وستين متراً في عرضه . ولا بد من ان يكون هذا ساحة الكرة والصولجان (البولو) ، اما الاصطبلات فقد كانت لأفراس البولو الصغيرة ، كما كانت المقصورة مخصصة للمتفرجين . وبهذا نصل الى حافة القصر الشرقية التي تتصل بساحة الصيد أو الحير . وفي مقابل المقصورة ، على امتداد المحور الرئيس للقصر ، يقوم فسطاط عالٍ كبير يطل على ساحة البولو وساحة السباق التي تضيع ممراتها البالغ طولها خمسة كيلو مترات ، في الأفق البعيد . ويبلغ طول هذه الأبنية والمرافق كلها طول محور القصر الرئيس (١٤٠٠) متر [2].

اما « السرداب الكبير » فهو مربع منفصل محاط بجدران يبلغ طول ضلعه الواحد مائة وثمانين متراً ، ويتصل بالطرف الشمالي الشرقي من القصر نفسه بينما يقع طرفه الجنوبي عند الجدار الشمالي للشرفة الكبيرة . وهو يتألف من كهف مربع عميق ، محفور في الصخر ، يبلغ طول ضلعه ثمانين متراً ، مع امتدادات صليبية من محاوره يصل طولها الى ١١٥ متراً . وتوجد في قاع السرداب حفرة ثانية دائرية الشكل يبلغ طول قطرها سبعين متراً . ويعتقد ان هذه الحفرة كانت حوضاً للماء لأن كهريزاً عميقاً يصل اليها . ويوجد في

(١) هرتسفيلد المرجع الأخير الص ٢٠١ — ٢٠٢ . (٢) هرتسفيلد المرجع السابق الص ٢٠١ .

الطابق العلوي منه عدد من الغرف الصغيرة غير المنتظمة حول الجهة الداخلية من الجدران . ويسقف عدد من هذه الغرف باطواق متقاطعة . والى الشرق من السرداب شيدت مجموعات مختلفة من الأبنية على طول الجدار الشمالي .

ويختم هرتسيفيلد وصفه لهذه الأبنية والمرافق بقوله أن روعة الزينة الموجودة في القصر وفخامتها تنطوي في تناسبها مع هذه الأبنية ، بحيث لا يمكن ان يوجد مثيل لها في أي مكان آخر . اما في غرف العرش فتحل محل الوزرات الجصية وزرات مرمر منحوتة الزخرف . وفي الغرف الواقعة ما بين أذرع الصليب الذي يتشكل به شكل الأبنية العام فتتغلف الوزرات ببلاطات من المرمر . وكان القسم الأعلى من جدران الحريم مزخرفاً برسوم كلسية من الأشكال الحية التي اكتُشفت بقايا مهمة منها ... وقد كانت جميع أعمال الخشب والأبواب والدعامات والأعتاب والسقوف من خشب الساج ، المحفور المنقوش ، او المنقوش فقط والمطّعم قسم منه . ومما كان يزيد في ذلك رونقاً وبهاءاً وجود المسامير البرونزية المشغولة بدقة بين وسائل الزينة . ويجدر بنا ان نذكر هنا كتابات كثيرة مزخرفة قد وجدت منقوشة على أعمدة الساج ، ومنها تواقيع الصناع المهرة بالعربية والسريانية واليونانية .

الجامع الكبير في سامراء

يقول البروفسور كريسويل في كتابه [1] المشار اليه ان الخليفة المعتصم توفي سنة ٢٢٧ (٨٤٢ م) فأعقبه هارون الواثق . وهذا توفي في سنة ٢٣٢ (٨٤٧ م) فأعقبه المتوكل الذي قام بتشييد المسجد الجامع الكبير .

والجامع عبارة عن مستطيل واسع الأرجاء يحيط به سور محصن من الآجر المشوي تبلغ مقاييسه ٢٤٠ × ١٥٦ متراً من الداخل . ولذلك فان مساحته تبلغ حوالي (٣٨٠٠٠) متر مربع او (٤٥,٥٠٠ ياردة مربعة) ، وبهذا يعد أكبر

(١) الص ٢٧٤ .

جامع في العالم ، أي أنه بضعف جامع ابن طولون في القاهرة . ولم يبق منه سوى الجدران المحيطة به ، بعد ان تقوضت سقوفه واختفت اعمدته التي كانت تستند اليها السقوف . وهذه الجدران ، التي يبلغ سمكها (٢,٦٥) متراً قد بنيت بآجر خفيف أحمر تبلغ مساحة الواحدة منه ٢٥ — ٢٧ سم مربع وسمكها سبعة سنتيمترات . اما الأبراج المنتشرة فيها فهي نصف دائرية في تخطيطها تقريباً ، ويبلغ قطرها (٣,٦) . كما يبلغ طول الجدران الساترة بين كل برج وآخر خمسة عشر متراً في المعدل . وهناك علاوة على ذلك أربعة أبراج ركنية كبيرة ، واثنا عشر برجاً آخر يمتد شرقاً وغرباً فيما يجاورها ، وثمانية شمالاً وجنوباً ، بحيث يكون مجموع الأبراج الكبيرة أربعة وأربعين برجاً . ويقوم كل واحد من هذه الأبراج فوق قاعدة مستطيلة تتألف من ساقين أو ثلاثة من الآجر .

وقد كان للجامع ستة عشر باباً يختلف في عرضها اختلافاً بيناً . وكانت هذه الأبواب حين وجدها الرحالة روص [١] في ١٨٣٤ قد تهدم البناء من فوقها فيما عدا الأبواب الكائنة في وسط الضلع الشمالي منه . لكنه يبدو من فحص قوائم الأبواب المحتفظة بشكلها الآن أن فتحاتها كانت مغطاة بعوارض خشبية يسندها من فوقها طاق من الآجر . غير أنه يلاحظ من أقصى باب من جهة الجنوب في الجهة الغربية ان هذا الطاق يأتي فوقه بناء من الآجر الصقيل جداً البارز قليلاً الى الأمام ، والممتد على طول الجدار . وفي الباب المقابل من الجانب الآخر يلاحظ بروز طاق صغير جداً يعتبر جزءاً من عقد متين يمتد الى داخل الجدار كله . ولا يدل هذا الا على أنه كان هناك عدد من الشبابيك الصغيرة المقدسة (ربما ثلاثة) فوق كل باب من الأبواب .

ويلاحظ كذلك ان بناء الأبراج هو بناء بسيط جداً ، لكن كل جدار

---

(١) Ross — in the Journal of the Royal Geographic Society, XI, p. 128.

من الجدران القائمة بينها يكون مزخرفاً بأفريز متألف من ستة مربعات منخفضة ذات حافات مشطوفة عدا مربعات الجبهة الجنوبية التي كان عددها خمسة فقط . ويوجد في كل مربع صحن ضحل لا يزيد عمقه على (٢٥) سم ، وما زال قسم من هذه المربعات مغطى بزخرف جصي . ويبلغ علو الجدار في الوقت الحاضر حوالي عشرة امتار ونصف .

ولقد فتح في القسم الأعلى من الجدار الجنوبي ، فيما تحت الأفريز ، أربعة وعشرون شباكاً ، وشباكان في كل جانب ينفتحان على حرم الجامع ، وبذلك يبلغ عدد الشبابيك ثمانية وأربعين . وتبدو الشبابيك من الخارج وهي عبارة عن فتحات مستطيلة ضيقة ، لكنها مؤطرة من الداخل بأقواس خماسية الفصوص متشعبة من أعمدة صغيرة متشابكة ، وقد ركب هذا كله في أطار مستطيل منخفض .

اما الأساطين التي تستند اليها السقوف فقد أزيلت منذ مدة على ما يبدو ، لكنه يتضح من الحفر المتخلفة عن هذا العمل ان الحرم كان فيه أربعة وستون صفاً منها تكوّن خمسة وعشرين فسحة يكون معدل عرض كل منها (٤,٢٠) متراً ، وهذه تتناظر مع محور الشبابيك عدا الفسحة الوسطى التي تكون أوسع من الباقيات بقليل . وكان من الواضح أيضاً ان السقف كان يستند الى الأساطين رأساً من دون وجود طوق لها ، لأن مثل هذا الطوق لم يكتشف له أي أثر في الجدران .

وقد أيدت تنقيبات هرتسفيلد بأن الحرم كان فيه أربعة وعشرون صفاً من الأساطين ، وفي كل صف تسعة منها ، بالاضافة الى أربعة وعشرين صفاً في الرواق الشمالي ، وفي كل صف من هذه ثلاثة أساطين فقط . أما الأروقة الجانبية فكان في كل منها عشرون صفاً ، وفي كل صف من هذه الصفوف اربع اساطين ، تقوم بموازاة الصحن . وعلى هذا يبلغ مجموع الأساطين

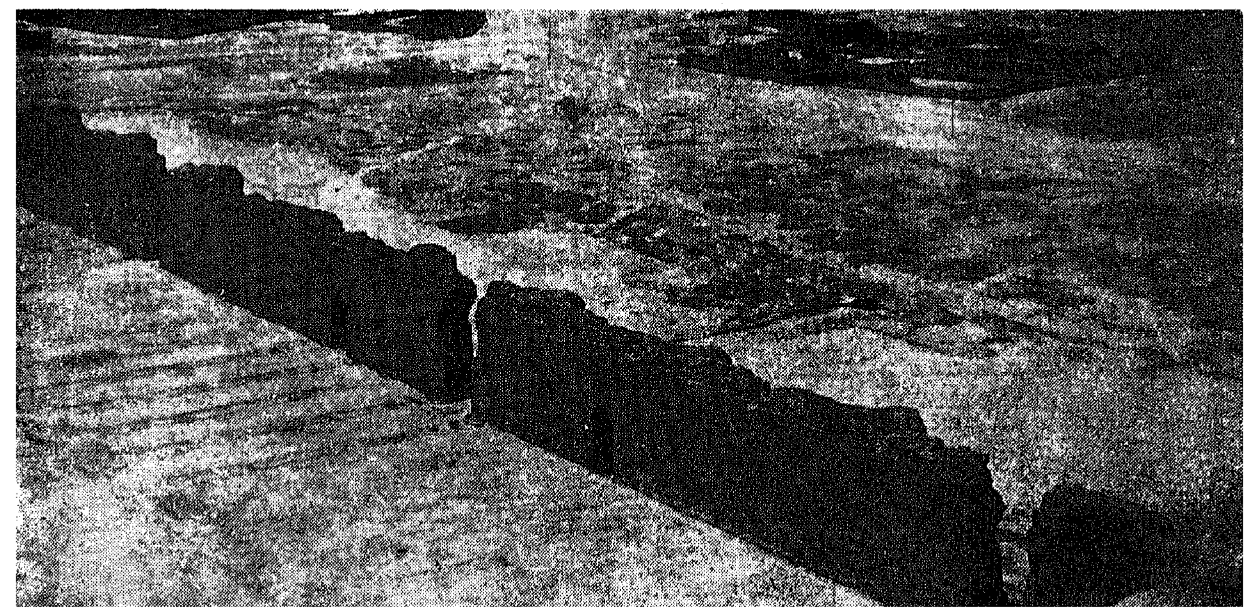
كلها (٤٦٤)[١] .

ولقد بقي من آثار هذه الأساطين ما يكفي لتعيين شكلها . فقد كانت القواعد مربعة الشكل طول ضلعها (٢,٠٧) متراً . وكانت تقوم فوق كل واحدة منها اسطوانة مثمنة الجوانب ، مبنية بالآجر ، عدا الأساطين الركنية الأربعة التي كانت من المرمر .. ولما كانت أعمدة المرمر ، التي تتكون منها الأساطين الركنية ، لا يزيد طولها على المترين فقد كانت الأسطوانة الواحدة تتألف من ثلاثة أعمدة على الأقل يوضع أحدها فوق الآخر وتلحم ببعضها بالرصاص وأوتاد الحديد ، كما هي الحال في جامعي الكوفة وواسط الكبيرين . أما الأساطين المبنية بالحجر فقد بيضت ولونت بحيث تحاكي المرمر في شكلها . ويبلغ الارتفاع الصافي الى حد السقف (١٠,٣٥) متراً أي (٣٤) قدمـــاً .

واتضح عند عملية التنقيب ان فتحةً في وسط الجدار الجنوبي كانت موقعاً للمحراب المتهدم . ولم يكن المحراب مدوراً بل كان مستطيلاً في تخطيطه ،

(١) الص ٦ – ٧ هرتسفيلد Erster Vorlâufiger Bericht

ضلع من بقايا حيطان الجامع الكبير بسامراء



كما هي الحال في الأخيضر ، وكما كانت عليه القاعدة في العراق وايران في العهود الاولى ، بحيث يبلغ (٢,٥٩) متراً في العرض و (١,٧٥) متراً في العمق . وكان يقوم في جانبيه زوجان من أعمدة المرمر وردي الشكل المستجلب من عينتاب ، التي تكون لها تيجان وقواعد بشكل الساعة ، يستند اليها قوسان متحدا المركز في داخل اطار مستطيل يرتفع بارتفاع الجامع نفسه تقريباً . وكانت هناك آثار للموزاييك المذهب في خصور العقود .

ويعزو كريسويل الى المؤرخ المقدسي قوله ان جامع سامراء كان ينافس جامع دمشق ، وان جدرانه كانت مزخرفة بالمينا . ويذهب هرتسفيلد الى أن كلمة « مينا » التي يذكرها المقدسي تعني الموزاييك نفسه ، وقد تأيد ذلك بما عثر عليه في تنقيباته من بقايا الموزاييك المزجج الكثيرة [1] .

وقد لوحظ بوضوح عند التنقيب ان زيادات عدة قد أُدخلت على البناء الأصلي ، ومنها اضافة جدار جديد يمتد من النهاية الجنوبية لكل جدار من الجدارين الجانبيين الأصليين . وتدل التصاوير الجوية على ان هذين الجدارين كانا يؤلفان جزءاً من سور كبير يحيط بالجامع من الشرق والشمال والغرب . وأن هذا المستطيل الكبير كله قد وضع في داخل مستطيل أعظم وأكبر منه بحيث يحيط به من جميع الجهات الأربع . وقد بنيت هذه الجدران الاضافية من الآجر الذي أُخذ القسم الأعظم منه في الوقت الحاضر . وتبلغ أبعاد هذا السور الخارجي ٣٧٦ × ٤٤٤ متراً (١٢٣٠ × ١٤٥٦ قدماً) . ولذلك فان المساحة الكلية للجامع والزيادات الطارئة عليه تصل الى ما يقرب من (١٧) هكتار ، او (٤١) أيكراً [2] .

وعند مقارنة هذا الجامع بجامع ابن طولون في القاهرة ، لا بد من ان نتوقع وجود بنايات ملحقة به للمرافق الصحية وأماكن الوضوء ، ومن المؤسف ان هرتسفيلد وصاره لم يتهيأ لهما الوقت الكافي للتنقيب عن هذه الزيادات .

---

(١) الص ٨ من المرجع الالماني الأخير . (٢) Hertzfeldin Der Islam, V, p. 204

ويتطرق كريسويل بعد ذلك الى ذكر المنارة الملوية وأبعادها ، فيورد نفس المعلومات التي أتينا على ذكرها من قبل .

الأسس الفنية لعمارة الجامع الكبير

ان أول ما يذكره الأستاذ كريسويل[١] في هذا الشأن قوله ان فكرة السّلم الحلزونية التي أُنشئت بموجبها منارتا الجامع الكبير في سامراء وجامع أبي دلف مستمدة من فكرة الزقورة البابلية ، وان هذا شي يعترف به المختصون اعترافاً تاماً . لكن الزقورات لم تكن كلها من نوع واحـــد ، لأن النوع الاعتيادي الشائع منها يتألف من برج مدرج مكون من طوابق عدة متراجعة ذات جبهات متعامدة (غير مدورة) . ويتم الوصول الى الطابق الأول بمرقاة شديدة الانحدار تتقاطع عموداً مع الجانب الجنوبي الشرقي من وسطه ، كما يتم الوصول الى الجوانب الأخرى فيها بامتدادات لهذه المرقاة . ولم يكن هذا الطراز من الزقورات هو الذي استمدت منه فكرة (الملوية) ، وانما استمدت من طراز آخر مربع التخطيط يدور من حوله منحدر خفيف يكوّن عدداً من الدورات الكاملة حتى يصل الى القمة . ومن الغريب ان هذا النوع لم يعرف له وجود الا في مكان واحـــد ، وهو (زقّورة خرساباد) التي اكتشفها بالتنقيب قبل مائة سنة المسيو بلاس ، فعثر فيها على ثلاثة طوابق سالمة وبقايا الطابق الرابع . وهو يقول انه عثر على بناء رباعي الأضلاع تماماً يبلغ طول الجانب الواحد منه (٤٣,١٠) متراً بدلاً من ان يكون بناءاً مدوراً كما كان يتوقع . وتبدأ بهذا مرقاة خفيفة الميل جداً من الزاوية الجنوبية ، وتستمر على طول أحد الجوانب ، ثم تدور حول القرنة وهي تستمر في الصعود دوماً ، وتدور حول القرنات كلها بالتعاقب ، حتى تنتهي بالقرنة التي بدأت منها ، ولكن على ارتفاع (٦,١٠) امتار أو (٢٠) قدماً . ويتجه الدوران

---

(١) الص ٢٧٩ ص : Early Muslim Architecture .

باتجاه مضاد لدوران عقرب الساعة كما هي الحال في ملوية سامراء . وقد تم العثور عند التنقيب على طوابق ثلاثة ، يرتفع كل واحد منها الى عشرين قدماً (٦,١٠) متراً مع بقايا الطابق الرابع كما ذكر من قبل .

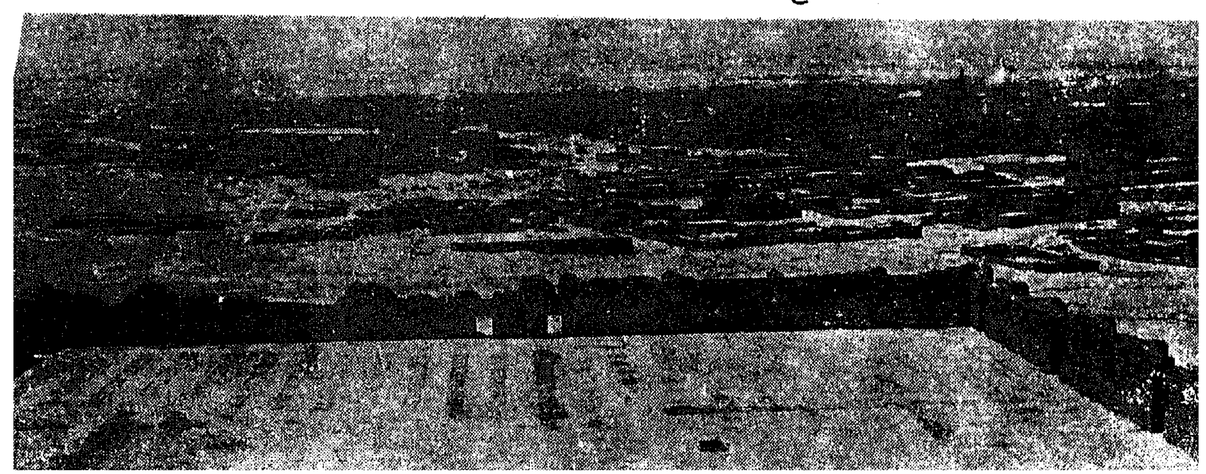
ويقول كريسويل كذلك ان وصف هذه الزقورة التي عثر عليها بلاس ينطبق على الوصف الذي وصفها به هيرودوتس . ثم يضيف الى ذلك قوله أنه لا بد من ان تكون قد وجدت زقورات أخرى في العراق من هذا القبيل خلال القرن التاسع الميلادي ، أي في أيام العباسيين الذين شيدت سامراء في عهدهم ، برغم العثور على واحدة فقط خلال القرن التاسع عشر . ويؤيد ذلك ، على ما يقول كريسويل ، ما ذكره بنيامين التطيلي اليهودي في رحلته التي وصف فيها السلالم الحلزونية المدورة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد . على ان كريسويل يذكر كذلك ان التحوير الذي أدخله معماريو المتوكل على الفكرة هو أنهم شيدوا المرقاة الملوية حول بناء مدور بدلاً من الشكل المربع الموجود في الزقورة المشار اليها .

جامع أبي دلف

كان المتوكل ، قبل ان يقوم بتشييد الجامع الكبير في سامراء ، قد قرر ان يبني مدينة جديدة له في شمال سامراء ، واختار لها موقعاً يقال له « الماحوسة » فبدأ العمل فيها سنة ٢٤٥ (٨٥٩ — ٦٠ م) ، ومدد الشارع الأعظم الى



حيطان الجامع الكبير من جهاته الثلاث وتبدو مدينة سامراء من خلفها



ثلاثة فراسخ أخرى ، أي الى حيث يقع قصر المتوكل الجديد نفسه . وفي اليوم الأول من شهر محرم الحرام ٢٤٧ (١٧ مارت ٨٦١) انتقل الى مدينته الجديدة التي أطلق عليها اسم « الجعفرية » .

وتشغل أطلال القصر الجعفري هذا مساحة تقدر بحوالي (١ ١/٣) كيلو متر مربع ، وهو محاط بأسوار تنتشر فيها الحصون المبنية بالآجر . وهذه لم يتم التنقيب بها على ما يقول كريسويل ، الذي يورد رواية اليعقوبي عن المتوكل ويقول انه لم يسكن في قصره هذا الا تسعة أشهر وثلاثة أيام ، وانه قتل فيه فأصبح قصراً مشؤوماً تذكره التواريخ جيلاً بعد جيل . وكان قتل المتوكل في يوم ٣ شوال ٢٤٧ (١١ كانون الاول ٨٦١) . فخلفه المنتصر ، وعاد الى سامراء بعد ان أمر السكان بأجمعهم أن يعودوا اليها كذلك ... كما أمـــر بتقويض الأبنية ونقل موادها البنائية الى سامراء أيضاً . ولهذا دب الخراب في قصور الجعفرية وبيوتها وأسواقها مع سائر أبنيتها ومرافقها ، واصبحت خرائب تنعق بها اليوم .

لكن كريسويل يقول ان حالة جامع ابي دلف هي على نقيض الحالة التي وجد فيها الجامع الكبير . فقد بقيت من هذا الجامع في سامراء أسواره الخارجية وزالت داخليته من الوجود ، بينما بقيت داخلية جامع ابي دلف قائمة ، ولم يبق من سوره الذي كان مبنياً بالآجر الا أسسه الطويلة ، فيما عدا الضلع الشمالي الذي بقي قائماً الى ارتفاع (٥ ــ ٧) أمتار .

وهناك في الرواق الشمالي ستة عشر عقداً بطبيعة الحال ، كما هو الأمر في الحرم ، ولكن العقد الواحد تكون فيه ثلاثة أقواس فقط يبلغ معدل فتحتها (٣,١٠) متراً . وهذه تنتهي من جهة الصحن بشكل T ، لكنها تنتهي من من جهة الشمال بأساطين جدارية بسيطة مبنية بالآجر المشوي ... وتكون الفسحة الوسطى في الحرم أعرض من سائر الفسحات .

ويكون النصف الأعلى من واجهات الأساطين المواجهة للصحن مزيناً

بحشوة متراجعة يحتوي على فرجة مقوسة ضيقة. وقد بنيت الأقواس كلها بحلقتين من الآجر المربع، فوضعت آجرات الحلقة الداخلية بحيث يتعرض وجهها الى الخارج بينما وضعت آجرات الحلقة الخارجية على حاشيتها، كما هي الحال في مبنى «باب بغداد» في الرقة، على ما يقول كريسويل، فيما يكون سمك كل حلقة آجرة ونصف بدلاً من آجرتين. أما نوعية الآجر فهي أدنى من نوعية الآجر الذي بني به جامع سامراء من قبل، وتختلف الآجرات في حجمها من ٢٥ الى ٢٩ سم مربعاً، ويكون سمكها سبع سم. ويرى كريسويل ان جامع أبي دلف كان له سطح منبسط مثل جامع سامراء الكبير، ولم يكن هذا على أكثر من ارتفاع ثماني أمتار.

ويذكر كريسويل[١] كذلك، نقلاً عن هرتسفيلد، ان الأسوار التي بقيت قائمة من الجامع تبلغ (١٠٦) امتار في سمكها.. وقد تمت تقويتها، كما هي الحال في جامع سامراء، بأبراج حصينة نصف دائرية ما تزال ثلاثة منها شاخصة للعيان من الخارج. وتبلغ هذه حوالي ثلاثة أمتار في عرضها، وتبرز الى الخارج بمقدار (١،٢٠) متراً تقريباً فتكون واجهتها مبنية بالآجر المشوي. وقد كانت هناك أربعة أبراج ركنية، وأحد عشر برجاً متوسطاً في الجهتين الشرقية والغربية وثمانية في الشمال، وعدد غير أكيد — ربما ستة — من الجهة الجنوبية، ليكون المجموع الكلي ثمانية وثلاثين برجاً. ويبلغ معدل طول الجدران القائمة فيما بينها أربعة عشر متراً، كما توجد في بعض الأماكن الواقعة في الجدار الشمالي حزوز خاصة لأنابيب المجاري تبلغ عشرين سنتمتراً في عمقها و (١٨) في عرضها، كما هي الحال في جامع سامراء الكبير.

وقد كانت هناك ستة أبواب من الجهة الشرقية وستة من الجهة الغربية وثلاثة من الجهة الشمالية، فيبلغ مجموعها كلها خمسة عشر باباً. وكانت

(١) الص ٢٨٤ المرجع الأخير.

لهذه الأبواب قوائم من الآجر المشوي ما زال بعضها شاخصاً حتى اليوم

اما المنارة فقد وصفها الرحالة روص[1] بأنها مصغر للملوية المعروفة التابعة للجامع الكبير ، وقد بنيت على مسافة تسعة أمتار ونصف عن جدار الجامع الشمالي . وكانت قاعدتها ، التي تبلغ مترين ونصف في ارتفاعها وأحد عشر متراً مربعاً في مساحتها ، مزخرفة بصف متكون من أربع عشرة حنية صغيرة في الجهات الشمالية والشرقية والغربية ، وعشر حنيات فقط من الجهة الجنوبية نظراً لوجود المدخل الى المرقاة فيها . ويقوم فوق هذه القاعدة الجزء الحلزوني من المنارة ، اما المدخل البالغ عرضه (١,١٧) متراً فيكون في وسط القاعدة . ويتجه الممر الى اليمين رأساً فيبدأ بسيره الحلزوني بحيث يكون ربع الدورة الأول محفوراً في آجر القاعدة القرصية . وقد خربت المرقاة بحيث لا يمكن استعمالها ، وتبلغ علواً يقرب من (١٦) متراً ، وتدور على ما يبدو ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران الساعة .

دور سامراء

ويورد كريسويل في هذا الشأن نص ما كتبه هرتسفيلد[2] الذي يقول أن دور سامراء في تلك الأيام كانت مبنية بموجب طراز خاص . وتتألف الدار الواحدة من مدخل مغطى يؤدي من الشارع او « الدربونه » الى فناء فسيح مستطيل الشكل ، يفضل فيه المقياس ٣ : ٢ . ويقع في نهايته بهو رئيس بشكل T مع غرفتين اثنتين في زاويتين . ويتكرر توزيع الغرف هذا أحياناً في فناء ثان ، مما يمكن ان يستنتج بأنهما عبارة عن حرم ، وديوان . لكنه اذا مـــا تكرر في جانبين متقابلين من الفناء نفسه فأنه يدل على وجود غرف صيفية وشتوية . اما بقية الفناء فتحاط بصفوف من الغرف المستطيلة والمخازن .

---

(١) في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، السنة ١١ ، الص ١٢٩ .   (٢) في الص ١٤ ـ ١٥ من : Erster Vorläufiger Bericht .

ويوجد في غالبية البيوت عدد من الأفنية الجانبية الصغيرة التي توجد فيها غرف تختص بالخزن . وتوجد في البيوت على الدوام حمامات ومجار وآبار في كثير من الأحيان ، ويلاحظ أحياناً وجود أبهاء مفتوحة او مكشوفة تقوم سقوفها على أعمدة ، وسراديب فيها ترتيبات خاصة للتهوية . وقد كانت جميع الدور ذات طابق واحد ، ويصل عدد الغرف في الدار الواحدة الى خمسين أحياناً ! ! . هذا وقد كانت مادة البناء لهذه الدور : الآجر غير المشوي بوجه عام ، إذ لم يكن يستعمل الآجر المشوي الا للماء والمجاري . اما تبليط الغرف والساحات فكان يستعمل له الآجرات الكبيرة التي تصل مساحة كل منها أحياناً الى ٥٠ × ٥٠ سم . وكانت السقوف من دون استثناء تصنع من الألواح المنبسطة ، والأبواب بصورة أفقية على الدوام تقريباً ونادراً ما كانت تغطى فتحاتها بالأقواس المدببة . وقد وجدت شبابيك كانت ملأى بالزجاج الملون وهو بشكل أقراص كبيرة يتراوح قطرها بين عشرين وخمسين سنتمتراً . وبعض الدور كانت الأبهاء وبعض الغرف الخاصة بها مزخرفة زخرفة غير قليلة ، وكان بعضها الآخر مزخرف الغرف بأجمعها . بينما لم تكن ساحات الدور وأفنيتها مزخرفة عامةً ، وكانت وزرات الجدران في الغرف مزخرفة الى علو متر واحد ، وكذلك إطارات الشبابيك وحواشي الجدران العليا ، وأحياناً بطينات العقود المقوسة فوق الأبواب .. وكانت تزخرف حواشي الوزرات العليا ، ووسطها أحياناً ، بالحنيات الصغيرة التي تشكل في الغالب وتؤطر بزخرف توريقي ، كما هي الحال في الدور الشرقية العصرية ، وهي تسمى « طاقچه » بالفارسية . اما مادة الزينة والزخرف في الوزرات فهي الجبس الصافي نسبياً المخلوط بقليل جداً من التراب .

القبة الصليبية ومدافن الخلفاء

ويذكر كريسويل [١] ، مستعيناً باستكشافات هرتسفيلد ، انه توجد في

(١) الص ٢٨٧ من Early Muslim Architecture .

الجانب الغربي من دجلة فوق تل يقع على بعد ميل واحد تقريباً من جنوب قصر العاشق [١] اطلال بناية مثمنة الأضلاع . وهذه تحتوي على مثمن داخلي لا تزال أضلاعه سالمة ، ومثمن خارجي هدم أكثر من نصفه . وتوجد بين الاثنين فسحة عرضها (٢,٦٢) متراً لا بد من أنها قد كانت مغطاة بطاق خاص لا تزال بقايا الأقواس الستة عشر التي يستند عليهما شاخصة للعيان ، تبرز كل اثنين منها من طرفي كل ضلع من أضلاع المثمن الداخلي . وهناك مدخل مقوس يبلغ عرضه سبعة أقدام في كل ضلع باق من أضلاع المثمن الخارجي .. وحينما يدخل المرء الى داخل هذا المبنى يعجب عندما يرى ان الفسحة الوسطى في داخلها تكون على شكل رباعي ، طول ضلعه الواحد (٦,٣١) متراً ، بدلاً من الشكل المثمن الذي يتوقعه . وكل باب من الأبواب تقوم على جانبيها حنية نصف دائرية عرضها (٦٣) سنتمتراً . وهناك ما يدل على ان هذا المبنى كان مغطى بقبة خاصة به . ولقد شيدت البناية كلها بنوع من الحجر الاصطناعي المصنوع بشكل آجرات يبلغ مقاسها ٣٢ ـ ٣٣ سنتمتراً مربعاً وعشر سنتمترات في السمك . وهذا الحجر مصنوع في الغالب من الطين القوي المخلوط بمقدار غير يسير من مادة « الكوارتز » بحيث يصبح

(١) والصحيح : المعشوق وليس العاشق ـ الخليلي

قصر المعشوق في اثناء الصيانة التي تقوم بها مديرية الآثار العامة اليوم



حجراً صلباً .

ويتضح من دراسة هذا المبنى أنه من أبنية العصر الذي بنيت فيه سائر الأبنية التي تلاحظ أطلالها في سامراء اليوم ، من حيث الانشاء والمواد . كما أن نوع الحجر الاصطناعي الغريب المستعمل في البناء يدل على أنه من الفترة المتأخرة في تاريخ سامراء العباسية ، لأن هذه المادة الانشائية قد استعملت كذلك في تشييد قصر العاشق ، وليس في تشييد الابنية الأقدم منه . واذا ما بحثنا في المعلومات المتيسرة لدينا عن دفن الخلفاء الذين عاشوا في سامراء نجد أن أولهم ، وهو المعتصم ، قد دفن في الجوسق الخاقاني ، وان الواثق قد دفن في الهاروني ، وان والدة المتوكل قد دفنت في جامع « الجعفرية » — أي في أبي دلف — اما المتوكل نفسه فقد دفن في القصر الجعفري . لكن المنتصر ابنه كان أول خليفة عباسي يعرف قبره بوجه عام لأن أمه اليونانية طلبت رخصة من المسؤولين لاقامة قبة خاصة فوق قبره فلُبي طلبها ، ويقع هذا الضريح فيما يجاور « قعر الصوامع » . هذا وقد عرف ان المعتز والمهتدي كانا قد دفنا في نفس القبة بعد ذلك أيضاً . ويقول كريسويل ان العلامة هرتسفيلد [١] يقترح ، بناءً على وجود هذه الأدلة القوية ، بأن القبة الصليبية ربما تكون هي القبة التي دفن فيها أولئك الخلفاء الثلاثة من العباسيين . فقد نقب في كانون الأول ١٩١١ تحت تبليط هذه القبة فعثر على ثلاثة قبور إسلامية في تلك البقعة [٢] ، ولذلك يمكن ان يعتبر هذا الاكتشاف تأييداً جلياً لقوله ان القبة الصليبية نفسها هي القبة التي أقامتها أم المنتصر فوق قصر ابنها بعد ان قتل في حزيران ٨٦٢ م . وعلى هذا فانها لا تعد أقدم قبة في الاسلام فقط وانما تعد أيضاً أول قبة من هذا القبيل فيه .

---

(١) في الص ٢٨٦ ، ج ٢ من : Archäologische Reise Erster . (٢) الص ٣٠ من : Erster Vorlaufiger Bericht .

الزخرف السامرائي

لقد قسمت زخرفة الآثار العربية في سامراء ، عند أول اكتشافها ، الى ثلاثة أطرزة على ما يقول كريسويل وهي : الطراز الاول ، والطراز الثاني ، والطراز الثالث .

وتتميز زخارف الطراز الأول بشيوع أغصان وأوراق الكروم فيها : الموجودة في قبة الصخرة وقصر المشتى . لكن زخرفة سامراء هذه قد أدخل فيها شيء من التحوير على شكل الأوراق التي تبقى فيه بوجه عام خماسية الفصوص . ويبدو هذا الطراز واضحاً على الأخص في « باب العامة » ، وهي أقدم بناية بنيت في سامراء .

اما الطراز الثاني فتغلب فيه تراكيب نباتية مركزية ، مثل الوريدات المتكونة من البراعم ، من دون ان تكون لها سيقان . ولذلك لا يلاحظ فيها نمو نباتي ، وانما يكون كل جزء منها مستقلاً بذاته وله منتهاه الخاص به . فنجد في هذا الزخرف شجرة النخيل متقلصة الى قسمها العلوي فقط . وهذا يعني بتعبير آخر انه طراز زخرفي معاكس للطبيعة في الدرجة الأولى ، وأن خطوطاً حلزونية تلتف في القسم الأغلب منه . ومن مزايا الطرازين الأول والثاني الجذابة أنها تتشكل بتركيبات وريدية دائرية كبيرة أو مفصصة ، وتمتليء بها وحدات ذات أشكال مختلفة ، مربعة أو مثمنة وغير ذلك .

وتكون الأشكال في الطراز الثالث قد صنعت مقدماً بقوالب خاصة : فيما عدا بعض الحواشي البسيطة . ويورد كريسويل وصف هرتسفيلد لهذا الطراز من الزينة الزخرفية ، فيبدأ بقوله ان بروز التركيبات الزخرفية يكون على الدوام ضحلاً غير عميق ، وهو أشبه في هذا بحفر الخشب . وهو على درجة من عدم العمق بحيث تنعدم فيه الظلال ، الا في حالات الضوء العمودي ، وهو نادر الوقوع عملياً . وتكون ذروة الأشكال صغيرة جداً على الدوام بالنسبة للارتفاع ، وتتكرر عناصرها بسرعة واحداً بعد آخر على شاكلة

صف الألواح .. ويبدأ الصانع بقص القالب من الخشب فيشكل بموجبه الشكل المطلوب من الطين ، ثم يأخذه فيفخره ، ويصنع الزخرف الجصي على منواله [١] . فقد كان استعمال القوالب في هذه العملية قد جعل من الممكن تزيين مساحات كبيرة من الجدران بسرعة عظيمة . وهناك عناصر زخرفية كثيرة الاختلاف والتباين مثل أشكال القوارير ، وأوراق البرسيم ، وأشكال السعف ، والخطوط الحلزونية ، وما أشبه . وتسيطر على تصميم الزخارف فكرة ملء السطوح وأشغالها في الدرجة الأولى ، بحيث لا يبقى شيء بادياً للعيان من أرضية القطعة المزخرفة . وتحجز كل شكل عن الآخر خطوط هندسية مختلفة ، وبذلك تنحصر الزخرفة في نطاق الأشكال الهندسية المتكونة . وهذه وسيلة توفر الكثير من العمل بحيث لا يستطيع المرء الا أن يفكر بأن هذا المبدأ قد عظم تأثيره بسبب ما يوفره من العمل الكبير الذي كان لا بد من أن يتم بسرعة يكاد لا يتصورها المرء من أجل انجاز بناء سامراء .

عمارة سامراء في دائرة المعارف الاسلامية

وهناك بحث موجز مفيد عن أبنية سامراء وفنها العربي المعروف في دائرة المعارف[٢] الاسلامية المطبوعة سنة ١٩١٣ في لايدن . ويبدأ هذا البحث بقول كاتبه ان سامراء اليوم عبارة عن مساحة كبيرة من الخرائب والأطلال تقع في الجانب الشرقي من دجلة . وتشتمل هذه الخرائب على مواقع أغنى المدن العباسية وأثراها ، التي كلف بناؤها مبالغ جسيمة من المال . وقد جاءت سامراء الى الوجود في ٨٣٨ (الصحيح هو ٨٣٦) في عهد المعتصم بن هارون الرشيد ، ووصلت الى أوج عزها وعظمتها في عهد المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) ثم اندثرت بموته .

---

(١) ١٠ مما كتبه هرتسفيلد Der Wandschmuck . (٢) سبقت الأشارة اليها من قبل .

ويعطي وجود سامراء قصير الأمد لهذه الخرائب أهمية خاصة لدى طلاب الفن الاسلامي واصوله. ومن المؤسف ان يكون عرب العراق قد عمدوا خلال عدة قرون الى اتخاذ هذه الآثار العجيبة مقالع للمواد البنائية، فعجلوا بالخراب الذي أنزلته فيها عوادي الزمن، ومع هذا فقد اماطت اللثام التنقيبات الجارية مؤخراً (طبع البحث في ١٩١٣) عن معلومات مهمة كافية تختص بأسس الأبنية الرئيسة، وتعطينا فكرة واضحة عن جمال المدينة الاسلامية الزاهرة التي كانت تشع ببريقها اللامع على العالم في تلك الأيام.

ثم يأخذ كاتب البحث في دائرة المعارف هذه بتعداد الأبنية والقصور المختلفة، ويصف البعض منها بوصف لا يخرج عن نطاق ما بيناه قبل هذا نقلاً عن هرتسفيلد. على أننا لا بد من أن نضيف هنا ما يقوله عن قصر بلكوارا الذي لم نأت على وصف له من قبل. فقد جاء في هذا البحث ان خرائب بلكوارا تشغل مستطيلاً كبيراً يزيد طول ضلعه الطويل على ألف ياردة. وما تزال تقوم في جبهته الواسعة ثلاثة طوق من الطابوق، وهي مخلفات القصر الوحيدة الباقية منه. وكان هذا القصر قد بناه المتوكل لابنه المهتدي بالله.

وكانت هذه الطوق المواجهة للنهر، وقاعة الاستقبال، مع ايوان الضيوف، مفتوحة باتساع على الوادي. وكانت وراء الطوق ساحات داخلية ثلاث تتبعها الغرف على شاكلة الصليب: وهي غرف العرش، وغرف صغيرة عديدة، وأجنحة سكن خاصة مجهزة بحمامات باذخة. وكانت هناك من الجهة الشرقية حديقة واسعة مستطيلة الشكل تنتشر فيها الشلالات، وتحيط بها جدران ذات ربعات تنفتح على صواوين صغيرة غنية بالزخارف والزينة. اما من جهة الشمال فقد كان هناك نهر كبير ينزل اليه سلم فخم، فضلاً عن الفرض والكهوف الجميلة التي كانت محفورة في أجرافه. وفيما وراء القصر كانت تقع مجموعة من البيوت تضم الحرم والحاشية، مع مسجد صغير، وثكنة كبيرة لحرس الخليفة وخيالتهم.

وكانت العناصر الكثيرة المختلفة التي يتكون منها القصر الجسيم بأجمعه مرتبة ترتيباً بديعاً متناسقاً ، يتكون منه شكل L بمقياس واسع يكون محوره الطويل المتعامد مع النهر منتهياً بحجر الجبهة الثلاث الغنية بالزينة والزخرفة بالموزاييك .

وفيما حول قصر الخليفة كانت هناك بيوت سكن كثيرة الزينة ، وكانت أفخم هذه البيوت وأكثرها تواضعاً مبنية بتصميم واحد . فقد كانت مشيدة بطابق واحد ، وتشتمل على سلسلة من الأقنية الداخلية ونافوراتها ، وكانت تطل على هذه الأفنية الأواوين وغرف الاستقبال . ولقد تخلد هذا الطراز المعماري في بعض البلاد الشرقية الى يومنا هذا . وكانت الزينة الداخلية من أهم ما يميز هذا الطراز . فان تغليف الجدران بالخشب المحفور ، ووجود الأفاريز ، يميز على الدوام غرف الاستقبال وجميع غرف الدور في بعض الأحيان . وكانت الأفنية والساحات الداخلية تزين كذلك أحياناً ، لكن الجدران الخارجية لم تكن تزخرف مطلقاً .

وقد كانت زينة الحفر بالخشب في قصور سامراء وبيوتهـــا على نفس الدرجة من المهارة الفنية ، وهي تعطينا فكرة راقية عن تقدم الفن وتطوره في تلك الفترة . الخ .

وكانت التغليفات الدقيقة تقام على طول الجدران في الغرف الى ارتفاع ثلاثة اقدام . وكانت تقام فوقها طاقات زخرفية ، كما كانت اطارات الأبواب والشبابيك مزينة كذلك . وكانت السقوف تزخرف بكورنيشات وأفاريز ، تصنع معظمها من الجص المزخرف بدقة والملون في بعض الأحيان .

ويكون شكل الزخرف وتصميمه عادةً بأنواع وطُرُز كثيرة الاختلاف . فبعضها بسيط ، وبعضها معرق بعروق كبيرة خشنة الصنع ، بينما تكون غيرها على جانب أكبر من الدقة . وكان بعضها ينحت في محله . بينما كان البعض الآخر يصنع في قوالب على حدة ويركب في الأماكن المطلوبة .

ولقد اقترح بعض المختصين تصنيف الزينة الزخرفية في سامراء الى ثلاثة أطرزة : ١ – الزخرفة ذات الصبغة القبطية . و ٢ – الزخرفة ذات الصبغة الايرانية . و ٣ – الزخرفة ذات الصبغة العراقية . على ان كاتب البحث في دائرة المعارف يقول ان مثل هذا التصنيف غير دقيق وغير ناضج لأنه يؤدي الى ارتكاب الكثير من الخطأ . غير ان ما يمكن استنتاجه من دراسة هذه الأنواع الزخرفية في سامراء هو ان تأثيرات فنية مختلفة قد اجتمعت في هذه البقعة من آسية من دون ان تتضارب ، أو أن يتفوق أحدها على الآخر . فقد كانت سامراء مركزاً ينجذب اليه عدد كبير من الصناع والفنانين من جميع انحاء المعمورة بتأثير الثروة ومركز الخلافة . وبذلك أصبحت سامراء يومذاك بودقة انصهر فيها الفن الهيليني ، والقبطي – السرياني ، والهندي – الايراني ، فأنتج الفن الاسلامي العربي بوجه عام ... ويبدو أن كاتب هذا البحث قد استمد هذه المعلومات من كتابات العلامة هرتسفيلد [١] ايضاً .

لكن كتاباً جليلاً ظهر في السنوات الأخيرة عن الفن الاسلامي عامة باللغة الالمانية ، وترجم الى العربية ، فيه اشارات مهمة لفن العمارة في سامراء ، والزخارف المعمارية المعروفة باسمها . والدكتور كونل أستاذ في جامعة برلين ، وعضو بمعهد الآثار الالماني وجمعية العلوم والفنون ، ومؤلف كتب عدة عن الفن الاسلامي وغيره ترجمت الى عدة لغات . وكان في سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٢ مديراً لأعمال الحفر الأثري لـ (جمعية طيسفون) التي قامت بالتنقيب يومذاك في منطقة طاق كسرى بسلمان باك .

وهو يقول في كتابه عن جامع سامراء الكبير : .. ويعد جامع سامراء المشيد في عهد المتوكل (٨٤٦ – ٨٥٢) أروع المنشآت ذات الأثر في تلك

---

(١) Kühnel, Ernst — Die Kunst Des Islam وقد ترجم هذا الكتاب الدكتور أحمد موسى تلميذ كونل ، وطبعت الترجمة العربية بعنوان (الفن الإسلامي) دار صادر في بيروت سنة ١٩٦٦ .

الفترة . وقد أقيم على رقعة مستطيلة ضلعها الأكبر (٢٦٠) متراً ، والأصغر (١٨٠) متراً ، وكان سطحه بغير عقود ، ويرتكز على دعائم مثمنة الأضلاع ترتبط بها أعمدة من الرخام . وحوله من الخارج سور ذو أبراج مستديرة كما في جوامع المعسكرات والأربطة ، وتقوم مئذنته الملوية خارج السور على هيئة برج حلزوني مصعدة من الخارج على غرار الأبراج البابلية المدرجة (الزقورات) والمنشآت الصينية في عهد تانج . وشيد في سامراء جامع أصغر قليلاً هو جامع أبي دلف ، وله برج مماثل ويرتكز سقفه على عقود مدببة تمتد عمودية حتى جدار القبلة ..

ثم يقول بعد ذلك : وما زال الجامع الرائع الذي بناه أحمد بن طولون في مدينة القطائع بمصر (٨٧٧ – ٨٧٩) في حالة جيدة ، وهو على طراز جامع سامراء ، وفي مصلاه عقود مدببة قائمة على خمسة صفوف من الدعائم ، وتندمج فيها أعمدة مبنية أيضاً بالآجر .. وقد اقتبست بعض الكنائس الرومانية طراز تلك العقود المدببة .. وأقيمت مئذنته خارجه فوق قاعدة مربعة بمصعد داخلي ، يتمشى حلزونياً مع درج خارجي .

ويقول كونل بالنسبة للقصور والمساكن : ..كما يرجح ان قصور الحكام تأثرت في تخطيطها بقصر معسكر اللخميين الذي كان قائماً في الحيرة ، وضاع كل أثر له . وفي مقدمة القصور التي تأثرت به قصر الأخيضر وقصر بلكوارا . اما قصر بلكوارا فقد بناه الخليفة المتوكل لابنه المعتز بالقرب من سامراء ، على غرار قصر الحيرة . وبه عدة أفنية كبيرة متتابعة ، وعدد من قاعات العرش المتعامدة ممتدة على طوله على هيأة أبهاء مكشوفة لها واجهات مؤلفة من ثلاثة عقود . وعن يمين وسطه ويساره تمتد أروقة بها عشرات من المساكن لكل منها فناء خاص . وينتهي ذلك كله بحديقة تتجه نحو نهر دجلة ممتدة الى ما وراء السور الخارجي ، وبها حوض ماء ومرسى للزوارق .. وفي نحو سنة ٨٨٠ أقيم على الضفة الغربية لدجلة قصر العاشق ، وفي داخله قصر أصغر كثيراً مماثل له في التخطيط . وما زال باقياً من قصر الجوسق في سامراء بهو مدخل

منيف طويل .

وكانت بيوت الأفراد كلها من طبقة واحدة ، وتمتد غالباً طولا بمحاذاة النهر ، وعددها حوالي خمسين بيتاً مبنية باللبن على غرار المساكن الجانبية بقصر بلكوارا . وهذا النظام نفسه كان يتبع في المساكن الكبرى ، مع أبهاء مكشوفة ذات أعمدة وحجرات تحت الأرض تتصل بسراديب للالتجاء اليها صيفاً . وكانت هذه البيوت كلها مزودة بالحمامات والمجاري [١] .

وجاء في كتاب [٢] كونل عن « خزف سامراء » ان أعمال الحفر في سامراء كشفت عن قطع خزفية من العصر الاسلامي الأول ، ومصنوعات زجاجية مختلفة . وكانت الكمالية المستعملة وقتذاك بعضها مصنوع محلياً ، وبعضها مستورد من شرق آسية . وهناك أدلة قوية على ان الخزف الصيني الأبيض والخزف المعروف باسم سيلادون كانا يصنعان محلياً ويصدران الى الخارج . كما عثر على قطع حجرية من تائج مزججة تزجيجاً منقطاً ، وعلى آثار أخرى صنعها الخزافون المسلمون على غرار قطع مستوردة ، مع اتجاه جديد في الصناعة ، وابتكار للبريق المعدني الذي يكسب الميناء او المادة الزجاجية لمعاناً معدنياً زخرفياً له تأثير بديع .

وكما استعملت هذه الطريقة في الأواني لتكسبها ألواناً براقة عديدة متجاورة استُعملت في البلاطات التي كانت تكسى بها الجدران على هيئة مربعات لتزيين الجوامع والقصور . ولا شك ان البلاطات التي كُسي بها محراب جامع القيروان جلبت من بغداد . وقد عم انتشار هذه الأواني في البلاد الاسلامية لاستعمالها بدلاً من الأدوات المصنوعة من الذهب ونهى الاسلام عن استعمالها . وقد عثر على شظايا من هذه الأواني والأدوات العراقية في مدينة الزهراء باسبانية ، وفي الفسطاط بمصر ، وفي سوسه والري بايران . كما دخلت صناعة الخزف

---

(١) الص ٣٣ و ٣٤ و ٣٧ و ٣٩ — ٤١ من الترجمة العربية . (٢) الص ٤١ من الترجمة العربية .

ذي البريق المعدني الى تلك الأقطار الثلاثةوالى سورية [١] .

الفنون الاسلامية في سامراء

يعتبر العصر الذي نشأت فيه سامراء ، وعادت الى الاختفاء عن مسرح التاريخ ، من العصور الاسلامية الزاهرة التي ازدهت بالمدنية العربية العباسية وطبق ذكرها الخافقين . فقد رافق النهضة العمرانية الجبارة ، التي نشطت عندما قام خلفاء بني العباس بتشييد سامراء وقصورها ، نهضة في فن العمارة وزخرفها وفي الفنون الجميلة الأخرى بمختلف أنواعها ومجالات عملها .

ولقد كتب عدد غير يسير من الغربيين عن ازدهار هذه الفنون في المدن والمراكز الاسلامية الكبيرة ، وعن الابداع الذي حققه العرب والمسلمون في ميادينها المختلفة . وليس بوسعنا في مثل هذا المبحث ان نلم بجميع ما كتب من هذا القبيل بالنسبة لسامراء والعصر الذي ازدهرت فيه فنونها ، وانما سنقتصر هنا على ايراد ما جاء في مرجع اختصاصي مهم يعد من أهم ما كتب في الموضوع وهو كتاب « الفنون الاسلامية » الذي ألفه بالانكليزية الدكتور م . س . ديماند ، أمين مجموعات الشرق الأدنى في متحف الميتروبوليتان في نيويورك ، ونقله الى العربية أحمد محمد عيسى أمين مكتبة جامعة القاهرة ، ثم نشرته دار المعارف في ١٩٥٤ [٢] .

ويبدأ الدكتور ديماند كتابه الجليل هذا بفصل عن ظهور الاسلام وانتشاره ، وقيام الدول العربية والاسلامية ، فيتعرض إلى ذكر العباسيين في بغداد وسامراء حين يقول : .. وأنشأ العباسيون عاصمة جديدة لهم على دجلة هي بغداد ، التي أصبحت مركزاً مهماً للعلوم والفنون الاسلامية .. وأنشأ المعتصم العباسي

---

(١) Die Ausgrabungen vou Samarra. Der Wandschmuck de Bauten von Samarra, und seine ornamentic (Berlin 1923).

(٢) Dimand, M. S. — A Handbook of Muhammadan Art Hartsdale House 1947.

مدينة سامراء على بعد ستين ميلاً شمالي بغداد ، وكانت هي الاخرى مركزاً ومقراً للخلفاء من سنة ٨٣٦ الى ان هجرت فجأة في سنة ٨٩٢ م .

ثم يأخذ بالبحث في الفنون المختلفة ، فيذكر سامراء عند بحثه في موضوع التصوير والرسوم الحائطية . فيبدأ بقوله [١] ان معلوماتنا التاريخية عن فن التصوير الاسلامي في عصوره الأولى لا تزال قليلة ، ولكننا نستطيع على الأقل ان نتصور مدى الرونق والبهاء في النقوش الحائطية في العصر الأموي وبداية العصر العباسي من الآثار القليلة التي اكتشفت في سورية والعراق وايران . ويبدو التأثير الايراني واضحاً في العصر العباسي على الرسوم الحائطية في قصر من قصور سامراء يرجع الى القرن التاسع . ومن أطرف هذه الرسومات ما وجد بجناح الحريم ، وتضم مناظر راقصات وموسيقيين وحيوانات وطيور ، تنحصر بين تفريعات نباتية ودوائر . غير ان الألواح الخشبية الي عثر عليها في هذا القصر تحوي رسوماً بحتة ، ذات أسلوب اسلامي خالص يشبه اسلوب زخارف سامراء الجصية ، وقوام هذه الرسومات موضوعات نباتية ملونة بالألوان : الأبيض والأزرق والأحمر والأصفر وتحدها حدود باللون الأسود .

والظاهر أن رسوم الجدران في قصور سامراء قد تكونت منها طريقة خاصة صارت تعرف باسمها ، وانتشرت في أنحاء الأمبراطورية كلها . فيقول [٢] ديماند مثلاً ان قصراً من القصور قد اكتشف في خوجو بالتركستان الروسية فوق تل يعرف باسم « تپة مدرسه » فوجدت فيها زخارف يأخذ بوصفها وصفاً كاملاً يقول في نهايته .. وتمثل زخارف هذه الحنيات أسلوب زخارف سامراء السابق ذكره ، والقائم على الأساليب الأموية التي نراها واضحة فيما عثر عليه من تيجان الأعمدة الرخامية في مدينة الرقة ، وكذلك في المنبر الخشبي لجامع القيروان ، وفي الأواني الايرانية البرونزية المحفوظة

---

(١) الص ٢٠ من الترجمة العربية . (١) الص ٣٩ من الترجمة العربية .

في متحف الهرميتاج ، وترجع كل هذه الأمثلة الى النصف الثاني من القرن الثامن أو أوائل القرن التاسع .

وحينما يبحث الدكتور ديماند في موضوع النحت على الحجر والجص يتطرق الى ذكر سامراء بطبيعة الحال . فهو يقول[١] ان النشاط الفني العظيم في العصر العباسي يقترن بنشأة مدينة بغداد ، وبتأسيس مقر الخلافة الموقت في سامراء على نهر دجلة . وقد كشفت الحفائر التي أجراها في مدينة سامراء علماء الآثار الألمان باشراف صاره وهرتسفيلد عن مدينة عظيمة رائعة . والمعروف ان المعتصم أنشأ هذه المدينة عام ٢٢١ (٨٣٦ م) ، وكمل بناؤها وزاد اتساعها ثم هجرت في مدة قصيرة لا تتجاوز سبعة وأربعين سنة (٨٣٦ ــ ٨٨٣) بقيت سامراء خلالها مقراً لثمانية من الخلفاء . واشتملت المدينة على طرقات واسعة ومساجد جميلة وقصور وأسواق وملاعب ، وأحيـــاء خاصة لسكنى أجناد الجيش التركي وعمال الدولة وسائر المواطنين . وجُهِّز قصر الخليفة كما جهزت المنازل الخاصة بالحمامات والنافورات ، وزينت جدران الغرف الرئيسة بالصور الحائطية ، وغطيت الأجزاء السفلى من جدرانها بوزرة من الجص الى ارتفاع ٤٠ بوصة . وفيما عدا حشوات قليلة أصيلة ، فان جميع حشوات متحف برلين عبارة عن نماذج منقولة بالصب ، نقلها رجال بعثة الحفائر في سامراء عن القطع الأصلية ، ومن نفس المواد التي عملت منها هذه القطع . ولدى متحف المتروبوليتان أربعة من هذه « القوالب » حصل عليها من متحف برلين .

وتدل أساليب زخارف سامراء الجصية على ثلاث مجموعات مختلفة ، يتضح من المجموعتين الثانية والثالثة ان الزخارف حفرت على الجدران ، او على حشوات جصية منفصلة ثبتت بعد ذلك على الجدران ، اما في المجموعة الأولى فقد صبت الزخارف في قوالب ، ويمكن اعتبار اسلوب المجموعة

---

(١) الص ٩٢ ــ ٩٥ الترجمة العربية .

الثالثة أقدم الأساليب جميعاً ، وتتكون زخارفه من تفريعات العنب وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية وأشكال الزهريات داخل تقسيمات هندسية وجامات سداسية الفصوص . ومع ان الزخارف هنا تعتمد على أساليب الزخرفة الأموية الا أن رجال الفن العباسيين ابتكروا أشكالاً جديدة ذات مظهر زاخر رائع ومن الخصائص المميزة للزخرفة في العصر العباسي هو عناية رجال الفن بابتكار العناصر الزخرفية واختلاف عمق الحفر الذي نرى خير امثلته في منبر خشبي مهم بمسجد القيروان، وفي حشوة خشبية من تكريت محفوظة بمتحف المتروبوليتان

اما المجموعة الثانية فتمتاز زخارفها بتجردها عن الطبيعة ، وتتكون من اشكال زهريات وتفريعات هندسية ، تحمل أوراقاً نباتية دائرية او أشكالاً مختلفة من المراوح النخيلية . وقد نحتت هذه الزخارف نحتاً قليل البروز ، وكسيت بأشكال معينة مضلعة .. ويتمثل في أسلوب المجموعة الأولى اكتمال تطور مبدأ خاص من مبادىء الفن الاسلامي هو مبدأ تغطية الفراغ تغطية تامة . وكادت تختفي الأرضية تماماً في هذه المجموعة ، أو اقتصرت على حزوز ضيقة نتيجة اتباع طريقة جديدة في الزخرفة . وأساس هذه الطريقة ان تنحت العناصر الزخرفية نحتاً مائلاً ، وتتقابل حوافها بعضها ببعض في شكل زوايا منفرجة . وقد اتبعت هــذه الطريقة أيضاً في النحت على الحجر والخشب ويطلق عليها عادةً الاصطلاح المعروف بالنحت المشطوف او المائل . وتتكون الأشكال الزخرفية المجردة من مجموعة من التعبيرات قوامها تفريعات من التواريق النباتية ومقتبسات من المراوح النخيلية أضيفت اليها تحزيزات قليلة وخطوط قصيرة ونقط . واشتملت تلك الأشكال أيضاً على كثير من الزخارف التقليدية الاسلامية ، ولكنها فقدت العناية بتفاصيلها حين استخدمت في هذا اللون الجديد من الصنعة . وشاعت طريقة النحت المشطوف هذه في عصر العباسيين ، بل عرفت في عهد هارون الرشيد ، ويمثلها في متحف المتروبوليتان تاج عمود جميل من المرمر .

وكان من عادة الولاة المسلمين استقدام مهرة رجال الفن والصناعة من

الأقاليم المختلفة ليشيدوا لهم المدن والقصور والمساجد . وسبق ان ذكرنا انه عند تأسيس مدينة بغداد جمع الخليفة لها العمال من سورية والموصل والكوفة وواسط والبصرة وايران . ولا بد من أن يكون هذا التقليد قد اتبع عند بناء سامراء ، ويدل تعدد أساليب زخرفتها على كثرة الاتجاهات الفنية التي سادت العصر العباسي .

وقد اتبعت الأساليب الزخرفية في الحفر على الجص والحجر أيام العصر العباسي في سائر الأقاليم الاسلامية . ودخل هذا الاسلوب مصر من العراق زمن الدولة الطولونية ، اذ نرى اسلوب زخارف سامراء من المجموعتين الثانية والثالثة واضحاً في الزخارف الجصية بمسجد ابن طولون سنة ٢٦٣ (٨٧٦) . وشاعت بمصر كذلك طريقة النحت المائل التي لاحظناها في الزخارف العباسية . اما في ايران فيشاهد أحسن مثال للاسلوب العربي العباسي في الزخارف الجصية الزاخرة في مسجد نايين بالقرب من مدينة يزد ، وهي زخارف من ورق العنب تذكر بالاسلوب الثالث من جص سامراء . ويظهر في نايين نوع من زخارف المراوح النخيلية يوضح اتجاهاً جديداً نحو المغالاة في زخرفة المسطحات . وتدل هذه التعبيرات الفنية على ان زخارف نايين متأخرة عهداً عن سامراء ، وأنها ترجع الى أوائل القرن العاشر . ويقول ديماند بعد ذلك : .. وقد استعار الفن العباسي فيما استعار من فنون الأمم الأخرى الأشرطة الزخرفية التي تحولت في اسلوبي سامراء ونيسابور الى أشكال زهرة اللوتس المثلثة ، الموصولة بطيور او مراوح نخيلية . وتشبه زخارف نيسابور الجصية زخارف كل من سامراء ونايين ، ولكنها تفصح عن تعبيرات ومبادىء زخرفية جديدة .. ويحتمل ان ترجع معظم زخارف نيسابور الجصية الى أواخر المدة التي أعيد فيها بناؤها ، اي بين سنتي ٩٦١ و ٩٨١ (بعد سامراء بحوالي مائة سنة) .. وهكذا تعتبر هذه الزخارف حلقة اتصال مهمة في سلسلة الزخارف الجصية الايرانية بين الاسلوبين العباسي والسلجوقي .

ويعالج ديماند موضوع حفر الخشب أيضاً فيتطرق الى ذكر سامراء بمناسبة الزخرفة التي يتناولها الحفر. فيقول[١] ان الاسلوب العباسي المجرد يتمثل هنا في وجود زخارف من فروع العنب تحمل أوراقاً نباتية متناهية في البعد عن الطبيعة، وكيزان صنوبر بدلاً من عناقيد العنب.. وتزين مناطق أخرى من تلك الحشوات موضوعات مجردة تتكون من عدة تعبيرات مركبة يمكن اعتبارها الأصول الفنية لبعض العناصر الزخرفية للأسلوبين الثاني والثالث من جص سامراء. ويعتبر منبر القيروان الذي يرجع الى عهد هارون الرشيد واحداً من روائع أمثلة الحفر على الخشب من مدرسة بغداد. وتدل زخارفه، كما تدل زخارف جص سامراء، على مهارة فائقة في اظهار التفاصيل وتنوع مستويات الحفر.. ويذكر ديماند بعد ذلك انه سبق له ان قال بأن للفنانين المسلمين في ختام القرن الثامن الميلادي اسلوباً زخرفياً يناسب طريقة الحفر الجديدة، وهي طريقة الحفر المائل أو ــ المشطوف ــ التي يغلب ان يكون أول ظهورها على الخشب. ويحتفظ متحف المتروبوليتان من هذا الاسلوب العباسي الجديد بمصراعي باب وحشوتين، من المحتمل ان تكونا جزءاً من كتفي باب او من سقف منقوش. ولما كان العثور عليهما في تكريت فالمرجح ان تكونا قد جاءتا من مكان قريب من سامراء نفسها. والحشوتان من أكبر وأكمل أمثلة الحفر على الخشب في تلك المنطقة.

اما في موضوع الخزف وصناعته الفنية فيقول[٢] الدكتور ديماند ان الفتح لبلاد الشرق الأدنى كان بداية عهد جديد في تاريخ فنون الخزف. وقد اتبع الخزافون المسلمون في أول الأمر الأساليب التقليدية التي سادت مصر وسورية والعراق وايران، ولكن هؤلاء الفنانين أخذوا يبتكرون تدريجياً أساليب جديدة في زخرفة الخزف، وكانت لهم خلال القرن التاسع ابتكارات على جانب من التنوع، سواء في الزخارف أم في الألوان أم في الأساليب الصناعية.

---

(١) الص ١١٦ من الترجمة العربية. (٢) الص ١٦٤ المرجع السابق.

وأصبحت هذه الابتكارات من مميزات صناعة الخزف في العالم الاسلامي .

ثم يقول : وقد أمدتنا الحفائر الأثرية التي أجريت في مناطق مختلفة من البلاد الاسلامية مثل سامراء والفسطاط والمدائن والري وغيرها بمادة لها أهميتها بالنسبة لتاريخ الخزف في بداية العصر الاسلامي . ولما كانت سامراء قد أنشئت وهُجرت بين عامي ٨٣٦ و ٨٨٣ فان الخزف الذي اكتشف في أطلالها يرجع بالتأكيد الى القرن التاسع ، وبالتالي فانه يساعدنا على تاريخ الفخار المشابه له في بعض البلاد الأخرى .

ويقول ديماند ان الخزف العباسي ذا اللون الواحد يمكن تقسيمه الى مجموعتين : الأولى وتشتمل على جرار كبيرة مغطاة بدهن براق أزرق وأخضر ، اما زخارفها البارزة المكونة من أشرطة وتفريعات نباتية فمصنوعة بطريقة الصب بالقرطاس ، وهي الطريقة التي اتبعت عادةً في زخرفة الفخار غير المدهون . وتتكون المجموعة الثانية من أوانٍ أكثر رقةً ، فتشتمل على صحون صغيرة وأكواب وأوانٍ أخرى من بينها زمزميات ذات حليات زخرفية بارزة مغطاة بطلاء أخضر براق . وتتألف زخارف ما عثر عليه من الأواني في سامراء من رسوم هندسية ونباتية وأوراق محوّرة . وينسب الى المجموعة السابقة عدد من الأواني الصغيرة ، معظمها صحون مغطاة بطلاء أصفر من أملاح الرصاص له بريق ذهبي يعتبره بعض المختصين بريقاً معدنياً حقيقياً ، ويعتبره البعض الآخر بريقاً قزحي اللون . ويحتمل ان يكون بعض ما عثر عليه من القطع الخزفية في سامراء والمدائن والفسطاط ذا بريق معدني حقيقي ناتج من تلوين طلائها بأملاح الحديد والأنتيمون .

ويتطرق [1] هذا البحث الى صناعة الفخار المدهون ذي الزخارف المحزوزة كذلك ، فيشير الى أن هـذا الفخار وزخرفته قد كثر استعماله ، مع بقع وتعريقات باللون البني المصفر والأخضر الأرجواني الفاتح تقليداً للأواني

(١) الص ١٦٦ المرجع نفسه .

الصينية التي استوردها العباسيون ، وعثر على قطع منها في عدة أماكن من بينها سامراء والمدائن ونيسابور . وقد اكتشفت بشرق العالم الاسلامي ، مثل سامراء والمدائن وسوس وسمرقند ، كميات كبيرة من هذا النوع من الخزف الذي يرجع الى ما بين نهاية القرن الثامن والعاشر الميلادي . وكان بعض ما عثر عليه من الأواني متقناً الى حد كبير ، والبعض الآخر مشوهاً في رسومه .

وتحت عنوان « الخزف ذو الزخارف المرسومة بالبريق المعدني » يقول[1] الدكتور ديماند أنه عثر على الخزف العباسي بالعراق في كثير من الأماكن مثل سامراء والمدائن ، وفي ايران في مدينة سوس والري بوجه خاص ، وفي مصر في أطلال مدينة الفسطاط . ويعتبر الخزف العباسي المحلى بزخارف من البريق المعدني من أجود منتجات الخزف في العالم الاسلامي كله ، فان صناعة البريق المعدني كانت من الابتكارات العظيمة التي اهتدى اليها الخزافون المسلمون في القرنين الثامن والتاسع .. ويصنع هذا النوع من الخزف عادةً من طفل أصفر نقي مغطى بطبقة غير شفافة من المينا القصديرية ترسم عليها الزخارف بالأكاسيد المعدنية بعد حرقها للمرة الأولى . ثم تحرق للمرة الثانية حرقاً بطيئاً جداً تحت درجة حرارة أقل من الأولى ، تتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ فهرنهايت وعندئذ تتحول الى الأكاسيد المعدنية باتحادها مع الدخان الى طبقة معدنية رقيقة جداً . ويصبح بريق اللون المعدني المتخلف اما ذهبياً أو أحد أطياف اللونين البني او الأحمر . ولم ينته القرن التاسع حتى صار الخزفيون المسلمون سادة تلك الصناعة التي اقتصر أمرها على الشرق الأدنى . وقد أخرجت لنا حفريات سامراء التي قام بها كل من صاره وهرتسفيلد بعضاً من أروع أمثلة الأواني ذات البريق المعدني وهذا ما دفع البعض الى القول بأن صناعة البريق المعدني عراقية الأصل .

---

(١) الص ١٧٤ المرجع نفسه .

.. وقد وجدت أنواع من الخزف ذي البريق المعدني المتعدد الألوان بايران في السوس والري وكذلك في مصر ، ولكن خير ما يعرف منها ما اكتُشف منها في سامراء نفسها .. ويعتبر الخزف العراقي ذو البريق المعدني الذي يرجع الى العصر العباسي والذي اكتشف في سامراء أحسن ما وصلنا من هذا النوع ، وذلك الى جانب ما أمدتنا به المدائن من أمثلة كثيرة جميلة منه . ويفوق ما صنع للخلفاء العباسيين بسامراء (٨٣٦ — ٨٨٣) من خزف ذي بريق معدني جميع أنواع الخزف الاسلامي البراق في ما تلا ذلك من العصور ، من حيث جمال شكله أو بهجة ألوانه . وقد رسمت زخارف خزف سامراء بعدة ألوان أو بلون واحد هو الأصفر الذهبي أو الذهبي المخضر ، أو البني فوق طبقة من المينا القصديرية .

وتعد القطع المتعددة الألوان ، أجمل ما أنتجته سامراء من أنواع الخزف ذي البريق المعدني . ونرى في مجموعة منه اللون الذهبي ، والأخضر الزيتوني ، والأخضر الفاتح ، والبني المائل الى الحمرة . اما زخارفه العباسية الاسلوب فتتكون من تفريعات نباتية بها تعبيرات زخرفية على هيئة الأقماع ، وأشكال أزهار بعيدة عن الطبيعة وتواريق متنوعة ومراوح نخيلية ثلاثية الفصوص ، ومراوح نخيلية مجنحة ، ثم زينته هذه الموضوعات وما بينها من فراغ بتهشيرات تشبه قطع الفسيفساء من أشكال المعينات والفروع النباتية والدوائر المنقطعة .

ويقول [١] ديماند كذلك في هذا الشأن أن أواني سامراء ذات البريق المعدني تشبه بلاطات فاخرة ذات رسوم من لون واحد أو عـــدة ألوان (الذهبي والأصفر الطفلي والبني المحمر) وهي بلاطات محراب مسجد سيدي عقبة في مدينة القيروان بتونس . وتذكر لنا المراجع العربية انها استوردت ، ومعها المنبر الخشبي المشهور الموجود بالجامع ، من بغداد على الأرجح . وقد أيدت حفريات سامراء تأييـــداً حقيقياً ما تذكره المراجع العربية . ولا بد من ان

---

(١) الص ١٧٧ المرجع نفسه .

تكون بلاطات جامع القيروان من صناعة بغداد لأنها تسبق بتاريخها خزف سامراء . ولما كانت سامراء مقراً موقتاً لخلفاء بني العباس فيمكن اعتبارها فرعاً للمدرسة العراقية في صناعة الخزف ذي البريق المعدني الذي كانت بغداد مركزه الرئيسي . وتدل الزخارف الغنية والتنوع الكبير في رسوم بلاطات محراب جامع القيروان على مقدار تفوق العراق في صناعة الخزف ذي البريق المعدني في النصف الاول من القرن التاسع .

ويسترسل الدكتور ديماند في هذا البحث الشيق فيقول ان هناك مجموعة أخرى تفوقت على بلاطات جامع القيروان ، وهي من خزف سامراء ، مرسومة ببريق معدني ياقوتي اللون يوجد في أغلب الأحيان مع اللون الأصفر والأخضر والذهبي والأرجواني . ولم يقتصر مثل هذا الجمع بين الألوان الفنية على الأواني حسب بل وجد كذلك على بلاطات استخدمت في تزيين قصر سامراء . وكانت في متحف برلين أمثلة منها على جانب عظيم من الجمال . ويزين بعض هذه التربيعات رسم ديك داخل اكليل على أرضية صفراء مرمرية .

وفي بحث « الخزف ذو الزخارف المرسومة فوق الدهان » يذكر [١] الاستاذ ديماند ان من انواع الخزف العباسي الجميل نوعاً رسمت زخارفه فوق الدهان باللونين الأزرق والأخضر ، وعثر عليه في سامراء وسوس والري وقد صنع هذا النوع من الخزف ، مثلما صنعت الأواني العباسية ذات البريق المعدني ، من طفل أصفر نقي مغطى بطبقة من المينا القصديرية اللون ، ويدخل هذا النوع في ضمن خزف سامراء . وتحتوي زخارفه على كتابات كوفية باللون الأزرق مع بقع حمراء ، كما تحتوي على أشكال من الأوراق النباتية أو السيقان المزهرة ذات المراوح النخيلية بطريقة سريعة باللون الأزرق او الأزرق مع الأخضر .. وقد أمدتنا حفريات نيسابور بأمثلة عديدة من الخزف الذي صنع بشرق ايران تقليداً لخزف العراق .

---

(١) الص ١٧٩ المرجع الأخير .

ويتطرق كتاب ديماند الى البحث عن الخزف غير المدهون كذلك . وهنا أيضاً يأتي ذكر سامراء العباسية حينما يشير المؤلف الى انه قد وصلتنا عدة أمثلة مزخرفة من هذا الخزف من سامراء والمدائن ونيسابور . كما يشير كذلك الى ان هناك مجموعة أخرى من الخزف غير المدهون ، عملت زخارفه بواسطة أختام مستديرة او غير مستديرة . وتشتمل زخارف الأختام على رسوم حيوانات وطيور وأشكال آدمية ووريدات وكتابات كوفية . وقد وجدت أمثلة هذا النوع في بلاد العراق ، ووجدت في سامراء أمثلة عديدة من هذا الخزف ذات رسوم حيوانية ترجع الى القرن التاسع .. ويبدو مما عثر عليه بسامراء من أمثلة هذا النوع ان زخارف الأواني الخزفية غير المدهونة أقل جودةً واتقاناً في القرن التاسع عن مثيلاتها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

ويأتي ذكر سامراء بعد هذا في معرض البحث عن « الخزف الاسباني المغربي » حيث يقول[1] ديماند أنه قد وجد في مدينة الزهراء بالأندلس بقايا من قطع الخزف ذي البريق المعدني ، ذات صلة بما عرفناه من خزف سامراء وغيرها من بلاد العراق ، وليس ببعيد ان يكون مستورداً من تلك البلاد .

وهناك فصل[2] ممتع في كتاب الدكتور ديماند عن « الزجاج والبلور » : يقول فيه أن أواني سامراء الزجاجية المصنوعة في القرن التاسع يتضح منها ان أشكالها كانت استمراراً لأشكال الأواني الساسانية التي كشف عنها بالمدائن وكش . ثم يقول في مكان آخر ان من الأساليب القديمة المعروفة نقش الزجاج وحفره اما باليد أو بواسطة عجلة خاصة بذلك ، وان ما وجد في مصر وسورية من الزجاجات والأباريق من هذا النوع بسيط جداً في زخارفه .. على اننا نرى في القطع المنسوبة الى سامراء في القرن التاسع تقدماً ملحوظاً في زخارفها المحفورة .. وقد عثر في سامراء كذلك على مجموعة عظيمة الأهمية من بقايا قطع الزجاج البلوري النقي من القرن التاسع تزينها زخارف محفورة حفراً

(١) الص ٢٢٧ المرجع الأخير . (٢) الفصل الحادي عشر ، الص ٢٣٠ .

غائراً. ويمكن اعتبار هذه المخلفات العباسية، على قول الدكتور لام، من انتاج العراق، ويحتمل ان تكون من انتاج بغداد بالذات لما ذاع عنها من شهرة في صناعة الزجاج ذي الزخارف المقطوعة. ولنا كذلك ان نعتبر تلك المخلفات العباسية مصادر فنية لهذا النوع ذاته في العصر الفاطمي.

ويأتي ذكر سامراء بعد هذا (الص ٢٤٩ من كتاب ديماند) في بحث «النسيج المصري زمن العباسيين والطولونيين» حين يقول الدكتور ديماند ان شهرة دور الطراز في مصر قد ذاعت بما انتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية التي كانت تصدر منها في العهد الاسلامي الى البلاد العربية الأخرى مثل سورية والعراق وغيرهما. وقد وجدت في سامراء قطعة نسيج كتانية من القرن التاسع، عليها كتابة مطرزة بالحرير الأحمر تدل على أنها صنعت بمدينة تنيس قرب بورت سعيد.

هذا والملاحظ ان الدكتور فيليب حتي يشير في كتابه [١] «تاريخ العرب» المنشور بالانكليزية كذلك الى الفنون والصناعات الاسلامية في مناسبات عدة، لكن بصورة مقتضبة. فيذكر مثلاً أن باني سامراء، الخليفة المعتصم، قد أمر بأن تزين جدران قصره برسوم كلسية تمثل نساء عاريات ومناظر صيد مختلفة، كما فعل قصير عمره قبله، ولعل ما وجد من هذا القبيل كان من صنع الفنانين المسيحيين. واستخدم من بعده المتوكل، الذي بلغت سامراء على عهده الأوج في عظمتها، رسامين بيزنطيين لزخرفة الجدران في قصوره. ولم يتورع هؤلاء عن ادخال صورة من صور الكنائس والرهبان بين الصور التي رسموها. ويستند فيليب حتي في هذا الخبر على مقال لأرنست هرتسفيلد نشره في احدى المجلات الالمانية سنة ١٩٢٧.

ويتطرق الدكتور حتي كذلك الى صناعة الصيني والخزف عند العرب

---

(١) Hilli, Philip K. – History of the Arabs, Macmillan, (London 1937.

فيقول [١] ان من بين النفائس الموجودة في متحف اللوفر ، والمتحفة البريطانية ومتحف الآثار العربية في القاهرة ، قطعاً فنية رائعة من صنع سامراء والفسطاط مثل الصحون والأكواب والمزهريات والجرار والأسرجة ، المصنوعة للبيوت والمساجد . وقد زينت هذه جميعها بزخارف ذات بريق معدني أخاذ أو كسيت بطبقات معدنية دقيقة ذات صبغات قزحية . ويذكر ، في صدد البحث عن المباني التي أنشأها أحمد بن طولون في مصر ، ان هذه المباني كانت متأثرة الى آخر حد بفن العمارة المعروف في سامراء التي قضى معظم أيام صباه فيها . وان شطراً كبيراً من القرآن الكريم قد نقشت آياته بخط كوفي جميل على الأفريز الخشبي الممتد حول داخلية جامع ابن طولون ــ كما يقول [٢] بالاضافة الى ذلك ان المعتصم يُعزى اليه تأسيس معامل جديدة للزجاج والصابون في سامراء وبغداد ، قد أمر بتأسيس معامل للورق فيها أيضاً .

هذا وهناك مراجع [٣] ثلاثة أخرى عن الفنون الاسلامية ، كتب أصحابها عن سامراء وفنها المعماري بصورة مقتضبة ، لكن مرجعنا المذكور في أعلاه يعتبر أكثرها فائدة وأحدثها في المعلومات والاحاطة .

خلفاء سامراء

كانت سامراء ، برغم ما صرف على تشييدها وانتقال مقر الخلافة اليها من مال وجهود ، قد قُدر لها أن تكون قصيرة العمر وان لا يطول امد الخلافة فيها الا مدة لا تكاد تبلغ الخمسين سنة ونيف (٨٣٣ ــ ٨٨٢) . فقد تربع على كرسي الخلافة العباسية الذي انتقل اليها خلفاء ثمانية فقط ، لم يكن أكثرهم سوى آلات مسيرة بأيدي القواد الأتراك ، الذين استفحل أمرهم

(١) الص ٤٢٣ المرجع الأخير . (٢) الص ٣٤٧ المرجع الأخير .

(٣) Migeon, Gaston — Manuel d'Art Musulman (Paris 1927).
Kühnel, Ernst — Islamishe Kleinkunst (Berlin 1925).
Gluck, Heinrich & Diez, Ernst — Die Kunst des Islam (Berlin 1925).

بحيث كانوا يعزلون هذا الخليفة وينصبون غيره بكل ما في هاتين العمليتين من إذلال واهانة . ومن يدري فلعل ما أصاب المتوكل وأبناءه من هذا التنكيل : وما حل بقصورهم ومرابعهم من خراب وتهديم قبل ان يتمتعوا بها زمناً طويلاً ، لم يكن الا عقاباً من الله العزيز القدير ، على ما يقول بعض المؤرخين لكونهم انتهكوا حرمة الحسين أبي الشهداء وأبنائه واضطهدوا آل البيت النبوي الكريم في كل مكان .

وقد كتب عن هؤلاء الخلفاء عدد يسير من مؤرخي الغرب وكتابهم ، من مثل بروكلمان الألماني ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وسيتون لويد[١] : وغيرهم . على ان خير من كتب من هؤلاء بصورة موجزة مفيدة المستر ريتشارد كوك في كتابه المعروف « بغداد مدينة السلام »[٢] . فهو يبدأ بتولي المعتصم ثالث من يتولى الخلافة من أبناء الرشيد ويقول انه سكن في بداية أمره « الجعفري » قصر الوزير جعفر البرمكي القديم في الجانب الشرقي من بغداد ، لأنه كان مسكن أخيه المأمون الرئيس من قبل . ثم بنى لنفسه قصراً خاصاً في المخرم وترك الجعفري لبوران أرملة المأمون العجوز . على أنه قرر بعد ثلاث سنوات ان يتحرك حركة أخرى كان من نتيجتها ان تحرم بغداد من وجود الخلافة فيها مدة تبلغ ستاً وخمسين سنة . فقدكان العباسيون يعتمدون في تسيير شؤون الأمبراطورية وضبطها على أناس من أقوام غريبة ، وكان حرسهم الخاص منذ البداية يتألف من جنود ينتمون الى مختلف الأمم الشرقية ومن الأتراك وحدهم بعد ذلك . وقد استعصى أمر هؤلاء في النهاية حتى أصبحوا أشبه ما يكون بالحرس « البريتوري » ، فضج البغداديون من تصرفاتهم الشائنة وسوء سلوكهم . فقرر المعتصم في أحد الأيام ان يأخذ بمشورة قواده الأتراك وينقل مقر الحكومة عن بغداد . فوقع اختياره الأول على مكان

---

(١) Lloyd, Seton — Twin Rivers, Oxford Un. Press, 1943.

(٢) Coke, Richard — Baghdad the City of Peace (London 1935). الص ٩٠ — ٩٧ .

يقع في أعالي النهر يسمى « القاطول » ، ثم غير رأيه بعد هذا فانتخب موقع سامراء ، وهي من البلدان التي كانت موجودة قبل الفتح العربي للعراق بالقرب من القصر الصيفي الذي شيده الرشيد له من قبل . وقد بقيت الحكومة في هذا المكان خلال مدة حكم المعتصم وأخلافه السبعة . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يعد للمعتصم أي اتصال مباشر بمدينة السلام ، عدا ما قام به بعد ذلك من ارسال البوابة الحديد الكبرى التي اقتلعها جنده المنتصر في حصار عمورية . وقد استخدمت هذه البوابة بعد ذلك في تزيين قصور الخلفاء عند عودتهم الى بغداد من سامراء .

وقد توفي المعتصم سنة ٨٤٢ فأعقبه ابنه هارون في الخلافة ، ولُقب بالواثق بالله . ومما يجدر ذكره هنا ان هذا الخليفة هو محور المؤلّف الرومانتيكي المشهور الذي ألفه الكاتب الانكليزي بيكفورد . وكانت شؤون الخلافة مستقرة ومزدهرة في عهده ، لكنه عاش مدةً قصيرة لم تؤهله لترك طابع معروف في ادارتها . ويعتبر موته في العادة نهاية العصر الذهبي الذي عاشت فيه الدولة العباسية .

وكان خلفه ، أخوه جعفر ، الذي تلقب بالمتوكل على الله ، متطرفاً في تأييده لعقيدة السنة ؛ فألغيت بأمرٍ منه في الحال جميع الأنظمة والتعليمات التحررية التي صدرت في عهد أسلافه . وبدأت فترة من حكم الارهاب الذي أصابت شروره الشيعة والمعتزلة واليهود والنصارى على سواء . وأخذ أتباع أحمد بن حنبل يرهبون الناس في بغداد فكان ذلك بداية القصة الطويلة للفتن الدينية ، وعدم التسامح ، التي فعل تأثيرها السيء في الأخير فعله في مصير مدينة السلام المحزن . ومما حدث من هذا القبيل ان السكيت ، الشاعر الشيعي المعروف والشخصية المرموقة في أيامه تصدى له الحرس الأتراك فقتلوه ذات يوم ركلاً ورفساً بالأقدام . كما صدرت مراسيم خاصة باجبار النصارى واليهود على لبس لباس خاص بهم ومعاناة أنواع أخرى من الاهانات . ولقد كانت شخصية المتوكل من أسوأ الشخصيات وأنحسها ، حتى أطلق عليه

اسم « نيرون العرب » . ولما كان بحالة سكر دائم صارت سيطرته على أمور الدولة وشؤونها تتضاءل يوماً بعد يوم حتى أدى به الأمر الى أن أقدم على اغتياله الحرس الأتراك بالتواطؤ مع ابنه أحمد ، الذي أعقبه في الحكم باسم « المنتصر بالله » . وكان هذا رجلاً عادلاً رؤوفاً بالناس ، لكنه قتل بعد فترة من الحكم دامت ستة أشهر فقط فأعقبه رجل من أبناء عمه يسمى أحمد كذلك ، وتلقب بلقب « المستعين بالله » . وما حل هذا الوقت حتى أصبحت السلطة في العاصمة بأيدي القواد الأتراك ، وباتت الأقاليم وقفاً على الحكام من أبناء الأسر الحاكمة فيها التي كان يكاد يقتصر ولاؤها لسامراء على دفع الخراج السنوي فقط . وقد اضطربت أحوال الثغور الشمالية من جديد ، وصار اليونانيون يتجاوزون على الأقاليم الواقعة على الحدود بصورة مستمرة . فسرعان ما وجد المستعين نفسه ، وهو على شيء من الجرأة ، في وضع غير محتمل وأخذ يفكر في وسائل ينقذ فيها العرش من تعسف الأتراك العابثين . ولذلك عوّل على مؤازرة العرب له وفر هارباً من سامراء الى بغداد التي عادت فأصبحت مقراً موقتاً للخليفة من جديد . فرد عليه الأتراك بتنصيب خليفة مناوىء له في عرش سامراء ، وهو ابن من ابناء المتوكل اسمه محمد ، ولُقب « المعتز بالله » . على ان المستعين ومؤيديه أخذوا في الوقت نفسه يعدون العدة للدفاع عن أنفسهم في بغداد .

ولأجل ان يقف في وجه الجيش التركي الذي عرف أنه سيتعقبه من سامراء لا محالة ، عمد المستعين في الحال الى تشييد سور مدور حول المدينة بأسرها فدخلت جسور بغداد الثلاثة في داخله . فبلغت تكاليف السور الجديد وما يتبعه من تحصينات حوالي (٣٥٠,٠٠٠) دينار من الذهب ، او ما يعادل (١٦٠,٠٠٠) باون استرليني اليوم . وحينما وصل الجيش الأتراك الرئيس من سامراء خيم في العراء خارج باب الشماسية ، ووجهوا هجماتهم الرئيسة على محلات بغداد الشمالية في كلا الجانبين . وقد استعملت المدفعية بكثرة لدى الفريقين ، على شكل عرادات ومجانيق ثقيلة ركبها المدافعون من الأسوار

نفسها . واستقام الحصار عدة أشهر من دون أن يؤدي الى نتيجة تذكر ، كما وقعت اشتباكات عامة عديدة في خارج الأسوار أبدى سكان المدينة المحاصرة فيها كثيراً من البطولة والاستبسال . وكان المستعين قد وعد بوصول نجدات عاجلة له من ايران ، لكنه اعتمد في الدرجة الأولى على أمله في جمع شمل العرب من حوله مرةً أخرى للدفاع عن حقوقهم القومية ، غير أن أمله هذا كان عديم الجدوى لأن القوات العربية التي تجمعت في الأنحاء سرعان ما شتت شملها الأتراك من دون أية صعوبة . وبهذا انتهى الدور الذي كان يلعبه العرب في الشؤون الأمبراطورية انتهاءً قاطعاً ، ولم يبق لهم أي تأثير في مصائرها .

ولقد نفد صبر القوات التركية في هذا الحصار الطويل فعزموا على القيام بضربة حاسمة . ولذلك بادروا الى تطويل خطوط الهجوم من الشرق والغرب : وشنوا هجوماً عاماً من باب خراسان الى باب الأنبار الكائنة في السور الجديد بالقرب من محلة الحربية حيث يخرج الطريق الرئيس الى سورية . وبصدفة حسنة لهم احترق الجسر الشمالي من جسور بغداد ، وفي خلال الفوضوية التي أعقبت ذلك ، وربما بخيانة حصلت في الأوساط العليا ، استطاع المهاجمون الدخول الى المدينة وانتهى الأمر بسرعة ، فقد هرب المستعين وقبض عليه فيما بعد وقتل ، وعاد الأتراك منتصرين الى سامراء .

ومع ان الحزب السامرائي ، والحرس الأتراك ، قد انتصروا انتصاراً موقتاً في هذا الكفاح فان سطوتهم قد أخذت تتدهور بوجه عام .. فبعد فترة قصيرة ، تعرف من الناحية السياسية بتصدع جبهة الأتراك أنفسهم ، قتل المعتز أيضاً في ٨٦٩ لعجزه عن تلبية ما كان يقدمه الأتراك من طلبات فاحشة . فتربع على دست الخلافة ابن من أبناء الواثق لقب « المهتدي بالله » . ولما كان المهتدي رجلاً يتصف بالنشاط والقابلية فقد بدأ بتسنمه العرش عهدٌ انتعشت فيه الخلافة ، لكنه قتل في (٨٧٠) بسبب آرائه الاصلاحية . وكان قد عرف بكونه آخر خليفة ترأس بنفسه محكمة الاستئناف . فأعقبه رجلٌ من أبناء المتوكل

بلقب « المعتمد على الله » . غير ان السلطة في زمانه كانت بيد أخيه الموفق في الدرجة الأولى . وقد جعل الموفق ، وهو العسكري المقتدر ، مقره في بغداد ليكون أقدر على النضال ضد حركة الزنج في العراق الجنوبي . فأعاد هذا الترتيب كثيراً من أعمال الحكومة الى بغداد برغم بقاء الخلافة اسمياً في سامراء .

وقبيل ان يقضي المعتمد نحبه أعلن للملأ عن عزمه على نقل مقر الحكومة الى بغداد مرةً أخرى ، وربما كان ذلك بمشورة من أخيه الموفق . وكان قبل سنوات قد زار بغداد من عاصمته سامراء زيارةً رسمية فنزل في الجعفري الذي كانت تسكنه بوران أرملة المأمون التي كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها . وحينما قضت نحبها جعل هذا القصر مسكناً رسمياً للخليفة ، وفيه نزل المعتمد عندما نقل عاصمته من سامراء وهناك قضى نحبه بالسم الذي دسه اليه ابن أخيه الموفق بالتواطؤ مع الحاجب التركي مشكير . فتولى الخلافة بعنوان « المعتضد بالله » .

ونرى من المناسب هنا أن نورد ما يذكره المؤرخ الألماني بروكلمان في (تاريخ الشعوب الاسلامية) عن بعض خلفاء سامراء ، ونعتبره تعليقاً على ما مر ذكره من قول ريتشاردكوك ، لما فيه من معلومات أخرى . فهو يقول [١] :

ولم يستطع المنتصر قاتل أبيه ان يحافظ على العرش أكثر من ستة أشهر ، بذل خلالها جهوداً عقيمة لاستخلاصه لنفسه عن طريق اكراه أخويه المعتز والمؤيد ، على التنازل عن ولاية العهد ، ومن طريق محاسنة العلويين . وبعد أن قتله الأتراك بالسم رفعوا الى العرش ابن أخي المتوكل أحمد المستعين بالله حتى اذا حكم أربع سنوات لا غير ، فقد سلطته التي كانت قد تقلصت فعلاً الى طيف من الخيال بسبب النزاع المستمر بين أمراء الجيش الأتراك : فقد اضطر بغا ، الذي كان له فضل تنصيبه خليفة ، الى ان يفر معه من وجه

---

(١) الص ٢١٤ من الترجمة العربية .

الخصوم الى بغداد ، في حين رفع المعتز الى عرش الخلافة في سامراء . وحاول محمد بن عبد الله بن طاهر الذي كان المستعين قد عينه أميراً على العراق والمدينتين المقدستين ان ينجد سيده المحاصر في بغداد ، ولكنه لم يلبث بعد خلاف نشب بينه وبين بغا ان انقلب عليه ، وهكذا لم يعد في ميسور المستعين ان يثبت في بغداد ، فاضطر الى خلع نفسه في كانون الثاني سنة ٨٦٦ ليقتل في تشرين الأول من السنة نفسها في واسط .

وحاول المعتز ان يتخذ من حرسه المغاربة أداةً لمقاومة الأتراك الذين كان لهم على كل حال الفضل في ارتقائه كرسي الخلافة . ولكن الأتراك لم يلبثوا بعد ثلاث سنوات ونصف ان خلعوه عن العرش لعجزه عن سد حاجتهم الملحة الى المال . والحق ان خلفه محمد المهتدي بالله ابن الواثق سعى عبثاً الى اجتناب مصير أسلافه ، فاختصر نفقات القصر الملكي لكي يعيد الى الجهاز المالي المضطرب شيئاً من النظام الذي فقده . وأياً ما كان ، فقد قتل في معركة ضد موسى بن بغا ، وهو لما يتم السنة الأولى من ولايته .

ونضيف الى هذا ما جاء في تاريخ ابن العبري [1] عن الخليفة ابن المعتز ، لما فيه من غرابة وطرافة في الوقت نفسه . فقد جاء فيه : .. فلما بايع المستعين للمعتز وجهه الى البصرة ومنها الى واسط وتقدم بقتله وحمل رأسه الى المعتز فقال ضعوه حتى أفرغ من الدست . فلما فرغ نظر اليه وأمر بدفنه . وفي هذه السنة حبس المعتز المؤيد أخاه ثم أخرجه ميتاً لا أثر فيه ولا جرح ، فقيل أنه أدرج في لحاف سمور وأمسك طرفاه حتى مات .. وفي سنة ٢٥٥ صار الأتراك الى المعتز يطلبون أرزاقهم فماطلهم بحقهم ، فلما رأوا انه لا يحصل منه شيء دخل اليه جماعة منهم فجروا برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس في الدار وكان يرفع رجلاً ويضع رجلاً لشدة الحر . ثم سلموه الى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه

(١) الص ١٤٦ و ١٤٧ من تاريخ مختصر الدول لابن العبري طبعة ١٩٥٨ بيروت .

سرداباً وجصصوا عليه فمات . وكانت خلافته من لدن بويع بسامراء الى أن خلع اربع سنين وسبعة أشهر (وكان عمره ٢٤ سنة) .. وبعد قتل المعتز طلبت أمه الأمان لنفسها فأمنوها وظفروا لها بخزائن في دار تحت الأرض ووجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاث مئة ألف دينار ، ومقدار مكوك زمرد ومقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار ومقدار كيلجة من الياقوت الأحمر . وكان طلب منها ابنها المعتز مالاً يعطي الأتراك فقالت : ما عندي شيء . فسبوها وقالوا : عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وعندها هذا المال جميعه .

ماكتبه السر جون غلوب عن خلفاء سامراء

وفي الكتاب [1] الذي كتبه السر جون غلوب (غلوب باشا) بعنوان : (امبراطورية العرب) بحث طريف ، فيه الكثير من العبر ، عن هؤلاء الخلفاء . فهو يكتب عن الخليفة المعتصم ونشاطه اولاً ، وعن الواثق والمتوكل ثانياً . ويحلل تحليلاً رائعاً ثورة بابك الخرمي في ايران على الخلافة الاسلامية في بغداد وسامراء ، وحملة المعتصم على عمورية وفتحها . كما يحلل وضع المتوكل وأحواله الذي أدت الى ان يتواطأ ابنه المنتصر مع بعض الأتراك على قتله .

فهو يقول عن المعتصم ، بعد ان يذكر ما يذكره غيره من المؤرخين عن استفحال وضع الأتراك في بغداد وعزم المعتصم على نقل العاصمة الى سامراء بسببهم ، انه لما كان مولعاً بتشييد الأبنية والزراعة فقد انصرف بكل ما عنده من نشاط الى تشييد القصور ، وانشاء الحدائق ، وغرس البساتين : وتنظيم المزارع ، لعاصمته الجديدة . وكان هو رجلاً ذا قوة جسمية عظيمة ، وشكل مؤثر في النفس ، وشجاعة شخصية فائقة . على أنه كان الى جنب ذلك

---

(١) Glubb, Sir John — The Empire of the Arabs (London 1963)
الص ٣٤٣ — ٤٥ و ٣٥٣ و ٣٥٦ — ٥٧ .

قليل الثقافة والتعلم ، على نقيض ما كان عليه أخوه المأمون .

ثم يأتي على قصة بابك الخرمي وثورته ويقول أنه اعلنها على الفوضوية التي انتشرت بسبب النزاع الذي احتدم بين الأمين والمأمون ، وما آل اليه من قتل الأمين . ولم تستطع الحملات التي شنت عليه اخضاعه والقضاء على ثورته حتى جاء المعتصم وعزم على حسم الأمر وتصفيته ، فكلف قائده حيدر الأفشين بالأمر فتم له ذلك وجيء ببابك مكبلاً الى سامراء . وفي هذا الشأن يقول المستر غلوب أنه أخضع في الأخير سنة ۸۳۷ ، بعد ان هوجمت قلعته وأحرقت الى الأرض وسيق الى سامراء مكبلاً بالسلاسل . وقد جعل يوم وصوله اليها يوماً مشهوداً ابتهجت به الناس من جميع الطبقات . وقبل ان يعدم ألبس أحسن الملابس الحرير ، ووضع التاج فوق رأسه ، وطيف به في الشوارع على ظهر فيل حتى أُخذ الى قصر الخليفة . وهناك جُرّد من ألبسته الفاخرة بحضور الخليفة ، وقطعت يداه ورجلاه ، وصار ينخس بالسيف ببطء حتى يدخل الى جوفه من دون أن يمس الأعضاء المهمة فيه ليطول أمد تعذيبه . لكنه تحمل كل ذلك تحملاً شهد به الأعداء قبل الأصدقاء ، من دون ان يبدو منه أي صوت أو تألم . ثم قطع رأسه وبعث به الى بغداد ، بينما علق جسده الخالي من الرأس مسمراً على عمود خشبي في سامراء . فبقي المكان الذي علق فيه يسمى « خشبة بابك » الى ما بعد قرن من الزمن . ويقول غلوب ان المؤرخين العرب يذكرون ان بابك ينسب اليه قتل مئتي ألف نفس خلال المدة التي ظل ثائراً فيها . وحينما استولى جيش الخلافة على قلعته وجد فيها سبعة آلاف امرأة مسلمة وطفل يشتغلون مثل العبيد .

ويشير بعد ذلك الى ان المعتصم الفعال استطاع كذلك أن يجرد عدداً من الحملات المظفرة ، ويفرض حكمه ، على البلاد الجبلية البعيدة مثل طبرستان وطخارستان وكابل وقندهار . ثم يأتي على ذكر حملة عمورية فيقول ان بابك حينما زحف عليه الأفشين من سامراء اتصل بثيوفيل امبراطور بيزنطة ،

وحرضه على مهاجمة الثغور الاسلامية لأن جيوش الخليفة كانت منشغلة بجبهته معظمها . فاغتنم ثيوفيل الفرصة وسار على رأس جيش عرمرم ، عدته سبعون الف جندي ، الى الحدود السورية ، وقد حاصر في صيف ٨٣٧ زبطرة ، الكائنة على بعد ثلاثين ميلاً من جنوب ملاطية ، في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الاسلامية ما تزال في أذربايجان . ولما كانت للمعتصم علاقة عاطفية بزبطرة هذه ، لأنه كان قد ولد فيها حينما كان والده الرشيد مصطحباً أمه في إحدى حملاته إلى هناك ، فقد طلب الى ثيوفيل أن يرأف بأهلها ولا يتعرض بها . لكنه لم يتجاهل طلب الخليفة حسب ، وانما عاملها ، معاملةً صارمة قاسية على الأخص . فقد غزاها غزوة عنيفة وهدمهـــا بأكملها الى الأرض ، وسبى اكثر من ألف امرأة مسلمة منها عدا الأطفال ، بعد ان قتل الرجال كلهم . وارتكب اعمالاً فظيعة أخرى في البلاد المحيطة بها .

وما ان وافت هذه الأنباء الى سامراء حتى بادر المعتصم في الحال الى نصب معسكره في الجانب الغربي من دجلة ونشر راياته استعـــداداً للزحف والانتقام . وقد دُعي الرجال لذلك من جميع البلاد العربية ايضاً ، بالاضافة الى الوحدات التركية الجاهزة . وفي صيف ٨٣٨ سار المعتصم على رأس أكبر جيش قاده خليفة من الخلفاء حتى ذلك اليوم . فقد كانت عدته على ما يقول المسعودي مئتي الف جندي على الأقل . فعبر هذا الجيش اللجب جبال طوروس برتلين اثنين ، أحدهما يقوده الخليفة نفسه عن طريق الساحل ، والآخر بقيادة الأفشين الذي ترتب عليه عبور الجبال من ممر الحدث .

وكان العرب على ما يبدو قد حذقوا أسرار النار الأغريقية التي كانت قد أنقذت القسطنطينية من قبل حينما هاجمها معاوية وسليمان بن عبد الملك من بعده . فقد سارت مع جيش المعتصم وحدات خاصة لهذا الغرض . وبعد ان عبر العرب طوروس في ٨٣٨ ، تسلم الامبراطور البيزنطي تقريراً من رجال استخباراته بأن رتلاً عربياً آخر — هو رتل الأفشين — يقوم بعبور السلسلة الجبلية في الحدث ، فصمم على مهاجمته في الحال قبل ان يجتمع الرتلان في

أنقرة كما تم الاتفاق عليه ، واتخذ ما يلزم لذلك .

على ان المعتصم علم بما عزم عليه الأمبراطور ، ولم يستطع عمل شيء لأشغاله في تلك الظروف ، لكنه بعث الى الأفشين يحذره مما عزم عليه العدو وقبل ان يصل الى الافشين التحذير فاجأه الامبراطور بالهجوم ، لكنه بعد ان ارتبك بعض الأرتباك أعد عدته فكر عليه بهجوم مقابل ودحر الجيش البيزنطي شر اندحار . فأدى ذلك الى تقهقره أمامه من دون انتظام ، وكان ذلك في أواخر حزيران ٨٣٨ .

وبعد ان التقى الرتلان العظيمان في انقرة زحف الجيش العربي بكامله على عمورية ، التي صادف ان كانت هي بدورها المحل الذي ولد فيه الامبراطور ثيوفيل نفسه ، أو بلدة أسرته الأصلية . ولذلك عزم المعتصم على تهديمها وازالتها من الوجود . وبعد ان اندحر الجيش البيزنطي هوجمت عمورية ، بعد ان هدمت اسوارها وحوصرت خمسة وخمسين يوماً . ويقول المؤرخون العرب ، على ما يذكر غلوب ، ان ثلاثين ألف امرأة وطفل تم سبيهم في تلك المعركة . وهكذا اقتص المعتصم للشناعات التي كان قد ارتكبها ثيوفيل في زبطرة .

ويصف المستر غلوب الخليفة الواثق ، الذي تولى بعد ابيه المعتصم ، بكونه مسالماً هادئاً على عكس أبيه في أمور كثيرة . ولذلك ترك شؤون الحكم والخلافة الى وزيريه محمد الزيات وأحمد بن أبي داود . وقضى وقته كله في سامراء من دون ان يزور الأقاليم أو يترأس الحملات العسكرية . لكنه كان مثقفاً مثل عمه المأمون وميالاً الى حرية التفكير . وقد كان يهتم على الأخص بآل علي بن أبي طالب (ع) ، ويساعدهم مالياً فيخصص لهم المخصصات والرواتب . اما المتوكل الذي ولي بعده فقد كان على العكس من ذلك ، فقد اضطهد الشيعة ، والأقليات غير المسلمة اضطهاداً يذكره المؤرخون الغربيون جميعهم على الأخص . ولذلك هدم قبر الحسين (سنة ٨٥٠ م) ومنع زيارته ،

كما سبق ان أتينا على ذكره في مناسبات عدة من قبل . ويقول [١] المستر غلوب كذلك ان حياطين الشوارع والمساجد كانت في عهده تمتلىء خلال الليل بكتابات خلاصتها النيل منه ورميه بالكفر والألحاد .

اما قضية قتل المتوكل فيقول مؤلفنا البارع هذا أنه كان عند أول توليه الخلافة قد رشح لها ابناءه الثلاثة من بعده ، يتسلسلون واحداً بعد آخر تبعاً لأعمارهم . فكان من المنتظر ان يكون المنتصر ولي عهده ، والمعتز من بعده ، وأخيراً المؤيد . لكن المتوكل كان مغرماً على الأخص بأم المعتز ابنه الثاني : وكانت أمةً يونانية تسمى السيدة قبيحة (لجمالها) ، حتى أنه نظم أبياتاً من الشعر بحقها في عدة مناسبات . ولذلك كانت مسيطرة عليه الى درجة استطاعت بها ان تؤثر عليه وتقنعه بتولية ابنها المعتز من بعده ، بعد ازاحة أخيه المنتصر (الأكبر) عن طريقه . فبادر المتوكل الى تنفيذ هذا وطلب الى ابنه المنتصر ان يتنازل عن حقه في ولاية العهد ، لكنه رفض ذلك وأصر على موقفه في هذا الشأن . وصار أبوه يحقره ويستهزىء به في مجالسه ، وبنتيجة اصرار السيدة (قبيحة) الجميلة عليه دعى المنتصر الى مجلسه في النهاية وأخبره بأنه أصدر الأوامر اللازمه بعزله عن ولاية العهد .

ومع ان هذا العمل لم يولد أزمة مخطرة في بادىء الأمر ، ولم يحدث توتراً في الحال ، فقد ثبت انه حادث جر الوبال على المتوكل في النتيجة . فقد سبق ان بدأت الدسائس في جو سامراء السياسي ، ولا سيما بين الضباط الأتراك ، والأوساط الرسمية العليا ، إذ كان بعضهم يحسد بغا الشرابي ، الذي كان يعد أقوى رجل في البلاط العباسي يومذاك وأول رجل يضع المتوكل ثقته فيه ، لأنه كان مملوكاً تركياً عادياً ونادلاً في القصر الملكي . وبالنظر لمزاياه وقوة شخصيته تدرج في الوظائف فأصبح ذا منزلة عالية في الحقيقة . وهنا ازدادت مخاطره ، وأخذ مناوئوه يوغرون صدر الخليفة عليه ، لا سيما

(١) الص ٣٥٦ المرجع الأخير .

وقد كان في وضع متهيىء لذلك بالنسبة للحياة الداعرة التي كان يحياهـا ، ولاهمال شؤون الخلافة والحكم الذي كان يبديه .

وقد شاءت العناصر المغرضة في بلاط سامراء ان تلعب على الطرفين : فوجهت أخباريات غفلاً من التوقيع تنبيء بغا بأن الخليفة يعد العدة لقتله بصورة سرية ، كما وجهت اخباريات أخرى مثلها الى المتوكل تخبره بأن بغا عازم على اغتياله . وقد صادف ان حصل الخلاف بين المتوكل وابنه المنتصر في هذا الوقت المشحون بالدس والتوتر . ولما كان بغا ينتظر شراً من المتوكل في أي وقت كان فقد قرر ان يسبقه الى العمل ويتغدى بالخليفة قبل ان يتعشى هو به . فصادف في إحدى الأمسيات ان كان المتوكل في مزاج ممتاز ، وكان طلقاً في الكلام والحديث مع الحاضرين في مجلسه . وازداد ثملاً بالشراب كلما تقدمت الأمسية ومرت ساعاتها ، وظل يطلب مزيداً من الشراب ، أو أن بغا ظل يسقيه قدحاً بعد آخر عن عمد وتدبير مسبق . وحينما انسحب معظم أفراد الحاشية الى مخادعهم بتقدم الليل ، ولم يبق سوى بغا والفتح بن خاقان ، دخل الى الغرفة فجأة خمسة رجال من الأتراك يحملون سيوفاً مسلولة بأيديهم ، وكانت النتيجة ان قتل الخليفة وصاحبه المقرب الفتح بن خاقان وأصبحا جثتين هامدتين في بركة من الدماء .

وسارع بغا بعد ذلك الى داخل القصر ليأتي بولي العهد ، المنتصر ، وينصبه في مكان أبيه القتيل . فصادفه قادماً الى محل الحادث ، وسلم عليه بالخلافة . وعند ذاك دعي الخدام ورجال الحاشية على عجل وطلب اليهم ان يبايعوا الخليفة الجديد . وفي صباح اليوم التالي ، ١١ كانون الأول ٨٦١ ، اجتمع جمع من الناس خارج القصر في سامراء وطالبوا بتنصيب المعتز لكن المعتز لم يمكن العثور عليه لأنه كان قد ألقى الأتراك القبض عليه خلال الليل ووضعوه في السجن . وبذلك أصبح بغا مسيطراً على الوضع سيطرة تامة ، وغدا المنتصر أميراً للمؤمنين ما دام الأتراك راضين عنه على الأقل .

الروضة العسكرية المطهرة

ان أقدم من يشير الى وجود الروضة العسكرية المطهرة في سامراء من المراجع الحديثة محررو دائرة المعارف الاسلامية (غير المختصرة) المطبوعة في لايدن بهولاندة سنة ١٩١٣ . فقد جاء فيها قولهم : .. وقد حل الخراب في معظم هذه الأبنية والقصور منذ القرن العاشر للهجرة ، ولم يستقم منها غير الجامع الكبير بالقرب من معسكرات الجيش ، ومن أجل هذا عرفت تلك المنطقة من سامراء باسم « العسكر » . وقد أدى تمسك الشيعة بأئمتهم المعصومين الى الاحتفاظ هناك بقبرامامهم الحادي عشر ابي محمد الحسن الملقب بالعسكري لأنه توفي في سامراء سنة ٢٦٠ هـ ، وبكهف الغيبة الذي اختفى فيه ابنه أبو القاسم محمد المهدي خليفته اليافع سنة ٢٦٤ (٨٧٨ م) والمعروف ان زوار الشيعة ظلوا خلال الألف السنة الأخيرة يزورون سرداب سامراء معتقدين بأن الامام المهدي سيعود الى الظهور هناك [١] في آخر الزمان . غير اننا لاحظنا ان هذا المرجع لا يتطرق بشيء الى ذكر الامام الهادي عليه السلام ، ولا الى ضريحه المقدس .

ويشير الى ذلك ايضاً العلامة المستشرق لسترنج في كتابه [٢] ، الذي مرت الأشارة اليه ، فيقول : .. اما ما هو احدث من ذلك من مراجع . فلم يزدنا علماً بسامراء الا قليلاً . ثم صار جل أهل سامراء من الشيعة ، إذ أن فيها ضريحي الامامين العاشر والحادي عشر : علي الهادي وابنه الحسن العسكري وفي جامعها سرداب الغيبة يقولون ان الامام الثاني عشر غاب فيه سنة ٢٦٤

---

(١) وفي هذا السرداب – يقول السيد محسن الأمين في ج ١ ص ٤٥٧ من اعيان الشيعة « ومن الوهم ان يعتقد البعض بوجود المهدي في سرداب سامراء بل هو توهم فاسد وانما يتبركون بهذا السرداب ويتعبدون فيه فمن باب التبرك بآثار الصالحين لأنه قد سكنه ثلاثة من أئمة اهل البيت عليهم السلام وكان سرداب دارهم التي في سامراء » . الخليلي

(٢) بلدان الخلافة الشرقية ، الص ٨٠ من الترجمة العربية .

(٨٧٨ م) وهو القائم المهدي المنتظر الذي سيعود في آخر الزمان . ويقوم هذان الضريحان في الموضع المعروف بعسكر المعتصم . والى هذا الموضع نسب الامام العاشر فعرف بالعسكري . وفي أوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين كتب المستوفي ، وهو شيعي ، ذكر هذه المراقد بوجه خاص وقال ان في المسجد الجامع القريب من هذه المراقد ، فضلاً عن منارته العظيمة التي أشرنا اليها ، حوضاً مشهوراً من حجر ، يعرف بقصعة فرعون محيطها ثلاث وعشرون خطوة وارتفاعها سبع أذرع وثخنها نصف ذراع ، قائمة في صحن الجامع للوضوء . وقد أمر الخليفة المعتصم بعملها . وزاد المستوفي على ذلك ان معظم سامراء استولى عليها الخراب ولم يبق من المدينة الا قليل . وأيد هذا القول وصف ابن بطوطة له ، وقد زار سامراء سنة ٧٣٠ (١٣٣٠ م) . ونذكر بمناسبة ذكر القصعة ان كتاب (الحوادث الجامعة) يذكر في (الص ٣٠٦) انها حملت سنة ٦٥٣ هـ « من سر من رأى الى بغداد في كلك ، ورفعت تحت دار الخليفة ، وكانت عظيمة جداً ، فلم تزل الى سنة سبع وخمسين وست مئة ، ثم كسرت » . ويعلق الدكتور مصطفى جواد على ذلك بقوله ان هذا الخبر يدل على ان المستوفي لم ير القصعة في سامراء ، بل نقل خبرها لأنها لم تكن باقية في زمانه .

اما المستر سيتون لويد ، فيشير الى وجود الضريحين المطهرين اشارةً عابرة في (مدن العراق الأثرية) المشار اليه قبل هذا . فهو يقول : .. وهي تحتوي على ضريح امامين من الأئمة الاثني عشر ، ومزار خاص بالامام الثاني عشر ، المهدي ، الذي اختفى هنا في كهف تحت الأرض . وان الباب الذي يسمى « باب الغيبة » ، والذي ينتظر ان يمر منها ثانيةً عند ظهوره في آخر الزمان ، محفوظة في سرداب يقع تحت القبة الذهب الكبرى في سامراء . وهي نموذج يلفت النظر لأشغال الحفر التي تعود الى القرن الرابع عشر ، وقد رممت مؤخراً [١]

---

(١) الص ٤٢ Ruined Cities of Iraq .

وتعليقاً على ذلك نقول ان هذا الباب قد نقل بعد ذلك الى جناح الآثار العربية من المتحف العراقي الجديد في بغداد ، وما يزال موجوداً فيه . ولا بد لنا من ان نشير كذلك الى ان سرداب الغيبة الذي يعتقد سيتون لويد ، وغيره من الكتاب الغربيين مثل هرتسفيلد ، انه تحت القبة الذهب الكبرى هو في الحقيقة تحت القبة الثانية غير المذهبة كما لا يخفى .

ويذكر سيتون لويد علاوةً على ذلك ان إحدى أبواب مدينة سامراء القديمة قد أُعيد بناؤها ووسعت فجعل منها متحف صغير على الطراز الحديث . وقد حفظت فيه خرائط وتصاوير سامراء القديمة على ما يقول ، مع نماذج من اللقى التي وجدت بين ما عثرت عليه مديرية الآثار القديمة في تنقيباتهــا .

سامراء في كتاب دونالدسون [١]

لقد أفرد الدكتور دوايت دونالدسون المبشر الانكليزي الذي عاش في ايران سنين عديدة أربعة فصول غير قصيرة (التاسع عشر والعشرون والحادي والعشرون والثاني والعشرون) عن سامراء والأئمة الأطهار الثلاثة عليهم السلام : علي الهادي والحسن العسكري والحجة المهدي .

وبفصله الخاص بسامراء يبدأ بالحديث عن موقعها وبنائها من قبل المعتصم ، وعن الجامع الكبير فيها ، واستبداد القادة الأتراك بحكمها ، مما سبق ان أتينا على ذكره مرات عدة . ثم يتابع بحثه بالقول ان الخلفاء في سامراء قد اشغلوا أنفسهم ببناء قصر بعد آخر في جانبي دجلة ، فكلفهم ذلك شيئاً لا يقل عن (٢٠٤) ملايين درهم بعملة تلك الأيام . ويتطرق خلال هذا الى ان شجرة سرو عظيمة اشتهر ذكرها في « الشاهنامة » بكونها كانت قد نمت من غصن

---

(١) Donaldson, Dwight M — The Shi ite Religion A Short History of Islam in Persia & Irak. (Luzac, London 1933)

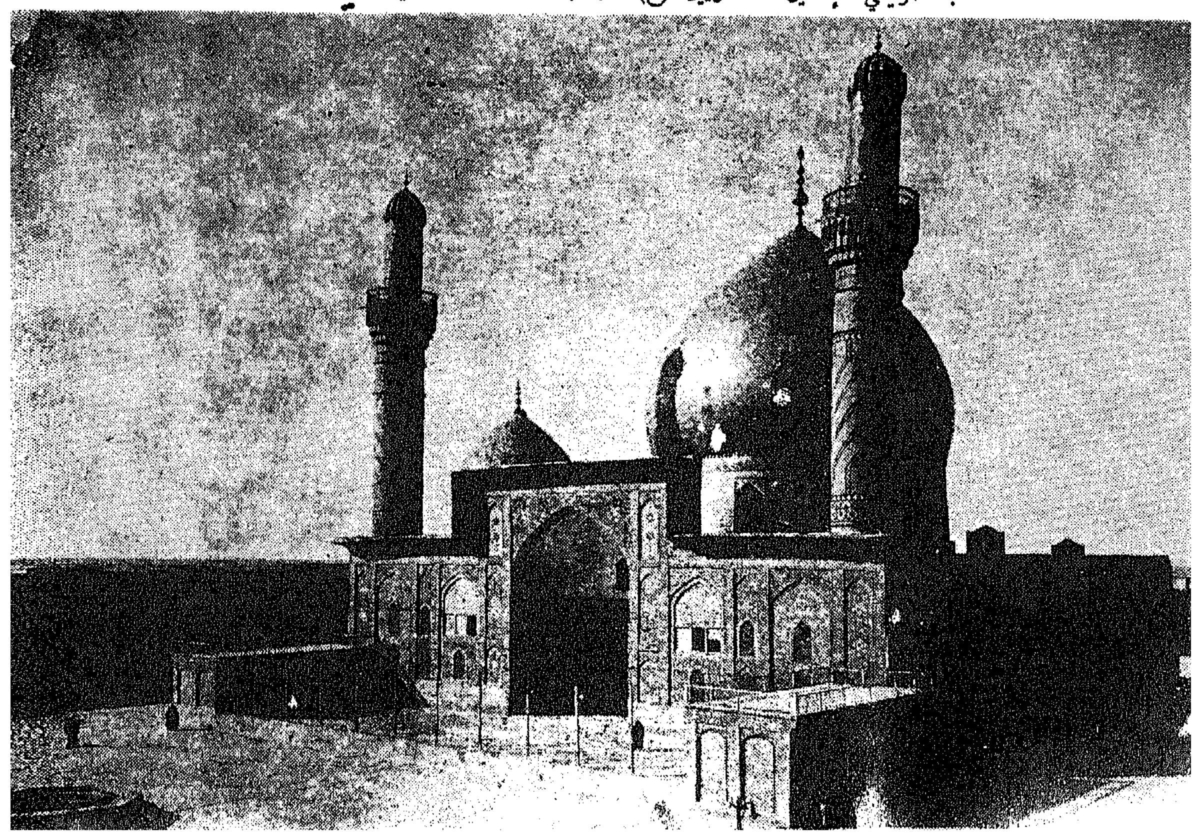
جاء به زرادشت من الجنة . كانت موجودة في قرية كيشمار بالقرب من تورشيز في ايران . وقد زرعها تخليداً لذكرى اعتناق الملك كوستاشب الديانة المجوسية ، وصارت الزلازل بوجودها لا تؤثر في تلك القرية بينما كانت تنتاب المنطقة بأسرها بين حين وآخر فتهدمها تهديماً . ويذكر القزويني ، على ما يقول دونالدسون ، ان الخليفة المتوكل أمر في سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) بأن تقطع هذه الشجرة الباسقة وتنقل عبر ايران كلها ، فتحمل على ظهور الابل في قسم من المسافة ، من أجل ان يستفاد منها في بناء قصره الجديد في سامراء . لكنها حينما وصلت اليها كان المتوكل قد قتل بتحريض من ابنه . ويشير دونالدسون بعد هذا الى ان المستوفي ، الميّال للشيعة ، يذكر ان المتوكل قد اقتص منه العدل الالهي فقتله ابنه وتهدمت قصوره فغدت خرائب تنعق بهـا البوم لأنه أوعز بتهديم قبر الحسين عليه السلام في كربلا ومنع الزوار من زيارته ردحاً من الزمن . كما يذكر ان سامراء لم يبق مسكوناً منها حينما زارها سوى قسم قليل جداً .

وهذا القسم المحدود الذي وجده المستوفي مسكوناً في القرن الرابع عشر للميلاد ، يقارب سامراء المعروفة اليوم في حجمها واتساعها على ما يقول دونالدسون ، وهي التي كانت جزءاً من « معسكر المعتصم » . وهنا سمح للامام علي النقي وابنه الحسن بالعيش مدة من الزمن ، ولذلك سمّيا بالعسكريين ، وهنا دفنا كذلك . ويذكر دونالدسون في الحاشية ان الشهرستاني يقول بأن الامام علي النقي (الهادي) عليه السلام مدفون في قم ، ثم يعلق على ذلك بقوله ان هذا من قبيل الروايات المغلوطة . ويتابع البحث فيقول ان سامراء هذه تقع على بعد عدة خطوات من جدران جامع الجمعة الكبير ، وهذا يتفق مع ما أورده المستوفي من أن ضريح الامام علي النقي ، حفيد الامـام الرضا ، وضريح ابنه الحسن العسكري يقعان في قبالة الجامع المذكور . وتدل الدراسات الآثارية اليوم على أن سامراء مدينة الخلفاء كانت أوسع من البلدة الحالية بكثير .. كما تدل اللقى الآثارية على ان لها قيمة خاصة لدارسي الفن

الاسلامي في مختلف العصور ، لأنها تعود الى الحقبة التي كانت فيها مدينة الخلافة العباسية تشع بنورها على العالم .

وفي القسم الباقي من سامراء اختفى الامام المهدي ــ محمد بن الحسن العسكري ــ على ما يقال ، ويقول المستوفي ان ذلك وقع في سامراء سنة ٢٦٤ (٨٧٨ م) . هذا وأن السماح للطائفة الشيعية بأن تجعل مقرها ، بعد سقوط البويهيين ، فيما يقرب من الحلة حيث تسنى لهم ان يفاوضوا هولاكو خان بعد استيلائه على بغداد للمحافظة على العتبات ، قد أدى الى نشوء فكرة ان الامام المنتظر سيظهر في تلك المدينة (الحلة) . والى هذا يعزى ما يلاحظ من ارتباك في رواية ابن بطوطة (١٣٥٥) الذي شاهد مزارين أقيما للامام المهدي : أحدهما في سامراء والآخر في الحلة . لكن الحقيقة هي ان « جامع آخر الأئمة » في الحلة يدل على المكان الذي ينتظر ان يظهر فيه ، اما مكان اختفائه فهو في

قبة ضريحي الإمامين العسكريين (ع) وجانب من الصحن الكبير وقبة الغيبة



سامراء [١] .

وتعد مدينة سامراء الحديثة في نظر الشيعة اليوم ذات أهمية فائقة لوجود المشهدين اللذين احتفظ بهما في أحسن حال . وتعلو مشهد الامامين العسكريين القبة الذهب التي بدأ بتشييدها ناصر الدين شاه وأكمل بناءها مظفر الدين شاه سنة ١٩٠٥ وتوجد تحت هذه القبة أربعة قبور مطهرة هي : قبرا الامامين علي النقي وابنه الحسن العسكري ، وقبرا السيدتين القريبتين لهما . وإحداهما حليمة أخت الامام علي النقي التي روت الظروف التي أحاطت بولادة الامام الغائب ، والأخرى نرجس خاتون أم الولد المسيحية والدة الامام الذي اختفى في الخامسة (او التاسعة) من عمره . اما المشهد الثاني ففيه المكان الذي اختفى به عن الأنظار ، وله قبة تمتاز بدقة تصميمها وزخرفتها بالقاشاني الأزرق . ويقع تحتها سرداب الغيبة ، الذي ينزل اليه الزوار عن طريق سلم طويل خاص .

ثم يورد الدكتور دونالدسون في هذا الفصل ترجمة للزيارة التي يقرأها الزوار عند دخولهم الى سرداب الغيبة ، بعد ان يذكر موجزاً لآداب الزيارة المعروفة ، ويستغرق ذلك ما يقارب الأربع صفحات . وقد جاء بذلك نقلاً عن دائرة المعارف الاسلامية ، تحت كلمة « الاثنا عشرية » .

وفي مستهل الفصل الذي يتكلم فيه على الامام الهادي عليه السلام [٢] يستطرد دونالدسون بمقدمة تاريخية يقول فيها ان النصف الأول من القرن التاسع للميلاد خضعت فيه روما والقسطنطينية وبغداد الى طغيان العناصر الأجنبية عليها .. وقد اضطر ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢) الى الاحتفاظ بسطوته ، والمجازفة بامبراطوريته ، باستخدام جيوش ايرانية وأرمنية . وعلى الشاكلة نفسها اضطر المأمون والمعتصم واخلافهما الأقربون ، في بغداد ، الى أن يضعوا جل اعتمادهم على جيوش تركية مستأجرة خلال الحقبة نفسها خوفاً من مؤامرات العناصر

---

(١) وحتى هذا من مقام الحلة لم يقل به احد من الشيعة — الخليلي (٢) الفصل ١٩ ، الص ٢٠٩ .

الاسلامية المتخاصمة . ولأجل ان يزيدوا في السلامة والأمان أسسوا مدينة عسكرية جديدة في سامراء ، على بعد ستين ميلاً من شمال بغداد ، وجعلوا مقرهم فيها . ولكن ما مر وقت طويل على هذا حتى أخذ القادة الأتراك ، الذين استطاعوا القضاء على ثورات اسلامية عديدة ، ان يملوا ارادتهم على الخلفاء وأصبحوا الحكام الحقيقيين في البلاد ، بينما بقي الخلفاء أنفسهم ألعوبة في « سجن » المدينة التي أنشأوها . وفي مثل هذا الوقت الذي كانت السلطة الاسلامية تنتقل فيه بسرعة الى أيدي الأتراك ولد الامام العاشر ، علي النقي ، وعاش .

الأمام الهادي عليه السلام

لقد عنون الدكتور دونالدسون هذا الفصل بعنوان « علي النقي ، السجين لعشرين سنة » . وبعد المقدمة السابقة ، يتابع بحثه عن الأمام ويقول ان سنة ميلاده مختلف فيها ، فهي اما سنة ٨٢٧ او سنة ٨٢٩ ، واذا اعتبرنا ان ولادته كانت في ٨٢٧ م فيكون قد تجاوز سبع سنوات من عمره حينما توفي والده . وكانت أمه على ما يقول الرواة أم ولد تدعى سمانة المغربية ، لكن صاحب « المشكاة » يذكر أن اسمها سوسن وأنها كانت تسمى درة المغربية ، مما يدل على أنها كانت من أسرى إحدى الأمم المسيحية .

وحينما شب الأمام وترعرع عاش في المدينة وأشغل نفسه بالتعليم والتعبد . فصار يجتذب الناس اليه باعداد كبيرة تدريجياً ، ولاسيما من الأقاليم التي كان يكثر فيها شيعة آل البيت مثل العراق وأيران ومصر . وفي خلال السبع او الثمان سنوات التي بقيت من خلافة المعتصم بعد وفاة الأمام محمد الجواد ، وفي طوال السنوات الخمس التي تولى فيها الخليفة الواثق من بعده ليس هناك ما يدل على أن الأمام قد مسه أحدٌ بسوء أو اعتدى عليه . ومن الأحاديث التي تنسب روايتها له ، وكان قد كتب

في « الصحيفة » بخط علي بن ابي طالب وأملاء رسول الله ، وتوارثته الأئمة جيلاً بعد جيل ، ان الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد حدد الأيمان ووصفه بكونه موجوداً في قلوب الرجال ، وان أعمالهم تنم عليه .

على أن خلافة المتوكل ما أن بدأت حتى حدث في أثنائها رد فعل بارز ضد حرية الرأي والتفكير ، ووضعت الخطة لاضطهاد منظم ضد المعتزلة والشيعة ولم يسلم منه سوى السنّة الأقحاح . وفي سنة ٨٥١ م ، حينما كان الأمام في الخامسة والعشرين من عمره ، أمر المتوكل بحظر الزيارة لضريحي الأمامين علي والحسين عليهما السلام . وفي ذلك العهد نقض المشهد الحسيني المطهر ودمر عن آخره .

وفي هذا العهد كذلك أصبح الخليفة ينظر الى الأمام الشاب بعين الشك والارتياب . غير ان الأمام استطاع ذات يوم ان ينقذ نفسه ، على ما يقول المسعودي ، بجواب بارع أجاب به عليه السلام المتوكل حينما وجه له سؤالاً محرجاً . فقد سأله « ماذا يقول المتحدرون من نسل أبيك بالعباس بن عبد المطلب ؟ » فرد عليه الأمام يقول « ماذا يقول المتحدرون من صلب ابي ، يا أمير المؤمنين ، في رجلٍ أمر الله الناس بأطاعة أولاده : وينتظر من أولاده ان يطيعوا الله ؟ » فسر الخليفة من هذا الجواب وأمر بأن يعطى الأمام مئة ألف درهم .

ويروي المسعودي بالمناسبة نفسها حادثة أخرى اوردها المبرد في الأصل ، وذكرها ابن خلكان في وصفه للأمام علي النقي . وهي أن الأمام[1] قد سعي به عند المتوكل ، وقيل : إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته . وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه : فوجه اليه بعدةٍ

---

(١) لم نشأ ترجمة ما ذكره دونالدسون حرفياً وانما آثرنا نقل الفصل الأصلي من كتاب « الأئمة الاثنا عشر » لمؤرخ دمشق شمس الدين محمد بن طولون الذي نشر بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد في بيروت (دار صادر ١٩٥٨) الص ١٠٧ .

من الأتراك ليلاً ، فهجموا عليه في منزله على غفلة ، فوجدوه وحده في بيت مغلق ، وعليه مدرعة من شعر ، وعلى رأسه ملحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة ، يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، ليس بينه وبين الأرض بساط الا الرمل والحصى . فأخذ على الصورة التي وجد عليها ، وحمل الى المتوكل في جوف الليل . فمثل بين يديه ، والمتوكل يستعمل الشراب ، وفي يده كأس . فلما رآه أعظمه وأجلسه الى جانبه . وقيل له : لم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ، ولا حبالة يتعلق عليه بها . فناوله المتوكل الكأس التي كانت بيده فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط ، فاعفني فأعفاه .

وقال له : — أنشدني شعراً استحسنه .

فقال : — أني لقليل الرواية للشعر .

قال : — لابد ان تنشدني ، فانشده :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عزٍ من معاقلهم ... فاودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صائح من بعد ما قبروا ... اين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمةً ... من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعدطول الأكل قد أكلوا

قال : — فأشفق من حضر على عليّ ، رضي الله عنه . وظن ان بادرةً تبدر اليه . فبكى المتوكل بكاءً شديداً حتى بلت دموعه لحيته ، وبكى من حضر . ثم أمر برفع الشراب .

ثم قال : — عليك يا أبا الحسن دين ؟

قال : — نعم أربعة الآف دينار .

فأمر بدفعها اليه ، ورده الى منزله مكرماً .

هذا وينقل عن يحيى بن هرثمة ، قائد الحرس ، انه روى كيفية إيفاده الى المدينة للأتيان بالأمام الى سامراء على الوجه التالي ، قال : بعثني الخليفة المتوكل الى المدينة وأمرني بأن آتي بعلي بن محمد ليجيب على بعض الاتهامات التي اتهم بها . وحينما وصلت الى بيته تعالى النحيب والعويل بشكل لم أسمع مثله مطلقاً من قبل . فحاولت تهدئتهم وأكدت لهم بأنني لم أتلق أي أمر ينطوي على إيذائه أو المس به . وعندما فتشت الدار التي كان يعيش فيها لم أجد سوى قرآن ، وكتب للأدعية وما أشبه . ولذلك عرضت عليه خدماتي حينما أخذته وأبديت له غاية الأحترام .

وقد حدث ذات يوم خلال الرحلة ، حينما كانت السماء صافية والشمس على وشك الطلوع ، ان وضع عليٌ عباءته على رأسه بينما كان يمتطي صهوة جواده وعقد ذيل الحيوان . فتعجبت من ذلك ، غير أننا ما عتمنا حتى رأينا غمامة تتوسط السماء ، ثم أخذت تصب مدراراً من مطرها . وعند ذاك التفت إلي علي وقال « أني أعلم بأنك لم تفهم ما رأيتني أفعله ، وأنك تتصور بأني كان عندي معرفة خارقة بهذا الأمر .[١] ان الأمر ليس كما تظن ، لكنني كنت قد نشأت في البادية وأصبحت على علمٍ تام بالرياح التي تسبق هطول المطر . وقد هب الريح هذا الصباح بصورةٍ لم تجعل مجالاً للشك ، وشممت رائحة المطر فتهيأت له . »

ثم يتابع هرثمة سرد القصة فيقول : وعند وصولنا الى بغداد كانت زيارتنا الأولى لأسحق بن ابراهيم الطاهري الذي كان حاكماً فيها . فقال لي « أعلم يا ابا يحي ان هذا الرجل هو ابن رسول الله ، وانت تعرف المتوكل ويمكنك ان تؤثر عليه ، فأذا ما حرضته على قتل هذا الرجل فسيعاديك الرسول . » فأجبته بأنني لم أجد في سلوك عليّ غير ما يستحق الثناء والأطراء بالكلية . ثم ذهبت الى سامراء حيث واجهت وصيفاً القائد

(١) يقصد نفي علم الغيب بقوله معرفة خارقة — الخليلي

التركي ، لأنني كنت من أصدقائه المقربين . فقال لي « أقسم بالله اذا مُسّتْ شعرة واحدة في رأس هذا الرجل ، فسأطالب انا بحقه . » وقد عجبت بعض العجب لموقف هؤلاء الناس من علي ، وحينما أخبرت المتوكل بما سمعت من ضروب الثناء على الأمام قدم له هدية ثمينة ، وعامله بكل احترامٍ وتقدير .

.. ومع هذا فنظراً للأخبار العديدة الأخرى التي كانت تصل الى الخليفة عن ولاء الأمام الهادي فقد بقي أسيراً في سامراء . وكانت هذه المدينة تسمى « العسكر » في بادىء الأمر لأن المعتصم كان قد بناها لتكون معسكراً لجنده في خارج بغداد ، ولذلك كان يسمى الأمام علي النقي أحياناً « العسكري » بالنظر للعشرين السنة التي قضاها أسيراً في مدينة الجيش .

ويقول دونالدسون ان هناك ما يدل على ان الامام علي النقي كان يسمح له بشيء من الحرية في اثناء حياته في سامراء . فقد كان يلتقي بأصدقائه ، ويخرج راكباً الى خارج المدينة ثم يعود اليها ، ويحضر في مجلس الخليفة . وكانت له داره الخاصة به ايضاً ، لكن الجواسيس كانوا يترصدون حركاته ويراقبونه مراقبةً دقيقة . وقد قيل ان المتوكل أصدر أمره في الأخير بقتله .. فدعاه الى مجلسه ، ثم أوصى أربعةً من خدامه بأن يسلوا سيوفهم وينتظروا اشارةً منه بقتل الأمام عندما يخرج . وحينما خرج الامام من مجلس الخليفة وتقرب من أولئك الخدم أسقط بيدهم ولم يتم قتله .

وبعد ذلك بمدة وجيزة تمرض المتوكل بظهور خراج كبير . في جسمه بحيث لم يعد يستطيع الجلوس ولا النهوض وقد أراد أطباؤه أن يشقوا الخراج بالمبضع لكنه لم يقرهم على ذلك . ولم تجد نفعاً وسائل العلاج الأخرى . لكن أم المتوكل بعثت تطلب مشورة الأمام سرياً بذلك ، فأوصى عليه السلام باستعمال « لزقة » خاصة ضحك عليها الأطباء . غير ان الفتح بن خاقان أوصى بتجربتها على كل حال ، فتم الأمر وانفجر الخراج

فشفي الخليفة.[1]

وقد قتل المتوكل في سنة ٨٦١ على يد الأتراك المرتزقة الذين استطاعوا ان يسيطروا على شؤون الخلافة في سامراء، وتوفي ابنه المنتصر بعد سنة، ثم حكم المستعين بعده ثلاث سنوات حتى قتل في ٨٦٥. لكن الأمام الهادي عليه السلام بقي يعيش أسيراً مبجلاً في سامراء. وقد أطنب مؤرخو الشيعة، على ما يقول دونالدسون، في ذكر مزاياه الحميدة، ولو أردنا أن نضع الزلفى المبالغ فيها جانباً يبدو أنه كان رجلاً رزيناً حسن الطبع، طيب الخلق، عانى كثيراً من كره المتوكل له في جميع الأيام، لكنه مع ذلك حافظ على هيبته ووقاره، وأبدى كثيراً من الصبر[2].

ويختم دونالدسون فصله عن الأمام عليه السلام بقوله ان اليعقوبي يقول أنه توفي بصورة غامضة في اليوم السادس او السابع والعشرين من جمادى الأخرى سنة ٢٥٤ (٨٦٨م)، فانتدب المعتز أخاه أحمد بن المتوكل ليصلي عليه في محلة «أبي أحمد». لكن الناس حينما تجمعوا حصل كثير من الضوضاء والجلبة فنقل التابوت الى بيته حيث دفن في فنائه. وكان قد وصل الى الأربعين من عمره، وخلف ابنين اثنين هما الحسن وجعفر.

أما الدكتور جون هوليستر[3]، المشار اليه في معظم الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة، فيذكر جميع ما أورده دونالدسون عن الأمام الهادي تقريباً. لكنه يذكر بالأضافة الى ذلك أنه كان يبلغ السنة السادسة أو الثامنة من عمره حينما توفي والده، ولذلك كان الأمام «الصغير» بين الأئمة

---

(١) نقل دونالدسون هذا الخبر عن كتاب Khna Ashariya, Madras 1923 لمؤلفه Canon Sell . (٢) الص ٤٧، من كتاب دونالدسون.

(٣) Hollister, John Norman — The Shi'A of India, Luzac (London 1953) الص ٨٧ – ٨٩.

الأثني عشر عليه السلام . كما يذكر عنه انه مات مسموماً ، ويرجح ان ذلك تم في أيام الخليفة المعتز ، وان الذي صلى عليه وتولى مراسيم دفنه ابنه الحسن العسكري عليه السلام . ويستند في روايته على كتاب [١] عساف فيضي الهندي .

الحسن العسكري عليه السلام

إن أهم المراجع الغربية التي تأتي على ذكر الأمام العسكري عليه السلام ، كتاب دونالدسون (عقايد الشيعة) وكتاب هوليستر (شيعة الهند) المار ذكرهما . ففي الفصل الذي يفرده دونالدسون لهذا الغرض (الفصل ٢٠ ، الص ٢١٧ — ٢٢٥) يقول ان هناك شكاً في المكان الذي ولد فيه الأمام الحادي عشر ، فمن المؤرخين من يقول انه ولد في المدينة المنورة ومنهم من يقول انه ولد في سامراء . وتختلف الروايات كذلك في السنة التي ولد فيها بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣١ أو ٢٣٢ للهجرة . فيقول الكليني (الأصول الكافي) انه ولد سنة ٢٣٢ لكنه لم يعين المكان الذي ولد فيه . اما العلامة المجلسي فقد ذكر في الجزء الثاني عشر من (بحار الأنوار) عدة آراء في هذا الشأن من دون ان يلقي ضوءً على الموضوع . على اننا نعلم ان الأمام الهادي عليه السلام لم يؤخذ أسيراً الى سامراء الا في سنة ٢٣٤ هـ ، ولذلك فأن أسرته كانت حتى ذلك الوقت في المدينة التي يحتمل جداً أن يكون ابنه الحسن قد ولد فيها . وكانت أمه ، مثل أمهات معظم الأئمة الآخرين ، أمةً من الأماء تشرفت بعد إنجابها أطفالاً لسيدها باللقب الخاص « ام ولد » . وكان اسمها حديثا ، لكن أناساً كثيرين يقولون انها كانت تسمى سوسناً ، أو غزالة ، أو سليلا ، او حربتا . ونقول تعليقاً على هذا ان المراجع العربية تجعل بعض أسمائها هذه حديثة بدلاً من حديث ،

---

(١) Fayzee, Asaf A. — A Shi'ite Creed, Oxford Press 1933.

وحربية بدلاً من حربتا ، وغزل المغربية بدلاً من غزالة .

ثم يتابع دونالدسون بحثه عن الأمام الحسن فيقول انه كان يلقب بالصامت ، والهادي ، والرفيق ، والذكي ، والنقي . لكن اللقب الذي غلب عليه هو « العسكري » ، لأنه عاش في مدينة الجيش بسامراء . اما كنيته فهي « أبو محمد » . وحينما بلغ الثانية من عمره (او الثالثة أو الرابعة) حامت الشكوك حول والده الامام علي الهادي ، وتصور المتوكل انه يشترك في مؤمرات تحاك ضده ، فجيء به أسيراً الى سامراء . ولما كان قد رخص له بالعيش في بيت خاص به فقد سمح لأسرته الكريمة بأن تأتي الى سامراء كذلك . وهناك شب الفتى وخصص القسم الأعظم من وقته للدراسة وطلب العلم . وبالاضافة الى الدراسات الاعتيادية التي كانت مطلوبة من الأولاد المسلمين عن القرآن والشريعة وما أشبه ، فأن الأمام العسكري ربما كان منشغلاً أيضاً لدرجة ما بتعلم اللغات ، لأن من الأمور اللافتة للنظر التي لو حظت عليه في السنين الأخيرة انه كان يستطيع التكلم بالهندية مع المسلمين القادمين من الهند ، والتركية مع الأتراك ، والأيرانية مع الأيرانيين (نقل دونالدسون هذا عن خلاصة الأخبار) . وكثيراً ما كان يسمى هو وأبوه وجده بأسم « ابن الرضا » من دون ان يلقب بالأمام ، لأن طائفة كبيرة من الطوائف الشيعية كانت تعتقد ان الأمامة تقف في الأمام الرضا عليه السلام ولا تستمر في سلالته من بعده ، وهؤلاء كان يطلق عليهم « الواقفية » .

ومما يروى عن الامام وقد كان في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره ، في خلافة المستعين ، أنه استطاع أن يركب بغلة مشاكسة كانت تعود للخليفة من دون أن يجد صعوبة ، وقد شاع يومذاك ان الخليفة كان ينتظر وهو جازم ان تلك البغلة ستقضي عليه ، لكن الأمام أبدى مقدرةً تامة في السيطرة عليها بخلاف ما كان يريده صاحبها الخليفة .

وعلى عادة الدكتور دونالدسون ، الذي يتسقط فيها الهفوات ويجمع

الخرافات والأقوال الغريبة ليفسرها كما يريد ويهوى ، فانه يقول مدعياً الاستناد الى كتاب يسمى (عقائد الشيعة) لمؤلف يدعى حاجي مرزا عكاسي (مطبوع بالحجر في مشهد خراسان سنة ١٨٧٩) ان الأمام العسكري لم تكن له زوجة شرعية ، وان إحدى جواريه التي انجبت له ابنه الأمام الحجة القائم كانت نرجس خاتون ابنة يشوع بن امبراطور الروم . ولم يكن للأمام عليه السلام سوى الحجة القائم وابنة أخرى . ثم يذكر دونالدسون ان قصة نرجس خاتون وكونها أميرة من أميرات الروم ربما تكون قد وضعت لتؤكد على نبل الأمام من جميع الجهات ، لكنه لم يكن من المستبعد انها كانت من بين الأسرى المأسورات من جهات الامبراطورية البيزنطية ، اللواتي جيء بهن الى أسواق النخاسة جاريات في بيوت علية القوم من المسلمين .

ويروي دونالدسون كذلك عدداً من المعجزات المنسوبة الى الأمام مثل قصته مع الشحاذ الذي أقسم بأنه لا يملك شروى نقير بينما كان يخبيء في بيته مئتي دينار ، وحديثه مع الرجل الذي زاره فتذكر بأنه قد أضاع خمسين ديناراً فدله الأمام على مكانها ، وقصته الأخرى عن السجادة التي جلس عليها أحد زواره فكانت سجادة جلس عليها الأنبياء جميعهم من قبل . الى غير ذلك مما يلتقطه من اخبار وروايات خارجة عن حيز التـــاريخ .

وينتهي الفصل الخاص بالأمام العسكري (ع) بقوله ان اهم ما كان يزعجه به الخليفة في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة من حياته الشريفة انه منع عنه « الخمس » الذي كان من المعتاد ان يسلم الى آل البيت النبوي الكريم . ثم يقول ان المراجع تجمع على ان الأمام أبا محمد الحسن العسكري قد توفي في بيته بسامراء سنة ٢٦٠ للهجرة ، وهناك دفن الى جنب والده . وتقول الكتب الشيعيه مثل كتاب (تذكرة الأئمة) وكتاب (عقائد الشيعة) انه توفي بالسم الذي دسه له المعتمد العباسي .

اما الدكتور هوليستر فيورد النقاط التي تطرق اليها دونالدسون بشكل أوضح ، ولا يتوسع في ذكر المعجزات والكرامات وما أشبه مما أورده دونالدسون ضمن حوادث التاريخ معتمداً فيه على الروايات والاخبار التي تجافي سرد التاريخ ويقول ان الأمام العسكري تولى مسؤوليات الأمامة وهو في الثانية او الثالثة والعشرين من عمره ، فكان أكثر نضجاً مما كان عليه أبوه وجده حينما توليا تلك المسؤولية .. ويبدو ان عزله عن الناس كان يتبع بشيء أكثر من الصرامة التي كان يعامل بها أبوه ، وكان يتضح من ذلك ان خلفاء بني العباس كانوا يرغبون في التخلص منه . وللبرهنة على هذا يورد هوليستر قصة البغلة الجموحة ، وغيرها .

وبعد ان يشير الى قصة تزويجه بالسيدة نرجس خاتون المار ذكرها كذلك ، يذكر أن الأمام الحسن منع من مقابلة الناس وأبقي في عزلة شاملة لوحده مدة من الزمن . ولما كان لم ينجب أي ولد وحتى ذلك الحين فقد كان اعداؤه يطمعون في ان يقطع نسل الأئمة الأطهار . ولأجل إخضاعه الى الرقابة الشديدة التامة كان سجنه في ذلك الوقت عبارة عن غرفة في القسم الأسفل من القصر الملكي ، ولم يسمح له بأن يبقي زوجته المفضلة معه . وكان لتلك الغرفة باب فقط ، ولم يكن فيها أي شباك يمكن ان يدخل منه النور والهواء . وقد سجن فيها سنتين ، ومع أنه كان شاباً في الرابعة والعشرين من عمره فقد خرج من السجن وهو يبدو كأنه رجل مسن قد ناهز السبعين . لكنه تحمل كل ذلك الأذى والعذاب بطمأنينة وهدوء [١] .

وقد اطلق المعتمد سراحه بعد ذلك وسمح له بالعودة الى بيته . وصار يراقب مراقبة دقيقة من دون ان يكتشف عنه أي نوع من الخيانة ، على

---

(١) نقل المؤلف هذا الخبر عن كتاب سيل المار ذكره :

Sell, Canon — Khna 'Asharia.

ما يقول هوليستر . وبعد ذلك قطع عنه الخليفة « الخمس » .. فوقـع الأمام في ضائقة شديدة من جراء ذلك ، لكنه لم يفقد شخصيته واتزانه . فتوفي في سامراء سنة ٢٦٠ هـ . وقد حصلت ضوضاء وصخب في البلد حينما سرت أنباء وفاته فيه لكن الأمور عادت الى الهدوء حينما انضم الى موكب التشييع رجال الدولة وكبار بني هاشم . فدفن الأمام الحسن بالقرب من قبر والده في سامراء . وكانت قد اشتركت في التشييع كذلك جموع غفيرة من الناس ، وخيّم الحزن في كل مكان . ولما كانت الحاجة للتقية والتمسك بها قد انتفت بوفاته فقد عبر الناس عن حزنهم العميق يومذاك بكل صراحة .

ويقول هوليستر بعد ذلك أن أخاه جعفراً قد حظي بالتفات خاص من السلطة وغيرها بعد وفاة الأمام . وكانت بعض الأوساط تعترف به من قبل بدلاً من ان تعترف بالأمام الحسن ، او ابنه ، لكن الأثنا عشرية يسمونه « الكذاب » . وهناك جماعة أخرى يسمون أنفسهم « الجعفرية » كانوا ينكرون وجود ابن للأمام الحسن ويعترفون بجعفر الكذاب هذا خليفة له ، بينما كان آخرون يقولون ان الأمامة تنتهي بالحسن العسكري نفســه .

وهنا يذكر هوليستر ان المستر كانن سيل صاحب كتاب (الاثنا عشرية) ، بعد ان يتطرق الى أصل الشيعة النصيرية يقول : .. وهناك تفسير آخر على جانب أكبر من الاحتمال ينص على أن اسمهم — النصيرية — الحالي ينسب الى محمد بن نصير من وكلاء الأمام الحادي عشر الحسن العسكري . ويقول ماسنيون المستشرق الفرنسي ان محمداً هــذا كان يسمي نفسه « باب » الأمام العاشر علي النقي ، وابنه الكبير محمد الذي مات قبله في ٢٩٤ هـ . وبهذا يفرق المستر سيل بين النصيرية والاسماعيلية ، وقــد ازدادت الشقة بعداً بين هذين الفريقين بمحاولة الاسماعيلية الاستيلاء على النصيرية في منطقتهم بسورية .

الأمام المهدي المنتظر

لقد كتب عن الأمام المهدي ابي القاسم عليه السلام عدد غير يسير من كتاب الغرب ، ولاسيما عند البحث عن المهدي والمهدوية بوجه عام . لكننا سنقتصد هنا على ايراد شيء مما كتبه هوليستر في كتاب (شيعة الهند)[1] ودونالدسون في كتاب[2] (عقيدة الشيعة) المار ذكره .

ويبدأ الدكتور هوليستر بالقول، ان رأي الجعفرية الذين يصرون على ان الأمام الحسن العسكري لم يكن له ولد ، يشاركهم فيه عدد من الباحثين في موضوع الهرطقة . فيشير ابن حزم مثلاً الى اختلاف الآراء في هذا الامام ويلخصها في الآتي : (١) أنه ولد في السنة التي توفي فيها أبوه . و (٢) أنه ولد بعد ان توفي والده . و (٣) انه كان في الخامسة من عمره حينما انتقل والده الأمام الى دار الخلود . (٤) هناك أخبار متناقضة عمن تكون أم الولد نفسه .

ثم يقول : ولا تعتمد عقيدة الأثني عشرية على عدم تصديق السنة أو غير المسلمين ، لهذا الرأي . لكنه يبدو ان شخصية الأمام الثاني عشر ، والآراء التي تكونت بشأنه ، تعتبر من أساسيات العقائد الشيعية .

ثم يقول هوليستر ان الأمام المهدي ولد في سامراء سنة ٢٥٥ هـ . وخلف والده في الأمامة سنة ٢٦٠ هـ ، وبذلك يكون قد بلغ الخامسة من عمره حينما توفي والده . وكانت امه نرجس خاتون أمةً من أهل الغرب . ويقول الحلي عنه انه أفضل الأئمة جميعهم ، كما تروي الروايات عدداً من المعجزات عن ولادته .. وقد أخفاه أبوه الأمام العسكري ، خلال السنين الأولى من سني حياته ، عن الناس عدا الأصدقاء الأخصاء خوفاً عليه من الخليفة الذي قد يعمد الى القضاء عليه اذا ما سمع بالظروف

---

(١) الص ٩٢ — ١٠٠ . (٢) الفصل ٢١ ؛ الص ٢٢٦ — ٢٤١ .

التي صحبت ولادته . غير انه بعد ان توفي والده وأصبح اماماً بعده ، اختفى عن الأنظار ودخل الغيبة . ويروي هوليستر هنا عدداً من الروايات التي يستمدها من الاخبار وليس من التاريخ .

وتقول احدى الروايات ان الامام المهدي اختفى من سرداب في سامراء ، ويروي ابن بطوطة في رحلته انه كان قد وجد خيالة من الجنود تقف في مدخل هذا السرداب . ويبدو ان هذه الرواية شائعة القبول بين الناس ، ولذلك يدل أحد المزارين الموجودين في سامراء اليوم على المكان الذي قيل انه حصلت فيه الغيبة[١] . إذ يوجد تحت القبة السرداب الذي يعتقد بأن الأمام الفتي قد غاب فيه . وتعتبر زيارته عن طريق سلم طويل مؤد اليه من الزيارات المعروفة بالكثير من الأجر والثواب .

وكان يمثل الأمام خلال « الغيبة الصغرى » التي امتدت الى ما يقرب من سبعين سنة أربعة وكلاء ، وهم : عثمان بن سعيد ، وأبو جعفر محمد ، وابوالقاسم الحسين بن روح ، وعلي بن محمد السمري . وكان عثمان بن سعيد قد خدم الأمامين الأخيرين سكرتيراً وأميناً للصندوق ، كما كان مسؤولاً في الحقيقة عن ممتلكاتهما . وقد رشحه الحسن العسكري ليكون وكيلاً له ، وسمح لجماعة من أتباعه حينما جاءوا يسألون عن الأمام من بعده بأن يروا الأمام الفتي محمداً بأنفسهم ، ثم قال لهم بأنهم لن يستطيعوا رؤيته مرة أخرى حتى يكون قد تقدم كثيراً في العمر . وأخبرهم بعد ذلك بأنهم يجب ان يقبلوا خلال هذه المدة ما يقول لهم عنه عثمان بن سعيد لأنه وكيله . وكان كل وكيل يسمي من سيخلفه في الأمر ، كما كان كل منهم يدير مصالح الأمام وشؤونه ، وينقل الى رؤساء

---

(١) نقل هوليستر هذا الخبر عن كتاب السيدة مير حسن علي الهندية ، ص ٧٩ :
Ali, Mrs Meer Hassan – Observations on the Mussalmans of India, 2nd Edition (London 1917).

الطائفة الأثني عشرية رسائل الأمام السرية . وما حلت نهاية العهد الذي اشتغل فيه الوكيل الرابع علي بن محمد حتى كان الاضطهاد قد ادى الى تفرق الطائفة وأفرادها شذر مذر بحيث لم يبق على قيد الحياة من كان قد رأى الأمام بأم رأسه من قبل . وقد امتنع الوكيل الأخير عن تسمية من يخلفه او ينوب عنه فقال « ان الأمر قد أصبح بيد الله » ، وقد عرفت الحقبة المبتدئة بذلك العهد بـ « الغيبة الكبرى » .

وقد كان الأمام المهدي (ع) طوال أيام الغيبة الصغرى يظهر بين حين وآخر للمخلصين المقربين من أتباعه ، لكنه كان يتصل بالجميع عن طريق الوكيل . حتى يظهر في آخر الزمان . وقد يظهر في مكة مع الحجاج في أيام العيد الأضحى من دون أن يعرفه أحد الى غير ذلك من المعتقدات .

هذا وهناك أشياء أخرى عن الأمام الحجة ينقلها الدكتور هوليستر عن عدد من كتاب الهند المسلمين ، تختص بالرجعة أو ظهور المهدي في آخر الزمان وما أشبه . كما يبحث في مزايا اعتقاد الشيعة الأثني عشرية بهذه العقيدة ، وفوائدها في حياتهم اليومية والدينية . ثم يختم البحث بالأشارة الى أن كلمتي « المنتظر » و « القائم » تدلان بطبيعة الحال على مقدار الأمل الذي يخالج نفوس الشيعة في عقيدتهم هذه .

اما دونالدسون فيبدأ الفصل الذي خصصه للكتابة عن الأمام المهدي بالمقارنة بين فكرة « المهدي » عند أهل السنة ، وما يعتقده الشيعة بالنسبة لها . ثم يقول انه من المحتمل جداً ان يكون الفشل المحزن ، الذي منيت به الأمبراطورية المسلمة ، في تحقيق العدالة والمساواة بين الناس على عهد الخلافة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ) قد تكون له علاقة بنشوء فكرة ان رجلاً رشيداً من بين المسلمين سيظهره الله في آخر الزمان لهذا الغرض . والحقيقة ان كلمة « المهدي » كانت قد نشأت بعد اغتيال الأمام علي (ع) قتل ابنه الحسين ، وما أعقب ذلك من فظائع الحروب الأهلية التي نشبت وبين العرب ، حين أطلقت في سنة ٦٦ للهجرة على الأمام محمد بن الحنفية.

فقد سمي يومذاك « المهدي بن الوصي » وحينما توفي دفن في جبل رضوى ، وصار أتباعه ينتظرون عودته من هذا الجبل ، وبذلك أصبح « المهدي المنتظر » . .. ونظراً لأن القرآن ليس فيه ما يبرر حقيقة هذه الآمال ، فقد كان من الضروري ان تدعم بروايات وأحاديث تؤكد وجودها [١] . على ان ابن خلدون قد شكك في صحة ما روي من الأحاديث في هذا الشأن ، واستند في ذلك الى عدم ذكره في صحيحي البخاري ومسلم ، وشك في اعتماد الترمذي وأبي داود على عاصم . ولذلك لم يتطلب علماء السنة وجوب إدخال فكرة « ظهور المهدي » في عقائدهم .

على أن علماء الشيعة من جهة أخرى يعتبرون انتظارهم لظهور المهدي شيئاً أساسياً في عقائدهم . فهم يذهبون الى ان الآيات القرآنية التي تعبر عن فكرة الهداية الألهية يجب ان ينظر في علاقتها بالأئمة بتصرف ، ويؤكدون بصورة خاصة على الآية « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . وقد زعم الكليني وغيره من علماء الشيعة ، بالاستناد الى أحاديث مروية عن الأمام الصادق والأمام الباقر عليهما السلام ، ان كلمة أمة في هذه الآية تعني الأئمة من آل بيت النبي . وهناك حديث عن الأمام علي يقول فيه « ان هذه الأمة ستنقسم الى ثلاثة وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون منها في جهنم وواحدة في الجنة . » [٢] وهناك عدة آيات تشير مباشرة الى القيامة . وإن الأشارة الى « القائم » في يوم القيامة خلال الآية « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » يقصد بها المهدي .

لكن الشيعة يعتبرون القرآن أيضاً ليس فيه وضوح كاف في الموضوع ، وإن ما ينقصه في هذا الباب تكمله الاحاديث الموثوقة .

---

(١) رجع المؤلف في هذا البحث الى الص ١١٢ من :
Wensinck — A Haudbook of Early Muhamadan Traditions.
(٢) والمشهور ان هذه الرواية مروية عن النبي (ص) لا عن الإمام علي (ع) — الخليلي

ثم يذكر دونالدسون ان الأمام الثاني عشر ، الذي كان يسمى صاحب الزمان ، يقال انه ولد في سامراء سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ هـ . ويدل هذا على أنه ولد قبل وفاة والده الحسن العسكري بأربع أو خمس سنوات . ثم يحاول هذا المؤلف التشكيك في إمكان تطبيق ما ورد من أحاديث نبوية وغيرها بشأن « المهدي » على ولادة الأمام الحجة ، مما لم نجد موجباً لايراده هنا لانه خارج عن العرض التاريخي .

ويذكر بعد ذلك ان ابن خادم من خدام الحسن العسكري (ع) يروي قائلاً : .. ان الحسن عليه السلام حينما ولد الأمام بعث يطلب والده ، وأوصاه بتوزيع عشرة آلاف رطل من الخبز وعشرة آلاف رطل من اللحم على بني هاشم وغيرهم في سامراء ، وان يذبح عدداً من الأغنام لهذا الغرض . ويذكر كذلك ما روته نسيم ومارية ، خادمتا الحسن العسكري عن ولادة المهدي عليه السلام وما رافق ذلك من كرامات ومعجزات كما يُروى مثل هذا عن عمته حليمة .

ويشير دونالدسون بعد هذا الى ان المهدي عليه السلام قد أُعلنت أمامته قبيل وفاة والده . فقد أخبر رجل يدعى اسماعيل انه عاد الأمام الحسن في مرضه الأخير وجلس بقربه . فسمعه يطلب من عقيد خادمه بأن يحضر له شيئاً من سائل المستكي ، لكن والدة صاحب الزمان سرعان ما جاءت بالأناء ووضعته في يد الحسن . غير ان يده ارتعشت حينما حاول ان يشرب شيئاً منه فارتطم الأناء بأسنانه . وعند ذاك وضعه جانباً وطلب من خادمه عقيد ان يذهب الى الغرفة ويخبر الطفل الذي كان يصلي فيها بالمجيء اليه . وبعد ان انتهى من صلاته جاءت أمه وأخذت بيده فأتت به الى والده . وحينما حضر عند والده كانت سيماء الطفل النبيل تضيء وتزهو ، وكان شعره جعداً ، وقد ابتسم فبانت اسنانه . وقد بكى الوالد المحتضر عندما وقع نظره عليه وقال له : يا سيد أهل بيته أعطني شربة فأني ذاهب الى خالقي وبارئي يوم القيامة . فأخذ الطفل ماء المستكي ،

وقرأ عليه ، ثم سلمه لوالده . وعندما شربه قال جهزني للصلاة ، فأخذ صاحب الزمان منشفة مسح بها وجه والده ورأسه وقدميه للوضوء . وعند ذاك خاطب الأمام المحتضر ابنه بقوله : طفلي العزيز ، انت صاحب الزمان ، أنت المهدي ، أنت آية في أرضه . أي طفلي ووصيي ، أنت محمد ابني وابن الرسول ، انت خاتم الأئمة . لقد أخبر رسول الله عنك ، وذكر اسمك وكنيتك . وهذا هو عهد أبائي قد جاء الي .. وفي تلك اللحظة توفي الأمام العسكري عليه السلام .

ويبدو ان الأمام الفتي قد اختفى وبدأت غيبته فيما يقرب من ذلك الوقت . وقد جاء في (جنات الخلود) انه اختفى في بيته الذي ورثه من ابيه بسامراء في سرداب يتم الوصول اليه بعدد من الدرجات . وكان ذلك هو المكان الذي كان يختفي فيه هو ووالده بعيداً عن عبث الطغاة حينما كانا ينصرفان الى العبادة . وكان حينما بدأت غيبته في السادسة ، او السابعة ، او التاسعة ، من عمره مع عدد من الأشهر والأيام . ويقول دونالدسون ان صاحب (عقائد الشيعة) لا يذكر كيفية اختفاء الأمام لكنه يقول ان قول البعض بأنه لم يكن قد ولد يومذاك ، أو أنه مات في أيام والده ، هو قول باطل . فمن الضروري الاعتقاد بأنه ولد وعاش ، ولكن في الغيبة ، وانه سوف يظهر في آخر الزمان .

ويقول دونالدسون كذلك ، ان فكرة بقائه على قيد الحياة ، واختفائه بصورة غامضة في وقت يقرب من الوقت الذي توفي فيه والده ، تؤيد ما ترويه الأخبار عن عودته الى الظهور في مناسبات عدة ، ولاسيما في مأتم والده وعند الدفاع عن حقوقه وقت توزيع التركة . فتقول الأخبار مثلاً ان عمه جعفراً الكذاب حينما كان يوشك ان يصلي على جنازة أخيه ظهر طفل وسيم جعد الشعر لماع الأسنان وأمسك برداء عمه ، فأصر على ان يصلي هو نفسه عليها .

وحينما ادعى جعفركذباً بالميراث ظهر صاحب الزمان بقرب البيت وسأله

قائلا : لماذا تدعي بحقوقي ؟ فلم يتمالك جعفر ان امتقع لونه ولاذ بالصمت . وبعد ذلك اختفى الأمام ، وحاول جعفر العثور عليه في كل مكان لكنــه لم يستطع التوصل اليه . وقد جاءت جدة الامام الحسن العسكري لأمه وأمرت بأن يدفن في تلك الدار . فاعترض جعفر على ذلك مدعياً بأن البيت أصبح يعود له ، ثم طلب عدم دفن أخيه فيه . لكن صاحب الزمان ظهر من جديــد ، وسأل عمه بقوله : هل يعود هذا لك يا جعفر ؟ ثم رحل في الحال ولم يره أحد بعد هذا (الحق اليقين للمجلسي الص ١٥٢ و ١٤٦) .

وهناك أخبار كثيرة عن حوادث ومناسبات ظهر فيها الأمام الحجة للمسلمين المؤمنين ، بعد الصلوة أو وقت الحاجة . لكنه بقي سبعين سنة ينوب عنه وكلاؤه في الأرض . وكان أولهم عثمان بن سعيد ، وحينما مات خلفه ابنه أبو جعفر ، الذي رشح بدوره أبا القاسم ابن روح ، وهذا عين بعده أبا الحسن السمري . وعندما أشرف الأخير على الموت طلب اليه ان يسمي أحداً بعده لكنه رفض ذلك وأجاب يقول : ان الأمر بيد الله الآن . وعلى هذا فأن الحقبة التي كان الوكلاء يمثلون خلالها الأمام اصبحت تعرف بالغيبة الصغرى . وهذه تمتد على ما يقال من سنة ٨٦٩ الى سنة ٩٤٠ ميلادية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً دخل المستتر في « الغيبة الكبرى » ، ولا ينتظر ان يعود الا في آخر الزمان .

أما عن رجعة الامام المنتظر ، وظهوره في آخر الزمان ، فيقول دونالدسون ان الشيعة يؤكدون على الآيات الآتية في اثباتها :

ونتلُو عليكَ من نبإ موسى وفرعونَ بالحق يؤمنون .

ان فرعونَ علافي الارضِ وجعلَ أهلها شيعاً : يستضعفُ طائفةً منهم ، ويذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم .

ونُريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين .

ونمكّن لهم في الأرض، ونريَ فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون .

وأوحينا لأمّ موسى ان آرضعيه فان خفتِ عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادّوه اليكِ وجاعلوه من المرسلين .

وحينما سئل الأمام زين العابدين (ع) عن تفسير هذه الآيات رد يقول : أقسم بالله الذي بعث محمداً بالحق اننا نحن آل البيت مثلنا مثل موسى واتباعه ، ومثل اعدائنا وأشياعهم كمثل فرعون واتباعه .

وهذا ما رأينا اثباته عن الأمام المهدي (ع)، ملخصاً مما أورد دونالدسون في كتابه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلاء الإمام صاحب الزمان

لقد أفرد الدكتور دونالدسون ، من دون سائر المراجع الغربية التي تيسرت لنا ، فصلاً خاصاً في كتابه[1] المشار اليه من قبل بحث فيه عن وكلاء الأمام الحجة (ع) الذين مر ذكرهم . ويبدأ الفصل بقوله ان ولادة الأمام الثاني ، على ما يروى ، حصلت في الثامن من شعبان سنة ٢٥٦ (٨٦٩ م) وان وكيله كان عثمان بن سعيد ، الذي اوصى بالوكاله من بعده لابنه أبي جعفر محمد ، وهذا اوصى بها الى ابي القاسم ابن روح ، ثم اوصى بها بدوره الى أبي الحسن علي بن محمد السمري . وكان الأمامان العاشر والحادي عشر يعتبران عثمان بن سعيد سكرتيرهما الخاص ، وأمين صندوقهما ، ويعدانه شخصاً موثوقاً به تمام الثقة ويعتبر كل ما يقوله مروياً عن لسانهما . ولذلك كان الأمام العسكري (ع) يخاطبه في بعض الأحيان على ملأ الناس بكونه « وكيلاً على مال الله » .

وقد روي ان اربعين رجلاً من وجوه الشيعة كانوا قد اجتمعوا ذات يوم وجاءوا الى الحسن العسكري قبيل وفاته ، ليستفسروا منه عمن سيكون حجة الله في أرضه من بعده . فانسحب عليه السلام من بينهم ودخل الى البيت ،

---

(١) عقيدة الشيعة ، الفصل ٢٣ ، الص ٢٥١ – ٢٥٧ .

ولم يعد اليهم الا بعد ساعة وهو يحمل بين ذراعيه طفلاً وسيماً بهي الطلعة . وقد بيّن لهم ان هذا الطفل هو الذي سيخلفه في الأمامة ، وانهم لن يروه حتى يكون قد تقدمت به السن كثيراً . لكنه أخبرهم بأنهم يجب عليهم ، في الوقت نفسه ، ان يقبلوا بما يقوله لهم عثمان بن سعيد في كل شيء لأنه وكيل إمامهم . ويروي علاوة على ذلك ان الحسن العسكري قال عنه انه وكيله ، وانه وكيل ابنه محمد . وعلى هذا فقد كان هو — اي عثمان بن سعيد — الذي تولى غسل جثمان الامام العسكري وتضميخه بالطيب قبل دفنه وايداعه في ضريحه الطاهر .

وحينما سئل عثمان بن سعيد عما اذا كان قد رأى ابن الأمام الحسن العسكري ، الذي كان يفترض أنه ولد قبيل وفاة أبيه ، انفجر باكياً وقال « بلى لقد رأيته.. » لكنه لم يذكر اسم الطفل لئلا يسمع به الأعداء ، ويبدأوا بالتفتيش عنه . والمقول ان قبر عثمان بن سعيد يوجد في بغداد ، داخل الجامع الكائن في شارع الميدان بالقرب من باب المدينة . وكان هناك في سنة ٤٠٨ هو مدخل خاص الى الغرفة التي يوجد فيها قبره من باب صغير في محراب الجامع ، لكن هذا الجدار هدم بعد اثنين وثلاثين سنة وترك القبر مكشوفاً في الصحن ، حيث يستطيع ان يزوره كل أحد .

وقد عين الوكيل الثاني ، أبو جعفر محمد بن عثمان ، بوصية خطية كتبها أبوه ليخلفه في وكالة الأمام المستتر . وكان هو الذي غسل جثة ابيه وأجرى مراسيم الدفن بنفسه ، وهنا إجماع عند شيعة العراق على أنه كان يتمتع بالسلطة التي كانت عند أبيه . والمقول أنه كانت عنده عدة كتب عن القوانين الشرعية التي ورثها من أبيه ، والتي كان أبوه قد تسلمها من الأئمة بدوره . وبعد ان خدم الأمام المنتظر بعد أبيه مدة تناهز الخمسين عاماً توفي سنة ٣٠٥ (٩١٧) . وقد دفن في جنب قبر أمه ، على طريق باب الكوفة — في بغداد — في الدار التي كان يسكنها والتي تقع الآن في وسط الفلاة . وحينما كان في بغداد عشرة من شيعته يسهمون معه في مسؤولية تزعّم الطائفة الشيعية ، ويساعدونه في ادارة شؤونها ، كان الشريك الذي يعتمد عليه اكثر من الآخرين أبا القاسم الحسين

بن روح ، ولذلك أوصى له بأن يأخذ مكانه في وكالة الأمام المستتر ، فاصبح الوكيل الثالث للأمام .

ومما يروى عن أم كلثوم ، ابنة أبي جعفر ، انها قالت ان الحسين بن روح كان وكيل أبيها خلال عدة سنين ، وانه كان يشرف على أملاكه ، وينقل رسائله السرية الى وجوه الشيعة المعروفين . وكان خلال ذلك الوقت كله متحمساً في خدمة أبيها الذي كان يعتمد عليه بلا أدنى ريب . ومع ان أباها كان له صديق مخلص آخر ، هو ابو جعفر بن أحمد ، فقد وجد من المصلحة ان يستخلف ابن روح من دون ان تثار أية معارضة ضده .

وتقول الرواة ان ابا جعفر كان مقدراً جد التقدير من الشيعة والسنة على سواء ، وانه كان معروفاً عندهم بعلمه وثقافته . وكان يقدّر على الأخص لبراعته في التقية . ثم يورد دونالدسون هنا قصصاً تؤيد ذلك ، وأخرى تدل على مرونته وحذقه في اجتذاب خصومه اليه ... وقد توفي أبو القاسم ابن روح سنة ٣٢٦ فدفن ، على ما تقول أم كلثوم ، بالقرب من دار علي بن أحمد النوبختي في مكان يقع وراء قنطرة الشوك من جهة باب المدينة . والمعروف اليوم لدى الكثيرين من سكان بغداد ان قبره يقع في منطقة الشورجة خلف بناية الأوقاف الكبيرة (الجديدة) المطلة على شارع الجمهورية . التي تشغل قسماً منها مديرية البرق والبريد العامة . وتشاد في هذه الأيام بالذات قبة صغيرة فوق قبره .

وكان الوكيل الرابع علياً بن محمد السمري . ويقول دونالدسون خلال كتابته عنه أن وفاة الأمام الحسن العسكري كانت قد مرت عليها سبعون سنة يومذاك ، وبرغم انتظار الشيعة المخلص للإمام صاحب الزمان ، فانه لم يظهر لهم . وفي خلال هذين الجيلين كان اولئك الذين عرفوا الإمام شخصياً وأدركوا أيامه قد انتقلوا الى الدار الآخرة . وقد استطاعت مجرد بقية غير كبيرة من الطائفة الشيعية ان تبقى على قيد الحياة بالسير خلال طريق التقية الوعر . وكانت

هذه البقية قد لاقت الأمرين خلال الشغب والاضطراب السياسي والاجتماعي الذي ضعفت فيه عقائد الناس أجمعهم وفترت همتهم . وشاع الجور والتعسف في الأرض بحيث صار الكثيرون من الناس يعتقدون بان الإمام كان لابد من ان يظهر بالتاكيد . فلم يتشتت شمل الأقليه الشيعية الباقية ويزداد الضغط عليها حسب ، وانما انحطت سمعة الامبراطورية الاسلامية أيضاً ونال منها تكرر غزوات القبائل المتاخمة لها ما نال ، كما اصيبت جيوش المسلمين بخسرانات فادحة بالقتال المستمر مع البيزنطيين .

ففي السنة التي توفي فيها الامام العسكري عليه السلام في سامراء هلك الخليفة الصالح ، بعد تعذيب شنيع وراح ضحية لضغط اسياده الأتراك عليه . وجاء عهد الخليفة المعتمد بسلسلة من الكوارث الرهيبة . وهنا يعدد دونالدسون ما حل بالبلاد العراقية وغيرها من نكبات ويشير الى ثورة صاحب الزنج وما اقترفت فيها من فظائع وشناعات ، والى ما وقع من حوادث الطاعون والزلزال وما حصل من نزاعات وحروب اهلية ، فضلاً عن اندحار الجيوش أمـام البيزنطيين ، حتى تولى السفاح الثاني ، الخليفة المعتضد ، واستطاع ان يعيد الى الخلافة شيئاً من هيبتها .

ويقول دونالدسون بعد سرد هذه الأشياء ان الوكيل الرابع قد تولى في أسوأ الأوقات وأنحسها . وربما كان هذا الوكيل يعتقد بالنسبة لما جرى ان الأمام القائم (ع) كان لا بد من ان يظهر ، والا فسيكون موقفه حرجاً بين الناس ويصيبه الكثير من الخيبة والفشل . ولذلك نجده يقول حينما كان يحتضر : وطلب اليه ان يسمي وكيلاً من بعده ، ان الأمر اصبح بيد الله . وهكذا رفض ترشيح احد ، فلم يعد يوجد بهذا على وجه الأرض اي وكيل للإمام منذ ان توفي السمري سنة ٣٢٩ (٩٤٠) حتى اليوم . وانتهت مدة الغيبة الصغرى التي امتدت من سنة ٢٥٦ الى سنة ٣٢٩ للهجرة . وحلت بعدها حقبة الغيبة الكبرى . ويقول دونالدسون ان قبر الوكيل الرابع — السمري — يقع في شارع الحلبخي بالقرب من قناة النهربي . لكن المعروف عند الكثيرين من الناس

ببغداد اليوم هو انه مدفون في وسط سوق السراي في مقابل باب المستنصرية الكبرى تقريباً[١] .

بعد عودة الخلافة الى بغداد

ومنذ ان انتقلت عاصمة الخلافة العباسية على عهد المعتمد من سامراء الى بغداد سنة ٨٧٠ للميلاد ، لم يبق لسامراء شأن يذكر ولم تعد تلفت اليهـا الأنظار الا نادراً . ولذلك نجد ان اسمها ينقطع وروده في التواريخ جميعها الا حينما يشار فيها الى حوادث ورجال اصبحوا في ذمة التاريخ نفسه . وحينما دالت دولة بني العباس ، واكتسحت سيول التركمان والمغول بلاد العـراق فقوضت دعائم الخلافة العباسية في بغداد ، خمل ذكر العراق بأجمعه ولم يعد سوى أقليم ناء من أقاليم الدول التركمانية ، أو ولاية من الولايات المهملة تنتمي الى الدولة العثمانية مترامية الأطراف .

لكن سامراء مع انحطاط شأنها على هذا المنوال ، وانقلابها الى محطـة صغيرة من المحطات التي تقف فيها وسائط النقل النهرية في في بعض الأحايين بين الموصل وبغداد ، أو بغداد واستانبول ، فقد بقيت كعبةً للزوار الذين كانوا وما زالوا يفدون اليها من انحاء العالم الأسلامي جميعه لزيارة الأضرحة المطهرة فيها ، التي بقيت رمزاً لانتصار العقيدة الحقة على الظلم والفساد . وحينما بزغ فجر النهضة الحديثة في أوربة وصارت أنظار الغرب تتجه الى البلاد الشرقية لاستغلالها واستثمار خيراتها ومواقعها الجغرافية ، وترويج المصالح التجارية والاستعمارية فيها ، صار الرحالة الغربيون يسلكون الى الشرق طريق استانبول ــ الموصل ، او حلب ــ الموصل ، ثم يأخذون طريق النهر من الموصل الى بغداد فالبصرة في كثيرٍ من الأحيان . ولذلك صرنا نجد اشارات

---

(١) لقد خصص جزء مستقل من موسوعة المقدسة بسرد حياة الامام الهادي والعسكري والمهدي (ع) وسيمثل للطبع في المستقبل القريب — الخليلي

عابرة ، او اشارات فيها شيء من التفصيل ، الى سامراء في رحلات هؤلاء الغربيين ، حيث ان اكلاكهم كانت تقف في شواطئها فيتلبثون فيها بعض الوقت .

وأقدم ما عثرنا عليه من هذا القبيل ذكر سامراء في رحلة الرحالة الفرنسي المشهور جان بابتيست تافيرنييه الذي زار العراق في منتصف القرن السابع عشر للميلاد . وقد وصف في رحلته طريق النهر من الموصل الى بغداد وأتى فيها على ذكر[١] سامراء . فهو يقول (الص ٧٤ من الترجمة العربيـــة) :.. وفي اليوم الثاني والعشرين — شباط ١٦٥٢ — بعد ان بقينا ساعتين في الماء ، التقينا بجدول يأخذ ماءه من دجلة لسقي الأراضي هناك ، ويمتد الى قرب قبالة بغداد ، وهناك يصب في دجلة مرة ثانية . ومن هناك نزلنا الى البر في الجهة الكلدانية ، لأنه كان برفقتنا مسلمون أحبوا ان يتبركوا بزيارة مكان يقال له سامراء ، وفيها جامع لا يبعد اكثر فرسخ من النهر ، يؤمه كثير من المسلمين لتقديم فروض العبادة ، خاصة الهنود والتتر الذين يعتقدون ان اربعين نبياً من أنبيائهم مدفونون هناك . ولما علموا اننا نصارى لم يسمحوا لنا بأن نطأ أرضه . وعلى خمس مائة خطوة من الجامع برج مشيد بمهارة فائقة ، له مرقاتان من خارجه تدوران حوله دوران الحلزون . وإحدى هاتين المرقاتين أعمق في بناية البرج من الأخرى وكان بامكاني ان امعن النظر فيه اكثر من هذا لو سمح لي بالدنو منه الى مسافة قريبة . والذي لاحظته انه مشيد بالآجر وتبدو عليه مسحة القدم . وعلى نصف فرسخ منه تبدو ثلاثة أبواب كبيرة كأنها أبواب قصر عظيم . وفي الحقيقة لا يبعد في هذه الأنحاء ان كانت مدينة عظيمة ، لأن مسافة ثلاثة فراسخ على طول النهر لا يرى شيء سوى الخرائب والأطلال .

---

(١) Tavernier, J. B — The Six Voyages of Tavernier Through Turkey Into Asia. (Made into English by J. P. London 1676).

وقد ترجم القسم الخاص بالعراق الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس ، ونشر ببغداد بعنوان (العراق في القرن السابع عشر) مطبعة المعارف ١٩٤٤ .

سامراء في القرن التاسع عشر

إن أقدم من أشار الى سامراء في رحلته من الرحالة الغربيين ، الذين أخذ يزداد عددهم في القرن التاسع عشر ، الكابتن جون ماكدونالدكينير الانكليزي ، الموظف في بحرية شركة الهند الشرقية ، والمنتدب لدربار نواب كارناتيك في الهند . فقد جاء من انكلترا الى استانبول في صيف ١٨١٣ ، ثم وصل من الأناضول الى الموصل في طريقه الى الهند . ومن هناك استقل كلكاً أقلع به الى بغداد . وفي خلال هذه الرحلة وقف قليلاً في تكريت وسامراء ، وكتب [١] شيئاً عنهما. فهو يقول : ... ووصلنا الى تكريت في صباح يوم ١٢ آب ١٨١٣ ، وهي عبارة عن قرية مبنية بيوتها بالطين تقع بين سلسلة من التلول الصخرية في الجانب الأيمن من دجلة . وتكريت هي برثا Birtha القديمة التي كانت في القرن الثاني عشر للميلاد مقراً للمطران اليعقوبي في هذه الجهات . وعند وصولنا الى هنا رخصت الحرس من حملة البنادق الذين كان باشا الموصل قد بعثهم معنا للمحافظة ، بعد ان وجدت ان إزعاجهم لنا كان أكثر من فائدتهم .

---

(١) Kinnier, John Macdonald — Journey Through Asia Minor, Armenia, & Koordistan, in the Years 1813 & 1814. (London 1818).

وأقلعنا ثانية في السادسة صباحاً فكانت الشواطىء في جنوب تكريت من الجانبين مغطاة بشطيات الرقي والخيار ، التي يرفع لها الماء بالكرود التي تكلمت عنها من قبل (يلاحظ انه يسمى الكرود مكائناً) ... ويكون دجلة عريضاً جداً عند تكريت . وفي الساعة التاسعة وثلث لاح لنا مرقد إمام الدور وقريته الكبيرة ، التي تقوم على مرتفع غير عالٍ من التلول الرملية البعيدة عن شاطىء الجانب الأيسر من النهر بمسافة نصف ميل ومرقد الإمام بناء عال مربع الشكل تعلوه قبة بنيت بالطراز الاسلامي (ارابيسك) . ولاشك ان « دورا » هو الأسم القديم لهذه البقعة التي يعرفها قراء التاريخ جيداً ، بكونها المكان الذي حاول فيه الجيش الروماني ان يعبر دجلة بعد موت جوليان ، وحيث وقّع خلفه على اتفاقية مهينة تنازل فيها عن نصيبين والأقاليم الكائنة فيما وراء دجلة الى الأيرانيين . وكانت الشواطىء هنا أيضاً ملأى بالمكائن المعدة لزراعة الرقي ، الذي يعد أحسن رقيّ في البلاد ، ويرسل بكميات كبيرة الى بغداد . وقد لاحظنا وجود بستان كبيرة للنخيل أول مرة منذ أن خرجنا من الموصل . وفي الساعة الحادية عشرة ونصف لاحت لنا خرائب الطين لقرية أسكي بغداد في الجانب الأيسر ، وهنا يتفرع النهر الى فرعين متساويين في الحجم يحيطان بجزيرة طولها نصف ميل . وفي الثانية عشرة ونصف أتينا الى بلدة تسمى « اشناس » على الجانب الأيسر . وبعد ان سرنا الى الساعة الثانية بعد الظهر لاحظنا اطلالاً عالية لقصر يسمى « قصر العاشق » على بعد ربع ميل من ضفة النهر اليمنى ، وفي مقابلها مباشرة من الجانب المقابل خرائب يقال لها « المعشوق » . وللعرب أساطير وأقوال تروى عن هذين المكانين .. وهنا أيضاً يقسم النهر الى فرعين سرنا في الفرع الواقع على يميننا منهما ، وما حلت الساعة الثالثة حتى وصلنا الى سامراء الكائنة في الجانب الأيسر : وهي بلدة تحتوي على ألفي نسمة ، وتبعد حوالي ربع ميل عن نقطة تشعب الفرعين .

وكانت سامراء ، وهي سامير Samere القديمة ، محل الأقامة المفضل لعدد من خلفاء بني العباس ، ولا تزال أطلال مدينتهم هناك تشغل فسحة كبيرة من الأرض . وأهمها قبر ومشهد الأمام المهدي الذي دفن في سامراء (؟). وهو بناء جميل من الطابوق ، تعلوه قبتان ومنارتان مزينتان بالكاشي الملون الذي يتباهى به العرب ، ويبدو بمنظر جذاب حينما تتساقط أشعة الشمس عليه . وهناك على مسافة غير بعيدة عنه برج مخروطي الشكل يعلو علواً عظيماً ، ويبدو بمنظر متناسب . وتلف حول هذا البرج مرقاة حلزونيه شيدت بمهارة بحيث يمكن ان تصعد منها الى القمة الخيل والبغال عند اللزوم .

وعلى بعد عشرة أميال ونصف من شمال شرق البلدة الحديثة ، وعلى الفرع الأيسر من دجلة ، تقوم خرائب قصر الخليفة الذي يبدو أنه كان واسعاً جداً ، وهو مبن بالطابوق والطين . ولكنه برغم ما كان عليه من أهمية وازدهار لا يحتوي على شيء يستحق المشاهدة (يظهر ان الكابتن كينير لم يكن يتذوق الآثار وما فيها من فن وزخرفة) . وتشاهد أيضاً أقساماً كبيرة من سور البلدة أيضاً ، وهي تمتد الى مسافة غير يسيرة في البادية المحيطة بها . ومن الصعب ان يتصور المرء كيف ان بقعةً مثل هذه يمكن ان تنتخب موقعاً لعاصمة مهمة يقيم فيها « أمير » ذو سطوة ومنعة . فان أرضها الممتدة الى مد البصر قاحلة ، وهي يباب بلقع ليس فيه زرع ولا شجر ، يمكن أن يريح ولو قليلاً من سطوع الشمس وحر الرمال . ويمتليء الجو من فوقها بغيوم من الغبار تولدها الريح الشديدة التي تضيف بعصفها شيئاً غير يسير الى وحشة المكان . ومع ان المعروف عن العراق العربي أن أرضه تصبح خضراء نضرة بمجرد سقيها وجر المياه لها ، فان الضفاف هنا عالية ودجلة عريض ضحل . ولذلك لا بد من ان تنشأ صعوبات غير قليلة في الري هنا .

وقد كتب بعد كينير من الرحالين الغربيين ، في القرن التاسع عشر ، المستر كلوديوس ريج القنصل البريطاني في بغداد (١٨٠٨ – ١٨٢١) على

عهد الولاة سليمان باشا الصغير (المسمى بالقتيل) وسعيد باشا ، وداود باشا آخر المماليك . وكان هذا رجلاً مثقفاً متحركاً قوي الشخصية ، سافر كثيراً في العراق وتجول فيه بقصد الاطلاع واستكشاف الآثار التاريخية وغير ذلك . وقد سافر في ١٨١٦ الى أوربة مع زوجته ، ثم عاد منها عن طريق استانبول والموصل ، وتوجه من الموصل الى بغداد بالكلك عن طريق دجلة . فأشار الى سامراء حين توقف فيها ونزل ليطلع على أحوال البلدة ومعالمها . ولذلك ذكرها في مدوناته أو يومياته عن الرحلة . وقد اطلعت إحدى قريباته المسماة كونستانس اليكساندر ، على هذه اليوميات فلخصت ما كتبه عن سامراء بالذات في كتابها [1] المعروف بعنوان (بغداد في الأيام الغابره) . فهي تقول عن سفرة ريج وزوجته بعد ان تحركا من تكريت : .. وكانت سامراء ، التي تبعد بمسافة عشرين ميلاً ، موقعاً آخر من مواقع الاستراحة ، وقد مروا في الطريق اليها بخرائب أسكي بغداد التي كانت تمتد لمسافة غير يسيرة على طول النهر . وهي تعود في تاريخها الى أيام الخلفاء الأوائل ، ولم يكن فيها سوى تلول من الزبل تدل على الموقع . على ان سامراء كان لها شيء من الأهمية ، ويقدسها الشيعة تقديساً كبيراً ، لأنها قد دفن فيها ثلاثة من أئمتهم : أي الامام علي النقي ، والحسن العسكري ، وأعظم الجميع المهدي صاحب الزمان الذي غاب هنا ، ولا يزال يعيش في إحدى الآبار على ما يزعم ، ليعود الى الظهور من جديد في آخر الزمان . وكان قد بُني مؤخراً جامع جديد ، وبقربه حمام وخان لايواء الزوار ، على نفقة أحد الايرانيين المتدينين . وحينما كان ريج وجماعته يتجولون في سامراء جاءهم المتولي ، او الكليدار ، ودعاهم للتفرج على الجامع والسرداب الذي غاب فيه المهدي أو قتل (؟) . فلم يتحمس ريج والمسيحيون من جماعته للنزول الى سرداب الغيبة ، فقد لا يروق ذلك زوار الشيعة ، لكنهم نظروا الى الداخل من احدى الكوات فوجدوا هناك

---

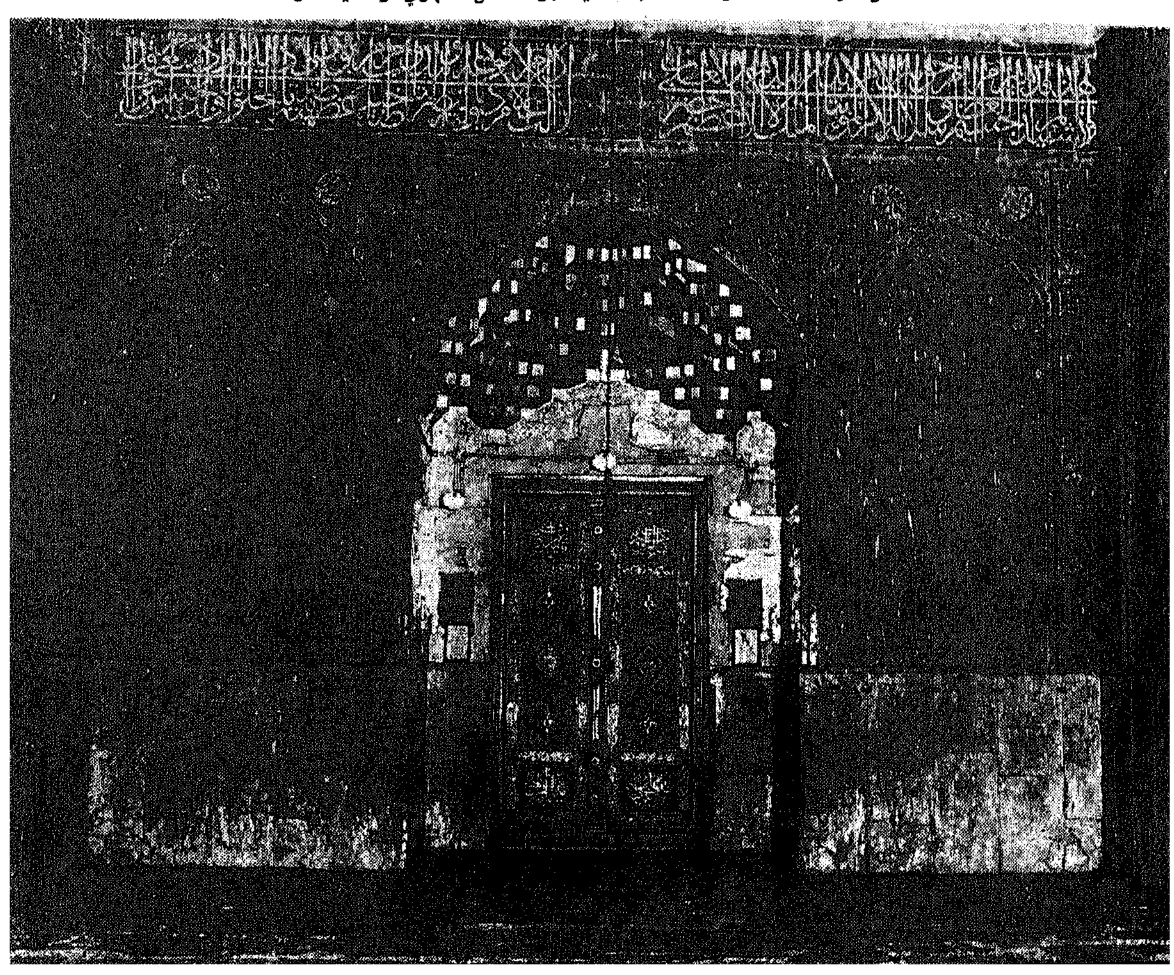
(١) Alexander, Constance M — Baghdad in Bygone Days (London 1928)

على ما يقول درويشاً يتمشى ذهاباً واياباً وهو يقرأ الزيارة والدعاء. وكانت هناك أيضاً بئر خاصة يلاحظ في قعرها على الدوام قمر تام البزوغ، على ما يقال [١]، وكان هذا ناتجاً بطبيعة الحال عن حيلة ما في الأضاءة، نظراً لعمق البئر وصغر الفتحة التي يدخل منها النور، لكن ذلك كان فيه تطمين للآمال التي يعلقها الزوار عليه.

وكانت ترى فيما حول سامراء خرائب ممتدة، وبقايا أبنية كبيرة في

(١) وهذا من مزاعم العامة فليس هناك قمر ولا نجم ولا أي شيء مما تقوله العامة وهي بئر كسائر الآبار الأخرى وكل مافيها من مزية انها واقعة في مثل هذه البقعة المقدسة — الخليلي

احد مداخل الروضة العسكرية وقد تجلت فيه روعة الفن المعماري والصياغة والخط



جميع الجهات ، وأهمها او أكثرها استثارة لحب الاستطلاع كان البرج المدور الملوي على شاكلة الحلزون المتكون من ستة طوابق (؟) الذي قال أحدهم عنه انه كان منارةً للجامع ، وقال آخرون غير أنه كان برجاً للمراقبة . ولا شك ان المقصود بهذا (الملوية) المعروفة التي بنيت لتكون منارة للجامع الكبير القريب منها .

وقد فحص ريج بعض الخرائب الأخرى الممتدة على طول النهر : فظن أنها لا بد من ان تكون اطلال القادسية ، نظراً لشكلها االمشابه للأبنية الساسانية ، ولنوع الآجر الذي كانت مبنية به . وكانت هذه البلدة قد تقرر فيها إنهاء أمر الامبراطورية الايرانية في القرن السابع ، حينما وقعت فيها معركة حامية ضد العرب الذين استولوا عليها في النهاية . ولا شك ان المستر ريج ، وقريبته كاتبة الكتاب ، قد أخطآ في هذا التفسير ، لأن الموقعة التي جرت بين الفرس والعرب في شهر شباط او مارت سنة ٦٣٧ م ، المشار اليها ، قد وقعت في قادسية الكوفة الكائنة على الفرات وليس قادسية دجلة كما ظنا . يضاف الى ذلك ان الآثار التي اعتقد ريج انها القادسية من المحتمل جداً ان تكون غير القادسية ، لأن قادسية دجلة تبعد عن سامراء من جهة الجنوب بحوالي ثلاثة فراسخ ولا أظنه يستطيع الذهاب من سامراء اليها في تلك الظروف . ويقول المنشي في رحلته ان محيطها يبلغ ثلاثة أميال وهي بلدة مدورة وان عرض سور القادسية (١٥) قدماً .

وقد جاء في (رحلة المنشي البغدادي)[1] المعربة من الفارسية عن سامراء في ذلك الدور (١٨٢٢) ما يأتي : .. ومن الدور اليها ثمانية فراسخ ، طيبة الهواء كثيراً ، وفيها نحو ألفي بيت . ومن المزارات فيها مزار الامام علي النقي ، والامام حسن العسكري (ع) ، ومحل غيبة الامام محمد المهدي . وفي

---

(١) رحلة المنشي البغدادي (السيد محمد بن السيد احمد الحسيني) ، ترجمت ونشرت في بغداد سنة ١٩٤٨ ، الص ٨٨ .

كل سنة يبلغ زوار الشيعة من العرب والعجم نحو ثلاثين ألفاً ، يأتون الى هذه المشاهد للزيارة ويقال لسامراء العسكر . وطولها وعرضها ثلاثة فراسخ تقع على ساحل دجلة . وهي من بناء الخلفاء العباسيين ، وأكثر بيوتها الى الآن ظاهرة ، ولها مسجد كبير من بناء الخلفاء . والمنارة فيه يقال لها « الملوية » لا تزال قائمة ، ويصعد اليها من الخارج بالتواء ، بخلاف سائر المنائر فان طريق الصعود اليها من سلم في الداخل . وفي سامراء البطيخ الأحمر كثير الجودة ، وليس فيها ولا في الدور وتكريت بساتين من جهة أن أرض تلك الأنحاء كلسية .. هذا ونذكر زيادة في الايضاح ان السيد المنشي كان موظفاً في القنصلية البريطانية ببغداد ، اي في معية المستر ريج القنصل المار ذكره .

رحلة جونز

وممن اشتهر ذكره من الأجانب في العراق في اواسط القرن التاسع عشر الكوماندر فيليكس جونز . وكان هذا من رجال البحرية في الحكومة الهندية (الانكليزية طبعاً) يومذاك ، وقد انتُدب لمهمات كثيرة في العراق كان من أهمها مسح الأنهر العراقية ، ولا سيما نهر دجلة ، تمهيداً لفتح خطوط ملاحة نهرية فيها . ومن جملة رحلاته هذه (رحلة بالباخرة الى شمال بغداد)[١] بدأ بها على ظهر الباخرة (نيكوتريس) في يوم ٢ نيسان ١٨٤٦ ، وقد وصل في هذه الرحلة الى سامراء مساء يوم ٦ منه .

وهو يكتب عن سامراء في تلك الأيام ، فيقول : .. تقع بلدة سامراء الحديثة على جرف عال ممتد فيكوّن الضفة اليسرى من دجلة ، وهي الآن محاطة بسور متين شُيّد على حساب شيعة الهنود المتنفذين . وحينما زرتها في ١٨٤٣ ، كان هذا السور قد بدىء بتشييده حديثاً ، وكانت البلدة قبله

(١) Gones, Commander Games Felix — Gournal of A Steamship Trip to the North of Baghdad, Submitted to the Government ou the 5 th November 1846. (Bombay Education Society's Press, 1857.

مكشوفة ، فكابدت كثيراً من طلبات البدو الجائرة . فقد كانوا يخيمون في خارجها ، ويهددون بغزوها اذا لم تنفذ مطاليبهم المتكررة . على أنها أصبحت اليوم آمنة بفضل السور الجديد ، ولا يحصل فيها مثل ما كان يحصل . لكن بناء السور حصل فيه شيء غير يسير من قصر النظر ، لعدم تمديده الى ما يقرب من حافة الجرف المطلة على النهر نفسه ، لأن البدو يستطيعون الآن ان يأتوا في كل وقت فيخربوا القناة التي تأخذ الماء الى البلدة ، وبقطع هـذا الشيء الحيوي يستطيعون ارغامها على الرضوخ لمطاليبهم .

وهي على كل حال بلدة حقيرة بوجه عام ، لكن أهميتها تعزى في الدرجة الأولى الى الضريحين الجميلين الموجودين فيها . وتعلو هذين الضريحين قبتان ، شيدت كبراهما فوق قبر الامام الحسن العسكري . وقد أجريت بعض الترميمات فيها مؤخراً ، واعتقد انها كانت قد كسيت من قبل بالذهب على غرار القباب المقامة في الكاظمية وكربلا والنجف ، لكنها تبدو الآن بيضاء تماماً لأن المبالغ المتيسرة حالياً عند المعنيين بها غير كافية للعمل على إرجاع رونقها السابق اليها . اما القبة الصغيرة ، أو قبة الامام المهدي ، فهي قبة نظيفة جديدة قد زينت بالكاشي الجميل الموشى بأوراد صفراء وبيضاء فوق أرضية خضراء تميل الى الزرقة .

وكان الامام المهدي آخر الأئمة ، الذين يقدسهم الشيعة ، ويقال انه اختفى في هذه البقعة . ويدل كهف كبير أقيم فوقه هذا البناء على الموقع الذي غاب فيه الامام ، ويعتقد انه سيعود الى الظهور فيه في المستقبل . ولذلك يقدسه المسلمون كثيراً ، ولا سيما الشيعة منهم . ويقصد هذا المكان كل سنة من الزوار من انحاء ايران كلها . فقد قيل لي ان معدل زوار هذه البقعة المقدسة يبلغ حوالي عشرة آلاف كل سنة ، لكنني ميال الى الاعتقاد بأن هذا العدد يعتبر أقل من الواقع بكثير . ولا تجبى أية ضريبة هنا عليهم ، لكن أصحاب الخانات والبيوت التي يقيمون فيها يدفعون الى الحكومة قرشين اثنين عن كل زائر .

وفي حاشية للكوماندر جونز يقول ان الأتراك منذ ان احتلوا كربلا

والنجف المقدستين في ١٨٤٣ ، قل توارد الزوار على باشوية بغداد ، لكن الأمن الذي تسهر عليه الحكومة اليوم والتساهل الذي يبديه الوالي نجيب باشا سوف يعيد الزوار الايرانيين بسرعة الى التكاثر من جديد ، ويضيف في الوقت نفسه الى واردات الولاية المادية كل سنة شيئاً غير يسير من المال ، الذي كان قد قل بتأثير السياسة التي كان يتبعها الباشا من قبل . لكن المعروف في التاريخ ان نجيب باشا هذا كان ظالماً متجبراً هاجم كربلا بقسوة وفظاظة سنة ١٨٤٣ وأخضعها بقوة وعنف . ومن جملة ما يروى عن هذه الوقعة ان كثيراً من الأهالي التجأوا الى صحن الامام العباس (ع) فلم يعصمهم ذلك من شر الهجوم ، وقد قتل قسماً منهم ظلماً وعدواناً ، وان الباشا نفسه روي عنه انه دخل ممتطياً صهوة جواده الى الصحن كذلك عند تعقيب الفلول المتقهقرة من الأهلين [1] . ولعل هذا الحادث هو الذي أدى الى تناقص الزوار او انقطاعهم بعد ذلك .

ثم يتابع فيليكس جونز حديثه فيقول : ان البلدة تتألف من حوالي (٢٥٠) بيتاً ، مع عدد من السكان السنّة لا يتجاوز الألف الذين يحمل مائة منهم السلاح . وقد أقطعت البلدة في هذه السنة الى الضابط الحالي السيد حسين لقاء (٢٨٠,٠٠٠) قرش ، أو ما يعادل (٦٦٠) باوناً استرلينياً تقريباً .

ويوجد على ما يقرب من نصف ميل من شمال البلدة برج غريب حلزوني الشكل ، يسمى الملوية ، ويقدر علوه بمائة وثلاثة وستين قدماً . ومن الممكن للناظر ان يرى من قمته منظراً جميلاً لسامراء القديمة . إذ تنتشر في كل جهة من الجهات أكوام من كسر الطابوق والزجاج والخزف ، بالاضافة الى التخطيط الواضح للكثير من الأبنية القديمة الذي يمكن ان يشاهد . والمقول ان المدينة القديمة كانت تسقى بكهريز تحت الأرض ، يبدأ فمه (فتحته) فيما يقرب من حمرين . وما تزال آثار هذا الكهريز معروفة بواسطة بقايا الآبار . وقد

---

(١) راجع الص ٢٧٦ من الجزء المختص بكربلا من هذه الموسوعة .

شيدت الملوية وبقايا البناء المستطيل (الجامع او المدرسة) القريب منها بالطابوق الفاخر ، الذي لا يمكن أن يضاهي بناءه النظيف البناء الذي يحصل اليوم . ويبلغ طول المدرسة (او الجامع) ٨١٠ أقدام وعرضها ٤٩٠ قدماً ، ولها اثنتا عشرة دعامة او ركيزة ما بين الحصون الركنية في الضلعين الشمالي والشرقي والجنوبي والغربي . ويقابل المدخل الرئيس القبلة ، ليدل في الحال على أصله الاسلامي . ويبدو ان بركةً كبيرة كانت توجد في وسط الصحن ، ويبلغ علو السور اليوم حوالي ثلاثين قدماً ، كما تشاهد من الجهة الجنوبية الغربية بقايا شبابيك قوطية الطراز . والى الشمال الغربي للملوية ، على بعد ميلين ونصف تقريباً توجد بقايا قصر الخليفة أو قصر المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين : الذي ترك بغداد وبنى سامراء خوفاً من طبيعة البغداديين الثائرة . وليس فيه اليوم قائماً غير مدخله ، وتشغل الأطلال المحيطة به مساحة كبيرة من الأرض ، توجد تحتها غرف مقببة . وهناك أقوال كثيرة ينقلها العرب عن هذه الغرف ، التي كنا خلال زيارتنا لها في ١٨٤٣ قد نزلنا اليها بالحبال ، فأخاف ذلك السكان العرب الذين لم يكونوا يأمنون الوقوف بقربها . فهم يعتقدون اعتقاداً جازماً ان أسداً كان يقيم في هذا المكان . وتمتد هذه الأقبية الى مسافة غير يسيرة ، ويبدو انها كانت قد نحتت في الحجر الكلسي لكن اسطحها بنيت بالطابوق .

ولا شك ان موقع سامراء كان قد اختير اختياراً جيداً . إذ يحده دجلة من الغرب ، ويمتد فرع النهروان الرئيس من قنطرة الرصاص الى نهر العظيم من الشمال ، كما يمتد فرع النهروان الجنوبي من القائم نحو الشرق ليتصل بالفرع الشمالي في الجنوب . وبذلك يحيط بمستطيل كبير جداً من الأرض الغنيــة بخصبها التي يبلغ طول أطول جهاتها ٣٥ ميلاً انكليزياً ، والضلعين الباقيين حوالي عشرين ميلاً . وقد أشغلت هذه المنطقة عدة بلدان من قبل ، ويدل على خصبها وجود الأقنية العديدة المتفرعة من النهروان . اما الآن فلا ترى فيها ولا ورقة واحدة أو ذرة من العشب .

والى الشمال الغربي من قصر الخليفة ، وفوق تل متموج يكوّن الحدود

اليمنى لوادي دجلة يوجد طلل آخر من نفس النمط البنائي على ما يبدو .
ولا يزال قسم من حصون هذا الطلل قائماً .. وهي اما دائرة او مضلعة ،
ومبنية باتقان من أفخر الطابوق . وهذه أطلال قصر « العاشق » ، وبعض
التلول العالية الكائنة في منتصف المسافة بين قصر الخليفة والعاشق في وادي
النهر نفسه تدل على وجود آثار قديمة فيها ، ربما تكون بابلية الأصل على ما
اعتقد . على ان العرب يطلقون على هذه التلال « المعشوق » ، ويقال ان جسراً
كان يصل في قديم الزمان بينها وبين العاشق . وعلى بعد أربعة أميال من شمال
سامراء يقوم تل عال في الفضاء ، يسمى « تل العليج » . وتروى عن هذا التل
قصص عدة تفيد بأنه كان قد أقامه ملك قديم أمر جنوده بأن يأتي كل منهم
بملء كيس العليق من التراب الى هذا المكان فتكون هذا التل الكبير . وهو
يشبه تمام الشبه التلول التي تشاهد في سورية ووادي الشهريزور بالقرب من
السليمانية .

ويقول فيليكس جونز في الحاشية ان هذا التل العالي موقع كومة الحطب
التي حرقت بها جثة الأمبراطور جوليان الروماني قبل ان يؤخذ رمادها الى
طوروس . ثم يذكر بالتفصيل قصة الحرب التي وقعت بين الرومان والايرانيين
وقتل فيها جوليان ، التي أتينا على ذكرها قبل هذا نقلاً عن كتاب بيرسي
سايكس عن تاريخ ايران .

رحلة جون أشر

وفي صيف ١٨٦٤ قام المستر جون أشر ، عضو الجمعية الجغرافية الملكية
في لندن ، برحلة طويلة الى موقع الآثار الايرانية المعروف باسم پرسو پولس ،
او تخت جمشيد ، القريب من شيراز . وضمّن جميع مشاهداته على طول
الطريق في رحلته(١) المطبوعة سنة ١٨٦٥ . وقد عبر من الأناضول الى الموصل ،

(١) Ussher, Gohn — London to Persopolis, including Wanderings in Daghestan, Georgia, Armenia, & Persia (London 1865)

ثم استقل الكلك منها الى بغداد ، فمرّ في طريقه بسامراء . وقبيل وصول الكلك الى سامراء مرّ بنهر النهروان ، ثم وصلوا في مساء ذلك اليوم الى ما يقابل خرائب أسكي بغداد التي كانت تشغل رقعة كبيرة من الأرض . ويقول المستر أشر أن هذا الاسم أطلقه العرب على أطلال هذه البلدة الفارسية او العربية القديمة . وفي صباح اليوم التالي (١٩ كانون الأول ١٨٦٤) مروا بأطلال قصر العاشق قبيل الرسو في سامراء .

اما سامراء نفسها فقد وجدها المستر أشر بلدة غير صغيرة فيها عدد كبير ن السكان ، وشاهد فيها الملوية التي سماها برجاً وقدر ارتفاعها بمائة قدم . وهو يقول ان آثار العباسيين فيها كانت مغطاة بأكوام كبيرة من التراب والأنقاض ، ويشير الى تقديس المسلمين الشيعة لمشهد الامامين العسكريين ، وغيبة الامام الحجة (صاحب الزمان) فيها . وعند استئناف الرحلة وصل الكلك في مساء ذلك اليوم الى خرائب اصطبلات فألقى مراسيه بالقرب منها للمبيت .

الرحالة نيجهولت

وقد زار الرحالة الهولاندي لكلاما آ نايهولت (نيجهولت) العراق سنة ١٨٦٦/٦٧ ، وبقي في بغداد مدة من الزمن ، ثم غادرها قاصداً سامراء يوم ١٦ أيار ١٨٦٧ . وقد لخص سفرته[١] هذه الأستاذ مير بصري ، الذي يقول أنه خرج من بغداد فمر بقرية الجُديدة (بالتصغير) على دجلة ، وينگجة ، والجيزاني ، ونهر حزام ، وخان نجار ، وخان المزراقجي ، حتى لاحت لعينيه قباب سامراء في ٢١ أيار . وكانت أبواب البلدة مغلقة خشية هجوم الأعراب ، ففتح له الباب الشمالي وأخذ الى دار فسيحة بنيت للزوار ، وفيها شرفة جميلة وغرف تطل على فناء رحيب واصطبل للخيل . ويحدثنا الرحالة

(١) Lycklama à Nijholt : Voyages en Russie... etc.

عن مدير الناحية الذي زاره حالما علم بقدومه وهيأ له وسائل الراحة ، وأرسل اليه الهدايا من الخرفان والفواكه والتمر وكان المدير عبيد الناجي أغا رجلاً صغيراً لطيف المعشر ، فائق الأدب ، في نحو الثلاثين من عمره .

ويقول الرحالة ان سامراء مبنية على تلال كثيرة الحصى تشرف على نهر دجلة ، يحيط بها سور شيد قبل عهد قصير بأمر أميرة هندية لحماية البلدة من غزوات البدو . وتضم سامراء مدافن أئمة الشيعة الثلاثة : علي النقي وابنه الحسن العسكري وحفيده المعروف بصاحب الزمان الذي يقال ان أعداءه حاولوا الفتك به ، فلما رفعوا الخنجر لقطع رأسه ، انشقت الأرض وغيبته ، فاذا بمهاجميه الذاهلين أول المؤمنين بقداسته . ويقول رحالتنا ان شاه ايران قد أعلن قبل عدة أشهر عزمه على اهداء صفائح ذهب لتزيين القبة ، فكان الناس ينتظرون وصول هذه الهدية الثمينة خلال أيام معدودة .

ويقول كذلك : ان النهر الذي يبعد قليلاً صافي المياه بالنظر الى الحصى الذي يكسو عقيقه . وعرض دجلة يبلغ هنا نحواً من (٣٠٠) متر ، وعلى شاطئيه تقوم خرائب المدينة القديمة التي كانت بلدة كبيرة لا تقاس بها القرية الحاضرة التي تضم سوقاً صغيرة تتألف من بضعة دكاكين يباع فيها التبغ والرز والتمور والتفاح الأخضر الخ . ويحيط السور بالبلدة عدا جهة النهر ، وله فتحات عليا ، وثلاثة أبواب . ونفوس سامراء تقرب من ٤٠٠ عائلة . ويقول الرحالة ان قبة صاحب الزمان المغشّاة بالقاشاني جميلة ، اما قبة العسكري فمتداعية ، وللمسجدين فناءان فسيحان لم يسمح لصاحبنا بالدخول اليهما ، وكان انطباعه عن سامراء اجمالاً ان فيها شيئاً يبعث الانقباض في النفس لمنظر هذه الأطلال الشاسعة التي توحي بعظمة البلدة السابقة وانحطاطها الحاضر .

وأشاد نايبهولت بهواء البلدة النقي وخلوها من البعوض ، وذكر الملوية التي تشبه برج (بيزا) وسائر الأطلال العباسية ، ثم نوه بمشاهدته لقدوم الأفواج المتقاطرة من الزوار . وهو يقول ان مدارج الملوية تتصاعد بيسر وسهولة

حتى يمكن للخيل والبغال ان ترقاها الى أعلى حاملةً الخلفاء الى الشرفة التي تطل على الضواحي . وكانت توضع بالغرفة المقامة بأعلى الملوية ، ولها فتحات الى جهات الأفق ، مصابيح تسرج في كل مساء لانارة سبيل القوافل القادمة ليلاً . وترتفع الملوية في ظهر مسجد الجمعة العظيم الذي لم يبق منه سوى حيطانه الخارجية ، وقد رأى نايهولت الأخشاب والقصب المستعملة في بنائه كما في طاق كسرى . ومن هناك يصل السائر ، اذا اتجه صوب النهر ، الى (ميدان أسبها) اي (سوق الخيل) والمكان يغشاه العشب ، ثم (المهترخانه) وكانت اصطبلات واسعة ، فالمدرسة ، ولم يحفظ الزمن من كل تلك المباني سوى أنقاض وحيطان متداعية وآثار أرضية ممزوجة بالطابوق . ويأتي بعد ذلك السوق التي تمتد الى آخر البلدة على مسيرة ربع ساعة من دجلة ، وهناك لا تزال قائمة .

وقد مضى الرحالة متجهاً الى اليسار ليصل الى (حفرة السباع) ، وهي حفرة عميقة مقطوعة في الصخر الكلسي الذي يؤلف قاعدة تلال سامراء القديمة . وتؤدي الحفرة الى مغاور كانت تتخذ لحبس الأسود ، وهي محفورة في الصخر أيضاً ومعقودة بالطابوق . والمقول ان حفرة السباع تتصل بدهاليز تحت الأرض بسجن قريب . ويروى في ذلك ان الخليفة هارون الرشيد القى في هذا السجن بالامام حسن العسكري [1] وأراد ان يجعله فريسةً للسباع فأمر بفتح الباب المتصل بمغارة الأسود . لكن الوحوش الضارية ما أن دخلت ورأت الامام حتى أقعت باحترام عند قدميه ، ولم تمسسه بسوء . ثم توجه الرحالة لزيارة بقايا قصر من قصور الخلفاء ، وهو مشيد على مثال مدائن كسرى بمقياس أصغر ، فثمت نفس توزيع الحجر على الساحة الداخلية مع طاق رئيس في وسط ما تبقى من الواجهة ونفس نقاط تعليق المصابيح في السقف

---

(١) هذه الرواية مروية عن المعتمد لا هرون الرشيد ولعل الرحالة يقصد بها المعتمد هرون وليس هرون الرشيد . الخليلي

المعقود . وترى الى جانب ذلك فتحة كان فيها جرس استولى عليه بعض القناصل من هواة الآثار !

وتجاه هذه الخرائب مباشرةً تنتهي التلال فتنبطح الأرض سهلةً حتى تتصل بدجلة على مسيرة عشر دقائق . وهناك مرتفع على الشاطيء كانت تقوم عليه قرية أرمنية اسمها (الگاوور) أي (قرية الكفار) . وكان في موقع سامراء الحاضرة محلتان أخريان للأرمن أسمهما (الناصرية) و (الخاتون) وعند أطلال قرية الگاوور الأشجار الوحيدة المزروعة في ضواحي سامراء وهي اشجار توت ، ولذلك سمي المكان باسم (التكي) وهو ثمر التوت باللغة الفارسية . واذا أصعدنا في ضفة النهر بلغنا أنقاض حصن يسمى (قلعة اشناس) : وعلى بعد فرسخين منها أطلال (أبي دلف) وينسب بناؤها الى الفضل بن يحي البرمكي . ووصل الرحالة بعد ذلك الى (تل العليج) الذي يُزعم أنه من عمل جنود هارون الرشيد : فقال ان الامام العسكري سأل الخليفة عن عدد جنده ، فأجاب هارون سيحمل كل جندي حفنة من الرمال ويرميها في هذا المكان فترى الذي سيرتفع بعد ذلك ! وهكذا صنع مئاتَ الآلاف من رجال الجيش التلول التي نشاهد آثارها الآن .

وعلى الجانب الآخر من النهر تُرى أطلال مربعة الشكل تنتهي بأعمدة أو أبراج صغيرة ، وهذا كل ما بقي من قصرٍ مشيد بالآجر بازاء قصر الخلفاء ويعرف بقصر « العاشق » . وتحدثنا الأساطير عن فتى أحب بنت الخليفة وأحبته ، فلم يكفها ان تراه من نافذتها بل أمرت بتشييد شرفة على سطح قصر أبيها لتتمتع بمشاهدته . ووراء قصر العاشق خرائب أخرى تعرف باسم « كف الكلب » إذ يسمع منها في مساء أيام الجمع نباح الكلاب !!

وقد عاد الرحالة من زيارة تلك الأماكن يصحبه السيد مهدي ، الذي اختاره المدير لمرافقته . وغادر سامراء في الغداة بعد ان اشترى كلباً سلوقياً جميلاً ، وقد رافقه مضيفاه السيد عباس والسيد محمد شطراً من الطريق .

ونقول تعليقاً على ما جاء في أقوال نايهولت عن الامام العسكري والسباع ،

وعلى ما جاء في قولي فيليكس جونز ونايبولت عن تل العليق . ان القصة التي تروى عن القاء الامام عليه السلام بين السباع قد جرت في أيام الخليفة المعتمد وليس في أيام هارون الرشيد كما لا يخفى . اما تل العليق فقد اختلف فيه الرواة العرب فنسبوا القصة الى الخليفة المعتصم أولاً والى المتوكل أيضاً . ويقول[١] الدكتور سوسة في هذا الشأن « .. وقد اختلفت الآراء في تاريخ انشاء تل العليق كما اختلفت في معرفة الغاية التي أُنشيء من أجلها ، فبعض المؤرخين من الأفرنج يرى انه يرجع الى عهد الرومان والبعض الآخر يرى انه يرجع الى ما قبل ذلك العهد . الا أننا نرى بان اتصال التل بقناة المتوكل هو أقوى دليل على أنه من عمل المتوكل . اما القصد من انشائه فتكاد الآراء تجمع على أنه انشيء لتأمين تمتع الخليفة ورجال حاشيته بمناظر حلبة السباق من محل مرتفع يمتد فيه البصر الى أقصى حد الحلبة مما يساعد على تتبع حركات الخيول في هذه المسافة الطويلة . »

السر والس بج

وقد وصل الى العراق قادماً من مصر سنة ١٨٨٨ عالم من علماء الآثار البريطانيين يدعى السر والس بج . وأقام في بغداد عدة أشهر . فتسنى له خلال مدة وجوده في العراق ان يزور الكاظمية وسامراء ويكتب شيئاً عنهما ، في كتابه الذي أخرجه بمجلدين سنة ١٩٢٠ بعنوان (على ضفاف النيل ودجلة)[٢] . وكانت زيارته لسامراء عن طريق النهر بين الموصل وبغداد . وهو يقول بعد توجهه بالكلك من الدور الى سامراء انهم بعد ان جاوزوه بقليل لاح لهم في الجانب الشرقي من النهر تل عال كبير يسمى « تل البنات » ، ثم باتوا في الكلك تجاه مصب النهروان على مقربة من « تل المهيجر » . ثم اقلعوا في صباح اليوم

---

(١) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ، ج ١ ، الص ١٢٠ .

(٢) Budge, Sir Ernest A. Wallis -- By Nile & Tigris (London 1920)

الثاني وظلوا يسيرون في محاذاة الجانب الغربي من دون ان يعبروا الى الضفة الشرقية ليشاهدوا خرائب « قنطرة الرصاص » التي يقول انها سميت كذلك لأن حجارتها شدت بالرصاص ، ثم جاوزوا « أبا دلف » القائم في الضفة الشرقية وشاهدوا أطلال « قصر المتوكل » أو « الجعفرية » التي يقول عنها انها عبارة عن ضاحية من ضواحي سامراء الشمالية ، وإن القسم الأكبر منها يسمى « أسكي بغداد » . ومروا بعد ذلك بخرائب أشناس وتل العليق الذي يقع على بعد ميلين او ثلاثة عن ضفة النهر . لكنه يقول إنهم رأوا على الضفة نفسها ـ أي الشرقية ـ « قصر المعشوق » . وبعد ان تجاوز السر والس وجماعته خرائب قصر الخليفة في الجانب الشرقي من النهر وصلوا الى سامراء فتوقفوا فيها قرب جسر الزوارق الذي يشير الى وجوده .. ثم قصدوا البلدة من شاطيء النهر الرملي فوجدوها محاطة بسور سميك يبلغ ارتفاعه تسعة عشر قدماً ، وكان حديث البناء لكنه بحاجة الى شيء من الترميم .

ويقول السر والس أن أحد الثقلاء فرض نفسه عليهم ورافقهم خلال تجوالهم في البلد ، لكنه نصحهم بأن يغادروه بأسرع ما يمكن لأن نظرات الناس في السوق اليهم ، وتصرفاتهم تجاههم ، كانت شيئاً غير ودي . فدلت على أنهم لم يكونوا من المرغوب فيهم هناك . ثم يذكر ان البلدة تشتهر بوجود مشهدي الامامين العاشر والحادي عشر فيها ، ويسميها (علي العسكري) و (الامام الحسن) ، ويقول ان القبتين القائمتين فوق الضريحين كانتا من أروع ما يمكن ان يشاهده المرء من بعيد . لكنه يستدرك ويقول ان اقترابهم منهما كان شيئاً غير ممكن . ويحدثنا عن الجامع الذي تقوم في وسطه قبة صغيرة ويقول ان سرداباً أرضياً غاب فيه الامام الثاني عشر سنة ٨٩٨ ، وأنه على ما يقال ما زال حياً يرزق . ولذلك سمي بالامام القائم ، وهو الامام المهدي الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً حينما يعود الى الظهور .. ويقول بعد ذلك ان المشهدين يقعان في القسم الغربي من البلدة ، بينما يقع في شمالها بناء يضم الجامع القديم الذي يبلغ (٨١٠) أقدام في الطول و ٤٩٠ قدماً في

العرض ، وحوالي ثلاثين قدماً في ارتفاع السور .

ويحدثنا بج كذلك عن « الملوية » التي يذكر ان كلوديوس ريج يسميها برجاً حلزونياً بست طوابق ، يبلغ ارتفاعه ١٦٣ قدماً على ما يقول فيليكس جونز . ثم يذكر ان بعض الرحالة الأوربيين يذهبون الى انها عبارة عن زقورة بابلية ، وأنه من المحتمل جداً ان يكون المعتصم هو الذي بنى هذه المئذنة للجامع الكبير الكائن بقربها . اما الحقيقة فهي ان الذي بنى الملوية هو المتوكل . ويتكلم بج بعد هذا عن موقع سامراء الحسن وجوها اللطيف وأراضيها الخصبة ، ويرجح ان تكون قد وجدت في مكانها مدينة من المدن القديمة ، لا سيما وقد وجد بعض الآجر البابلي على شاطئها . ومما يذكره كذلك ان سامراء كانت قد احتفظت بأهميتها الى ما بعد انتقال مركز الخلافة العباسية عنهـــا .. ثم استحالت في القرن الرابع عشر الى خرائب وركام كما يستفاد مما كتبه ابو الفدا وابن بطوطة عنها . وآخر ما يكتبه بج عن سامراء ان الروضتين المطهرتين فيها يصرف عليهما مما تجود به أكف الزوار من المال ، كما يصرف من ذلك أيضاً على ترميم سور البلدة والمحافظة عليه . وبعد أن أخذ بج وجماعته شيئاً من البطيخ معهم في الكلك ونقدوا البائع ثمنه بالروبيات ، اقلعوا متوجهين الى الجنوب .

المس غيرترودبيل في سامراء

كانت المس غيرترودبيل ، سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني ببغداد ، التي عرفت خلال السنين الأول لتأسيس الحكم الوطني في العراق ، قـــد زارت سامراء لأول مرة سنة ١٩٠٩ ، أي في أيام الحكم العثماني قبل نشوب الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ . وكانت منذ ذلك العهد تعمل في مصلحة الاستخبارات البريطانية وتطوح في آفاق البلاد العربية لهذا الغرض . فقد جاءت من لندن الى بغداد عن طريق سورية ونزلت في دار المقيمية البريطانية حينما كان الكولونيل رمزي قنصلاً عاماً فيها . ومن هناك قصدت سامراء لدراسة

الآثار الاسلامية فيها على ما تقول ، فوصلتها في أواسط نيسان . ولذلك نراها تكتب في رسالتها [١] المؤرخة في ١٥ منه ما يأتي في انتقاد ما عمله هرتسفيلد المنقب الالماني المعروف :

ركبت مدة قصيرة من الزمن ، وأنجزت أشغالاً كثيرة ، قبل أن أصل الى هذا المكان . فقد أخذنا في طريقنا مقاييس بلدة بأكملها (لعلها تقصد خرائب القادسية القريبة من سامراء) ، ومن حسن الحظ أن هذه البلدة لم يبق منها الا أسوارها الخارجية ، لكن ذلك استغرق ثلاث ساعات من الوقت . وتعد سامراء أهم مكان في العالم يمكن ان تشاهد فيه العمارات الاسلامية القديمة . ان المخطط الذي رسمه هرتسفيلد لها هو من بنات أفكاره وتخيلاته ، وقد كنت اتوقع بوثوق بأن أجد جميع ما فعله لا يمكن ان يدخل عليه اي تحوير او تحسين من الغير ، لكنني يترتب علي الآن أن أفعل كل هذا من جديد ، وانا أخشى ان ينطبق هذا على الأشياء الأخرى التي اشتغل بها . فهو مختص بفن العمارة ، ولا يمكن ان أتصور ان مختصاً بفن العمارة مثله يبقى ما يزيد على الساعة في ذلك الجامع (لعلها تقصد جامع سامراء الكبير) ولا يلتفت الى تفصيلات البناء المهمة فوق العادة ، التي لم يلتفت لها . وأنا حينما تسنح لي الفرصة لتدقيق ما فعله المختصون بالعمارة ، ابدأ بالاعتقـاد بأني أصبحت مختصة فيها أيضاً — لكن هذا يعتبر أكثر مما يجب بطبيعة الحال . وعلى كل فان المرء يمكنه على الدوام ان يقدر تمام التقدير الأشياء التي يسعى لاخراجها وهي مطابقة للحقيقة والواقع مطابقة تامة ..

وفي رسالة أخرى ، مؤرخة في ١٨ نيسان تقول : .. وكما توقعت ، كان من المحتم علي ان أعيد عمل جميع ما كان هرتسفيلد قد فعله من جديد ،

---

(١) لم نجد رسالة المس بيل هذه بين رسائلها المعروفة بأسم The Letters of Gertrude Bell بل عثرنا عليها ، وعلى رسالتها الأخرى المكتوبة في سامراء ، في كتاب : Gertrude Bell from Her Personal Papers 1889 — 1914 لمؤلفته Elizabeth Burgoyne ، الص ٢٦٦ .

وقد انصرفت الى ذلك بكل عزم وقوة لمدة ثلاثة أيام ونصف . وبينما كنت يوم أمس منهمكة في رسم المخطط لقصر من قصور الخليفة عثر رجل كان يحفر في الخرائب ، من أجل استخراج الآجر منها ، على قطعة جميلة من الزخارف الجصية التي كانت لا تزال في مكانها . وقد وعدت الناس بأن أقدم بخشيشاً لكل من يأتي لي بمزيد من هذا ، فكانت النتيجة ان حصلت على قطعتين أخريين من الزخارف الجدارية ، تكفيان لتركيب الأجزاء الباقية كلها من هذا الطراز الزخرفي الجميل . ولا أعرف مكاناً آخر تعرف فيه الزخارف الجصية القديمة من هذا النوع الا في مصر . وكنت في الوقت نفسه قد جمعت كومة كبيرة من كسر الفخار ، الخشن جداً ، المغطى بالأشكال الزخرفية المهمة . ومن حسن الحظ ان الدنيا أمطرت بعد يوم أمس بعد الظهر بشدة بحيث كان يستحيل علي الاشتغال في الخارج ، ولذلك جلست في خيمتي ورسمت جميع ما عثرت عليه من قطع الفخار . فعندي أربعة وأربعون شكلا مختلفاً ، عدا قطعة أو قطعتين جيدتين بصورة خاصة كنت قد أخذتهما معي . وكانت إحداهما قطعة جميلة جداً ، تزينها بطة جميلة مرسومة على الطين ...

وتوجد في (رسائل غيرترودبيل) [١] رسالتان كتبتهما المس بيل من سامراء ، إحداهما في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٧ والثانية في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ ، أي بعد احتلال الانكليز للعراق وخلال تأسيس الادارة العسكرية فيه .

وهي تروي في الرسالة الأولى كيف تأخرت عن المجيء الى سامراء لحادث مهم حدث في بغداد ، وهو موت الجنرال مود (فاتح بغداد) بمرض الهيضة (الكوليرا) . ويظهر أنها كانت متأثرة جداً من ذلك ، ومتحيرة كيف وقعت الوفاة بتلك السرعة ولا سيما ان انتشار هذا المرض لم يكن واسعاً في بغداد ، وان الجنرال مود نفسه لم يكن يختلط مع السكان العرب كثيراً على حد قولها .

---

(١) Bell, Gertrude — The Letters of Gertrude Bell (12th Printing) London 1947.

لكنه كان قبل يومين من وفاته قد حضر حفلةً في مدرسة اليهود شرب فيها شيئاً من القهوة وأكل بعض « الكيك » ، وفعلت الشيء نفسه هي وسائر الحضار أيضاً . ولذلك كان يستحيل التكهن عن المكان الذي أخذ منه العدوى ، على ما تقول . لكن المعروف في سائر المراجع الانكليزية عن هذا الحادث انه شرب الشاي والحليب في حفلة مدرسة الأليانس التي حضرها ، فكان ذلك سبباً لنقل العدوى له . ثم تعود المس بل في الرسالة وتقارن بين وفاة الجنرال مود ووفاة الامبراطور جوليان — الروماني — فيما يقرب من سامراء ، وتستشهد بما يقوله المؤرخ القديم اميانوس مارسيلينوس في تأبين الامبراطور : « فليحمد الله العلي القدير لأنه مات في معمعان المجد ، الذي حصل عليه بجدارة وانصاف » ..

ثم تقول عن سامراء نفسها انها بلدة مسورة جميلة ، ترتفع في وسطها القبة الذهب الهائلة ، التي تعلو المشهد فتحجب السماء عن الناظرين من الطرق الضيقة الآيلة جدرانها الى الانهدام ..

وتعنون الرسالة الأخرى إلى أهلها وأسرتها في لندن فتقول انها ما زالت باقية في سامراء لأن مضيفها قائد الجحفل الانكليزي أصرّ عليها بالبقاء فيها حتى يتم لها الشفاء . ثم تقول ان الكولونيل ويلكوكس جاء الى سامراء أيضاً في صباح ذلك اليوم لتغيير الهواء لأن سامراء تعتبر مصحاً لهذه المناطق ، على حد قولها . وتتحدث بالمناسبة عن طيب المناخ والهواء الشمالي العليل ، والسماء الصافية . كما تتحدث عن تجوالها خارج البلدة ممتطية صهوة الجواد أو راكبةً في السيارة ، فتذكر ان كل شيء هنا عبارة عن بادية تخترقها عشرات الأقنية والجداول القديمة والتلول الأثرية الدالة على القرى المندثرة . وهي تقول انه يكاد يكون من المستحيل على المرء أن يتصور كيف كانت هذه البلاد حينما كانت تسقى بهذه الأقنية من دجلة ، وعندما كان سكانها يحتشدون في القرى والأرباض الممتدة الى عمق عشرة أميال من جهتي النهر . ثم تذكر ان الدنيا امطرت هنا في الاسبوع الماضي فكان مجموع ساعات المطر ١٨ ساعة .

ولذلك أخذ الناس ينشغلون بالحراثة ، وأصبحت الأرض تلوح للناظرين بلونها الأسمر الزاخر بالحياة بدلاً من لون الرمل الأصفر الباهت .

وقد ورد اسم سامراء في رسالة أخرى من رسائل المس بيل مؤرخة في ١٤ /٣/ ٩٢٠ ، وهي تقول فيها خلال حديثها مع المرحوم العلامة السيد حسن الصدر في الكاظمية [1] : .. وتطرقنا بعد ذلك الى طقس سامراء الذي شرح لي بأنه أحسن من طقس بغداد بكثير ، لأن سامراء تقع في المنطقة المناخية الثالثة في عرف الجغرافيين القدماء .

وفي رسالة [2] تاريخها ١٦ تموز ١٩٢١ تروي المس بيل كيفية إعلان الأمير فيصل ملكاً على العراق في مجلس الوزراء (يوم الاثنين ١١ /٧/ ١٩٢١) ، واعتراض بعض الشخصيات العراقية يومذاك على هذا . ثم تقول : .. ومن المهم ان يذكر ان الكماليين ما ان علموا بقدوم فيصل الى العراق حتى بدأوا بشن حملة دعائية حامية في مصلحة مرشحهم الشيخ أحمد الأدريسي السنوسي . وكان أول ما علمناه في هذا الشأن من مواطن موصلي جلب الى المستر نولدر وثيقة خاصة تدعو العراقيين الى مبايعة السنوسي . وجاءنا الخبر الآخر من رجل يقال له « نقيب سامراء » ، كان مع الأتراك منذ ١٩١٨ وعاد مؤخراً الى العراق . ولهذا الشخص سمعة تتسم بالمكر والخديعة ، لكنني أعجبت به . فقد قال لي ان الأتراك كانوا قد دعوه الى حمل أوراق البيعة هذه الى هنـــا فرفض ذلك ، مع أنه ذكر أناساً آخرين كانوا قد قبلوا القيام بالمهمة .. وان مجرد مجيء أناس متحفظين مثل نقيب سامراء ، أو اقدامهم على ارسال رسائل الى فيصل يسترخصونه فيها بالمجيء ، يعدّ شيئاً مرضياً . إذ يبدو أنهم لا يثقون كثيراً بالخطط التركية السنوسية .

---

(١) راجع الص ٢٧٧ من مجلد الكاظمية ، في موسوعة العتبات هذه . (٢) وجدنا هذه الرسالة في كتاب السيدة اليزابيت بيرغوين المشار اليه قبل قليل ، الجزء الثاني ، الص ٢٧٧ .

سامراء في الحرب العالمية الأولى

لقد قُدر لسامراء، كما قدر لبعض البلدان العراقية الأخرى مثل الكوت وبغداد وسلمان باك وما أشبه، ان يذكر اسمها ذكراً خاصاً خلال الحرب العالمية الأولى وما قبلها بفترة قصيرة. فقد أصبحت قبيل اعلان الحرب نهاية سكة الحديد التي انشئت بمساعدة الألمان بينها وبين بغداد، باعتبارها جزءاً من «سكة حديد بغداد — حيدر باشا — برلين» الداخلة في ضمن الامتياز الذي حصل عليه الألمان من الدولة العثمانية. ولما كانت سكة الحديد وسيلة مهمة للغاية من وسائل الحرب، لا سيما في تلك الظروف والأيام، ولما كان اتصال العراق بتركية يتم عن هذا الطريق عادةً فقد جاءت الحرب الى بغداد وسامراء بمزيد من الحركة والنشاط الحربي. ويقول ريتشارد كوك في (بغداد مدينة السلام)[1] المشار اليه قبل هذا ان قطار سامراء الجديد، الذي كان قد فتح للعمل حديثاً، بقي مشغولاً في الليل والنهار بحركة الرجال والمعدات والذخائر، وصارت الأكلاك المعروفة فيما بين النهرين منذ القدم تشاهد في سامراء قادمةً من الموصل على وجه الماء وهي محملةً بأحمال وسلع ولم يسمع بها من قبل مثل البنادق والذخيرة والسيارات وحتى مدافع الميدان الخفيفة.

---

(١) الص ٢٨٧ .

ويأتي ذكر سامراء مرة أخرى في كتاب كوك هذا بمناسبة وصف لعملية انسحاب الأتراك من بغداد ، واخلائها في ليلة العاشر من شهر مارت ١٩١٧ ، بعد ان تقرر ذلك في المجلس الحربي الذي عقده خليل باشا قائد الجبهة في مخيم الحر . إذ يقول[1] ريتشار كوك : .. وقد أخذت البرقيات الملحة تترى عليه — على خليل باشا — من أنور باشا في استانبول بوجوب الثبات في وجه العدو المتقدم ، لكن قادة الجبهة في الميدان كانوا يضعون نصب أعينهم الاعتبارات العسكرية الصرفة ، ويشيرون الى عدم كفاية القوات الموضوعة تحت تصرفهم لمقاومة الهجوم البريطاني الجازم ، والنتائج المرعبة التي يمكن ان تؤدي اليها الهزيمة المفاجئة أو التقهقر غير المنتظم من المدينة نفسها . فطالبوا بالانسحاب العاجل خلال الليل الى نقطة تقع على خط السكة الحديد ، بحيث يكون بوسعهم الاتصال بقاعدتهم في سامراء .. وعند ذاك ركب خليل باشا وضباط ركنه الى محطة الكاظمية واستقلوا القطار منها الى سامراء . ويفهم من هذا بلا شك ان سامراء أصبحت قاعدة الأتراك الحربية في جبهة العراق ، بعد سقوط بغداد .

احتلال سامراء

ما عتّم الجيش البريطاني ان احتل بغداد ، في ليلة ١٠ مارت ١٩١٧ ، حتى أعد العدة بسرعة لمطاردة الجيش العثماني المنسحب الى الشمال . وقد اشتبك الفريقان في عدة مواقع قبل الوقوف في اصطبلات ، ثم جرت موقعة حامية في هذا المكان ايضاً ، وفي بند العظيم ، قبل وقوع الاشتباك في موقعة سامراء .

وقد ذكر هذا كله بالتفصيل المستر ادموند كاندلر ، المراسل الحربي البريطاني الذي رافق الحملة — أو قوة « دي » كما يسمونها — من الفاو الى

---

(١) الص ٢٩١ .

الموصل . في كتابه [1] المعروف باسم (الطريق الطويل الى بغداد) . فقد أفرد فصلاً خاصاً في الجزء الثاني منه (الفصل ٣٦) لوصف المعركة وتفرعاتها . وقبل ان يأتي على وصف معركة سامراء وما سبقها ، يعمد المستر كاندلر الى وصف معركة « بند العظيم » بكثير من التفصيل لأن الانكليز لم يكن من الممكن لهم ان يتقدموا الى الشمال باتجاه كركوك والموصل لو لم ينتصروا في جبهة العظيم . ويظهر من وصفها انها كانت معركة دموية هائلة استمات فيها الأتراك في الصمود ، وعبأوا جميع ما كان عندهم من قوة فيها . فقد حشدوا ثلاثة آلاف جندي تركي مثلاً في جبهة لا يزيد طولها على (٤٠٠) ياردة ، على ما يقول كاندلر . وتبودلت قرية العظيم التي أزيلت من الوجود عدة مرات بين الفريقين . ويقول كاتبنا هذا كذلك ان معركة بند العظيم هذه كانت اشد معركة دموية جرت في ما بين النهرين (العراق) خلال تلك الحرب ، بالنسبة للخسائر التي حصلت فيها ونسبة ذلك الى القوات المشتركة في القتال . فقد خسرت معظم الكتائب الانكليزية نسبة كبيرة من أفرادها ، مثل كتيبة جيشير التي خسرت (١٢٦) قتيلاً من مجموع (٣٣٠) في آخر مرحلة من مراحل المعركة وخسرت كتيبة (ساوث ويلز بوردر رذ) (٢٠٣) قتلى من مجموع (٣٤٠) . ووجد الانكليز مائة من القتلى الأتراك في المكان الذي حمي فيه وطيس القتال . ويبدو ان معظم هذا القتال كان قد جرى بالسلاح الأبيض ، على ما يقول كاندلر . وقد انتهت هذه المعركة في آخر يوم من نيسان ١٩١٧ .

أما بالنسبة لسامراء فيقول كاندلر انه كان ينتظر ان تستطيع الفرقة السابعة البريطانية ان تحتلها بعد انتهاء القتال في جبهة العظيم بيوم واحد أو يومين فقد بادرت في يوم ١٩ نيسان الى احتلال مرتفعات الحبن الكائنة على بعد ميل ونصف فقط من خنادق الأتراك في اصطبلات . وكانت خطوط الأتراك هنا على غاية من القوة والمنعة ، ولو كانوا قد نفذوا رأي القائد كاظم قره بكر بك

---

(1) Candler, Edmund — The Long Road to Baghdad, two volumes (London 1919).

في الموضوع لأصبح الأتراك على جانب أكبر من القوة في الاستحكام والقتال . ففي الوقت الذي كان يبدو ان بغداد قد أوشكت على السقوط كان يقود الفيلق التركي الثامن عشر كاظم قره بكر بك ، القائد المشهور بخدمته وخبرته الطويلة وحينما تم الانسحاب من بغداد كان من رأيه ان يكون هذا الانسحاب . الى اصطبلات رأساً لتقوية المواقع التي كانت موجودة فيها وتحشيد القوة الكافية لها ، لأنه لم يكن يعتقد بتبذير قواته وإتعابها بالقتال في مواقع صغيرة . على أن رأيه لم يجد قبولاً لدى القيادة العليا ، كما تبين من أقوال الأسرى الأتراك بعد ذلك ، فاستقال من منصبه واعطيت القيادة الى شوكت باشا . فأدت النتيجة الى ان تحصل عدة معارك بين بغداد واصطبلات . من دون ان يستفيد منها الأتراك المتقهقرون بشيء . وقد برهنت الحوادث على انهم كان بوسعهم ان يستفيدوا فوائد جلى بتراجعهم الى هذه الخطوط رأساً .

ومع هذا فقد كانت خطوط اصطبلات قوية فوق العادة . وكانت أول معركة جرت فيها معركة حامية الوطيس امتد فيها القتال على طول الخطوط . لكن الأتراك صمدوا في طوابي الدجيل بعناد وكأن بقاءهم في آسية كلهـا كان يتوقف على هذا الموقع . بينما كانت نقطة سكة الحديد معرضة للخطر . وهي أكثر أهمية من بغداد لهم من الناحية السَّتراتيجية .

وبعد ان احتلت أول مواضع اصطبلات في ٢١ نيسان زحف اللواء الثامن والعشرين البريطاني . وظل يناوش العدو ويتصل به . وفي ظهر اليوم التالي (٢٢ منه) وصل مقر هذا اللواء الى خرائب اصطبلات فكان بوسع الضباط فيه حينما أطلوا من المرتفعات أن يشاهدوا ساحة المعركة بأجمعها ، وسقف محطة القطار الكائن على بعد عدة أميال . والقبة الذهب القائمة فوق مشهد سامراء يشع بريقها في شمس منتصف النهار ، مع البرج الغريب (الملوية طبعاً) الذي كان يرتفع فوق جميع ما كان حوله . وكانت الأرض تنحدر تدريجياً نحو هذه العلامات الشاخصة ، التي لم يكن أي منها يقع في منطقة القتال ، حتى تصل الى سلسلة من التلول والآكام الممتدة من النهر

الى محطة القطار . وعلى هذه المرتفعات والروابي كان الأتراك قد اختاروا الصمود ، والقتال للدفاع عن سامراء .

لكن مدفعيتنا سرعان ما اصبحت تصل الى القسم الأعظم من مراكز القوة التركية المتخندقة بين النهر وسكة الحديد . غير ان الموضع كان ممتداً بحيث لم يمكن قصفه كله او مهاجمته من جميع نقاط الجبهة بالمدافع والمشاة المتيسرين لدينا . فتقرر بناء على ذلك القيام بالضغط على جناح الأتراك الأيسر ودفعه الى الوراء من جهة النهر ، بينما تتولى الخيالة بحركة التفاف من الجناح الأيمن تتقدمها بطارية من السيارات المصفحة الخفيفة ..

وقد تم الهجوم بهذه الخطة ، لكن المستر كاندلر يقول ان الأتراك صمدوا له وقاوموا حركة الالتفاف بشجاعة . على ان الذي اخافهم اكثر من أي شيء آخر . فجعلهم يتراجعون هو مدفعية الرتل الانكليزي الذي كان في الجانب الأيسر من النهر . فقد اوقعت بجناحهم ومؤخرتهم خسائر فادحة . وكان من نتيجة الهجوم ان حصل تقدم في جبهة النهر ، وعزز المتقدمون بقوات جديدة . ويقول كاندلر : ان الأتراك انسحبوا في تلك الليلة فتمادينا في تعقيبهم عند الفجر . واحتللنا محطة سامراء ، وعند ذاك تراجع العدو الى تكريت .

وكانت محطة القطار ، ومظلات البضائع ، والورش ، قد نهبت . وقد كنا نتوقع ان نجد القاطرات ، وعجلات السكك الحديد ، قد دمرت لكن الأتراك كانوا قد صمموا على الدفاع عن سامراء بكل ثمن على ما يبدو ، ولذلك لم يفسح لهم احجامهم عن الانسحاب المجال لإكمال عملية التخريب . وكان من بين غنائم الحرب عدد من قاطرات وعجلات الخط العريض ، التي كانت كلها قد تضررت . عدا بعضها الذي كان قد تم اصلاحه . وفي ظرف أيام معدودة استطعنا تسيير القطارات بين بغداد ونهاية السكة .

وأصبحت سامراء مقرنا الأمامي في الصيف . وقد بلغت درجة الحرارة فيها ١١٩ درجة فرنهايت في الظل ، لكن القوة « دي » تهيأ لها شيء من الراحة

بعد ان حققت أهدافها . فقد استطاعت في معارك نيسان ان تدحر الفيلـق التركي الثالث عشر ثلاث مرات ، والفيلق الثامن عشر خمس مرات . وهي تدفعه أمامها خلال ستين ميلاً . واستطاعت ارتالنا خلال الشهر . في كلا جانبي دجلة ان تأسر ثلاثة آلاف أسير ، وتغنم ستة عشر مدفعاً .

ثم يختم كاندلر فصل سامراء بقوله ان سامراء قد شهدت الكثير مـن عمليات صنع التاريخ خلال القرون ، وكنا نشعر بأنها يجب ان تصنع المزيد من هذا . إذ يرقد الامبراطور جوليان مدفوناً فيها . بعد أن خر صريعاً بقربها ، خلال تقهقره من طيسفون (المدائن) . ويمكن رؤية قبره من اسوار المدينة . وهو عبارة عن تل من التراب محاط بخندق (ربما يشير بهذا الى تل العليق) . يضاف الى ذلك ان هذا المكان من الأمكنة التاريخية أيضاً من جهة انه شهد نهاية الصولة الروحية على الأرض . فقد اختفى الامام الثاني عشر هنا في سرداب مبهم غامض من سراديب البلدة . وسوف يظهر من جديد على ما يقول الشيعة الذين ينظر الكثيرون منهم الى تلك البقعة من أجل هـذا الغرض . وجاء بعد ذلك الهوني — أي الألماني — فوضع يده الدنسة على سامراء : ووصمها بجعلها نقطةً أمامية لنفوذه المسيطر . وكذا جابهت القوتان احداهما الأخرى ، فترتب على النضال الجاري اليوم ان يقدر طريقة الحياة بعد الحرب ، وفلسفتها ، أو دينها .

سامراء بعد الاحتلال

وقد كان من الطبيعي ان يعقب احتلال البلاد إجراء شيء من التنظيمات المدنية لتمشية الأعمال الحكومية ، وتوجيهها نحو الإسهام في المجهود الحربي . وهناك عدة اشارات من هذا القبيل الى سامراء في كتاب [1] السر ارنولد ويلسن

---

(١) Wilson, Sir Arnold T — Loyalties, Mesopotamia, Vol II, 1917 - 1920.

وكيل الحاكم الملكي العام في العراق بعد تلك الفترة . فقد أشار في الص (١٧٠) الى ان المناطق المحتلة في العراق قد قسمت لأغراض ادارية الى ست عشرة وحدة ادارية [١] ، وكانت سامراء واحدة منها . اما الوحدات فهي : العمارة ، بغداد ، البصرة ، دير الزور ، الديوانية ، الدليم ، الحلة ، خانقين ، كركوك ، كوت العمارة ، الموصل ، المنتفك ، سامراء ، الشامية ، السليمانية . وكان ذلك قد تم في ١٩١٩ . وتقول المس بيل بهذه المناسبة كذلك في تقريرها الرسمي الذي رفع الى الحكومة البريطانية عن الوضع العام في العراق خلال سني الاحتلال البريطاني المنتهية ببداية عهد الانتداب في صيف ١٩٢٠ أن المجالس البلدية في كركوك والحلة والديوانية وسامراء والعمارة وديالى والرمادي قد شكلت في شتاء [٢] ١٩١٩ — ١٩٢٠ .

ويذكر ويلسن (الص ١٨٠) ان أعمال المسح كانت تجري تباعاً في هذه المناطق كذلك . فيقول ان المناطق المحتلة كلها الى حد الكوت والناصرية قد تم مسحها عندما كانت القوات البريطانية تحتل بغداد . ولذلك ترتب على المسؤولين ان يمدو أعمال المسح بعد احتلال المناطق التي خضعت لنفوذهم : ولا سيما من بغداد الى الحدود الأيرانية ، والى سامراء ، ومناطق الفرات . وتم مع هذا المسح رسم خرائط حربية جديدة بشيء غير يسير من التفصيل استعداداً لما قد يحدث من عودة القتال . ويشير ويلسن كذلك الى المقابر والأماكن التذكارية التي خلفتها الحملة البريطانية في العراق . فهو يقول (الص ٢٠٣) أن العراق اصبح فيه خمس عشرة مقبرة للأنكليز الذين أريقت

---

(١) يذكر الشيء نفسه المستر لونكريك في الص ١١٢ من كتابه الثاني :
Iraq 1900 - 1950 (London 1953).

(٢) Bell, Gertrude L. — Review of Civil Administration of Mesopotamia
وهو محتوى الكتاب الذي طبعه كاتب هذه السطور مترجما بالعربية بعنوان (فصول من تاريخ العراق القريب) بيروت ١٩٤٩ .

دماؤهم فيه ، وهي موزعة كالآتي : ثلاث مقابر في الموصل ، وأربع في بغداد ، وثلاث في البصرة ، واثنتان في العمارة ، واحدة في كل من سامراء والكوت .

ويذكر ريتشارد كوك بالأضافة الى ذلك (الص ٣١٢ من كتابه المشار اليه قبل هذا) ان بغداد اصبحت تخدمها ثلاث محطات للسكك الحديد : احداها في الكرخ وتعرف بمحطة غربي بغداد ، وهي نهاية الخط الوارد من البصرة وكربلاء ، ونهاية الخط الوارد من سامراء الذي أنشأه الألمان قبل الحرب . ومن المحطتين في الرصافة تقع محطة شمال بغداد خارج باب المعظم ؛ وهي نهاية الخطوط الواردة من خانقين وكركوك ، ومحطة شرقي بغداد في الشيخ . وللكاظمية محطة خاصة بها ، تقع على خط سامراء الألماني .

وقد ورد اسم سامراء في تقرير المس بيل المشار اليه ، في مناسبات عدة كذلك . وأول ما تذكر هذا الأسم بمناسبة حديثها عن العلماء والمدن المقدسة ، وتعلق الشيعة بها (الص ٦ من الترجمة العربية) . ويأتي بعد ذلك ذكر سامراء عندما تقول المس بيل ان الشيخ محمد علي كمونة اتصل بالانكليز من كربلاء في ايلول ١٩١٥ ، وتراسل مع السر پيرسي كوكس الذي كان ما يزال في الكوت بصحبة الحملة البريطانية قبل استيلائها على بغداد . وقد اقترح على الانكليز يومذاك بان يتعهدوا بتنصيبه حاكماً ووراثياً مستقلاً في ولاية مقدسة تمتد من سامراء الى النجف الأشرف (الص ٣٠) . ثم يرد اسم سامراء بمناسبة ذكر المس بيل لمنطقة الاحتلال البريطاني بعد الاستيلاء على بغداد ، فتقول ان تلك المنطقة كانت تمتد الى سامراء خلال الأشهر الستة الأولى من يوم الاحتلال .

لكن أهم ما تذكر به سامراء في هذه السنوات في كتاب[1] فيليب ويلارد

---

(١) Ireland, Philip Willard — Iraq, A Study in Political Development (London 1938).
وقد ترجمه كاتب هذه السطور ، ونشره في بيروت بدار الكشاف ١٩٤) .

آيرلاند (العراق — دراسة في تطوره السياسي) ، خلال البحث عن الثورة العراقية (١٩٢٠) ضد الأنكليز الغزاة . فهو يقول (الص ٢٠٨) : .. وكانت دلتاوة قد رضخت منذ مدة لنفوذ السيد محمد الصدر الذي جعلها مقراً له بعد ان حاولت الحكومة القاء القبض عليه في بغداد يوم ١٢ آب ، ومنها أخذ يشجع الثوار ولا سيما في سامراء . ويقول (في الص ٢١٠ من العربية) كذلك : .. ووقعت الثورة حوالي سامراء بجهود السيد محمد الصدر الذي كان يؤازره فيها أحد الشيوخ المتنفذين ، بالأضافة الى التأثير الذي أحدثته حوادث منطقة بعقوبة والى طبيعة القبائل القلقة . وقد استقى المستر آيرلاند تلك المعلومات من تقرير أحد الحكام السياسيين الذين اشتغلوا في منطقة سامراء يومذاك . وفي حاشية يوردها آيرلاند في اسفل الصفحة ٢٣١ من الترجمة العربية يذكر تعيين أحمد بك قائمقاماً في سامراء بتاريخ ٢١ كانون الأول ١٩٢٠ من قبل مجلس الوزراء .

ويشير الى امتداد ثورة العشرين الى سامراء المستر لونكريك أيضاً في كتابه الثاني المشار اليه (العراق ١٩٠٠ — ١٩٥٠ ، الص ١٢٥) . فهو يقول . وفي المنطقة المحيطة بسامراء أدت الدعاية المنبثة من المدن المقدسة الى ثورة القبائل في أواخر آب ١٩٢٠ ، لكن هجومها على البلدة لم يقترن بالنجاح

موظفو الانكليز في سامراء

هناك في الملحق الرابع من ملحقات كتاب [١] ارنولد ويلسن المشار اليه قبل هذا قائمة كبيرة بالموظفين الانكليز ، وغير الانكليز ، الذين أشغلوا وظائف في مختلف الدوائر على عهد الحكم البريطاني ، ومن جملتهم أناس اشتغلو في سامراء بطبيعة الحال . وقد وجدنا من المناسب ان نورد اسماءهم في الآتي :

---

(١) الص ٣٥٩ — ٣٩٠ .

فقد اشتغل في جيش «الشبانة» المرتزق الكابتن أيس وايت وقد عين بتاريخ ١٢ — ٣ — ١٩١٩ ، والكابتن آر گاربوت وقد عين في ١ — ١٢ — ١٩١٩ ، والكابتن أيل ماثيوز وقد عين في ٢٩ — ٥ — ١٩١٩ . واشتغل في صحة سامراء الدكتور جهان خان بصفة مساعد جراح من الدرجة الأولى وقد عين في ٤/١٢/١٩١٨ ، والدكتور جي كلوف الجراح المدني وقد عين في ٢٠/٣/١٩٢٢ ، واشتغل الكابتن سي پكتول اعتباراً من ١/٣/١٩١٩ معاون حاكم سياسي في سامراء ، واشتغل في شرطة سامراء الكابتن أي جونسون بصفة معاون مدير شرطة وقد عين في ٣/١١/١٩١٩ ، والكابتن تي فورنو بصفة معاون مدير شرطة وقد عين في ١٥/١١/١٩١٩ . واشتغل الميجر أيس موري ملحقاً سياسياً لرئيس الحكام السياسيين وقد عين في سامراء يوم ٢٨/٤/١٩١٧ ، واشتغل الميجر أي بري معاون حاكم سياسي في سامراء من ٢٩/٣/١٩١٨ الى ٧/٦/١٩١٨ ثم نقل الى بلد ، وعاد الى سامراء مرةً ثانية بصفة حاكم سياسي ابتداءً من ١/١١/١٩١٨ . واشتغل مظفر شاه خان بهادر وكيل معاون حاكم سياسي وقد عين بتاريخ ٢٢/١٢/١٩١٩ . واشتغل المستر جي جورجيوس ملحقاً سياسياً للحاكم السياسي وقد عين في سامراء يوم ١/٥/١٩١٩ . واشتغل محمود افندي رئيساً للبلدية من ٢٣/٧/١٩١٩ ، واشتغل عبد المجيد افندي مدير مال في سامراء اعتباراً من ١/١/١٩٢٠ . كما اشتغل وكيلاً لمعاون الحاكم السياسي السيد عمر درزا خان (خان صاحب) : وقد عين في ٢٥/٦/١٩٢٠ .

فرايا ستارك في سامراء

وممن زار سامراء من الغربيين المتأخرين وكتب عنها بعض الملاحظات الكاتبة الانكليزية التي كانت معروفة في العراق ، المس فرايا ستارك[1].

---

(١) Stark, Freya — Baghdad Sketches, Firet Edition 1937 (London)

فقد زارتها في الثلاثينات الأولى وكتبت فصلاً خاصاً عنها وعن تكريت في كتابها الموسوم (صور بغدادية) . فقد ذهبت الى سامراء وهي مدعوة عند أحد العراقيين مع امرأتين اخريين على ما تذكر . وهي تقول انهن سافرن لوحدهن لان الطريق أمين ، والأمور سائرة من ان يعكرها شيء . فسلكن الطريق الشمالي المار بالكاظمية ، وقابلهن الناس مقابلة ودية أينما كن يذهبن ، لا سيما وقد شعرن بالحرية لوحدهن فكن يقفن في المقاهي الصغيرة على الطريق ويأخذن التصاوير ويتحدثن الى الرعاة وغيرهم من الناس . وتتحدث عن الرعاة الذين كانوا يأتون من مسافات بعيدة لايصال الأغنام الى بغداد . وقد أوصاها جماعة من هؤلاء بزيارة تكريت ، والسؤال عن أحفاد رجل نصراني قديم من أهالي تكريت كان يدعى عبد السطيح . ومما يروى عن هذا الشخص انه دعي للاسلام ففضل ان يقفز بفرسه من أعلى الصخرة الى دجلة على ان يذعن لذلك .

ثم وصلت الى شريعة سامراء فانتظرت طويلاً حتى اتت العبّارة المحملة على شختور ، وعبرت بها الى الجانب الأيسر مع الحمير والسيارة وبعض الأعراب على حد قولها . وتقول عن سامراء انها أكثر المدن المقدسة الأربع عروبةً وأقلها صبغةً فارسية ، وانها محاطة بالأسوار في منطقة من الخرائب تقوم فوق جرف غير عال تبدو من تحته الأراضي النهرية المزروعة . فوجدتها بلدةً نظيفة مسالمة ، تحاط من جميع جوانبها بالبدو الذين يقصدونها على الدوام : وقد أضاعت شيئاً من شعور الكراهية للأجانب الذي تتميز به البلدان العراقية بسبب التقلبات التي مرت عليها . وتقول المس ستارك ان سامراء تمتعت بفترة قصيرة من الأزدهار والمجد تقل عن خمسين سنة ، وقد حكم فيها ثمانية خلفاء شيدوا عدداً من القصور الجميلة ، التي ينقب الآن عن زخارفها الجصية بالتدريج لتزيّن بها اجنحة المتحف العربي في بغداد . ولم نجد أناساً أوروپيين فيها ، وانما وجدت ثلاثة من المختصين بفن العمارة العراقيين يقومون بالتنقيب بكل حماسة على حسابهم هم أنفسهم ، وكانوا أناساً لطيفين . ثم تذكر المس

ستارك ان وجدت التنقيب في هذه الآثار المهمة مشاعاً يومذاك للجميع ، حيث يستطيع كل فرد يملك الوسائل اللازمة ان ينقب اينما يريد .

وتقول كذلك ان الأهالي في البلدة كانوا في حيرة من امرهم لان الحكومة كانت تعتز بالأمن والسكينة التي تسود البلد ، ولذلك كانت تنوي تهديم السور والاستفادة من آجره الإعتيادي لترميم الآثار العباسية . وهي تعتقد ان إزالة السور من شأنه ان يفقد البلدة كثيراً من جمالها وطابعها التاريخي ، وتناشد من يقرأ سطورها ان يمد يد المساعدة ليحول دون ذلك ان أمكن . ثم تعلق على هذا العمل وتقول انها تحب الخرائب كأماكن يجلس فيها المرء ويفكر في حياة الغابرين من الناس ، وان المرء يستطيع ان يفعل ذلك أحسن فيما لو لم ينقب فيها أحد . ولهذا ذهبت بالسيارة مع رفيقتيها الى الطرف الشمالي من سامراء ووقفت في فناء جامع أبي دلف الذي لم تصل اليه يد التنقيب ، وهناك شاهدت أساطينه المتكسرة وهي تجمع في مكانها الجسامة والعظم خلال العاصفة الترابية . وتأتي بعد ذلك على وصف الأطلال حتى تقول ان هذا المكان كان يعج في يوم من الأيام بصخب القادة الأتراك وتحكمهم بالخلفاء بحيث كانوا يقتلون خليفة بعد آخر ، وينشرون العنف والدسائس في كل شارع على الدوام . اما اليوم فتقوم في الوحدة المخيمة على هذا المكان أدغال القلغان ذات الرؤوس الزرقاء وكأنها صلبان ذات أذرع ممدودة ، بصفوف لا نهاية لها تمتد حول حافات التلول الأثرية . وتذهب في الخيال الى أبعد من ذلك فتقول : .. وفي خرائب الصحن الكبير مرق طائران من طيور الزرياب بأجنحة مراوغة لماعة ، من تحت الأعمدة المكتسية بلون الغبار ، الى السماء المغبرة ، فذكرتنا بأن الحياة الناعشة الزاخرة قد تنبثق من هذه المادة الداكنة في اي وقت كان

ومن المؤسف ان نرى ، مع جميع ما يبدو على المس ستارك من علم وسعة اطلاع وأفق ، انها تجهل تاريخ المكان الذي تقف فيه مثل هذه الوقفات المتفلسفة ، وتزعم ان الامام الثاني عشر الذي غاب في سامراء غيبته المعروفة يدعى « جعفر الصادق » . فهي تقول : ان خلفاء سامراء قد أضافوا خلال

سيرتهم المسرعة المؤلمة تعقيداً آخر الى تعقيدات الاسلام لأنهم هم الذين سببوا غيبة الامام الثاني عشر ، جعفر الصادق (؟) ، فأعطوا للشيعة بذلك ذريعة لا تثمن بثمن يستفيدون منها ، وهي وجود زعيم مختفٍ يمكن ان يتجسد في الوجود في أي لحظة .

وتتمادى في جهلها وغلطها فتقول : .. ان السجن الذي وجد فيه لآخر مرة قد أُدخل مع قبري الامامين العاشر والحادي عشر في مشهد واحد تعلوه قبتان ، فتكون أسواره الغفل بأبوابها الأربعة مركزاً للبلدة . ويمتد بين يدي المشهد شارع تصطف على جوانبــه تخوت المقهى . وفي شارع مغبر متعرج من الشوارع الجانبية ، يمر من ممر معقود سقفه بالآجر المنحوت ، أُنزلنا في بيت جهزه راجا پرپور في الهند لنزول الزوار . وهناك كان الشيخ سعيد بعباءته وعمته الخضراء ينتظر وصولنا ..

سامراء في حوادث ١٩٤٠

وحينما وقعت حوادث أيار ١٩٤٠ ، وهرب عبد الاله مع عدد من رجال ذلك العهد الى الأردن ، قرر الانكليز استخدام « الجيش العربي » الذي كان يقوده رجل الاستخبارات الانكليزي گلوب باشا لاعادتهم الى العراق بعد القضاء على الثورة الوطنية التي تزعمها الجيش العراقي ببغداد . فسار رتل من الجيش العربي ، مع ارتال الجيش البريطاني ، من الأردن نحو الحبانية التي كان يحاصر القاعدة الجوية البريطانية فيها الجيش العراقي الثائر . وبالنظر لكثرة الجيش الزاحف ، ووفرة معداته وحداثتها ، سقطت الحبانية بأيديهم ، وبدأ الجيش البريطاني بزحفه على بغداد بعد ذلك عن طريق الفلوجة ــ بغداد . ولأجل إشغال الجيش العراقي في عدة جبهات ، وبناءاً على ما ارتآه من محاصرة بغداد وقطع اتصالها بالموصل وغيرها فضلاً عن الحيلولة دون وصول الامدادات لها ، فقد كلف گلوب باشا وجيشه « العربي » بان يقطع الجزيرة الكائنة بين النهرين ويعبر الى شمال بغداد منها حتى يصل الى سكة

حديد بغداد – الموصل فيقطعها في جنوب سامراء ، بينما يستمر الجيش البريطاني الرئيس في زحفه على طريق الفلوجة ، فتم له ذلك ووصل گلوب وقوته الى محطة المشاهدة .

وقد ذكر هذه العملية بالتفصيل گلوب باشا في كتابه [١] (قصة الجيش العربي) . ومن جملة ما يقوله في هذا الشأن قوله : .. فتوجه الجيش العربي في صباح اليوم الثاني قبل الرتل الزاحف الى هدفه . ووقف الرتل وقفةً طويلة في منتصف الطريق للغداء فأضاع وقتاً غير يسير تكبد أشياء كثيرة بسببه في اليوم التالي . لكنني أخذت في الوقت نفسه بعض أفراد الجيش العربي وسرت لقطع السكة وخطوط التلفون في محطة المشاهدة قبل ان يصل الرتل المتأخر اليها . وكانت معنا مفرزة من النسّافة لكن الجنود لم يكن عندهم مع الأسف من المتفجرات ما يكفي لنسف الجسور ، فاقتصر عملنا على قطع الخط برفع القضبان الحديد لبعض المسافات . وقد أُطلقت علينا النار من رشاش في المحطة : وبينما كنا مشتبكين على هذه الشاكلة وصل الرتل الرئيس وعبر خط السكة ، ثم استدار الى الجنوب على طريق الموصل – بغداد الرئيس . وحينما انهينا عملنا وجدنا أنفسنا في مؤخرة الرتل بدلاً من ان نكون في مقدمته .

.. ويبدو ان حكومة رشيد عالي قد علمت بمحاولتنا الأولى لقطع سكة الحديد في جنوب سامراء يوم ٢٣ مايس . فقد وصلهم نبأ يشير الى ان ثلاثة من الانكليز كانوا يعبثون بالسكة خلال الليل . وكان هذا النبأ صحيحاً تمام الصحة لأننا كنا مع الرتل الانكليزي الزاحف موجودين في البادية على بعد ميلٍ واحد من طريق سامراء . وبعد يومين وصل الى الحكومة العراقية ايضاً نبأ المعركة الصغيرة التي وقعت بين دورية الجيش العراقي وسرية الضابط لاشي في خارج سامراء . وكانت لقطار الموصل أهمية بالغة بالنسبة لحكومة رشيد عالي ، ولذلك كانت تبدو شديدة الحساسية تجاه كل ما من شأنه ان يهددها

---

(١) Glubb, Gohn Bagot — Story of the Arab Legion (Londou 1952).

بشيء . فأوفد في صباح يوم ٢٨ مايس متصرف بغداد ــ جلال خالد ــ وزعيم في الجيش العراقي الى سامراء للتحقيق في هذه الهجمات الموجهة الى سكة الحديد ، واتخاذ الاجراءات الممكنة لمعالجتها . وبينما كانا في سامراء نفسها وصلنا نحن الى الطريق فحلنا بينهما وبين العاصمة ، وحينما كانا يسوقان عائدين في طريقهما الى بغداد وجدا نفسيهما فجأةً في مؤخرة رتلنا ..

نبذ متفرقة عن سامراء

لقد لاحظنا ان هناك نبذاً متفرقة عن سامراء وأحوالها ترد هنا وهناك في بعض الكتب الغربية الحديثة التي صدرت في السنوات الأخيرة . ومن جملة هذه الكتب كتاب المستر لونكريك الثاني [1] عن العراق . فهو يقول في معرض البحث عن سكان العراق وأقلياته في ١٩٠٠ : .. فاذا كانت هذه الأقليات الكردية واليزيدية والتركمانية تنحصر بالكلية تقريباً في ولاية الموصل ، فان الحالة تختلف بالنسبة للايرانيين المقيمين في العراق . فقد كان يندر وجود هؤلاء في البلاد العراقية الكائنة في شمال جبل حمرين ، وكان يقتصر وجودهم في العراق الجنوبي على بعض الأسر والعوائل . لكن تكاثفهم الأكبر كان في كربلا والكاظمية وسامراء والنجف ، اي في المدن المقدسة الأربع ، وفي بغداد[2] .

ويقول في مكان آخر : أن تدفق الزوار الايرانيين على النجف وكربلا والكاظمية وسامراء ، مع كونه كان يثير من سوء التفاهم المشترك ، فانه كان مشحوناً بالفرص التي تنتهزها الحكومات للتشدد في الضغط على الحريات ، والطلبات غير المعقولة ، بالنسبة لأجور السمات والحجر الصحي وما أشبه [3] .

---

(١) Longrigg, Stephen Hemsley – Iraq, 1900-1950. A Political, Social & Economic History (London 1953).

(٢) الص ١٠ من المرجع الأخير . (٣) الص ١٣ المرجع الأخير .

ويتحدث في مناسبة أخرى عما كانت عليه طبيعة المجتمع واحواله فيها تختلف باختلاف البيئة التي تحيط بها . فان كثيراً منها لم تكن لها صبغة معينة بل كانت عبارة عن محطات تقف فيها القوافل ، ومراكز للمنتجات الزراعية ، ومحطات وقود للبواخر النهرية ، أو مراكز للقطعات العسكرية . لكن غيرها كانت لها صبغة خاصة تقريباً . فقد كانت هيت مركزاً لصناعة القير ، وكانت كركوك وأربيل مركزين رئيسين للشؤون الكردية ، و « مشتلين » للأفندية الذين يتكلمون التركية ، بينما كانت خانقين نقطة للحدود الايرانية ... أما الكاظمية وسامراء فقد كانت تنحصر أهميتهما في كونهما مشهدين من المشاهد الشيعية المقدسة ومحجاً للزوار . وفي معرض البحث عن المجتمع العشائري في ١٩٠٠ ، يقول لونگريك ان بيئة القبيلة لم تكن تؤثر على اقتصادياتها حسب وإنما كانت تؤثر أيضاً على طريقة حياتها .. فان زراع الفاكهة والتبوغ في كردستان ، وزراع القمح والخضروات في سامراء كانوا يختلفون اختلافاً كافياً عن منتجي التمور في بعقوبة أو الشامية ، أو العاملين في مرزات البو محمد او الفتلة [١] .

ويذكر في معرض البحث عن انشاء سكة حديد بغداد ـ سامراء ان ما مايسنر باشا (الألماني) ، الذكي الفعال ، والمستشرق المثقف ، ظهر في بغداد خلال شهر تموز ١٩١١ وفتح مكتبة في بيت كاظم باشا الذي اصبح بعد ذلك مقراً للمندوب السامي البريطاني والسفارة البريطانية في الأخير . ثم اختير موقع محطة القطار المقبلة في الجانب الأيمن من دجلة ، وحفرت أول حفرة تراب للخط المزمع أنشاؤه من بغداد الى سامراء بحضور الوالي في تموز ١٩١٢ . ويتحدث لونگريك عن شؤون الري في بداية القرن كذلك ، فتطرق الى التوصيات التي قدمها مهندس الري البريطاني الأكبر السر ويليام ويلكوكس ، ومن جملتها التوصية بانشاء مشروع الثرثار بالقرب من سامراء وتوجيه مياه دجلة الفائضة الى منخفضة [٢] .

---

(١) الص ٢٠ و ٢٢ المرجع الأخير . (٢) الص ٦١ و ٦٣ .

وعند البحث عن معاهدة ١٩٢٠ يتطرق لونگريك الى معارضة الوطنيين لها ، والاستعانة بعلماء الدين في ذلك . فهو يقول : ان رئيس الوزراء قرر اجراء انتخابات عامة في البلاد لتقوية مركزه في الوزارة ، وللاطلاع على رأي الأمة في هذا الشأن ، ولو شكلياً على الأقل . فلم يكتف الحزب الوطني بمقاطعة الانتخابات ، وبالنشاط الذي بدا منه في مقالات الصحف ، والخطب والمناشير اليدوية ، بل لم يتردد في الاستعانة أيضاً بسلطة المجتهدين الشيعة في تحريم المعاهدة الجديدة . على أن هؤلاء كانوا قد عدلوا عن التدخل بالمرة ، الا في سامراء التي تدخلوا فيها جزئياً[١] .

ويشير لونگريك أيضاً الى أن استتباب الحالة في المناطق العشائرية قد أدى الى تفرغ الحكومة العراقية الى انجاز الكثير من الأعمال العمرانية والثقافية ، ومنها اجراء الحفريات في سامراء في حدود سنة ١٩٣٢ ، وغيرها من الأماكن الأثرية الأخرى . كما يشير الى الحفريات التي قامت بها دائرة الآثار القديمة في سامراء ، وجبل سنجار ، وواسط ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ .[٢]

وفي الكتاب[٣] الذي اشترك فيه المستر لونگريك مع المستر فرانك ستوكس : يشير المؤلفان كذلك الى أهمية سامراء الأثرية ووجود متحف خاص للآثار العربية فيها . وهناك مناسبات أخرى يرد فيها ذكر سامراء في هذا الكتاب أيضاً ، إذ يورد المؤلفان خلاصة تاريخية موجزة جداً عن تاريخ العباسيين في العراق ويشيران الى انتقال الخلافة من بغداد اليها على النحو المار ذكره قبل هذا . ويشيران كذلك الى انشاء سكة حديد بغداد ـــ سامراء من قبل الألمان قبيل الحرب العالمية الأولى[٤] .

وآخر ما وجدناه من المراجع الغربية التي تأتي على ذكر سامراءفي مناسبات

---

(١) الص ١٨٤ المرجع الأخير . (٢) الص ٢١٢ و ٢٨٤ المرجع الأخير .
(٣) Longrigg, Stephen H. & Stoakes, Frank — Iraq (London 1958).
(٤) الص ٦٢ و ٧٤ و ١٨٢ المرجع الأخير .

عدة كتاب أمريكي عن العراق ظهر في ١٩٥٨ من تأليف عدة كتاب باشراف جورج هاريس ، وأول ما يرد ذكر سامراء فيه هو الخلاصة التاريخية التي يذكر فيها أيضاً نقل العاصمة من بغداد الى سامراء بالنحو المعروف . ثم يبحث الكتاب في توزيع سكان العراق وشؤون النفوس فيه ، ويقول ان المنطقة التي يزداد تكاثف السكان فيها على دجلة تبدأ مما يقرب من سامراء ، وتسير مع النهر وفروعه ولا سيما الغراف والدجيلة . وحينما يتطرق الكتاب الى نوعية السكان ، ويبحث في أحوال العرب العشائريين منهم ، يقول ان هؤلاء العرب أكثرهم من الفلاحين الشيعة الذين لا يختلفون بشيء عن العرب الموجودين في خوزستان بايران ، ويزداد الارتباط بين هؤلاء بوجود المدن الشيعية المقدسة في العراق : النجف والكاظمين وكربلا وسامراء [١] .

ويبحث هذا الكتاب كذلك في النواحي العمرانية من العراق فيشير الى أعمال مجلس الأعمار السابق ، وما كان يفعله في كل سنة من تخصيص « اسبوع الأعمار » لبث الدعاية لمنجزاته . وأول اسبوع أقيم من هذا القبيل تم فيه افتتاح السدتين الكبيرتين في سامراء والرمادي . وعند البحث عن مشاريع الري الكبرى التي أنجزت في ذلك العهد يقول المؤلف ان أهم مشروع كبير أنشيء على دجلة لدرء خطر الفيضان عن بغداد وغيرها من البلاد الجنوبية هو « سدّة سامراء » التي تؤخذ المياه الزائدة من دجلة بواسطتها الى وادي الثرثار . ووادي الثرثار هذا عبارة عن منخفض طبيعي واسع الأرجاء يكون قعره في مستوى سطح البحر ، وتعلو ضفافه الى علو (٢٠٠) قدم . ثم يقول في تلك الأيام (١٩٥٨) ان المشروع الذي خصص له مبلغ عشرة ملايين دينار قد أنجز معظمه ، وبدء منذ ١٩٥٦ بتوجيه المياه اليه في مواسم الفيضان . وبذلك يدرأ الخطر عن بغداد وما في جنوبها غالباً ، ويُخزن مقدار كاف للزراعة الصيفية في المستقبل [٢] .

---

(١) Harris, George L — Iraq, its People its Society its Culture (New Haven 1958)

(٢) الص ١٩ و ٣٣ و ٣٨ و ٩٦ و ١٦٦ و ٢٠٨ من المرجع الأخير .

الفهرست

سامراء قديماً

سامراء في ظل الخلافة العباسية

سامراء في الشعر

هذه الموسوعة

على الرغم من انتشار الحضارة والثقافة التي دفعت بالكثير من العلماء والمحققين والباحثين في العصور الأخيرة الى احياء مختلف التراث الاسلامي والآثار العربية فيما بحثوا ، وحققوا ، وكتبوا ، فقد ظلت هنالك كنوز ذات قيمة كبرى في تاريخ العالم الانساني فضلاً عن تاريخ الاسلام والعرب .

لقد ظلت هذه الكنوز مطمورة في بطون الكتب المخطوطة والمطبوعة لم يمسها احد الا من بعض اطرافها، ولم يتطرق اليها باحث الا من بعض جوانبها ، وهي كنوز لم تقتصر على ناحية دون ناحية ، فهي تخص العلم ، والادب، والفن، والفلسفة ، بقدر ماتخص الفقه والتاريخ ، متمثلة كلها في تاريخ العتبات المقدسة :

مكة المكرمة ـ المدينة المنورة ـ القدس الشريف ـ النجف الاشرف ـ كربلاء ـ الكاظمين ـ مشهد الرضا ـ سامراء .. الخ

فلكل عتبة من هذه العتبات تاريخ ذو علاقة جد وثيقة بالثقافة والحضارة الاسلامية والعربية ، مما اختزنته من المخطوطات الاثرية ، والروائع الادبية، وما قامت به من المدارسة طوال العصور المظلمة ، اذ لولا هذه العتبات لما بقي اليوم بايدينا من تلك الكنوز الا النزر اليسير .

وهذا هو الذي دفع بطائفة من اهل الفضل واساتذة جامعة بغداد من ارباب الاختصاص الى ان تتضافر جهودهم في اخراج موسوعة تاريخية ـ علمية ـ اثرية ـ ادبية ـ عامة ، تتناول جميع العتبات المقدسة بالبحث المفصل الشامل منذ اول تمصير العتبة المقدسة حتى اليوم ـ على ان يكون لكل عتبة اجزاء خاصة ، وان يكون كل جزء منها مستقلاً بمواضيعه .

وهو اول عمل من نوعه ، واول مجهود خطير يقوم به مؤلفه ، ويكفي ان يستدل القارىء على خطورته مما يقع تحت عينيه من اجزائه .







